أحمد عبد الكريم

حصاد

سنين خصبة وثمار مرة

مسح: شهاب الدمشقي



بيسان

الغرض من هذه النسخة الإلكترونية هو توسيع دائرة انتشار الكتاب التي قد يحدُّ منها العامل المالي أو الرقابة الحكومية - مع إحترامنا لحقوق الناشر أو المؤلف - وعليه أرجو ممن يملك هذا الملف الإلكتروني شراء النسخة الورقية من الكتاب – إن أمكنه ذلك- دعماً للمؤلف والناشر ..

شهاب الدمشقي ..

أحمد عبد الكريم





* حصاد سنين خصبة وثمار مرة
* أحمد عبد الكريم

* طبعة أولى، تشرين الثاني ١٩٩٤
* بيسان للنشر والتوزيع
ص . ب : ٥٢٦١ ـ ١٣ ـ هاتف: ٣٥١٢٦٩

الاهــــداء

الى والدي ووالدتي

اللذين أدركـا معنى المـرحلة التي بدأت بالحـرب العالمية الثـانيـة ، فقـررا تحمل شظف العيش والحرمان ليوفرا الشـروط الضـروريـة لأبنائهما لاكمال دراستهم والتـسلح بالعلم والمعرفة ليعيشـوا العصـر المدهش الذي شهداه وبقيا على عتبته سعداء راضين بالتضحية بكل مالديهم من أجل أبنائهم .

تمهيد :

لم يكد العالم يودع الحرب العالمية الأولى مع بداية العشرينات، حتى لاح في الأفق في نهايتها شبح حرب عالمية ثانية أكثر اتساعاً وأشد ضراوة، تمتطي هذه المرة أفظع أزمة اقتصادية شهدتها البشرية منذ بداية القرن العشرين، وتبشر بنهاية مرحلة من الرخاء وانفجار أخطر أزمة للنظام الرأسمالي وتؤكد أن الرأسمالية الفظة والبرلمانية والمنافسة الهمجية عجزت عن مواجهة المشاكل والتطورات التي أفرزتها الحرب، ولم تستطع حل المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبدا أن المرحلة الجديدة تحتاج الى تدعيم سلطات الدولة المركزية والتخطيط وتلبية تطلعات الطبقة العاملة والشعوب المُسْتَعْمَرة، خاصة بعد انتصار ثورة اكتوبر في روسيا وقيام أول دولة اشتراكية في العالم، هي الاتحاد السوفيتي. وهكذا شهدت مرحلة مابين الحربين انتشار الأنظمة الشمولية في عدد كبير من بلدان العالم وخاصة في أوروبا التي عرفت النظام النازي في المانيا والنظام الفاشيتي في ايطاليا، والأنظمة الدكتاتورية الأخرى في البرتغال واسبانيا وهنغاريا وبولونيا وجميع دول البلقان.

أما الدول المنتصرة في الحرب (بريطانيا العظمى وفرنسا)، فقد ازدادت عتواً بنشوة النصر، وتنكرت للوعود التي قطعتها للشعوب المستعمرة وعادت الى

سابق عهدها كدول استعمارية ترفض أي تنازل لصالح الشعوب التي ساندتها خلال الحرب، وأصرت على الاستمرار في نهب ثرواتها والتنكر لمبادىء الحرية وحقوق الانسان، وسَخِرت بالمبادىء الانسانية التي اقترحها حليفها «وودرو ويلسون» رئيس الولايات المتحدة، وعملت على دفن «عصبة الأمم» في المهد.

كان من الطبيعي ان يتلقى العالم العربي نصيبه من هذه السياسة الاستعمارية، فقد اقتسمت الامبراطوريات الاستعمارية التركة العثمانية ونكثت بالوعود والمواثيق التي أعطتها للثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن علي، فأصدرت بريطانيا «وعد بلفور» الذي تعهدت فيه باقامة وطن لليهود في فلسطين، ووقعت مع فرنسا اتفاقية «سايكس بيكو» المشؤومة، التي ضمنت لفرنسا الانتداب على لبنان وسورية ونسبة محدودة من بترول «الموصل»، ونالت بريطانيا بموجبها حصة الأسد اذ استأثرت بالانتداب على فلسطين وامارة شرقي الأردن وبلاد مابين النهرين (العراق)، وضمنت احتواء الحركة العربية.

وقد أصبح الوطن العربي من الخليج الى المحيط خاضعاً لدول اوروبا الاستعمارية بريطانية العظمى (التي اختصت بمصر والسودان وبجزء من الصومال، بالاضافة الى المحميات في عدن وحضرموت وعمان، والخليج العربي والعراق، ووضعت يدها على الممرات البحرية الاستراتيجية المطلة على المحيط الأطلسي والمحيط الهادي ـ جبل طارق، قناة السويس، البحر الأحمر، ومضيق باب المندب، ومضيق هرمز، والخليج العربي ـ الفارسي . .)، وفرنسا (التي اختصت بلبنان وسورية بالاضافة الى المملكة المغربية والجزائر وتونس وموريتانيا وجزر القمر)، وايطاليا (التي احتفظت بليبيا وبجزء من الصومال)، واسبانيا (التي استولت على الصحراء الغربية والطرف الافريقي الذي يحرس مضيق جبال طارق).

لم يبق من الوطن العربي خارج الاحتلال الاوروبي المباشر سوى اليمن الشمالي بزعامة الامام يحيى، والمملكة العربية السعودية التي استولت على منطقة الاحساء (١٩١٣ ـ ١٩١٥) بعد تحريرها من الأتراك، بقيادة الأمير عبد العزيز سلطان نجد، وفي عام ١٩١٨ ـ ١١١٩ سحقت قوات الشريف حسين

في مكـة، وأكملت الاستيلاء على الحجاز، في عام ١٩٢٥، وفي عام ١٩٣٢ وبعد اعتراف جميع الدول الكبرى بالدولة السعودية، أعلن رسمياً عن انشاء المملكة العربية السعودية «بزعامة الملك عبد العزيز آل سعود» وفي عام ١٩٣٤ احتلت السعودية منطقة نجران بعد انتصارها على القوات اليمنية ووقعت مع اليمن معاهدة صلح وصداقة تعتبر بحق بداية التوجه نحو التضامن العربي ووضع نهاية للحرب بينهما، وقد ساهم السيد شكري القوتلي رئيس الكتلة الوطنية في سورية، بالمصالحة بين هاتين الدولتين العربيتين.

شهدت فرنسا سلسلة من الثورات المتتالية في سورية (١٩١٩ - ١٩٢٢) و(١٩٢٥ - ١٩٢٧) ولم يستتب الأمن تماماً لها في هذه المنطقة حتى اضطرت للاعتراف باستقلال سورية ولبنان في عام ١٩٤٣ وقد عانى الشعب السوري منذ دخولها عام ١٩٢٠ بقيادة الجنرال غورو أفظع ألوان الهمجية الاستعمارية على يد قوات الاحتلال الفرنسية ومحاولتها اخماد الثورات والانتفاضات المتعددة التي عمت أنحاء البلاد. وفي عام ١٩٣٦ تولت الجبهة الوطنية الحكم في فرنسا واضطرت للاعتراف بحق الشعب السوري بالاستقلال ودخلت بالتفاوض مع الحركة الوطنية السورية وتم الاتفاق بين الطرفين على مشروع معاهدة الاستقلال ومالبثت فرنسا ان تراجعت عن موقفها بعد عودة اليمين الفرنسي للحكم عام ١٩٣٨، في هذا العام بدأ شبح الحرب يخيم على أوروبا وأخذ الحلفاء يتأهبون لمجابهة الخطر الألماني ويعقدون التحالفات لاحتوائه وقد دفعت سورية ثمن احدى الصفقات التي عقدتها بريطانيا وفرنسا مع تركيا بزعامة أتاتورك آنذاك فقدمتا لها لواء اسكندرونة ثمناً لبقائها على الحياد[1].

وجابهت فرنسا في المغرب العديد من الانتفاضات ومن أهمها ثورة القاضي المغربي عبد الكريم الخطابي التي رددت صدى نضال الشعب السوري فأعلن الجهاد المقدس ضد اسبانيا وفرنسا، وكبد الاسبان هزيمة منكرة في «انوال» وتابع الخطابي انتصاراته في «الريف» وهدد مدينتي «فاس» و«تازا» في عام ١٩٢٥ مما اضطر الدولتين الاستعماريتين للتحالف وشن حملة مشتركة ضده بقيادة المارشال بيتان، انتهت باستسلامه وأعقب ذلك اخماد

الثورة في أيار ١٩٢٦ وتعزيز الاستعمار الفرنسي للمغرب وتونس ومتابعة مشروع الفرنسة للجزائر وغرس التبعية والطائفية في لبنان وسورية .

وفي مصر اشتدت وطأة الاحتلال البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى نظراً لأهميتها الاستراتيجية فأعلنت الأحكام العرفية وأوكلت مهمة الأمن للقوات البريطانية ، ولكن الحركة الوطنية تابعت نضالها وازدادت قوة بقيادة حزب الوفد وزعيمه «سعد زغلول» . ولكن الحكومة البريطانية لم تستجب لمطالب الشعب المصري ، كما لم تجد أي تأييد من الدول الحليفة حتى أن الرئيس ويلسون نفسه برر الوصاية البريطانية على مصر باسم الحضارة .

وعندما يئست الحركة الوطنية من امكانية الوصول الى أية نتيجة من النضال السلمي ، بادرت لتصعيد كفاحها ضد المحتلين الانكليز ، وتحول وادي النيل في الفترة بين ١٩١٩ - ١٩٢٢ الى ساحة للمعارك والاضطرابات المختلفة (الاضطرابات ، الانتفاضات الدموية ، عمليات التخريب والاغتيالات ضد رجال السلطة والعملاء) ، وبالمقابل استقى البريطانيون قانون الطوارىء واستخدموا كافة أنواع القمع والاضطهاد ، ولكنهم اضطروا حيال صمود الشعب المصري للاعتراف باستقلال مصر في ٢٨ / شباط / ١٩٢٢ ، غير ان الاحتلال البريطاني لمصر لم ينته إلا بعد ثورة يوليو وتوقيع المعاهدة التي نصت على الانسحاب من قناة السويس في عام ١٩٥٤ .

أصبح الشرق الأوسط بكامله بالاضافة الى ايران والساحل الغربي للبحر الأحمر في قبضة بريطانيا العظمى ، ومكنها ذلك من السيطرة المطلقة على قناة السويس وباب المندب ومضيق هرمز والتحكم بالطرق البحرية التي تصل أوروبا بآسيا وشواطىء افريقيا الشرقية ، وأقامت القواعد العسكرية التي تمكنها من الدفاع عن هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة ، وأخذت تنفذ ماتعهدت به للصهيونية بموجب «وعد بلفور» .

واستطاعت ايطاليا تثبيت أقدامها في ليبيا والصومال ثم مالبثت في عام ١٩٣٦ ان احتلت اثيوبيا ، وأصبح بمقدورها منافسة بريطانيا وفرنسا في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .

وفي تركيا استولى كمال أتاتورك على السلطة، فألغى السلطنة العثمانية وأقام نظاماً دكتاتورياً مطلقاً في آسيا الصغرى، ونال اعتراف الدول الأوروبية بموجب معاهدة لوزان. ادى نجاح أتاتورك الى تأكيد فكرة الاستقلال وشجع الحركات القومية في المنطقة.

وفي ايران قام قائد الجيش «بهلوي» بانقلاب عسكري، فخلع الشاه «كاجار» ونصب نفسه امبراطوراً مطلق الصلاحية في ١٩٢٥/٥/٣١ مسترشداً بدكتاتورية اتاتورك المتنورة.

هامش التمهيد

(١): في عام ١٩٧٥ التقيت بالسيد ماسيفلي سفير فرنسا السابق في أنقرة عام ١٩٣٨ وأمين عام وزارة الخارجية الفرنسية وأحد شخصيات فرنسا الحرة. وبعد التعارف، قال لي أنه يشعر بشيء من تبكيت الضمير حيال الشعب السوري لانه عاصر فترة سلخ لواء اسكندرونة وتواطؤ الحلفاء وأكد انه عارض ذلك ولكنه رضخ بعد ضغوط حكومة باريس بسبب سياستها الدفاعية آنذاك. ثم قال لي هل لك أن تسامحني على هذا الموقف...؟ أجبته:

إنني سعيد بالتعرف عليه والاستماع الى رأيه الحر، واني أقدر هذا الموقف النبيل منه ولوبعد فوات الأوان، ولكني بكل أسفلا أملك حق المغفرة عن خطيئة ارتكبها الحلفاء بحق الشعب السوري رغم تقديري لشهادته التي اعتبرها تأكيد لحقوقنا المشروعة في هذا الجزء العزيز من وطننا وكان هذا الحديث بحضور السيد ادغارفور رئيس الوزراء الفرنسي.

مقــدمــة

شغفت منـذ أيـام الـدراسـة الثانـويـة بقراءة المجلات المصرية كالهلال والمقتطف والـرسـالـة والمصور وغيرها بالاضافة الى الصحف والمجلات المحلية وكنت بين حين وآخر أسجل في مفكرتي أو على هامش دفاتري بعض الأحداث الهامة التي تقع في القرية أو في العاصمة حيث باشرت دراستي الثانوية مع بداية الحرب العـالميـة الثـانيـة، وكثيراً ماكنت أعلق على هذه الأحـداث في حدود مايسمـح به فهمي لها وادراكي لما وراءهـا ومـايترتب عليها، والحقيقة انني غالباً ماكنت استغرب تلك السـذاجـة التي تتسـم بها تعليقـاتي عندما أعود اليها بعد حين، فأصـاب بنـوع من خيبـة الأمـل، وتمر أيام دون أن أجرؤ على وضع أي تعليق ثم ماتلبث ان تتشبث بي الرغبة من جديد لتسجيل واقعة معينة وأجرب حظي بالتعليق عليها وكم كانت تهزني النشوة عندما ألاحظ أحياناً انني اقتربت من التحليل الموضوعي والاستنتاج السليم. كان ذلك بالنسبة لي بمثابة رياضة ذهنيـة نمت لدي الرغبة والهواية لمطالعة الكتب وقراءة الصحف والمجلات منذ أيـام الـدراسـة الثانوية واعترف ان من بين الأسـباب الحقيقية التي كانت تدفعني لهذه الهـوايـة هو السـعي لنيـل حظوة واحترام المسنين في القرية الذين لم يعتادوا الاستماع لرأي من هو أصغر منهم سناً فكيف يمكن أن يصغوا لمراهق في سن

الثانية عشر أو الرابعة عشر، غير أن أحداث الحرب العالمية الثانية وحرصهم على فهم مايجري في هذا العالم، هي التي اضطرتهم لتوجيه بعض الأسئلة لي ولزملائي القلائل من تلامذة قريتنا الذين يتابعون دراستهم الثانوية في العاصمة لعلهم يفهمون ماتُخبئه لهم هذه الحرب.

وتمر الأيام ويشتد سعير الحرب في أوروبا وفجأة تسقط فرنسا المحتلة لبلدنا لقمة سائغة رخيصة بين يدي «هتلر» وتنهار مع هذا الحدث التاريخي أسطورة الجيش الفرنسي الذي عانى الشعب السوري من اضطهاده وبطشه خلال عشرين عاماً في فترة مابين الحربين. وهكذا تنبه الرأي العام لأهمية الحرب وأيقنوا أن مصيرهم مرتبط بها الى حد بعيد وتحول كل الشعب السوري بما فيه أبناء الريف شيباً وشباباً الى هواة سياسة وأصبح شاغلهم الأول بعد أعمالهم الزراعية تَتَبُّع أخبار الحرب، والتعرف يومياً على سير المعارك وأصبح الجيش الألماني بالنسبة لهم الأمل الذي سيزيح عن كاهلهم نير الاستعمار الفرنسي والبريطاني ويبعد عنهم الخطر الصهيوني المتربص، ويرددون المثل القائل «عدو عدوي صديقي».

وأذكر أيضاً ان نساء القرية وغالبيتهن العظمى من الأميات كن يتناقلن أخبار الحرب ويتناقشن حولها خلال اجتماعاتهن حول آبار القرية، وكان بعضهن يظن أن «هتلر» مسلم، وانه يتقم من الفرنسيين،

وهكذا أصبح تسجيلي لأحداث الحرب في أغلب الأحيان يهدف الى جمع أكبر مايمكن من الوقائع لكي أعيد سردها على أبناء قريتي عندما تتاح لي الفرصة للذهاب الى القرية في أيام العطل والأعياد وأحياناً المظاهرات والتعطيل القسري والتعسفي من قبل سلطات الاحتلال.

واعتقد ان ماحدث لي ولأمثالي من أبناء الريف والمدن الصغرى خاصة، حدث مثله أو قريباً منه بالنسبة لجميع أبناء جيلنا والجيل المتقدم، ذلك ان اهتمام الغالبية العظمى من السوريين كان منصباً على النضال من أجل الاستقلال والتحرر النهائي من الاستعمار الأجنبي. أما مصير الحلفاء في الحرب ومسألة الأنظمة الديمقراطية في العالم فهما من الأمور التي لم تكن في الواقع تأخذ المقام

الأول بين اهتمامات المواطنين المعذبين ولاتدخل ضمن مسؤولياتهم الأخلاقية وبخاصة ان الدول المسماة بالديمقراطية كانت نفسها الدول الاستعمارية ولايعرفون عن المحور (ألمانيا الهتلرية - وايطاليا واليابان) سوى أنهم يقفون في الخندق الآخر بمواجهة بريطانيا العظمى وفرنسا. ولهذا فإن اهتمام الرأي العام بأخبار الحرب وتعاطفهم الظاهر مع «ألمانيا الهتلرية» لم يكن له خلفية أيديولوجية أو أية علاقة عضوية أخرى سوى الحقد على المستعمرين ومعاداة الصهيونية الطامعة بالأرض والأمل في ان تضعف الحرب الامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية التي تتقاسم الوطن العربي من الخليج الى المحيط منذ القرن التاسع عشر وتدعم الحركة الصهيونية وتمهد لقيام اسرائيل وكان الأمل الذي يتطلعون اليه هو تدعيم الحركة التحررية وتوفير الظروف الملائمة للاستقلال.

وهكذا ومع استمرار الحرب اشتدت الحركة الوطنية في سورية وتصاعد اهتمام الشباب وتلامذة المدارس بالسياسة والتحمت نشاطاتهم مع القوى الوطنية وأصبحت الثانويات والجامعة في العاصمة وكذلك في بقية المدن والريف في عداد بؤر المقاومة الرئيسية للاستعمار الفرنسي بل لقد تحولت الثانويات في دمشق وحلب وحمص وحماة وغيرها من المدن الكبرى قلاعاً أمامية للنضال وشكلت شوكة في حلق المستعمر استعصت عليه وصقلت في الكفاح أجيالاً كان لها ولايزال دورها الهام في تطور سورية وتطور الحركة العربية القومية على طول الوطن العربي.

في هذا الجو المفعم بالحماس والروح النضالية والمثل الوطنية الصافية انصهرت وتكرست الوحدة الوطنية وأصبحت المدارس والشوارع والحقول والمعامل في سورية طوال سنوات الحرب يداً واحدة ومرجلاً يغلي بالحقد على المستعمر ويدفع الكفاح نحو الاستقلال، الأمر الذي اضطر فرنسا الحرة على لسان الجنرال شارل ديغول للاعتراف بحق الشعب العربي السوري في تقرير مصيره وتشكيل حكومة وطنية منذ بداية عام ١٩٤١.

وفي عام ١٩٤٣ أجريت انتخابات تشريعية في البلاد وتم اختيار السيد

شكري القوتلي رئيساً للجمهورية باعتباره زعيماً للكتلة الوطنية التي تستقطب الأغلبية الساحقة في المجلس النيابي وأصبح من حق الحكومة الوطنية تحمل مسؤولية الأمن الداخلي وادارة شؤون البلاد الخارجية باستثناء الدفاع.

وفي هذه الفترة طرحت مصر بتشجيع من انكلترا فكرة انشاء الجامعة العربية فكانت سورية في مقدمة الدول العربية التي ساهمت في تأسيسها وأكدت بهذه المناسبة ان سورية ستبقى جزءاً من الأمة العربية ولن يرتفع فوق أرضها سوى علم الوحدة العربية وانها على استعداد دائماً للتنازل عن استقلاليتها للانضمام الى أية دولة عربية تريد اقامة وحدة عربية حقيقية[1].

وعندما وضعت الحرب الثانية أوزارها في عام ١٩٤٥ عاد التوتر من جديد الى المنطقة ويبدو ان الحلفاء وخاصة فرنسا وبريطانيا أرادوا تكرار لعبة الحرب العالمية الأولى وأحيوا اتفاقية سايكس بيكو السيئة الذكر وتراجعوا عن الوعود التي قطعوها على أنفسهم حيال الشعب العربي أثناء الحرب ولكن التاريخ والحقائق الدولية الموضوعية لم تكن الى جانبهم هذه المرة، وبخاصة ان الشعوب في الأقطار العربية بلغت مستوى من الوعي لم يعد من الممكن اخضاعها بالقوة وأظهرت بكل وضوح تصميمها على التحرر، كما ان توازن القوى العالمي القديم الذي انهار خلال الحرب بعد هزيمة فرنسا وانحسار الامبراطورية البريطانية ودخول الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الحرب وتحملها العبء الأساسي بالتصدي لدول المحور وايقاع الهزيمة بألمانيا الهتلرية واليابان لم يعد يتلاءم مع هذا المنطق. كما لم تجد المحاولات المكيافيلية التي لجأت اليها الحكومة البريطانية للحلول محل فرنسا في سورية ولبنان واضطرت هي الأخرى تحت زخم الحركة الشعبية والخطر السوفييتي للجلاء في نفس الوقت الذي جلت فيه القوات الفرنسية عن سورية في ١٧/ نيسان/ ١٩٤٦ وأصبحت بذلك الجمهورية العربية السورية دولة مستقلة كاملة السيادة على أرضها. في هذه الفترة بالذات أنهيت شخصياً دراستي الثانوية. وفي جو الحماس الذي ساد البلاد بمناسبة الاستقلال وصدور القرار الحكومي بتشكيل الجيش الوطني. انتسبت الى الكلية الحربية الوطنية في حمص، وكان لهذا الاختيار أثره الحاسم على

مجرى حياتي الخاصة والعامة، ومنذ ذلك الوقت أحسست أن ظروفاً جديدة فتحت أمامي لخدمة وطني والقيام بدور متواضع في الحياة العامة في بلدي، إلا أنه لم يكن يدور في خلدي آنذاك ان هذا الدور سيصل الى الحد الذي وصل اليه عندما أصبحت أحد الضباط القادة الذين يرسمون سياسة القوات المسلحة في الفترة بين ١٩٥٣ و١٩٥٨ ويؤثرون الى حد كبير في القرارات السياسية العامة ويساهمون مساهمة حاسمة في قيام أول وحدة عربية كما لم أكن أتصور أو أطمح بأن أكون وزيراً، وأؤكد أنه لم تراودني في يوم ما فكرة التجاوز على السلطة الشرعية وكنت دائماً أفضل العمل الدؤوب والحوار والتشاور للوصول الى الحل الوسط. ومنذ عام ١٩٥٤ أصبحت لدي القناعة الكاملة بعدم جدوى الدكتاتوريات العسكرية مهما كانت كفاءاتها ونزاهتها وآمنت بأن الانقلابات لاتعود بالفائدة على البلد والشعب ولايمكن ان تفيد القوى التقدمية، وان الديمقراطية هي السبيل الأفضل للتطور مهما كان هذا التطور بطيئاً وان انفراد فرد أو حزب أو فئة دون غيرها في الحكم ليس سوى صورة مضللة للحكم الاستبدادي المطلق. وأذكر انني كنت أدافع بين زملائي من الضباط القادة الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ سورية الحديث عن هذه الفكرة ولاأريد التبرير هنا أو الدفاع عن نفسي أو عن أحد زملائي كما لاأوجه الاتهام لشخص معين اذ أبادر فأقول أن الغالبية من هؤلاء الضباط كانوا بعد عام ١٩٥٥ يرفضون الحكم العسكري المباشر ولكنهم يميلون الى تأييد القوى السياسية التقدمية وينادون بتدعيم الوحدة الوطنية ويؤمنون بالوحدة العربية والعدالة الاجتماعية (ولاأقول الاشتراكية) وسوف آتي فيها بعد على ذكر هذه المواقف في مكانها. كما انهم لم يكونوا يؤمنون بالتبعية لأية دولة كبرى مهما كان نظامها وموقفها من قضايانا العادلة. وعندما أكدت الأحداث في الأربعينيات والخمسينيات انحياز البلدان الغربية والولايات المتحدة للتوسعية الصهيونية لم يذهب بهم هذا الموقف الى حد الدخول في اطار النفوذ السوفيتي وانما لم تَعُدْ لديهم القناعة في وضع الغرب والشرق على مستوى واحد. ولعل هذا الموقف الوطني هو الذي حدا بهم الى تأييد سياسة «عدم الانحياز» التي أصبحت أحد

التاريخ .

الوضع الدولي بين الحربين العالميتين :

بعد أربع سنوات من الحرب الطاحنة ، لم يتمكن أي من الطرفين المتحاربين في القارة الأوروبية الحصول على النصر الحاسم واذا بهذه الحرب تأخذ طابعاً كونياً خطيراً ، بدأ باعلان ألمانيا حرب الغواصات لعزل انكلترا وقطع طرق تموينها مع القارة الأمريكية وآسيا وافريقيا . ثم تفاقمت الأوضاع برفض الوساطة الأمريكية ثم اعلانها الحرب ضد ألمانيا والنمسا في ٦ /نيسان/ ١٩١٧ ، وهكذا أخذت الحرب أبعاداً لم تعرفها البشرية في تاريخها السابق ، وظهر منذ تلك اللحظة ان كفة الحلفاء أخذت بالرجحان على الرغم من انتصارات الألمان في الجبهة الشرقية .

وفجأة أخذت الأوضاع في روسيا القيصرية بالتدهور ، مما اضطر القيصر للتخلي عن العرش في آذار/ ١٩١٧ نتيجة الثورة البرجوازية بزعامة الاشتراكي «كيرنسكي» ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد من التدهور فقد انهارت الجبهة الروسية وظهر التمرد في صفوف القوات المسلحة ، وامتدت الثورة لتشمل العمال في المصانع والبحارة ، ولم يعد في مقدور الحكومة المركزية السيطرة عليها ، في هذه المرحلة أخذ البلاشفة المبادرة بقيادة لينين وتروتسكي وستالين واستولوا على السلطة وأعلنوا قيام النظام الاشتراكي والسلام العالمي في ٧/ تشرين أول/ ١٩١٧ .

وهكذا في الوقت الذي خرجت فيه الولايات المتحدة عن عزلتها وظهرت على المسرح الدولي باعلان الحرب الى جانب الحلفاء اذا بالثورة الشيوعية تزلزل القارة الأوروبية وتهدد أنظمتها ، ويصل صداها الى كل بقاع الأرض وتصبح مناراً تهتدي به جميع الشعوب المستعمرة في القارات الثلاث ، ومرجعاً للحركات السياسية الاشتراكية في العالم أجمع .

وفي عام ١٩٢٢، وعلى أثر انتصار الجيش الأحمر على القوى المعادية للثورة، أعلن عن قيام اتحاد الجمهوريات السوفييتية، وبعد وفاة لينين ١٩٢٤، بدأ الصراع على السلطة بين تروتسكي وستالين واستمر سنوات الى ان انتهى بنفي الأول خارج البلاد عام ١٩٢٩، واغتياله في عام ١٩٤٠ في المكسيك.

وفي عام ١٩٢٨ بدأ تنفيذ أول خطة خمسية وتلاها في عام ١٩٣٣ و١٩٣٨ الخطتان الخمستان الثانية والثالثة، وتم خلالها نزع ملكية الأراضي وانشاء الجمعيات التعاونية (الكولخوز والسوفخوز)، وأنشئت الصناعات الثقيلة، وأقر التعليم الاجباري للجميع، وأخيراً تم تكريس زعامة ستالين المطلقة، وأزيلت من الوجود الشخصيات المعارضة.

أما الولايات المتحدة: فقد عادت الى عزلتها بانتهاء الحرب، ولم توقع على معاهدة فرساي، بعد ان خابت آمال الرئيس وودرو ويلسون في وضع أسس ثابتة للسلام الدولي، وبقيت أمريكا على تمسكها بالعزلة والحياد في الشؤون الدولية الى ان بدأ الغزو الياباني للصين. في هذه الفترة شهدت الولايات المتحدة فترة ازدهار وهدوء جذب اليها الجزء الأعظم من احتياطي ذهب العالم وأصبحت تتبوأ المركز المالي والمصرفي الأول في العالم بعد ان كان هذا المركز محتكراً لمدينة المال في لندن (السيتي) طول عدة قرون.

وفي أمريكا اللاتينية انتشرت الأنظمة العسكرية الدكتاتورية في ظل «مبدأ مونرو» الذي يحرم على أية دولة أجنبية التدخل في شؤون هذا الجزء من القارة.

لم تكد القارة الأوروبية تقف على قدميها بعد الحرب حتى عاجلتها الأزمة الاقتصادية العالمية الرهيبة في بداية عام ١٩٢٩ التي قضت على كل الآمال بالسلام، وفتحت الطريق للحرب العالمية الثانية، وعززت تيارات التحول الى الأنظمة الدكتاتورية الشمولية في القارة الأوروبية وفي معظم بلدان العالم.

ففي عام ١٩٢٣ أصبح كمال أتاتورك رئيساً للجمهورية ودكتاتوراً مطلقاً وألغى الخلافة في عام ١٩٢٤، ووجه تركيا الى أوروبا وأدار ظهره للاسلام والعرب.

في عام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ : أقام الجنرال بريمو دوريفيرا نظاماً دكتاتورياً عسكرياً في اسبانيا، واضطر للاستقالة في عام ١٩٣٠ . وفي عام ١٩٣٦، نشبت الحرب الأهلية الاسبانية، التي انتهت بانتصار الجنرال فرانكو ضد الجمهوريين، فأقام دكتاتورية استمرت حتى وفاته في عام ١٩٧٥ .

وفي عام ١٩٢٦ أقيم النظام الدكتاتوري في بولونيا بزعامة بيلسودسكي على اثر ثورة عسكرية .

وفي نفس العام تولى السلطة الجنرال كارمونا في البرتغال ثم تقاسم الحكم مع وزير ماليه «سالازار» الذي أصبح رئيساً للوزراء في عام ١٩٣٢، ثم دكتاتوراً مطلقاً في عام ١٩٣٣ . وبقي في السلطة حتى «ثورة القرنفل» عام ١٩٧٤ التي أنهت نظام الحزب الواحد وأقامت النظام البرلماني التعددي في البرتغال وفي عام ١٩٣٠ تولى السلطة في البرازيل جوتيلو فارغاس، وأقام نظاماً دكتاتورياً، واستمر في الحكم الى ان انتحر في عام ١٩٥٤ .

وفي عام ١٩٢٧ أقام الجنرال تشان كاي تشيك النظام الدكتاتوري في الصين .

الأزمة الاقتصادية والسياسية العالمية :

ومع بداية عام ١٩٢٩ واجه العالم أزمة اقتصادية خطيرة، أدت الى تدهور العلاقات الدولية ترجع أسبابها للافراط بالانتاج في البلدان الصناعية، وهجرة رؤوس الأموال والمضاربات المالية المتوحشة .

أدى ذلك الى ارتفاع عدد العاطلين عن العمل، وزيادة الضرائب، والتضخم النقدي وعجز الحكومات عن معالجة المشاكل المتراكمة .

ففي تشرين أول ١٩٢٩ ضربت الأزمة البورصة في «وول ستريت» وبلغ عدد العاطلين عن العمل في عام ١٩٣٣ حوالي (١٥) مليون شخص وارتفعت نسبة الاضطرابات الاجتماعية (الجمعيات العنصرية السرية ـ كو ـ كلوكس ـ كلان، والعصابات والسرقة والنهب والقتل . . الخ) . . في هذا العام انتخب الرئيس فرانكلان روزفلت للرئاسة، فبادر للاعلان عن برنامجه الاصلاحي

(نيوديل) واعترف بالاتحاد السوفييتي، وأنهى الحرب في أمريكا اللاتينية، كما اعترف باستقلال الفلبين.

وفي المانيا أدى التدهور الاقتصادي الى تفاقم الوضع الداخلي، وأصبح عدد العاطلين عن العمل ستة ملايين في بداية عام ١٩٣٣، مما هيأ الجو لظهور الحزب النازي وحصوله على ١٠٧ مقاعد في البرلمان (الرايختاغ).

وفي بداية عام ١٩٣٣ اضطر الرئيس هتدنبرغ لتسمية ادولف هتلر - زعيم الحزب النازي - مستشاراً للرايخ، وفي نفس العام تولى هتلر كامل السلطة وعدل دستور الدولة وأقام دكتاتورية الحزب القومي الاشتراكي وحل جميع الأحزاب، وفي تشرين أول من نفس العام، انسحبت المانيا من عصبة الأمم واتجهت نحو اعادة تسليح الجيش والغاء معاهدة فرساي، وبدأ هتلر الاعداد للثأر من هزيمة عام ١٩١٨.

وفي الاتحاد السوفييتي: استقرت السلطة المطلقة بيد جوزيف ستالين بعد طرد تروتسكي من المكتب السياسي وتجريده من جميع مناصبه ونفاه في عام ١٩٢٧ الى منغوليا، ثم طرده نهائياً من البلاد، وأخذ يطبق الاشتراكية على طريقته الفردية الخاصة، فأغرق البلاد في بحر من الدماء، ذهب ضحيته مايزيد عن عشرين مليون نسمة من الفلاحين وعشرات الآلاف من المثقفين وأعضاء الحزب المعارضين لأسلوب ادارته ومفاهيمه الخاصة للماركسية اللينينية وتكريسه عبادة الفرد.

أما اليابان فقد استغلت انشغال دول اوروبا الاستعمارية بالحرب العالمية الأولى، وتمسك الولايات المتحدة بسياسة العزلة، وأخذت تتأهب لشن حرب استعمارية على الطريقة الأوروبية وتبادر في عام ١٩٢٧ لاحتلال شمالي الصين ومنشوريا وسيبريا، وترفع شعار «آسيا للآسيويين».

هكذا كان العالم في العقد الثالث من القرن العشرين على أبواب مرحلة تاريخية جديدة، الشعوب التي قاست من ويلات الحرب تتطلع لفترة من الهدوء وتنتظر من عصبة الأمم المتحدة ان تكرس السلام العالمي، والشعوب المستعمرة وحركات التحرر تحلم بالاستقلال وتعلق الآمال على عصبة الأمم. أما البلدان

الأوروبية الاستعمارية وخاصة بريطانيا العظمى وفرنسا والى جانبها هولاندا وبلجيكا، تحاول التشبث بمستعمراتها وتسعى لاستغلال المنظمة الدولية لكي تحافظ على أدوارها الحاسمة في السياسة الدولية. وتعود الولايات المتحدة لعزلتها فتغلق حدودها وتقيد الحرية التجارية بعد ان ساهمت في حرب عالمية كدولة عظمى وقامت بدور هام في تحقيق انتصار الحلفاء على ألمانيا. وتستعد اليابان الحديثة لابتلاع جزء من بلدان جنوب شرق آسيا واقتسام النفوذ في المحيط الباسيفيكي مع أوروبا الغربية وأمريكا، وتثبت للعالم ان العرق الأصفر يتمتع بنفس المؤهلات التي يتمتع بها العرق الأبيض، بل ويمكنه التفوق عليه كما حدث بالفعل في الحرب اليابانية الروسية عام ١٩٠٥.

أما الصين فكانت تعاني من الصراعات الداخلية بين اليمين القومي بزعامة الماريشال تشان كاي تشيك، والحزب الشيوعي بزعامة ماوتسي تونغ، وينطوي الاتحاد السوفيتي على نفسه بقيادة الماريشال جوزيف ستالين الذي أعطى الأفضلية لبناء «قلعة الاشتراكية الأم»، وأبعد تروتسكي والحزب المنشفيكي الذي كان ينادي بالثورة الأممية.

في هذا الوقت كانت ألمانيا النازية تتميز غيظاً وتتحين الفرص لتمزيق معاهدة فرساي وتستعد لشن حرب عالمية جديدة طالما حلمت بها لكي تحقق لنفسها مكاناً تحت الشمس ومجالاً حيوياً في مستوى طموحاتها. وكانت الى جوارها ايطاليا الفاشستية بقيادة موسوليني تحلم بالسيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وتعيد أمجاد الامبراطورية الرومانية وتستخلص حصة مناسبة من أيدي البريطانيين والفرنسيين.

أما بقية العالم ومن جملته العالم العربي، فكان يرزح تحت نير الاستعمار الأوروبي، أويخضع لنفوذ الولايات المتحدة، كما هو الأمر في أمريكا اللاتينية والفلبين، وترتجف خوفاً من الطغيان الياباني الفتي كما هي الحال بالنسبة للصين وبلدان جنوب شرق آسيا، وكانت الحركات التحررية في القارات الثلاث تناضل من أجل الاستقلال بعد ان خيبت آمالها عصبة الأمم وتنكر الحلفاء للوعود التي قطعوها على أنفسهم خلال الحرب، وهذا هو شأن الحركة العربية

في المغرب والمشرق، وكذلك الأمر بالنسبة للحركة الوطنية في سورية بين الحربين.

الوضع الاقتصادي:

اذا كانت الحرب العالمية الأولى قد خلقت الظروف والشروط الضرورية لاستتباب الأمن والسلام الدوليين كما ترغب الدول الأوروبية الكبرى فإن الاقتصاد العالمي لم يحظ بالكثير من اهتمام هذه الدول. فقد حافظ الاقتصاد العالمي على نفس الوتائر التي كان عليها عند نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، ولم يبدأ بالانطلاق فعلياً إلا بعد عام ١٩٢٤ عندما خيل للرأي العام العالمي ان قضية السلام انتصرت نهائياً في عصبة الأمم. غير ان هذا الحلم الجميل لم يكتب له البقاء طويلاً، اذ مالبثت أزمة ١٩٢٩ ان قضت عليه في المهد وأفسحت المجال للاقتصاد الموجه والتخطيط المركزي الذي يتلاءم مع الأنظمة الاشتراكية والدكتاتوريات الشمولية، وقد أصابت الأزمة المذكورة البلدان الأكثر تطوراً، وضاعفت البؤس في البلدان المستعمرة.

في انكلترا وصل عدد العاطلين عن العمل في آب ١٩٢٥ الى (٢,٥) مليون نسمة معظمهم من عمال المناجم، وأدى ذلك الى تصاعد الاضطرابات الى أن وصلت في بعض السنين الى ستة أشهر متواصلة.

وفي فرنسا وصل عدد العاطلين عن العمل حوالي نصف مليون نسمة علماً بأنها كانت آخر دولة أوروبية وصلتها الأزمة.

وفي المانيا وصل عدد العاطلين عن العمل الى حوالي (٦) ملايين عامل.

أما في الولايات المتحدة، فقد احتفظ الحزب الجمهوري اليميني بالسلطة طوال الفترة الواقعة بين ١٩٢٩ و١٩٣٣، وكرس سياسة العزلة وحدد الهجرة وسن قوانين الحماية الاقتصادية، وساد البلاد موجة من البطالة بلغت حوالي (١٥) مليون عامل عاطل عن العمل، وعمت الاضطرابات، واضطرت السلطات لقمعها بالقوة.

لقد وصل عدد العاطلين عن العمل في اوروبا والولايات المتحدة حوالي (٤٠) مليون عامل، وزاد في حدة الأزمة الاقتصادية عجز الشعوب المستعمرة عن شراء السلع والبضائع من البلدان الصناعية، ووصل الأمر الى حد فقدان الثقة بالنظام الرأسمالي والديمقراطية البرلمانية وخلق الظروف المشجعة للأنظمة الدكتاتورية - كما أسلفنا - والاتجاه نحو التسلح لمعالجة البطالة، وكان ذلك بداية الاستعداد للحرب العالمية الثانية التي فجرها الحزب النازي بزعامة أدولف هتلر.

كان طبيعياً ان تنال سورية من خلال الأزمة الكثير من البؤس والحرمان، بعد أن استتب الأمر للاحتلال الفرنسي بالقضاء على الثورة بعد سنوات من عدم الاستقرار وإيغال المحتلين بنهب الثروات والتجويع كإحدى الوسائل الفعالة لاخضاع الشعب السوري، ولم يكد الوضع يهدأ حتى شهدت سورية عدة أعوام من الجفاف والقحط، اضطر خلالها أبناء الريف القادرون على العمل لهجر قراهم وحقولهم وقصدوا لبنان وفلسطين للبحث عن العمل، ولم يقتصر الأمر في حوران على الجفاف بل شهد في أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات أعنف هجمات كاسحة للجراد قضت على الأخضر واليابس وخلقت المزيد من الشقاء ولاتزال الأجيال القديمة تروي مآسيه التي اجتمعت مع بلاء الاحتلال الأجنبي.

تميزت فترة العشرينيات بظهور الادب الملتزم في البلدان الديمقراطية حيث حرية التعبير أكثر شمولاً، ونظراً لنجاح ثورة اكتوبر الاشتراكية فقد وضع هذا الأدب الملتزم نفسه في خدمة الثورة على يد اندريه مالرو، ولويس أراغون، وخدمة الحركة العمالية على يد المجموعة الأممية «الثورة» التي أنشأها رومان رولان، وهنري باربوس وموريس بلونديل[1]. وفي ميدان الفن ظهرت «الحركة التعبيرية، التي رفضت الشكل السيريالي، لصالح النقد الأكثر موضوعية لعالم يجب إعادة بنائه بشكل يليق بالانسان ويحرره من هيمنة الدولة.

وفي مجال الهندسة المعمارية أدت الحاجة الملحة لأبنية السكن والأبنية

الجماعية الى استخدام مواد جديدة كالاسمنت والحديد والألميوم، لانتاج أبنية بالجملة، كما قال المهندس السويسري المشهور «لوكور بوزييه»[٣].

وجاء جهاز «الحاكي» والراديو ليخترقا حرية المنازل ويدشنا بداية عهد جديد تسيطر عليه أجهزة الاعلام الجماهيرية.

وأخيراً بلغ الفن السابع (السينما) سن الرشد في عام ١٩٢٧ بفضل الأفلام الناطقة التي جعلت منها فناً مستقلاً بذاته ونالت لقب الفن السابع.

وفي ميدان العلوم ساعدت الحرب على تحقيق انجازات خارقة في الفيزياء، بفضل «نظرية النسبية» التي ابتكرها «أنشتاين»، وفي مجال الكيمياء، ظهرت الى السوق الأدوية والأقمشة الكيماوية والهرمونات والفيتامينات، كما شهدت فترة مابعد الحرب مهنة التخصص للعلماء، والباحثين.

وفي عام ١٩٢٧ أصدر الفيلسوف الألماني «مارتان هيديجر» Heideger كتابه المشهور «الكائن والزمن» (Letre et le Temps) الذي برهن فيه على أن وجود الانسان ينتهي الى العدمية بحيث لايمكنه الخروج منها إلا بادراكه لوجوده، وأكد هذه النظرية الفيلسوف الوجودي الدانماركي «كريكغارد»، وهكذا، ظهرت «المدرسة الوجودية» وأكدت أهميتها على الصعيد الفلسفي على يد الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، وجاء العالم النمساوي «سيغموند فرويد» ليبرهن على أن الجانب اللامعقول الموجود في العالم لايكمن في «الإله»، بل في «العقل الباطني» الذي يحدد سلوك وتفكير الانسان بتأثير «الكبت الجنسي» بشكل خاص الناتج عن الضغوط الأخلاقية والعادات الاجتماعية.

والخلاصة: لقد أدت فترة العشرينيات الى التشكيك بكل المبادىء الجمالية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وشهد العالم الليبرالي خلالها الطعن بمجمل القوانين الاجتماعية والثقافية التي كان يعتقد بأنه سيؤسس عليها مستقبلاً زاخراً بالتقدم والسعادة للانسان.

هكذا كان العالم المتطور الذي ينعم فيه الانسان بالكهرباء والمحركات

الانفجارية والبخارية ويسخر الطبيعة لخدمته بفضل القطارات والطائرات والسيارات والسفن الضخمة والهاتف واللاسلكي والمبرقات والراديو .
أما عالمنا ، عالم البلدان المستعمرة ، فلم يكد يخرج من القرون الوسطى وعصور الظلام حتى عاجله الاستعمار الأوروبي ممتطياً الثورة الصناعية يحتكرها لنفسه كما حاول احتكار مبادىء الثورة الفرنسية واعلان حقوق الانسان وأفكار عصر التنوير.

غداة الحرب العالمية الأولى انهارت الامبراطورية العثمانية التي أناخت بكلكلها الثقيل طول خمسة قرون على العالم العربي وقضت على بقايا الخلايا الحية في الحضارة العربية الإسلامية وحولتها الى عسكرتارية مرتزقة تزرع الخراب والجهل والاستبداد حيث حلت .
لذلك لم يكن مستغرباً أن تتجه أنظار النخبة في الوطن العربي الى أوروبا ، وتصل الى حد التحالف معها أملاً باستعادة هويتها وولوج القرن العشرين مع شعوب البحر الأبيض المتوسط مهد الحضارة الانسانية .

عرفت سورية الاستقلال لفترة وجيزة بعد دخول قوات الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل الى دمشق ، وماهي إلا أيام حتى نزلت القوات الفرنسية الى لبنان وأخذت تستعد لغزو سورية ، بالتواطؤ مع انكلترا التي عقدت معها اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية ، فكانت معركة ميسلون ، ومعارك الثوار في جبال اللاذقية والزاوية وحلب وحماة وديرالزور ودمشق والغوطة وجبال القلمون وسهول حوران وجبل العرب ، هذه المعارك التي استمرت حتى عام ١٩٢٢ ، بعدها خيّل للفرنسيين ، أن الشعب السوري قد تعب واستسلم ، فبادروا الى تقسيم سورية الى دويلات طائفية وشعوبية وحولوا الانتداب الى استعمار عسكري ، غير أن اجراءاتهم هذه كانت محرضاً للثورة من جديد ، فما لبث أن اشتعلت في دمشق وجبل العرب وبقية المدن السورية .
ومن جديد عبأ الفرنسيون قواتهم ودعموها بقوات من المرتزقة والوحدات النظامية المقاتلة التي نقلوها من فرنسا ومن المستعمرات الافريقية وجنوب شرق

آسيا، وأغرقوا البلاد في جو من الطغيان والدماء طوال عامين الى أن اخمدوا الثورة في نهاية عام ١٩٢٧ ونفوا قادتها وملؤوا السجون والمعتقلات بالثوار.

في هذه الظروف الدولية والاقليمية القائمة، وفي هذا الجو المأساوي الذي خيم على سورية بعد أن حولتها قوات الاحتلال الى ساحة حرب ونشرت الدمار في مدنها وقراها وشتت قادتها ومناضليها، وفرضت الأحكام العرفية لاجتثاث جذوة النضال لدى الشعب السوري وتمزيق وحدته الوطنية.

في هذا الجو القاتم، شاهدت النور في منتصف عام ١٩٢٧ في احدى قرى حوران الواقعة في أقصى الزاوية الشمالية الشرقية من هذا السهل الخصيب على مسافة أربعين كم من العاصمة دمشق. وهذا يعني أن القرية أقرب الى دمشق منها الى عاصمة المحافظة درعا. ولذلك كانت معظم علاقاتها مع دمشق وخاصة بالنسبة للدراسة الثانوية.

دمشق ١٢/ ٩/ ١٩٩٣ أحمد عبد الكريم

هوامش المقدمة

(١) : التصريح الذي أدلى به السيد شكري القوتلي أثناء مباحثات وتوقيع بروتوكول الاسكندرية الذي أنشئت بموجبه الجامعة العربية.

(٢) : ـ رومان رولان : كاتب فرنسي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٤) شديد الاعجاب بعبقرية بيتهوفن، وتولوستوي، وبماساة دانتون التاريخية، أسس «مجلة أوروبا» ونال جائزة نوبل عام ١٩١٥.

ـ هنري باربوس : كاتب فرنسي (١٨٧٣ ـ ١٩٣٥) أشهر مؤلفاته «النار» وقد رسم أول صورة غير تقليدية للمقاتلين.

ـ موريس بلوندبل : فيلسوف فرنسي (١٨٦١ ـ ١٩٤٩)، مؤلف كتاب (lAction) شرح فيه فلسفته.

(٣) : لوكوربوزييه : مهندس معماري، ورسام سويسري من أصل فرنسي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٥)، أدخل تجديدات على الهندسة المعمارية على أساس الاستخدام الاجتماعي، واستعمال الاحجام البسيطة والمخططات المبنية على الحرية، وأصبح واسع النفوذ عالمياً في مجال العمارة.



الجـــزء الأول

الفصل الأول

النشأة

يقول والدي رحمه الله أنني ولدت صبيحة يوم من أيام حزيران عام سبع وعشرين وتسعمائة وألف، في بيت ريفي تقليدي فسيح من الحجر الأزرق البازلتي الصلب، في قرية «موثبين» الواقعة في الطرف الشمالي لسهول حوران الخصبة.

كان ذلك أثناء موسم الحصاد، ففي فجر ذلك اليوم سمعت نسوة القرية «زغرودة» خجولة أطلقتها جدتي لأمي التي كانت تقوم بمهمة القابلة عندما تأكدت أن المولود ذكراً. ومن تلك اللحظة شاع الخبر في أنحاء القرية، فكل النسوة يعلمن مسبقاً أن «حليمة» زوجة عبد الكريم حاملاً وهذا شهرها، كما يعرفن بدقة مواعيد وضع، بقية نساء القرية، ولم تمض إلا دقائق معدودات حتى وصل الخبر الى الوالد الذي يشرف على الحصاد في الحقل، نقله اليه «الراجود» - حلقة الاتصال بين القرية والحقل في الموسم - وفجأة تعالت أصوات الحصادين بالغناء والزغاريد، وبسرعة البرق انتقل الخبر الى جميع أهل القرية المنتشرين في الحقل على نسق واحد وكأنهم في جبهة قتال منهمكين بجمع غلالهم خوفاً

من المفاجآت التي أصبحت كالقاعدة منذ أيام «السفر برلك» ـ أو الحرب العالمية الأولى، والاحتلال الفرنسي مروراً بالثورة الوطنية عام ١٩٢٥.

قام الحصادون يصافحون الوالد مهنئين، وهرعت بعض «اللفاطات» يزغردن للتهنئة ليلن هدية خاصة بهذه المناسبة عبارة عن حزمة من القش..

وحصل الراجود على مكافأة خاصة لذيذة من الراحة والهريسة، وأخذ الحصادون يتفنون بالأغاني والمواويل على غير عادتهم لقناعتهم بأنهم سينالون بهذا اليوم طعاماً استثنائياً يليق بالحدث السعيد.

لم يخب ظن الحصادين فقد حمل لهم «الراجود» في عودته من القرية غداء دسماً مؤلفاً من فطائر المردد المعجونة بالسمن، وعلبة خشبية متوسطة الحجم طافحة بالدبس المائع، وتعوم فوقها كتلة من «الزبدة» الطازجة، و«شكوة» من الشنينة.. ونصف تنكة هريسة شامية.. بالها من وقعة نادرة.. هكذا علق أحد الحصادين، وقال: الله يطعم المعلم كل أسبوع صبي، لأن خبز الذرة البيضاء والشنينة نشفت دماءنا..

وفي المساء، بعد العودة من الحقل والاستراحة، اجتمع الحصادون في «المضافة» ـ وهي الغرفة الرئيسية في المنزل ـ وعقدوا حلقة من الدبكة والرقص والغناء على أنغام «الدربكة» والناي، وكانت أغانيهم ولهجتهم القلمونية تختلف قليلاً عن أهازيج ريف حوران، كان لهذا الاحتفال مايبرره فقد أولم رب اسرة بهذه المناسبة وليمة فخمة دعا اليها الأقارب والوجهاء، وهي عبارة عن «منسف» من البرغل المطبوخ باللبن (الشاكرية أو «يسمى برغل ومليحية») يتربع فوقه خروف سمين يغرق بالسمن العربي الذهبي اللون. والى جانب المنسف نصية من الهريسة الشامية وعلبة خشبية من الراحة الملونة المعطرة.

اصطف الوجهاء والمسنون على شكل حلقة حول المنسف وتلاهم بالتناوب الشباب والحصادون، وكان الجميع يلتهمون الطعام بالأكف وكأنهم يتسابقون في الحصاد ـ فأكل الرجال على قدر فعالهم ـ ثم يلتفتون الى الحلوى والراحة والبسكوت.

وبعد العشاء وزع الشاي والقهوة العربية المرة والملبس وقرأ الفاتحة أحد

الحضور وباركوا ثم انصرف الجميع بعد سهرة قصيرة مرحة أنستهم متاعبهم وشقاءهم.

عادت الحياة الى طبيعتها مع فجر اليوم الثاني وانصرفت الأسرة الى أعمالها، فالوقت ثمين جداً في مواسم الحصاد، لأن الفلاحين في حوران، بل وفي جميع أنحاء سورية، لم يعرفوا الاحتفالات الجدية الصاخبة منذ نشوب الحرب ودخول العساكر الفرنسية للبلاد، ففي هذه السنين الصعبة كانت السلطات تفاجئهم بمصادرة غلالهم قبل أن ينقلوها من البيدر ولايبقون لهم إلا مايسد، الرمق، وعندما يحاولون إخفاء شيء من المحصول كانوا يلاقون أنواعاً من الطغيان والارهاب على يد «الجندرمة الأتراك» ثم «الحرس السيار» والدرك الفرنسي، ولم يكن لهم ملجأ أو حماية حيال هذه القوى الأجنبية الطاغية، سوى الصبر والدعاء لله سبحانه وتعالى ليخلصهم من هذا الوباء الأبدي..

في هذا الجو البائس الثقيل وفي تلك الظروف الاستثنائية التي عاشتها حوران والبلاد السورية كلها دون استثناء، رأيت النور في قرية صغيرة لايتجاوز عدد سكانها الثلاثمائة نسمة، وفي أسرة ريفية متوسطة الحال تعيش على محصولها الزراعي وتربية بعض المواشي، في حدود كفايتها.

كان والدي رحمه الله، أحد أعضاء الهيئة الاختيارية في القرية، ويقوم أحياناً بدور الإمام عند غياب الإمام الأصيل، نظراً لأنه من القلة المتعلمة من أبناء جيله، وهي ميزة هامة في ذلك الوقت، رشحته السلطات في المحافظة للذهاب الى استنبول لإكمال دراسته، مع طفل آخر مسيحي من أبناء القرية، ولكن عمه الوصي عليه ووالدته رفضا ذلك لأنه كان يتيماً ووحيداً لوالده، ولهذه الأسباب تزوج في سنٍّ مبكرة وانفصل عن أبناء عمومته، وأصبح بعد سنوات قليلة رب أسرة مؤلفة من زوجتين وعدد من الأطفال، ومسؤول عن «دار مستقلة» ومضافة وليس له معين من أبنائه الصغار، سوى العمال الموسميين والمرابعين.

عرفته رجلاً شديد التقى الى حدود الورع، متواضعاً، محباً للناس ولأسرته وأقاربه ويحرص على صلة الأرحام ويحترم الجوار، يكره العنف،

ويضيق صدره من التعصب العشائري والتقاليد البالية، مولعاً بقراءة القرآن والتفسير والحديث والكتب الصفراء، ولاأذكر أنني سمعته يتلو قصة أبوزيد وألف ليلة وليلة وتغريبة بني هلال... لأنه كان يعتبرها من الكتب الخاصة بالشباب والجهال..

كان في شبابه فارساً وكريماً يجمع أهل القرية على حبه والثقة بأمانته وقد بقي «شيخ شباب» فترة طويلة الى أن أصبح مسؤولاً عن أسرة كبيرة ازداد تعدادها سنة بعد سنة حتى بلغت خمس عشرة نسمة، وهكذا اضطر للاهتمام بشؤون أسرته وشغف بالامور الدينية والتعرف على بعض المشايخ في دمشق أثناء زيارته لها من حين لآخر، واستضاف بعضهم في منزله ودرس على أيديهم، مما زاده زهداً وابتعاداً عن حياة «الجهالة» فكرس حياته لتربية أبنائه ورعاية بنيه.

تزوج والدتي في سن الرابعة عشرة، ثم تزوج ابنة عمه التي كانت حسب التقاليد مخصصة له منذ طفولتهما، ولأسباب أخرى منها حاجة الدار لأكثر من امرأة للقيام بالخدمات والأعباء الثقيلة (صنع الخبز والطعام للأسرة والعمال، والضيوف، وجلب الماء من البئر، واعداد المؤونة من الحنطة والبرغل واللبن ومشتقاته، وحلب المواشي، وأعمال أخرى لاتترك للمرأة إلا القليل من وقتها للاعتناء بنفسها وبزينتها وتربية أطفالها والاهتمام حتى بزوجها)..

تنتمي أسرتنا «آل عبد الكريم» الى أسرة أكبر هي «آل عبد السلام» وهذه بدورها تنتمي الى عشيرة تشمل الغالبية من سكان القرية، يرجع أصلها الى «قبيلة الدروع» التي كانت تقطن في شمالي الجزيرة العربية، بمنطقة الجوف، ومقرها الأساسي مدينة «دومة الجندل». وفي نهاية القرن الثامن عشر اضطرت للتشرد باتجاهات مختلفة على اثر نزاع مع أحد ولاة ابن الرشيد حاكم جبل شمر الذي قتل بعض شيوخهم، فنزح بعضهم الى جنوب الحجاز، والى الاحساء، ولجأ جزء منهم الى سورية، فحل «فخذ» صغير آل محمود في حوران، قرية موتبين وكانت خربة قديمة، غير مأهولة في مطلع القرن التاسع عشر فعمروها، وذهب فخذ آخر الى البادية الشامية واستوطن بلدة «القريتين» التابعة لمحافظة حمص، وهم «آل الفياض»، وسكنت أسرة في حي الميدان

بدمشق وسميت بـ «آل البرغلي»، وقد استمرت الصلات بين بعض أفراد قبيلة «الدروع» في المملكة العربية السعودية وأقاربهم في موتبين والقريتين حتى نشوب الحرب العالمية الثانية، ولكن هذه الصلات تلاشت بعد ذلك الى أن انقطعت تقريباً بعد الخمسينيات عندما أصبح الاتصال بين الأقطار العربية يخضع للشروط القاسية الصعبة، خاصة بعد أن انهالت الثروات البترولية على المواطنين السعوديين ولم يعد أفراد قبيلة الدروع بحاجة الى استيراد الحنطة الحورانية والزبيب والشنان من القريتين، مما ينتجه أبناء عمومتهم.

وفي اعتقادي أن قصة «عشيرتنا» التي نزحت الى سورية طلباً للأمن والمرعى، شبيهة بمثيلاتها من قصص هجرة العشائر التي سبقتها أو تلتلها خلال آلاف السنين، فاستقر بعضها في بلاد الشام أو في بلاد الرافدين وظل بعضها ينتقل «صيفاً وشتاء» بين أراضي السعودية والعراق والأردن وسورية، طلباً للكلأ والماء لمواشيهم.

وكان من الطبيعي بالنسبة لأجدادنا «آل محمود» بعد أن استقروا في قرية موتبين أن يتحولوا من الرعي الى الزراعة وتربية المواشي، وينسوا علاقاتهم العشائرية القديمة وينصرفوا الى شؤونهم المعيشية القاسية، في ظل الحكم العثماني، ثم يصبحوا مواطنين في الجمهورية السورية بعد الحرب العالمية الأولى أيام الانتداب الفرنسي، ولهذا لم أتلق مع أبناء جيلي في القرية أية ذكريات أو تقاليد عن جذورنا الأصلية كبدو، في منطقة الجوف السعودي، ولا ألاحظ إلا نادراً بقايا العناصر الوراثية البدوية في تكويننا الجسماني، وعندما تفتحت أبصارنا وبصائرنا على الأوضاع في سورية والوطن العربي خلال الدراسة، في الأربعينيات، وأطلعنا على تاريخ أمتنا العربية عامة، ومأساة بلاد الشام بعد «معاهدة سايكس بيكو»، «ووعد بلفور» ونما شعورنا ومعاناتنا في ظل الانتداب الفرنسي، انصرف اهتمامنا في وقت مبكر جدا الى الأمور العامة وابتعدنا عن التفكير في الشؤون العشائرية والتقاليد والعلاقات المحلية، التي كانت من العوامل السلبية التي سببت التخلف ومهدت الطريق للاستعمار الأجنبي،

وأصبحت همومنا تتركز على مقارعة الاستعمار والتفكير في مصير الوطن والأمة العربية.

تقع قرية «موتبين» في الطرف الشمالي من حوران، فوق سفوح الهضاب الممتدة من قرية جباب، عند نهاية «اللجاة» من الغرب، والمتجهة شمالاً حتى تلامس جبل المانع، شرقي مدينة «الكسوة» على بعد ١٨ كم جنوب دمشق.

ويتفرع عن هذه الهضبة سلسلة منخفضة عند قرية غباغب، وتتجه الى الشمال الغربي، الى أن تصل الى سفوح جبل الشيخ غرباً، فتشكل بمجموعها ستاراً دفاعياً، باتجاه الجنوب والجنوب الغربي على محوري دمشق درعا ودمشق القنيطرة.

وقرية «موتبين» قديمة جداً، يرجح أنها تعود الى الألف الأولى قبل الميلاد، تدل على ذلك أبنيتها البازلتية وأطلالها التي لاتزال قائمة حتى الآن، ومعظمها يعود للعصور الهلينية - الرومانية - والبيزنطية. ومن أهم هذه الآثار بقايا دير بيزنطي في الحي الغربي، وقصر ريفي أوثكنة في الحي الشرقي، يتألف من ساحة داخلية تحيط بها غرف عديدة من طابقين، الأرضي عبارة عن مستودعات أو اسطبلات والطابق العلوي للسكن. وفي الصدر قاعة ضخمة، يحتمل أن تكون مقراً لقائد محلي أو أمير. وهناك أطلال أخرى موزعة في أماكن مختلفة من القرية، كان أهمها في ساحة القرية، وهو عبارة عن بناء ضخم يتألف من قاعتين فسيحتين متلاصقتين، مسقوفتين بحجر بازلتي مصقول، استخدمت احداها كمسجد، واستخدمت الأخرى كمدرسة، حتى نهاية الأربعينيات ولازلت أذكر تلك المدرسة التي أمضيت فيها السنة الأولى الابتدائية في عام ١٩٣٣ - ١٩٣٤ واذكر معها معلم المدرسة اليوزباشي عثمان فوزي بك الضابط العثماني المتقاعد بطربوشه الأحمر وشاربيه المعقوفين وعصاه اللامعة، وبزته التي يتميز بها عن كل سكان القرية.

ومما تجدر الاشارة اليه، انني كثيراً ماكنت أحرج عندما يسألني زملائي أو بعض الغرباء عن اسم القرية، ويقول بعضهم أنه اسم لاتيني، وغالباً ماأحتار في تفسير معناه وأتساءل كيف استطاع أن يصمد عبر عدة قرون ويحتفظ

بنغمته الأجنبية، وفي السنوات الأخيرة أخذت أبحث عن مصدر هذا الاسم في المعاجم وكتب التاريخ الى أن وصلت الى الاحتمالات التالية التي جعلتني أن أرجح ارجاعه للاتينية، وبذلك يصبح موتيوش ـ بنيا (Motus - Penea). وهي عبارة عن كلمة مزدوجة تعني الهضبة المشجرة بالصنوبر، وهنا أخذت أسأل شيوخ القرية عما اذا كانت التلال الواقع شرقي القرية تحتوي في الماضي على بعض الأشجار، وكان هناك اجماع أن هذه التلال التي بتراوح ارتفاعها بين ٧٠٠ ـ ٨٥٠م كانت مكسوة في القديم بأشجار من فصيلة الصنوبريات، والبطميات، وكان السكان حتى أوائل القرن الحالي يحتطبون من بقايا جذورها ويستخدمونها للوقود والتدفئة، وفي اعتقادي أن الماعز (الذي يطلق عليه اسم لعنة آسيا) والحطابون، بالاضافة الى جفاف الطقس في القرن العشرين، كانت السبب المعقول الذي أدى الى تحويل هذه التلال الى مرتفعات جرداء، اللهم من بقايا نباتات الشيح، والصبر، والشوك بأنواعه.

وفي رأي آخر، أن الكلمة ترجع الى جذور «آرامية» على أساس أن مقطعها الأول «موت» ويعني الخلق أو الولادة أو الابن، والمقطع الثاني «بين» ويعني القائد. وبذلك يصبح معنى الكلمة «ابنة أو ابن القائد». ويدعم هذا الرأي أن القرية واقعة على سفح تل يسمى «تل القائد».

ونظراً لأن القرية كانت مسكونة منذ أقدم العصور بسبب كثرة مياهها وخصوبة أراضيها، ولما كانت حوران موطناً للآراميين والأنباط أجداد العرب، يصبح من الممكن أن الهيلنستيين والبيزنطيين أخذوا هذا الاسم وحوروه حتى وصلنا على شكله ونغمته الحالية وبالتالي فإنني لاأجزم بأحدهما.

ومما يذكر أيضاً أن اسم القرية سبب مشكلة مع استاذ اللغة العربية في التجهيز الأولى بدمشق المرحوم محمد البزم الشاعر المعروف، فقد سألني في أحد الأيام، وكنت تلميذاً في الصف السابع الاعدادي عن مسقط رأسي فأجبته أنني من حوران.. قال ويحك اسألك عن مسقط رأسك فتقول أنك من حوران، وحوران ولاية واسعة تشتمل على مئات القرى والدساكر.. وهي موطن بني غسان، ولكني أريد معرفة اسم قريتك.. أجبته متلعثماً... إنني من قرية

«موتبين». أصاخ السمع، ثم قال ماذا؟ قلت: «موتبين» ياأستاذ.. وبدا لي أن رنة الاسم الأعجمية لم تعجبه، خاصة وهو الشاعر المتعصب للغة الفصحى فبادرني قائلاً والرفاق يتحلقون حولي ويتنصتون لأسئلته وأجوبتي.. ويحك ماهذا الاسم الأعجمي؟ إنها والله «موتٌ بيِّنٌ» على أهلها.. وما أن سمع الرفاق قوله هذا حتى تفجروا بالضحك.. واحمرت وجنتاي خجلاً وخوفاً من الاستاذ الذي كان يخافه الأساتذة والطلاب ويحترمونه، ويخشون سلاطة لسانه.. وسال العرق على جنبي.. عندها تنبه الاستاذ الى موقف رفاقي وماسببه لي من حرج تجاههم.. فبادر فوراً لنجدتي وقال: لابأس عليك يافتى العرب وياابن غسان وحفيد آل جفنة الكرام.. إن قريتك «موتٌ بيِّنٌ» على من أراد بها شراً، ثم أطلق ذلك بصوت جهوري وهو يلتفت الى الرفاق، فإذا بهم يصمتون، وبذلك عاد إلي صوابي وأنقذني من ألسنتهم، وأصبح لدي منذ ذلك الوقت حجة أرد بها على الخبثاء من الرفاق.

والأهم من ذلك كله أن هذا الحوار كان سبباً وبداية لعلاقة حسنة مع الأستاذ الشاعر العظيم وجعلت لي حظوة خاصة عنده أفادتني في دراستي الثانوية بكاملها. وبقيت هذه العلاقة حتى وافته المنية في عام ١٩٥٣.

وقد ساعدني الحظ قبل وفاته أن أرد إليه بعض ماأسداه لي ولأجيال عديدة من الطلاب في دمشق، فسعيت مع زميلي السيد أكرم دبري لنقله في عام ١٩٥٢ الى مستشفى يوسف العظمة العسكري للمعالجة بسبب مرضه العضال وفقدان البصر، وبقي فيه الى أن لقي وجه ربه، رحمه الله.

تبعد قرية موتبين مسافة (٤٢)كم عن مدينة دمشق، ويفصلها عن مدينة درعا مركز المحافظة حوالي ٦٠كم، ولذلك كانت علاقاتها بالعاصمة أكثر من علاقاتها بمركز المحافظة، ولهذا السبب أيضاً كانت دراستي الاعدادية والثانوية في دمشق في التجهيز الأولى (مدرسة جودت الهاشمي حالياً).

ومما تجدر الاشارة ان ثلثي سكان القرية من المسلمين وثلثها من المسيحيين الارثوذكس، الذين قدموا للقرية من جبل حوران في فترة الاضطرابات بين ١٨٤٠ - ١٨٦٠. ويروي الشيخ السيد محمد ياسين الزهوة،

وهـو معمـر تجاوزت سـنـه المـائـة والخمـسـة عشـر عاماً الآن، أن وجهـاء القرية المسلمـين، استضـافـوا قافلة قادمة من جبل العرب تحمل الحبوب الى دمشق، ويقـودهـا رجال مـسيحيـون من «آل البـدين»، وعنـدما سمعوا منهم عن المصاعب التي يلقـونهـا أيـام الاضـطـرابـات، دعـوهم للسكنى معهم وتقـاسـم الأرض والأطـلال، فاستجـابـوا للدعـوة، واستقروا فيها، وتقاسـموا أرضها مع سكانها الأصـليين وعاشوا معهم كأسرة واحدة حتى الآن.

العلاقة بين المدينة والقرية:

كانت وسـائـل الاتصـال بين القرية والمدينة دمشق في الثلاثينيات، بدائية أساسـها قوافل البـدو أو الخيول وبالرغم من أن المسافة لاتزيد عن ٤٢ كم إلا أنها تحتـاج الى ٢٤ سـاعـة، أمـا المسـافة التي تفصـل القرية عن الطريق العام المعبد دمشق ـ درعـا فهي حوالي ٢ كم، والمسـافـة التي تفصـلها عن أقرب محطة لسكة حديـد ـ الخـط الحجـازي فتزيد عن ٨ كم. والطرق المؤدية لهذين الطريقين، ترابيـة، ونظـراً لنـدرة السـيارات في فترة الثـلاثينيـات فقـد كانت وسيلة النقل الـرئيـسيـة هي الابـل والخيول. وفي مطلع الأربعينيات ازداد عدد العربات التي تجرهـا البغـال وأصبحت تدريجيـاً أهم وأسـرع وسيلة للنقـل، وفي ذلك الوقت أصبح «الطنبر» الوسيلة الحديثة الفعالة لنقل الحبوب والأعلاف والمواد الأخرى لذلك يمكن القـول بأن الطنـبر حل محل الابـل تدريجيـاً نظـراً لسرعته وارتفاع حمولته التي تصـل الى مايعادل حمولة ٨ ـ ١٠ جمال.

واذكـر أن الطنـابـر كانت تقطـع المسـافة بين القرية ودمشق خلال ٨ ـ ٩ سـاعات بينما كانت قافلة الابل تحتاج الى (٢٤) ساعة تقريباً لقطع المسـافة الى دمشق، هذا بالاضـافة الى صـعوبة الاعتنـاء بالابل وسهولة الاعتناء بالبغال.

ومما يذكـر بهذه المناسـبـة ان عدد سـيارات نقل الركاب التي كانت تسير على طريق درعـا ـ دمشق والسـويـداء ـ دمشق لايـزيد عن سيارتين أو ثلاث، تنطلق صبـاحـاً من درعـا والسـويـداء مارة بالطـريق الـرئيـسـي، الـذي يصـلهما

بالعاصمة، وصاحب الحظ هو الذي يمكنه الحصول على مقعد فيها، وغالباً ماكنا نخرج من القرية في الصباح وننتظر عدة ساعات الى جانب الطريق العام، ثم نعود بعدها بخفي حنين الى القرية، وعندها نضطر للذهاب الى محطة القطار الواقعة جنوب قرية جباب قاطعين مسافة ثمانية كيلومترات مع تعطيل راحلة ورجل آخر طيلة النهار لكي يعود بالراحلة، وفي بعض الأحيان يضطر البعض للسفر بالطنبر عندما يكون الجو لطيفاً لكيلا يضيع وقته خاصة وأن الرحلة تكون غالباً خلال الليل.

إن هذه المصاعب تعطي فكرة أولية عن صعوبة الاتصال بين القرية والمدينة، علماً بأن قريتنا محظوظة جداً لأن المسافة التي تفصلها عن العاصمة لاتزيد عن ٤٢ كم، ولكنها مع ذلك مسيرة يوم في حساب سرعة التنقل في الثلاثينيات والأربعينيات.

كانت ولاتزال منذ آلاف السنين وحتى نهاية الأربعينيات جميع القرى في الريف مرتبطة بشكل غير متكافىء مع المدينة ويتوقف اقتصادها أساساً على سوق المدينة الذي لامحيد لها عنه، تبيع فيه منتجاتها الزراعية وتبتاع منه كل حاجياتها، أما المبادلات العينية وغيرها بين القرى، وحتى بين القرى ومراكز المحافظات فلم تكن ذات أهمية باستثناء بعض المدن الكبرى والمتوسطة التي هي بنفس الوقت مركز للمحافظات مثل حلب وحمص وحماة واللاذقية ويترتب على هذا الوضع نوع من الاحتكار والهيمنة لصالح تاجر المدينة والوسطاء المستغلين الذين فرضتهم ظروف القرية الصعبة وصعوبة المواصلات وندرة وسائل النقل كما ذكرنا آنفاً، وعدم امكانية أبناء الريف اقامة علاقة مباشرة مع تاجر الجملة نظراً للأسباب السابقة في تلك الأيام بالاضافة الى ضآلة مواردهم، وبشكل خاص عدم اهتمام سلطات الانتداب بمصير الغالبية العظمى من الشعب وخاصة في الريف لأنه لايشكل بسبب انتشار القرى وانخفاض المستوى الثقافي كتلة ضغط يحسب لها حساب في النضال ضدها وهكذا أصبح القروي ينظر الى المدينة على أنها عملاق يلتهم موارده دون رحمة ولايمكن التحرر والاستغناء عنه، كما يعتبر تاجر المدينة خصماً شأنه كشأن

السلطة الأجنبية. والحكومة المركزية ليست سوى لعبة بيد المستعمر وشريك متواطىء مع التاجر المستغل.

كان أبناء القرية عندما يترددون على المدينة يشعرون بالضعف وبمركب النقص، ولا تربطهم بالمستهلكين في المدينة أية صلة رغم أن هؤلاء المستهلكين يعانون من نفس المشاكل، بل أن أبناء الريف أكثر رخاء من العامل والمستخدم الصغير والحرفي الصغير في المدينة من نواح عديدة خاصة منهم أولئك الذين يعانون من البطالة والسكن الرديء، ولهذا كانت نظرة الريفي الى ابن المدينة نظرة شمولية لاتفرق بين أكبر تاجر وموظف وبين العامل والحرفي البسيط والمستخدم الذين لايحصلون على قوت يومهم إلا بشق الأنفس. !! ويصيبهم من مظالم السلطة الأجنبية أشد مايصيب أبناء الريف، لأن هذه السلطة تحسب الف حساب للرأي العام في المدن وخاصة في العاصمة دمشق التي تستقطب جميع الحركات النضالية في البلاد.

الفصل الثاني

الدراسة

وفي هذا الجو العام وفي صميم المجتمع الريفي، وفي أسرة ريفية متوسطة الحال بين جدران منزل ريفي مبني من الحجر الأسود البازلتي، ترعرعت مع أطفال القرية الذين لايعرفون من الدنيا سوى هذا العالم الصغير الذي لاتتجاوز حدوده مدى البصر.

وفي صباح أحد أيام أيلول من عام ١٩٣٤ وكنت ألعب الكرات الزجاجية مع أحد الأطفال الكبار، الفارين من المدرسة، بينما كان معظم أطفال القرية الآخرين قد باشروا عامهم الدراسي، اذا بي أفاجأ باثنين من تلامذة المدرسة الأشداء يحاصرون الزقاق الذي ألعب فيه، ثم ينقضون علي ويحملونني الى المدرسة بدون أن يأبهوا بصراخي وبكائي واستغاثتي بوالدي.. وهكذا وجدت نفسي فجأة أمام مدير المدرسة الرهيب، توقفت عن البكاء، وبدأت أرتجف من الخوف، نظر إلي بحزم وقال لعريف الصف، ضعه هناك في آخر مقعد في الصف وتابع عمله بكل وقار.

كانت مدرسة القرية عبارة عن صالة واسعة مستطيلة الشكل ملحقة

بمسجد القرية القديم، وتشبه الى حد بعيد مهاجع الجنود والاسطبلات، اعتراني الخوف عندما رأيت الاستاذ أمامي بقامته المشوقة وشاربيه الأبيضين وطربوشه الأحمر وبزته الافرنجية الأنيقة وعصاه المعقوفة الجميلة، وأدركت أنني وقعت بالفخ وأنه لامناص لي وليس لي إلا أن أرضخ لما يأمرني به. أشار الأستاذ الشيخ علي بأن أجلس في آخر مقعد في الصف فامتثلت مرتجفاً وجلست في المقعد المقصود الى جانب تلميذ كسول ضخم، ولم أبس بنت شفة وبقيت أنقل بصري خلسة بين التلامذة الذين حشروا جميعهم في هذا «الاسطبل» والأستاذ الذي ينتقل من مجموعة الى أخرى حسب الصفوف الثلاثة الأول والثاني والثالث الابتدائية، وأصوات صغار التلامذة تعلو مخترقة جو القاعة الضخمة لتصل الى أبعد مكان في القرية وتردد وراء الأستاذ بعض نصوص القراءة أو القرآن.

وعندما عدت ذلك اليوم الى المنزل وجدت والدي ووالدتي وأخي الأكبر ينظرون إلي ويبدو عليهم أنهم كانوا على علم بما وقع لي. واذا النصائح والتهديدات تنهال علي من الوالد وتقبلني الوالدتي داعية لي بأن أختم القرآن وأصبح من أفضل الذين يكتبون ويقرؤون في القرية ووعدتني بأن تصنع لي حقيبة من القماش الزاهي لأحفظ بها كتبي وأقلامي وتزودني صباح كل يوم ببعض السكاكر والزبيب.

وهكذا بدأ القدر يخط أول حرف في صحائف مستقبلي الغامض، لم يعلق في ذاكرتي بعد هذا الحادث إلا أشياء قليلة كما لم أعد أذكر كيف تعاقبت السنون الثلاث في هذه المدرسة الابتدائية التي لاتحتوي إلا على ثلاثة صفوف، وعندما أحاول الآن أن أستعيد ذكريات تلك المرحلة لاأذكر منها سوى تلك الرغبة الجامحة التي سيطرت علي لأكون عند حسن ظن والديَّ، وأصبح من أوائل التلاميذ مستمداً القوة والعزيمة من أب مؤمن طيب قلب محب للعلم والتقدم وأم طموحة ثرة الحنان مستعدة للتضحية بأقصى مالديها من طاقة وإمكانيات في سبيل أبنائها حريصة بأن يكونوا في طليعة زملائهم من حيث النظافة واللباس والتهذيب ولو كلفها ذلك حجب اللقمة عن فمها، لقد جعل منها مجتمع القرية

القاسي، أماً وحارسة ومناضلة. . ولاتجد في هذا المحيط الضيق عوناً لها سوى قوة شكيمتها وجدها وكبر بائها، وثقة زوجها وتقواه وحبه لأبنائه ولها. كانت دائماً تطلب من اولادها أن يكونوا في مستوى التحديات التي تواجهها كل يوم كامرأة غريبة عن العشيرة في أسرة لاترحب بالنساء الغريبات، وكثيراً ماكانت تردد على مسامعنا بأن من واجبنا أن نخيب ظن الحاسدين بنجاحنا في دراستنا وبسلوكنا وطاعتنا لوالدينا وحبنا للآخرين وأن نثبت لمن حولنا بأننا من نسيج خاص، هو القاسم المشترك لايمان الأب العميق بالله وصبر الأم وتضحيتها من أجل سعادة ونجاح أبنائها.

ولعل أهم حادثين أثرا في حياتي في تلك المرحلة، هما مناسبة اختتام القرآن، والاحتفال الرائع الذي خصني به أهلي بهذه المناسبة، وكان ذلك عند ترفيعي من الصف الثاني الابتدائي الى الصف الثالث، أما الحادث الثاني فكان انتقالي الى مدرسة جباب الابتدائية لمتابعة الدراسة في الصف الرابع والخامس. وبهذا الحدث الهام الأخير تجاوزت حدود مجتمع القرية وخطوت خطوة ثانية على طريق مستقبلي الطويل واكتشفت بعداً جغرافياً جديداً لم يكن يصل اليه بصري في محيط القرية الضيق. كان ذلك في بداية السنة الدراسية للعام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨. وكان من المفروض أن تكون هذه السنة آخر عهدي بالدراسة، لأن مدرسة القرية ليس فيها كما قلت سوى ثلاثة صفوف وقد تجاوزتها بنجاح بعد أن ختمت القرآن ولم يعد أمامي سوى الاشتراك مع أشقائي الذين يكبرونني في مساعدة الوالد بأعمال الزراعة، التي أصبحت أمقتها وأتهرب منها مستنداً الى مالاقيته من نجاح وتشجيع في دراستي و. . . وكنت أحلم بمتابعة الدراسة بشكل ما ولكني في الواقع لم أكن أتصور الطريق الذي سأسلكه.

وفي ذات اليوم قدم الى القرية أستاذنا السيد رشاد الجيوشي الذي أشرف على تعليمنا في العام الدراسي السابق ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧، وكان يتصف بقوة الحجة ودماثة الخلق فاستطاع أن يحظى بثقة شيوخ القرية، بل لقد أحضر بعض أفراد أسرته الى القرية ليعيشوا معه في العام الماضي، وانعقدت بين بعض

التلامذة، وكنت منهم ، وبين شقيقته الشابة المثقفة صلات مودة، واستطاعت من خلالها أن تنقلنا الى عالم خيالي مملوء بالآمال وأن تخلق من الأطفال الذين كناهم، شباباً تمتلىء صدورهم بالطموح والوطنية وأصبحنا بفضلها نعشق الأدب والشعر ونتطلع الى حياة ومجتمع يختلف اختلافاً كلياً عن حياة ومجتمع القرية المتخلف القاحل .

استبشرت بحضوره الى القرية لأنه الوحيد الذي يمكن أن يحل هذه المشكلة الصعبة ويقنع والدي وآباء بعض أقراني ممن هم من نفس وضعي من التلاميذ لكي يوافقوا على متابعتنا الدراسة في مدرسة قرية جباب المجاورة والتي تبعد عن قريتنا حوالي ٤ كم .

وكان له ذلك بالفعل خاصة وقد تم نقله اعتباراً من أول العام الدراسي الى مدرسة جباب ذاتها ، فتعهد لآبائنا بأن يشرف بنفسه على دراستنا . وفي اليوم التالي لحضوره الذي يطابق بدء العام الدراسي ذهبت مع ثلاثة من أطفال القرية برفقة الأستاذ رشاد جيوشي الى مدرستنا الجديدة في جباب مشياً على الأقدام بالطبع، وتم تسجيلنا، بمعرفته في الصف الرابع الابتدائي وكان ذلك بمثابة حدث تاريخي بالنسبة لنا ولقريتنا كافة يمثل أول بعثة دراسية خارج القرية .

أمضيت مع رفاقي عامين في مدرسة جباب وكنت طوالها الأول في الصف ولمست تشجيعاً وعطفاً من المعلمين مما زاد شغفي بالعلم ورغبتي في أن أكون دائماً عند حسن ظنهم بي . وفي نهاية العام الدراسي ١٩٣٨ - ١٩٣٩ ، سافرت مع أربعة من زملائي في الصف الخامس الى مدينة درعا (مركز المحافظة) حيث تقدمنا لفحوص الشهادة الابتدائية ، وكانت النتيجة أن نجحت بدرجة جيدة كما نجح زميلي عبد الله وهو أقرب الناس لي ، وشاء الصدف في تلك السنة ألا ينجح سوى تلميذ واحد من أبناء قرية جباب بدرجة لاتسمح له الدخول في المدارس الثانوية . وعندما أعلنت النتائج ونشرت أسماؤ نا بالصحف كانت فرحة أهلنا لاتوصف، واحتفل والداي وأهلي بهذه المناسبة وكأنها من أسعد أيام حياتهم ، كيف لا وقد أصبحت أول تلميذ ينال شهادة السرتفيكا في القرية

بدرجة جيدة، والحقيقة أن نجاحي وزميلي عبد الله منصور كان نقطة تحول في حياة القرية بأسرها بل ومنعطفاً في حياتنا الخاصة. فلم يعد للشيوخ والشباب والنساء حديث غير أحاديث الدراسة وصحف العاصمة التي تنشر أسماء الناجحين حتى ولو كانوا من أبناء الفلاحين الأمر الذي لم يكن له سابقة في تاريخ القرية، فكيف يمكن لأبنائها أن يكون لهم هذا الشرف العظيم وهم قابعون في قريتهم الصغيرة المعزولة عن كل العالم والتي لم تكن تعرف من الدولة سوى الدرك والجباة وحملات النهب والتأديب؟!.

المرحلة الثانوية:

مرت الفرحة بسرعة مذهلة، وحل محلها القلق والهموم باقتراب موعد افتتاح المدارس، كنت تسمع النقاش على أشده في منزلنا بل كثيراً ماكنت أدخل إحدى الغرف وأجهش بالبكاء لأنني لاأجد في المناقشات التي تجري بين والدي وشقيقي الأكبر مايحملني على التفاؤل بامكانية متابعة الدراسة الثانوية بسبب عجز الأهل عن تأمين تكاليف الإقامة في دمشق والدراسة فيها لأنهم بأمس الحاجة لكل قرش لكي ينفقوه على معيشة أسرة مؤلفة من ثلاثة عشرة نسمة، خاصة وأن بعض وجهاء القرية أخذوا يثبطون عزيمة والدي بالتقليل من أهمية الدراسة وأنه سيخسر ابنه عندما يذهب الى المدينة حيث ستفسد اخلاقه ولن يعود يتعرف على أهله وأبناء قريته من الفلاحين، وأنه من الأحسن له أن يساعد اخوته وينتظر حتى يبلغ الثامنة عشرة فيتطوع في «الدرك» أو في أية وظيفة صغيرة وأن يتزوج ليبقى على صلة دائمة بأهله وذويه وقريته.

غير ان عزيمة الوالدين والأخ الأكبر أصبحت من القوة بحيث يصغر امامها كل مستحيل. وفي هذا الظرف الصعب برزت شخصية شقيقي الأكبر عبد العزيز الذي كان في ريعان شبابه بل لقد كان من أجمل شباب القرية وأوعاهم. تحمل المسؤولية مع الوالد وهو دون الخامسة عشر. وسافر الى بيروت مع شباب القرية في السنوات العجاف في أوائل الثلاثينيات وعمل فيها عامين

متاليين كان خلالهما يؤمن دخلاً إضافياً يساعد على تأمين معيشة الأسرة في أحلك السنين التي مرت على حوران بل وسورية والعالم. تلك السنين التي كان يسميها الفلاحون سنين «الكزيرة» بين ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢. وقد عركته الأيام وصيرته رجلاً ناجحاً واسع الأفق محباً للعلم والمعرفة مولعاً بتتبع أحداث العالم وقراءة الصحف ومعاشرة المتنورين القلائل في القرية وخارجها، كما تفتحت عيناه على مجتمعات أخرى متطورة رآها في المدينة رغم أنه كان يعيش كعامل بسيط على هامشها. ولكنه أدرك أن العلم والمعرفة سلاحان تصغر أمامهما كل الأسلحة. لذا فإنه لم يتردد لحظة عندما تعهد للوالد بأن يضع كل جهده وعرق جبينه وراحته لكي يهيىء لأخيه الأصغر مالم تستطع إمكانيات الأب وظروف القرية أن تؤمنها له. ومن حسن الحظ كما أسلفت أن يكون الموسم جيداً في عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ وأن أسعار الحبوب بدأت بالارتفاع منذ بداية الحرب العالمية الثانية، وأن الشقيق الأكبر استطاع شراء «عربة نقل» (طنبر) وأخذ ينقل الحبوب والبضائع عليها من القرية الى دمشق وبالعكس. وبذلك تمكن من ايجاد مورد اضافي معقول يساهم في سد حاجات الأسرة ويوفر بعض المال شهرياً بما يكفي لمواجهة مصاريف دراستي ومعيشتي في دمشق التي لايتجاوز بضع ليرات سورية شهرياً، وكان يحمل لي ولرفاقي كل يومين أو ثلاثة بعض الأطعمة والمواد الغذائية البسيطة من القرية كالجبن واللبنة والسمنة والبرغل والعدس والخبز أحياناً.

وفي صباح أحد أيام آب ١٩٣٩ تقرر أن أذهب الى دمشق لأنجز معاملة الانتساب الى التجهيز الأولى وهذا يعني أن العائلة صممت على تحمل أعباء الدراسة حتى ولو كان ذلك على حساب لقمتهم. وفي هذا اليوم وضع والدي في جيبي أربع أوراق من فئة الليرة السورية وقبلني ودعا الله أن يوفقني ويحرسني، ورافقتني الوالدة حتى الطريق العام، درعا ـ دمشق، وودعتني وهي دامعة العينين ضارعة الى السماء بأن يكون الى جانبي، وبقيت التفت نحوها وهي تشير بيدها حتى ابتعد الباص ولم يعد بمقدوري رؤيتها، ووجدت نفسي كطفل بين أناس غرباء ينظرون الي بشيء من الشفقة لأنهم لايعرفون سبب

سفري لوحدي والدموع التي ترقرقت في عيني . . وماهي إلا ساعة حتى وصلنا مدينة دمشق العملاقة ، دخلها الباص من الناحية الجنوبية أوبما يسمى «بوابة الله» وسار محاذياً لخط حافلات الكهرباء «الترامواي» مجتازاً حي الميدان وباب المصلى ، وكنت أتلفت يمنة ويسرة فأشاهد العشرات من الناس يروحون ويجيئون على جوانب الشارع أمام دكاكين الباعة ومحلات تجارة الحبوب ، وكانت النسوة يرتدين اللباس الأسود ويغطين وجوههن بالحجاب على عكس نساء القرية ، أما الرجال فيرتدون البسة خليطاً بين اللباس الافرنجي والعربي ويضع معظمهم الطربوش على رؤوسهم وبعضهم يرتدي الكوفية البيضاء والعقال الأسود وقليل منهم يضع عمامات بيضاء أو طربوشاً ملفقاً بعمامة تميل للصفار (أغباني) . وبدا لي لأول وهلة أنهم يختلفون عن أبناء القرية ، فهم أصلح هنداماً وأكثر أناقة ، ولكن عيني كانتا تقعان على الكثير من الناس ذوي الثياب الرثة والشحاذين الذين لامثيل لهم في القرية . وفجأة وقف الباص أمام أحد الكراجات بالقرب من مخفر الشرطة المسمى «كراكون الشيخ حسن» ، أمام مقبرة الباب الصغير وأوعز السائق للركاب بالنزول لأن الرحلة قد انتهت ، وأنذرهم بأن الباص ينطلق من الكراج الساعة الثالثة ، نزلت مع بقية الركاب ويدي تشد على جيبي وكأنني أخاف على المبلغ الزهيد الذي فيها أن يتبخر أو ينشله أي انسان غريب ، وكل الناس بالنسبة لي آنئذ غرباء ، وماهي لا دقائق حتى كان جميع الركاب قد انصرفوا مسرعين باتجاه مركز المدينة وكأن الوقت يطاردهم أو يطاردونه ، وماكان مني إلا أن سألت عن عنوان الشخص الذي أوصاني أهلي بالذهاب اليه وهو شيخ جليل يدعى «عبد القادر الصباغ» يعمل تاجراً للأقمشة في سوق الذراع الموازي لسوق مدحت باشا أو سوق الطويل المعروف فظهر لي أن متجره ليس بعيداً عن الكراج ، وأشار علي سائق الباص أن أسير بمحاذاة خط حافلة الترام ، لأعبر الشارع المغطى الى أن أصل ساحة باب الجابية أمام جامع السنانية ثم أعرج الى اليمين فأدخل السوق المحاذي لجامع السنانية وأسأل أي شخص هناك ليدلني على متجر الشيخ الصباغ لأن الجميع يعرفونه ، فشكرته وسرت . . والحقيقة انني كنت ارتجف من الخوف

ولاأدري لأي سبب وبعد دقائق معدودات عند وصولي إلى النقطة التي تقع أمام مدخل مقبرة باب الصغير، اذا بشاب تبدو عليه علائم الفتوة يخرج من جادة جانبية الى يسار الشارع وكان يحمل بيده خيزرانة، وعلى رأسه طاقية، وله شاربان غليظان وماأن لمحته حتى أسرعت خطاي وسرت في جسمي قشعريرة هزتني. فهرولت لأن نظراته تبث الخوف في أوصالي خاصة ولم يكن في تلك اللحظة أحد المارة. صرخ بي بصوت أجش قائلاً «وآف ولاك». . ثم عاجلني بضربة من خيزرانة على كتفي أحسست بلذغتها كميسم نار سلق جلدي، فصرخت بأعلى صوتي، وبكيت. . وفي تلك اللحظة سمعت صوتاً يؤنب الشاب ويقول له ماذا تريد من الطفل أيها الأزعر؟! وتلفت جهة الصوت فاذا بشيخ يرتدي عمامة بيضاء وجبة رمادية يعدو نحوي ويشتم الشاب، وشعرت وكأن العناية الإلهية أرسلت هذا الانسان الطيب الشهم لينقذني، فعاد الي صوابي عندما وقف الشيخ الى جانبي ووضع يده على كتفي وواساني بكلمات أبوية حنونة، ثم سألني عن مقصدي، فذكرت له اسم الشخص الذي أريد الذهاب اليه، فاذا به يعرفه، أخذ الشيخ بيدي، ولكنني أصبحت منذ ذلك الوقت أخشى المرور في تلك المنطقة وأحاول الانتقال الى الرصيف المقابل كلما شاهدت رجلاً يرتدي شروالاً وطاقية ويحمل خيزراناً ولم يفارقني هذا الخوف الى أن انتهت دراستي الثانوية بل ان هذا الحادث لايزال ماثلاً في ذاكرتي حتى هذه الساعة وكأنه وقع لي منذ أيام.

استقبلني الشيخ الصباغ وابنه الأكبر بشير، رحمهما الله، وجزاهما عني في آخرتهما كل خير (لأنني لم استطع حتى الآن أن أرد لهما ماأولياني به من رعاية) لأنهما كانا بمثابة الأب والأخ الأكبر لي خلال دراستي الثانوية.

بعد ذلك بدقائق رافقني السيد بشير الى التجهيز الأولى ووقع على وثيقة خاصة يتعهد فيها بأن يكون مسؤولاً عني تجاه ادارة المدرسة، واستلمت وثيقة بتسجيل اسمي بين طلاب الصف السادس الثانوي. وأصبح السيد بشير الصباغ بعد ذلك ولياً لي مسؤولاً عني تجاه ادارة المدرسة.

كانت التجهيز الأولى عبارة عن بناء من الحجر الأبيض مربع ضخم أشبه

بالقصور العربية القديمة أو القلاع، تقع على هضبة في أجمل منطقة من مناطق غربي دمشق وأمامها حديقة غناء تشغل المساحة بينها وبين نهر بردى، وتطل على الشارع الرئيسي الذي يبدو من مركز المدينة ساحة المرجة باتجاه بيروت، وبمحاذاة هذا الشارع الجميل ينساب نهر بردى الخالد بكبرياء ليعبر قلب العاصمة ويفصل بذلك بين هضبة الثانوية والهضبة المقابلة لها على الضفة اليمنى للنهر حيث تقع كلية الطب وكلية الحقوق والمستشفى الوطني والمتحف، وبعض ثكنات الجيش الفرنسي، والى الجهة الغربية من المدرسة يقع زقاق حي الصخر، وبعيداً باتجاه الغرب الى يمين نهر بردى ينبسط المرج الأخضر بملاعبه الفسيحة التي تمتد بين الربوة غرباً وجامع السلطان سليم أو التكية السليمانية بمآذنها وقببها الرائعة شرقاً.

ولم يكن حول بناء التجهيز الأولى آنذاك من البناء مايضاهيها، بل لقد كانت محاطة من جانبها الشرقي والشمالي بمساحات مليئة بأكوام التراب، والى جانبها الغربي حي قديم نوعاً ما هو زقاق الصخر، وهو من الأبنية الحجرية التي لاترتفع أكثر من طابق أو اثنين. كم كانت دهشتي وسعادتي كبيرتين عندما وجدت نفسي أصعد درج المدخل الرئيسي وأدخل مع السيد الصباغ الى مكتب المحاسب، ثم معاون المدير فيستقبلانه ببشاشة ومودة وينظران إلي بعطف وترحاب، لقد غمرتني نشوة من السعادة أنستني حادث الصباح وبدأت أشعر أنني لم أعد وحدي في هذه المدينة الهائلة، فهناك وليي ووالده الجليل الشيخ الصباغ ومـؤ ولون في مدرستي، والذين سيقدمون الحماية والرعاية لي عوضاً عن أهلي.

عاد السيد الصباغ الى متجره بعد أن زودني بالارشادات والنصائح وأبديت له رغبتي بالبقاء في ساحة الشهداء (المرجة) لأمتع بصري بمفاتن العاصمة وأخذت انتقل بين الشوارع المتفرقة عن هذه الساحة، وقفت أمام الساعة التي كانت في الجانب الغربي من بلدية دمشق القديمة وفندق أمية أراقب مياه نهر «بردى» الذي طالما قرأت عنه في كتب المدرسة وحفظت الكثير من القصائد التي تتغنى به وكانت هذه أول مرة في حياتي أرى فيها نهراً تجري فيه

المياه الغزيرة الصافية، وذهب خيالي الى مقارنته بالساقية التي تجتاز أراضي قريتنا وهو يعبر تحت ساحة المرجة ولا أدري أين يذهب، وأتساءل كيف تقف كل هذه الأبنية الضخمة على جوانب الساحة والماء ينساب تحتها دون أن يؤذيها وأدركت العلاقة بين هذا النهر العظيم وازدهار مدينة دمشق الخالدة.

أمضيت بعض الوقت أتجول وأسرح الطرف في مقر الحكومة (السرايا) ومبنى البلدية القديم[1] وبناية العابد الضخمة وفندق أمية وجادة البحصة وسوق علي باشا الذي تفوح منه روائح الفواكه الشامية المنعشة، وشارع الملك فيصل فالسنجقدار وقادني المطاف أخيراً الى احدى دور السينما في شارع رامي القصير الجميل وكانت تسمى سينما غازي كان أمامها شخص يحمل جرساً يدندن فيه ويقول مامعناه أسرعوا فقد بدأ الفلم الأمر الذي أغراني بالدخول مع بعض المارة فشاهدت لأول مرة في حياتي فيلماً سينمائياً ملوناً عن «حياة طرزان» في غابات افريقيا، وكنت كأنني في حلم، وخيل الي أنني ابتعدت عن القرية وانتقلت الى عالم واسع لاحدود له ولمست الفارق الهائل بين المحيط الضيق الذي قضيت طفولتي فيه، والآفاق الواسعة الزاهية الألوان التي فتحتها المدينة أمام عيني.

وعندما خرجت من السينما وكان ذلك حوالي الثانية بعد الظهر تقريباً هرعت مهرولاً الى الكراج وانتظرت بعض الوقت الى ان اكتمل عدد الركاب وغرقت في مقعدي مع أحلامي بعد أن تحركت البوسطة ولم أفارقها حتى وصلت مفرق القرية، قبيل غروب الشمس بقليل.. نزلت من الباص وأطلقت لقدماي العنان ولم أتوقف عن الركض حتى وصلت منزلنا الذي كان يقع في الطرف الغربي من القرية. كانت فرحة الأهل عظيمة اذ أحاط بي اخوتي وأخواتي ووالديّ وكل واحد منهم يريد أن يسمع قصة رحلتي الى دمشق.. وعندما رويت لهم حادث الخيزرانة وقد اضطروني لتكرارها مرات عديدة، أما ليستوعبوا بعض تفاصيلها أو ليضحكوا مني، وبعضهم يقول لي ساخراً، ياحيف على الشباب؟!. شفقة زكرت شامي يخوفك؟..؟ أما الوالدة فقد اغرورقت عيناها بالدموع ولم تهدأ حتى كشفت عن جذعي ورأت بأم عينيها أثر

ضربة الخيزرانة . . فتوجهت الى الله داعية على الشاب الشرير وشكرته على انه هيأ لي ذلك الشيخ المنقذ وقال الوالد الله كبير ياحُرْمَةْ والدنيا لاتخلو من أولاد الحلال ، خاصة ونحن لانحب الشر والأذى لأحد . لذلك لايمكن أن ينسانا الله من رحمته كما لايمكن أن يهمل ابنا في تجربته الجديدة .

كان علي أن أبدأ الاستعداد للرحيل الى دمشق لأن موعد افتتاح المدارس قد اقترب ولابد من حل مشكلة الإقامة في دمشق لأن محاولاتي للحصول على كرسي مجاني في التجهيز لم تفلح رغم علاماتي الممتازة فهذا يحتاج الى دعم من أحد زعماء المحافظة (النواب) أو شخص ذي نفوذ وحظوة لدى الفرنسيين في العاصمة ، لأن بعض الكراسي المجانية مخصصة اصلاً لأبناء ذوي النفوذ ولإرضاء الزعماء . . . كما كان من الممكن لي أن أحصل على الكرسي الداخلي أي المبيت والطعام مقابل قسط سنوي لايتجاوز مائة وخمسين ليرة ، ولكن المشكلة هي أن هذا المبلغ لم يكن متوفراً لدى الأهل دفعة واحدة أو على دفعتين ، لأنهم يعتمدون على الموسم الزراعي ، لهذا كانت خير الحلول المتوفرة هي أن أذهب لدمشق وأستأجر غرفة مع أحد زملائي لنتقاسم الايجار وننقل كل لوازمنا الضرورية من القرية واتفقت مع زميلي وابن خالي عبد الله منصور لاستئجار غرفة لدى احدى الأسر المسيحية في حي القرشي بالميدان لنقضي فيها عامنا الدراسي الأول .

والحقيقة أن هذه المصادفة هونت أمر سفرنا على الأهل كما عززت علاقاتنا التي تكرست وتمتنت بمرور الأيام والسنين وجعلت منا شريكين في كل شيء وخاصة في مواقفنا من جميع المشاكل والأحداث في كل المستويات وفي جميع المناسبات في القرية والمحافظة وفي دمشق العاصمة وتجاه الأحداث الوطنية والنضال ضد الانتداب ، والنضال السياسي بعد الاستقلال وقد استمر ذلك سنين طويلة ولم يتوقف هذا التعاون الصميمي إلا عندما اختطفت يد المنون القاسية روح هذا الأخ والصديق والزميل في ٥ شباط ١٩٧١ عندما كان آنذاك يتبع دورة العلوم الادارية في ألمانيا الديمقراطية وفقدت فيه اعز أصدقائي وأقرب الناس لي .

استأجرت وزميلي عبد الله غرفة بسيطة فارغة بأجر زهيد لدى عائلة مسيحية في زقاق القرشي، كما قلت، حي الجزماتية، وأحضر كل منا لوازم المطبخ الأساسية (وابور كاز، وطنجرة وملعقة وصحناً وقليلاً من البرغل والعدس والجبنة وأشياء أخرى بسيطة التي تغنينا عن ارتياد السوق وشراء ما يتجاوز طاقاتنا) أما مشكلة اللباس فكانت أصعب ماواجهنا في هذه المرحلة، لقد كان علينا أن نرتدي بزة فرنجية أي (جاكيت) سترة وبنطلون، وقميص وكرافة وأن نخلع الكوفية والعقال عن رؤوسنا وهذه عادة أهل المدن غير المستحبة من القرويين آنذاك . .

رافقني شقيقي الأكبر عبد العزيز وولي أمري السيد بشير الصباغ بدمشق الى أحد المخازن الكبرى المجاورة لسوق الحميدية الرائع الصنع حيث تزودت باللباس الضروري وعدت الى الغرفة مع الزميل عبد الله لنخلع ملابس القرية ونرتدي الألبسة الجديدة الفرنجية لأول مرة في حياتنا ونصبح منذ تلك الساعة «أفندية» حسب رأي أهل القرية. كان هذا منعطفاً حاسماً وأساسياً في حياتنا، يفوق في أهميته بالنسبة لأبناء القرية، متابعتنا للدراسة في ثانويات العاصمة، فقد أصبحنا في رأيهم مختلفين تماماً شكلاً وموضوعاً، لأننا خلعنا عن رؤوسنا العقال والكوفية. ومنذ ذلك الوقت أخذ بعض شيوخ القرية يطلقون علينا اسم «المفرعين»[1] ويعنون بذلك أننا لم نعد متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم لاننا أصبحنا حاسري الرأس.

بدأت حياتنا الدراسية اليومية تأخذ طابع الاستقرار فذهبت شخصياً الى التجهيز الأولى، وذهب زميلي عبد الله الى ثانوية التجارة التي كان مقرها في مبنى البيمارستان القديم عند التقاء سوق الحميدية بأحد الأزقة المتفرعة باتجاه الحريقة، كنا ننهض في السادسة والنصف ويتولى أحدنا تحضير الشاي ومد طبق الطعام ويحضر كمية من الفول أو المسبحة فنتناول الافطار ثم نخرج معاً لنركب الترامواي فينزل هو عند مدخل الحميدية واستمر شخصياً الى ساحة الشهداء فانزل أمام فندق أمية وأتابع السير حتى الثانوية ماراً أمام فندق أمية القديم، ومقهى الحمراء، ثم فندق بغداد ومطعم سقراط، فمقهى البرازيل، والى

الجانب الآخر سينما الأهرام ومقهى الهافانا، ثم أصعد الشارع العمودي باتجاه مبنى التجهيز، والى اليمين شركة الكهرباء.

ولاأنسى اليوم الأول من دخولي الثانوية حيث كان المئات من الطلاب يتجمعون حول بناء التجهيز الضخم. وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً فتح الباب الغربي المقابل لحي زقاق الصخر وأخذ الطلاب يدخلون وفي يد كل منهم مصنف وبعض الدفاتر والكتب وكان بينهم من يرتدي الألبسة الأنيقة ويحملون بأيديهم حقائب جلدية لامعة تميزهم عن غيرهم.. وعندما أصبحنا في الباحة الداخلية الكبرى قدم أحد المعيدين، وأخذ ينادي بصوته على الطلاب الجدد، ثم عين لكل فئة منا الشعبة الخاصة به ورقم غرفة الدرس، واصطفت كل شعبة على حدة ثم وجهنا المعيد المخصص لشعب الصف السادس، الى غرف الدراسة، واستكتبنا البرنامج الشهري وتوزيع الحصص بين الأساتذة حسب المواد، وماهي إلا دقائق حتى دخل علينا أول استاذ وبدأت الدراسة دون إضاعة دقيقة من الوقت. كنت وكأنني في حلم، ذلك أني دهشت من جو المدرسة ونظافتها وضخامتها، وكثرة عدد الطلاب والحزم والنظام الذي قابلنا فيه المعيدون.. ولم اكن في وضع استطيع معه ان التقط أسماء بعض الزملاء وأسماء المعيدين والأساتذة الذين تعاقبوا علينا ذلك اليوم.. وكل مافعلته هو كتابة البرنامج، وساعات الدراسة ونوع المواد وأسماء الكتب والدفاتر التي علينا احضارها في اليوم الثاني...

ولم أعد اذكر الآن كيف سارت الأمور عندما استغرقت كلياً في الدراسة، ولم أعد أفرق بين يوم وآخر، نهوض مبكر، حافلة الترامواي، الدخول للمدرسة متابعة الدروس، والعودة ظهراً الى الغرفة لتناول الغداء ثم العودة للمدرسة لحضور دروس بعد الظهر، وعودة في المساء للمطالعة وكتابة الوظائف المنزلية... فالنوم.

وهكذا... وكل مايتعلق في ذاكرتي هو أنني كنت فخوراً غاية الفخر لأنني كنت في عداد تلامذة أول ثانوية في العاصمة، هذه المدرسة العظيمة التي كانت تتمتع بسمعة علمية ووطنية خاصة في الأربعينات والتي كانت احدى

قلاع الحركة الوطنية والنضال ضد المستعمر، كما كنت سعيداً بزملائي وأساتذتي الذين أصبحت أسماؤهم تبرز مع تقدم السنين بين قادة الفكر والحركة الوطنية والسياسية في سورية، ومن بين هؤلاء الأساتذة السادة جودت الهاشمي مدير الثانوية وميشيل عفلق أستاذ التاريخ القدير، وصلاح البيطار استاذ الفيزياء وبكري قدورة أستاذ التاريخ العربي ومحمد البزم أستاذ الأدب العربي وجميل صليبا أستاذ الفلسفة ومحمد المبارك أستاذ الأدب العربي وعلي الجزائري معاون المدير وأستاذ الترجمة وجميل سلطان وخلدون الكتاني، ووجيه القدسي ووجيه السمان وهاشم الفصيح وانطوان جناوي وفاخر العاقل والنجاري وجورج حداد ورشدي بركات وحافظ الجمالي والشيخ بهجت البيطار وعز الدين التنوخي . . . وغيرهم . .

أما حياتي خارج المدرسة فكانت رغم قسوتها وبساطتها في منتهى السعادة، كنت أتعاون مع زميلي عبد الله في تحضير الأطعمة، ونتقاسم مايصلنا من أغذية بسيطة من القرية، وأحياناً نتناول افطارنا أو غداءنا عند فوال الحارة، فيكون ذلك بالنسبة لنا عيداً . وفي ايام الجمعة كان أحدنا يذهب باكراً الى الحمصاني ليعد صحناً من التسقية أو المسبحة أو الفول ونقيم احتفالاً مناسباً، ثم نرتدي ملابسنا ونذهب الى أحد الخانات الواقعة شرقي حي الميدان حيث تؤمها قوافل الطنبرجية وقوافل الابل القادمة من قريتنا والقرى المجاورة، وكم نكون سعداء عندما نلتقي ببعض أبناء القرية وخاصة عندما يحملون الينا شيئاً من الأطعمة ومبلغاً زهيداً من المال، ونستمع منهم الى اخبار القرية ووصايا الأهل ثم نذهب بعدها الى احدى الحدائق العامة أو دور السينما وقد نعود أحياناً بخفي حنين لامال ولاطعام، فنرجع الى الغرفة لنقضي بقية يوم الجمعة على أسوأ حال، وقد نلتقي أحياناً ببعض أبناء القرية فنكلفه بحمل البستنا الوسخة التي نرسلها لأهلنا لغلسها، أو لنقترض منه مبلغاً بسيطاً ريثما تأتينا مخصصاتنا الشهرية من الأهل، غير اننا اعتدنا على هذه الحياة، وتوصلنا بعد تجارب قاسية جداً لأن ندخل عليها بعض النظام وأن نضبط في الحدود الممكنة ميزانيتنا لاسبوعين أو ثلاثة، ومع الأيام تعرفنا على مدينة دمشق وشوارعها ودور

السينما فيها وأصبحنا نتجول فيها بسهولة ولم نعد بحاجة لاستخدام الترامواي في تنقلاتنا بل لقد كنا نضطر لذلك أحياناً عندما نتأخر بخصصاتنا ، واعتدنا على أن نقنن مصاريفنا الى أدنى الحدود ولم يكن ذلك بالسهل اليسير خاصة عندما كنا نرى بعض زملائنا يترددون مرة في الأسبوع على دور السينما ويشترون بعض الكتب الأدبية والروايات والمجلات ويرتدون الملابس الزاهية الأنيقة والمعاطف الدافئة في فصل الشتاء . والتي لم نحظ بارتدائها طوال أيام دراستنا .

وعندما يطلب الينا بعض الأساتذة وخاصة أساتذة الأدب والتاريخ مطالعة بعض المراجع التاريخية والأدبية كنا نتردد على المكتبة الظاهرية الكائنة بالقرب من المسجد الأموي عند نهاية سوق الحميدية للبحث عن هذه المراجع ونبقى في مكتبتها الساعات الطوال ، نلخص بعض المواضيع المطلوبة لأننا لم نقدر على شرائها .

أخذت على نفسي أن أبذل أقصى جهودي لأكون بين الطلاب الأوائل وأن أحظى بثقة أساتذتي والمعيدين المكلفين بالنظام وألا أخيب آمال والديّ وأشقائي الذين يضحون من أجلي ، ولكن ظروفي المعاشية خارج المدرسة لم تسعفني في كثير من الأوقات ، إلا أنني استطعت أن أكون بين الربع الأول من طلاب الشعبة التي أنتمي اليها وكان تعدادها يتراوح بين ٣٠ ـ ٤٠ طالباً وأصبحت على علاقة طيبة مع أساتذتي ، تتجاوز أحياناً كثيرة ترتيبي المتسلسل بين زملائي . وعندما انتهى العام الدراسي الأول في منتصب عام ١٩٤٠ عدت الى القرية فوجدت أن الأحاديث في مضافاتها تبشر بفشلي وفشل زميلي الوحيد بالدراسة ، وتوجه النقد لأهلنا الذين يقتطعون اللقمة من أفواههم لكي يقدموها لنا ونحن نبذرها في التزين وارتداء الكرافات وتصفيف الشعر والتسكع في شوارع دمشق ، وكان الدافع لهذه الحملة من بعض وجوه القرية أساسه الغيرة والحسد وان أمكن تثبيط همة الأهل لقطع دراستنا لأنها بالفعل بدأت تشكل نقطة تحول تهدد بزعزعة بعض الأفكار والعلاقات السائدة في مجتمع القرية الساكن ، وتصرف الأنظار عن حدود القرية الضيقة لتفتح آفاقاً بعيدة أمام

الشباب ليتحرروا من رعايتهم الأبوية الاستبدادية التي عاشها أبناء القرية قروناً عديدة .

الفصل الثالث

الحرب العالمية الثانية

كان أول عهدي بالدراسة الثانوية كما سبق وذكرت في العام الدراسي (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠) وتشاء الصدف أن تكون بداية العام الدراسي متطابقة تقريباً مع نشوب الحرب العالمية الثانية، عندما أعلن هتلر فجأة تصميمه على تسوية المسألة البولونية ومسألة دانزيغ بالقوة، فأوعز للجيش الألماني ـ الفيرماخت الذي كان قد استعد للحرب منذ ٢٧ / نيسان للبدء بالهجوم على بولونيا في صباح ١ أيلول ١٩٣٩ ولما كانت بريطانيا وفرنسا قد وقعتا مع بولونيا معاهدة تحالف في ٢٥ آب من نفس العام، ونظراً لرفض هتلر الانذار الفرنسي البريطاني بسحب جيوشه من بولونيا، فقد أعلنت هاتان الدولتان الحرب على ألمانيا يوم ٣ أيلول ١٩٣٩ وتبعتهما كل من استراليا ونيوزيلاندا واتحاد جنوب افريقيا وكندا[٣].

لم تدم الحملة الألمانية الصاعقة ضد بولونيا أكثر من ستة وعشرين يوماً فقد سقطت العاصمة وارسو بيد الجيش الألماني بتاريخ ٢٧ ايلول، والتي أظهرت لأول مرة في التاريخ نوعاً جديداً من الحرب أطلق عليه اسم «الحرب الخاطفة» التي اعتمدت على الاستخدام الكثيف المنسق للدبابات والطائرات.

وفي ١٧ ايلول من نفس العام، واستناداً الى المعاهدة الالمانية السوفيتية

(المسماة معاهدة مولوتوف - ريبنتروب التي وقعت في ٢٣ آب من نفس العام) عبرت الجيوش السوفييتية الحدود البولونية بحجة حماية السكان الأوكرانيين والبيلوروسيين.

وبتاريخ ٢٨ أيلول وقع السوفييت والألمان اتفاقية التقسيم لبولونيا للمرة الرابعة، وأصبحت الحدود الألمانية السوفييتية تنطبق على الخط المسمى خط بوغ (BUG) وعلى أثر ذلك احتلت روسيا كلاً من استونيا (٢٨ / ايلول) ولتيونيا (٥ تشرين أول) وليتوانيا (١٠ تشرين أول) من نفس العام.

وبتاريخ ٦ تشرين الأول عرض هتلر السلام على الحلفاء (فرنسا وانكلترا) ولكنهم رفضوه فوراً وفي ٧ تشرين قدم الملك بلجيكا وملكة هولاندا اقتراحاً ليقوما بالمساعي الحميدة فرفضا اقتراحه أيضاً.

ألمانيا تحتل فرنسا وتنهار أسطورة الاستعمار:

وبتاريخ ٢٨ آذار ١٩٣٩ وقعت انكلترا وفرنسا معاهدة التزمتا بموجبها عدم عقد أية هدنة وسلام منفصلين مع هتلر (وكان على رأس الحكومة البريطانية ونستون تشرشل، وبول رينو على رأس الحكومة الفرنسية).

وبتاريخ ٩ نيسان احتل الألمان الدانمرك وفي ١٠ أيار ١٩٤٠ اجتازت خمسة جيوش ألمانية الحدود الهولاندية والبلجيكية الفرنسية على جبهة تمتد من البحر شمالاً حتى اللوكسمبرغ جنوباً وفي ١٥ منه استسلمت القوات الهولاندية، وفي ٢٨ منه أعلنت القوات البلجيكية وقف اطلاق النار بناء على أوامر الملك ليوبولد الثالث، وفي ١٦ حزيران سقطت الحكومة الفرنسية برئاسة بول رينو وكلف رئيس الجمهورية لوبران المارشال بيتان لتشكيل الحكومة الجديدة التي طالبت فوراً بالهدنة، وفي ٢٢ حزيران وقع بيتان معاهدة الاستسلام مع ألمانيا، وفي ٢٤ حزيران وقع معاهدة مماثلة مع ايطاليا. وهكذا سقطت فرنسا تحت الاحتلال الألماني خلال فترة لاتتجاوز أربعين يوماً، وانهارت أسطورة جيشها الذي كلف مليارات الفرنكات وانهارت سمعة الجيش والاستعمار الفرنسي في أذهان الجماهير العربية في سورية وهلل معظم السوريين لهذا الحدث التاريخي الذي يعتبر في نظرهم هزيمة للمستعمر الذي يحتل بلادهم منذ نهاية الحرب العالمية الأولى.

وبقيت انكلترا لوحدها في أوربا تنتظر دورها بعد أن سحبت آخر جندي

لها من الأراضي الفرنسية تحت قصف المدفعية والطيران وهجمات القوى المدرعة الألمانية على ميناء دونكرك، وأخذت صورة بريطانيا العظمى تهتز أيضاً في أنظار العرب الذين يئنون تحت استعمارها منذ أواسط القرن التاسع عشر (في مصر وفلسطين والعراق ومحميات الخليج واليمن الجنوبي).

والحقيقة أن الرأي العام السوري والعرب عامة أخذ يتعاطف مع قوات المحور لأنه كان ينظر اليها كعدوة لأعدائه الفرنسيين والبريطانيين الذين يحتلون الوطن العربي من الخليج الى المحيط ويتواطؤون مع الصهيونية لإقامة وطن لها في فلسطين، فهي توجه الضربات التي عجز الشعب العربي حتى ذلك الوقت عن توجيهها للاستعمار هذا بالاضافة الى ان هتلر اكتسب سمعة خاصة بين أوساط الرأي العام العربي كعدو لليهود الذين كانوا يحاولون منذ بداية الحرب العالمية الأولى اغتصاب فلسطين بالتواطؤ مع الاستعمار البريطاني.

أصبحت أحداث الحرب من بين أهم مشاغل وتسلية أبناء القرية اليومية وأصبحت جميع المجالس تتناول آخر مانشرته الصحف في العاصمة وماأذاعته محطتا برلين ولندن التي يصغي اليها عدد من أبناء القرية صباح مساء في مضافة المختار لأنه الوحيد الذي اقتنى راديو يعمل على بطارية تغذيها مروحة هوائية نصبت فوق سطح منزله وأصبحت تميز هذا البيت عن غيره من بيوت القرية. كانت الغالبية العظمى من أهالي القرية تتعاطف مع المحور وتحقد على فرنسا وبريطانيا المستعمرتين وكان منطقهم يستند الى مبدأ «عدو عدوك صديقك»، ولم يكن لهذا الموقف أية صلة أو خلفية عقائدية، فالدكتاتورية التي يمثلها النظامين النازي والفاشي في ألمانيا الهتلرية وايطاليا، ليست في نظرهم أسوأ من الحكم المطلق الذي يمارسه المفوض السامي الفرنسي أو البريطاني في سورية أو مصر أو العراق أو فلسطين أو أية دولة في المغرب والمشرق العربيين.

ولاازال أذكر أن بعض نساء القرية كن يتناقشن بشؤون الحرب وهن يملأن أوعيتهن من البئر ويضرعن لله بأن ينصر هتلر على المستعمرين الفرنسيين.

وبدأ العام الدراسي الثاني (١٩٤٠ - ١٩٤١) وكنا ننتظره بفارغ الصبر خاصة وقد انضم الينا في هذا العام عدد جديد من أبناء القرية الذين أنهوا

الدراسة الابتدائية وقرر ذووهم إرسالهم الى دمشق لإتمام دراستهم الثانوية. بذلك أصبحنا أربعة طلاب نشترك في غرفة واحدة في جادة باب المصلى، نتقاسم الإيجار وإعداد الطعام ونتعاون على مجابهة الحياة في المدينة بما يصلنا شهرياً من مبالغ نقدية زهيدة وأطعمة. كما كنا نقضي أيام العطل مع بعضنا. وكان أبناء الحي ينظرون إلينا بكثير من الحب والتقدير، ولم نعد نخشى من التجوال في الشوارع ليلاً أو نهاراً، لأننا أصبحنا قادرين على الدفاع عن أنفسنا حيال «الزكرتية والزعران» الذين كانوا يتعرضون أحياناً للمارة خاصة بين كركون الشيخ حسن وساحة المرجة وهو طريقنا الذي كنا نسلكه يومياً في الذهاب والاياب الى مدارسنا.

وكان جو الحرب قد سيطر على دمشق أيضاً. وقويت شوكة القوى الوطنية وأخذت تلح بالمطالبة بالاستقلال بعد أن أرسلت حكومة فيشي مفوضاً سامياً الى سورية يدعى الجنرال دانز. وخلال هذه السنة الدراسية شهدت التجهيز اولى مظاهرات عنيفة خاصة عندما نشبت ثورة رشيد عالي الكيلاني في أيار ١٩٤١ مع نهاية الدراسة، وكنا نسمع عن ذهاب الكثيرين من رجال سورية للتطوع مع القوات العراقية في ثورتها ضد الاستعمار البريطاني. كما أذكر الأيام التي دخلت فيها القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة، الأراضي السورية على محور درعا ـ دمشق، ولأول مرة في حياتي كنت أراقب مع أطفال القرية وشبابها وشيوخها تحرك هذه القوات واصطدامها بمفارز استطلاع متناثرة وبسيطة من القوات الفرنسية الموالية لحكومة فيشي، على الطريق العام درعا ـ دمشق وقد شاهدنا بأم أعيننا معارك جوية بين طائرات ألمانية وبريطانية، وقد سقطت طائرة بريطانية في احدى حقول القرية، كما تعطلت بعض الآليات، وشاهدنا جنود المشاة البريطانيين والفرنسيين يزحفون سيراً على أقدامهم وعلى جبهة واسعة باتجاه الشمال نحو دمشق. وكانت مناسبة لكثير من شباب القرية ليلاحقوا هذه الوحدات ويستولوا على بعض الألبسة والبطانيات والمعلبات والسكاير، بل لقد راجت خلال فترة تجارة هذه اللوازم والأغذية العسكرية. ويبدو أن الجيش البريطاني كان يتغاضى عن هذه الأعمال كما أن بعض الضباط

وضـــاط الصف والجنود كانوا يتاجرون سراً بهذه الأشياء التي كان بعضها نادراً لايمكن الحصول عليه إلا بالسوق السوداء الذي لايعرفه سكان القرى.

ومع دخول القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة، كانت بعض الطائرات التابعة لهذه القوات تلقي المناشير الموجهة للشعب السوري بتوقيع الجنرال كاترو ممثل فرنسا الحرة (F.F.L.) في الشرق، تدعوه للتعاون مع الحلفاء على أن تمنح فرنسا الاستقلال الكامل لسورية فور انتصار الحلفاء. وكنا نتراكض لالتقاط هذه المناشير ونقرأها على أهالي القرية بحماس شديد ونعلق عليها مستبشرين بقرب الاستقلال.

بعد دخول القوات الحليفة المؤلفة من الوحدات البريطانية وبعض الوحدات التابعة لفرنسا الحرة، ورحيل الجنرال دانتز عن سورية، أصبح في سورية نوع من الانتداب المزدوج الفرنسي ـ البريطاني، فكان هناك ممثلاً لحكومة صاحب الجلالة البريطانية يدعى الجنرال «سبيرز»، ومفوضاً سامياً فرنسياً هو السيد «بيو». .وقد تشكلت حكومة وطنية في ظل هذا الانتداب الجديد تعكس المصالح الفرنسية البريطانية، وتضع جميع المرافق الحيوية في خدمة المجهود الحربي للحلفاء، واعتاد المواطنون على رؤية وحدات عسكرية من آسيا وافريقيا واستراليا.

وبدأ العام الدراسي الثالث ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ وأخذت الأحداث الحربية والنضال الوطني بدفع الطلاب للاهتمام بالسياسة، خاصة وأن معظم أساتذتنا كانوا يكرسون قسماً من أوقات حصصهم لشرح الوضع الدولي والموقف بالنسبة للعالم العربي عامة وسورية خاصة على أساس الوعد بالاستقلال. وظهر في عام ١٩٤٢ أن فرنسا الحرة بزعامة الجنرال شارل ديغول عادت فسيطرت على سورية بعد هزيمة قوات حكومة فيشي المتعاونة مع الألمان كما فشلت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق وأصابنا من جراء ذلك نوع من خيبة الأمل، وأخذ الناس آنذاك يتناقلون أساطير جيش روميل في الصحراء الغربية تقدم القوات الألمانية في مسرح العمليات الأوربي باتجاه البحر الأسود، بل ويبدو من تحركات البريطانيين في مصر وفلسطين والعراق وسورية أنهم أخذوا يستعدون

للدفاع عن هذه المنطقة مما يدل على وجود احتمال بسقوط مصر واندفاع روميل شرقاً عبر فلسطين، ثم يتجه شمالاً نحو العراق وسورية، بغية الالتقاء مع القوات الألمانية التي أكملت احتلال اليونان وكريت وتغلغلت في أراضي الاتحاد السوفيتي باتجاه شبه جزيرة القرم واضعة أمام العالم احتمال إطباق الكماشة الألمانية على مجمل بلدان الشرق الأوسط.

تصاعد النضال والوعي الوطني ومساهمة الطلاب بالنضال:

لقد حطمت الحرب تلك القوقعة الفولاذية الصعبة التي كان يعيش ضمنها المجتمع الريفي وفتحت أعين الناس على آفاق واسعة تمتد الى أبعد بقاع الأرض فوق سطح الكرة الأرضية، وكان الفضل الأول في ذلك.... لهذا الجهاز السحري العظيم المسمى «بالراديو» الذي كان يوصل اليهم الأحداث ساعة بعد ساعة ويحدثهم عن كل شيء ويفصل لهم المعارك التي تدور على جميع جبهات النضال في اوربا الغربية والشرقية وفي شمالي افريقيا والمحيط الهادىء بين القوات اليابانية والقوات الأمريكية.

وأصبح بعض المتعلمين من القرية يهتمون بقراءة الصحف، وأذكر كيف كان العديد من رجال القرية يتحلقون حولي وحول زملائي من طلاب القرية الذين أصبح عددهم في عام ١٩٤٢ حوالي العشرة، عندما كنا نعود من العاصمة ونحمل معنا الصحف، أو عندما تعود قافلة الطنبرجية وخاصة شقيقي الأكبر عبد العزيز الذي كان من أبرز المثابرين على قراءة الصحف ومتابعة النشرات الاذاعية حتى أصبح في نظرهم من أبرز الخبراء السياسة الدولية خاصة وأن رحلاته الاسبوعية كانت تنقله الى قريتي بصير وخبب المجاورتين لقريتنا واللتين تمتازان بكثرة المتعلمين فيهما واهتمام سكانهما بالسياسة وتتبع الأحداث الداخلية والخارجية.

لقد اكتشف مجتمع القرية أبعاداً جديدة للعالم أعطت لذواتهم بعداً اضافياً، كيف لا وقد أخذوا يسمعون عن ألمانيا الهتلرية التي اكتسحت جيوشها

معظم أوربـا، وهي ماضيـة لاكتسـاح روسيـا البلشفيـة . . . وكـانـوا يرددون حكـايـات البطـولـة التي تقـوم بها القـوات البـر ية والجوية والبحرية الألمانية كما يتحـدثـون عن اليـابـان والامـبر اطـور هير و هيتـو الذي دحرت جيوشه جيوش بريطـانيـا وفـرنـسـا في جنـوب شـرق آسيـا واحتلت الصين واندونيـسيا والفلبين . ويقف القـرويـون منـدهشـين بصـورة خاصـة أمام أسطورة الالتفاف على خط ماجينـو الـذي كان يتغنى به الفـرنـسيـون المتغطرسـون لسنوات طويلة ويعتبر وه الـدرع الـواقي لهم من الأوبـاش الألمـان . ثم مالبثـوا أن استمعوا الى تحالفات دوليـة شـملت الغـالبيـة العظمى من دول العالم ، فانقـسم النـاس الى معـسكرين معـسكر المحور وبضـم ألمانيا وايطاليا واليابان وورائهم جميع البلـدان التي احتلوها بالقوة في اوربا وافريقيا، وجنوب شـرقي آسيـا ، ومعـسكر الحلفاء ويضـم بريطانيا وفـرنـسـا والاتحـاد السـوفيـتي ـ بعد أن عبرت الجيوش الألمانية حدوده صباح يوم ٢٢ حزيـران ١٩٤١ ومـزقت بذلـك ميثـاق موسكو المعقود في ٢٣ آب ١٩٣٩ ـ وانضمت الى هذا الحلف فيـها بعـد الـولايـات المتحـدة الأمريكية التي أعلنت الحـرب على المحـور اثـر الغـارة المفاجئة التي شنتها الأسـاطيل الجوية والبحرية اليـابـانيـة على القـاعـدة البحرية الأمريكية في ميناء بير ل هاربوريوم ٧ كانون الأول ١٩٤١ ، وفي اليوم التالي ٨ كانون ثاني أعلنت اليابان الحرب رسمياً على الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا واستراليا ، وهكذا أصبحت الحرب كونية بكـل معنى الكلمـة بعـد أن زجت أمـريكا واليابان بقواتهما في أتون هذه الحرب وأصـبح مجتمـع القـريـة لأول مرة في تاريخـه يدرك حقيقة أبعاد الكرة الأرضيـة ، وأنهم لايمثلون في هذا الكوكب أكثر من نقطة ماء في بحر واسع . وكثيراً ماكان الشـيوخ يقولون «ياجماعة وين كنا عايشين هاالعمر؟» ويقارنوا بين الحرب العالمية الأولى التي لم تحدث أي تغيير في تفكيرهم أو علاقـاتهم وعـاداتهم ، ولم توسع آفـاق وعيهم ، وبـين هذه الحـرب التي قلبت الـدنيـا رأساً على عقب وزعزعت الكثير من القيم والمفـاهيم والأوهـام التي كانت تسـيطر على المجتمـع ، وكأنها حقائق ثابتة لاتقبل النقاش .

ووجدت نفـسي شـخصيـاً أمام إعصار هائل من الأحداث اتسـعت دائرته

خلال عامين ابتداء من القرية وأخذت تنتشر لتشمل العاصمة ثم تراب الوطن ومدنه وقراه وسهوله وجباله ووديانه وأنهاره، ثم اتسعت لتغلف الوطن العربي من الخليج الى المحيط، ثم مالبثت الحرب أن أضافت لهذه الساحة الكبيرة أبعاداً أخرى لتشمل العالم بأسره حيث تدور المعارك الضارية في معظم أرجائه، وأصبحت أشعر كغيري من الطلاب بأن مصيرنا ومصير الشعب العربي بكامله مرتبط الى حد كبير بنتائج هذه الحرب الكونية دون أن يكون لنا دور يذكر فيها، اللهم إلا اذا اعتبرنا مشاركة بعض المتطوعين العرب في صفوف القوات البريطانية والفرنسية واعلان جميع الحكومات العربية الحرب نظرياً على ألمانيا والانضمام الى جانب الحلفاء ووضع امكانياتها وأراضيها تحت تصرفهم.

وبذلك انفتحت أمامي آفاق من المعرفة لاتحد وبفضل أساتذتي واهتمامي بدأت أشعر ببلورة وعيي الوطني والقومي والاجتماعي ولم يتجاوز سني آنذاك الرابعة عشر عاماً، وأصبح من عادتي توفير القروش القليلة لشراء الصحف وبعض المجلات، وأعترف أنني كنت أعطف على معسكر المحور شأني بذلك كشأن معظم رفاقي من ثانوية التجهيز الإولى بل ومعظم أبناء القرية.

ومع تنامي الوعي عندي واتساع معرفتي أصبحت أشعر وكذلك معظم رفاقي في المدرسة اننا من جيل تهيؤه الأقدار للقيام بدور حاسم في تاريخ وطنهم، في خضم الحركة الوطنية والقومية التي تتنامى وتشتد في ضوء البلاد العربية وعرضها، وأن الظروف الموضوعية تلقي على عاتق هذا الجيل مسؤولية المساهمة في ازالة الاستعمار وتحقيق الاستقلال وأذكر كيف كنت أمضي الى القرية مع زملائي وقد تأبطنا واحتفظنا بشيء آخر ثمين بالنسبة إلينا وهو عبارة عن صحيفة أو مجلة أو منشور أو بيان سياسي، وما أن نصل حتى يلتف الناس حولنا فنقرأ لهم كل مالدينا ونشرحه بقدر استيعابنا له . . . وقد أصبحنا مع مضي الأيام بالنسبة لأهالي القرية خبراء في القضية الوطنية ومشاكل الحرب والسياسة الدولية، واضطرنا ذلك الى أن نشتري خرائط كبيرة كان ينشرها الحلفاء ونعلقها على جدران احدى الغرف لنرجع إليها كلما سمعنا عن مدينة أو

موقع هام . وأصبح أيضاً في القرية خبراء مثلنا بعضهم ذوو صيت وحماس وكان من أبرزهم مختار القرية الشاب الذي وهبه الله من الفطنة والذكاء الفطري والكرم ماجعله في مصاف وجهاء المنطقة وكان في الواقع يشجع الشباب ويقف في وجه الشيوخ المسنين الذين لايقبلون أن يتطاول الشباب على امتيازاتهم .

حزب البعث العربي

وفي جو الحرب تابعت دراستي الثانوية وحصلت على شهادة الكفاءة الاعدادية عام ١٩٤٣ وفي هذا العام بالذات انتسبت الى الجماعة التي شكلت النواة الأولى لحزب البعث بعد أن واظبت أكثر من عامين على حضور جميع الندوات التي كان يعقدها الاستاذ ميشيل عفلق في منزله وأحياناً في منزل السيد صلاح البيطار أو في الدار التي استؤجرت لهذا الغرض في زقاق الحطابين[1] وكنا نتداول البيانات والمحاضرات التي يصدرها هذان الاستاذان اللذان كانا من أساتذتنا البارزين في التجهيز الأولى .

واستطعت في أول العام الدراسي ١٩٤٣ الحصول على كرسي مجاني ، وأصبحت اعتباراً من ذلك التاريخ طالباً ليلياً وبذلك تخلصت من متاعب التنقلات وتحضير الطعام وانفصلت عن أصدقائي من تلامذة القرية الذين يتابعون الدراسة في دمشق كنهاريين وتعرفت على زملاء جدد من الطلاب الليليين من مختلف محافظات القطر ، وتمتنت بيني وبين بعضهم عرى صداقة متينة لازلت أحتفظ بها حتى الآن ، ومن بين هؤلاء الطلاب عدنان قطيفان وجاد وعز الدين وطويق عز الدين وعبدو الخليلي وزهير الخاني وسعيد أبو الحسن ومحمد حاتم ورشيد الباردي وعبد الرزاق قدورة وعدنان قرشولي وذوقان قرقوط وسلام سلام وحسين حدة وحسان مريود وشبلي العيسمي وابراهيم بيطار وهاجم الزعبي وابراهيم المقداد وهاني السالم وهاجم فلوح وسعيد الزعبي وطعمة العودة الله ، وعيسى عصفور وموسى رزق وعبد المجيد مشوح وجمال الشعراني وعبد

الخـالق النقشـبنـدي وأكرم ديري وموفق عصاصة وفواز محارب، وشفيق الجراح، وعبد المجيد نجار وغيرهم ممن كان لهم دور بارز بعد الاستقلال.

وفي هذه الفترة كان الطلاب يساهمون بالحركات الوطنية لأن التجهيز الأولى كما سبق وقلت كانت إحدى القلاع الرئيسية لهذه الحركة، بل لعلها في معظم الأحيان كانت المكان الذي تنطلق منه الشرارة الأولى للمظاهرات، وتتبعها بعد ذلك الجامعة السورية التي لم تكن تشمل سوى كلية الحقوق وكلية الطب وبقية الثانويات في العاصمة وعواصم المحافظات وقد اشتهر عدد من رفاقنا الليليين بمقارعة الشرطة ورجال الحرس السيار وأبرزهم طعمة العودة الله وجادو عز الدين ومامن مظاهرة إلا وكنا على رأسها خاصة عندما يتطلب الأمر استعمال المقلاع وضرب الحجارة. وكانت سلطات الاحتلال تعرف ذلك، وتخصص مفارز دائمة تقريباً لمراقبة التحركات في التجهيز، ومامن مرة قررنا فيها الاضراب إلا وكنا نجد أن قوات الحرس السيار السيئة السمعة تطوق بناء المدرسة وتسد مداخل الشوارع التي تؤدي الى المراكز الحساسة، غير أنه من الأمانة أن أذكر هنا، أن هذه القوى لم تحاول إطلاقاً اختراق حرم المدرسة الثانوية والدخول إليها أو اعتقال أحد الأساتذة أو الطلاب في داخلها ولاأذكر إلا مرات قليلة خلال ستة أعوام من الدراسة الثانوية أن الدرك والجنود الفرنسيين منعونا من الخروج بالمظاهرات بالقوة وباستخدام النيران. وغالباً ماكنا نطوف معظم الشوارع ونقف في ساحة السراي ويلقي قادة المظاهرة كلماتهم ثم تتابع المسيرة الى سوق الحريقة ثم ثانوية العائدي الخاصة فوق الحميدية ثم تعود الى المرجة وسراي الحكومة وشارع الصالحية حيث مركز الشرطة الفرنسية والبرلمان السوري وعندها نتفرق أو تفرقنا الشرطة بالقوة والهراوات وتعتقل عدداً قد لايتجاوز عدد أصابع الأيدي، ثم تُفرج عن معظمهم أو كلهم مساء نفس اليوم أو في اليوم الثاني على أقصى حد ومن أهم المظاهرات التي لاأزال أذكرها تلك التي انفجرت اثر اشتعال ثورة رشيد عالي الكيلاني والمظاهرات التي نظمت أيام حكم الشيخ تاج الدين الحسيني، وحكومة جميل الألشي وحكومة بهيج الخطيب، واستمرت حتى عمت جميع أنحاء البلاد وتحولت بعدها الى ثورة

شعبية وجابهها الفرنسيون بالعنف عام ١٩٤٥ فقصفوا دمشق بالطائرات والمدفعية واقتحموا المجلس النيابي وارتكبوا جريمتهم النكراء المشهورة فذبحوا حرس المجلس النيابي ونصبوا العلم الفرنسي على المبنى بدل العلم السوري.

وكان أساتذتنا يلعبون الدور الأول في الاعداد والتحريض بل وقيادة هذه المظاهرات والسير أمامها أحياناً، كما كان يفعل الأساتذة ميشيل عفلق وصلاح البيطار ومحمد المبارك وبكري قدورة ومحمد البزم، وحمادة، وقد ضحى بعضهم بوظائفهم وتعرضوا للاعتقال ولاأقول الاضطهاد لأنني ماسمعت في تلك الفترة عن معتقل نال شيئاً من التعذيب يشابه من قريب أو بعيد مانسمعه اليوم عن التعذيب والاضطهاد في معتقلات أجهزة الأمن في الدول العربية بعد عهود الاستقلال وخصوصاً الأنظمة الدكتاتورية العسكرية دون استثناء، ولاأزال أذكر مظاهرات ١٩٤١ عندما طوقت المصفحات الفرنسية بناء التجهيز ومنعتنا من الخروج، بل وقطعت المؤونة عنا فعمدنا الى تكسير بلاط الباحات وصعدنا الى سطح المدرسة وأخذنا نرجم الشرطة والجنود الفرنسيين بالحجارة وأصبنا بعضهم ويومها استشهد أحد رفاقنا في الصف السابع المرحوم أحمد اللحام وهو خلف باب المدرسة الغربي برصاص الحرس السيار.

وفي جو الاضطرابات والنضال الوطني برز عدد من الطلاب بسبب قدرتهم على الخطابة، فكانوا يرتجلون الخطب الحماسية في كل مناسبة وأذكر من هؤلاء، السادة ناجي مشوح، ومساعد القدسي واسماعيل الخنا، وجمال الشعراني، والداوودي وفيصل العسلي وعبد الخالق النقشبندي. كما لاتزال صورة هذه المظاهرات ماثلة في ذهني، عندما تندفع كالسيل الهادر منطلقة من التجهيز الأولى وتنحدر باتجاه كلية الحقوق، فكلية الطب (المستشفى الوطني) وتزحم الشارع باتجاه ساحة محطة الحجاز فوق الحميدية ثم ثانوية العائدي الوطني ثم تعود الى ساحة المرجة من جادة السنجقدار وتتوقف أمام السرايا وهناك تبدأ الخطب والهتافات والشعارات، ثم تتابع سيرها في طريق الصالحية فتمر أمام الشرطة العسكرية (PRE VOTE) والمجلس النيابي وتصعد جادة المهاجرين حتى قصر الرئاسة وهناك تكرر الخطب وتشكل الوفود لمقابلة رئيس

الجمهورية أو رؤساء الوزارة والبرلمان. وكان عشرات الآلاف من أبناء الشعب ينضمون لهذه المظاهرات وتغلق الحوانيت وتستمر على إغلاقها حتى يعود الهدوء للمدينة وتصدر البيانات من قيادات الحركة الوطنية لاستئناف العمل والدراسة وفتح المخازن. . .

وكانت معظم المظاهرات ترفع شعار جلاء المستعمر وتطالب بالاستقلال، وكان بعضها الآخر يتركز على قضية فلسطين وخاصة في ذكرى صدور وعد بلفور المشؤوم.

وكان المتظاهرون يرددون الأناشيد الحماسية والأزجال الشعبية ويهتفون بتحية بعض الزعماء أو بسقوط المتعاونين مع سلطات الانتداب ويرفعون اللافتات التي تتناسب مع الأحداث أو المطالب السياسية. ومن بين الأناشيد والأهازيج التي أذكرها:

ياظلام السجن خيم   إننا نهوى الظلاما
وحماة الديار عليكم سلام   أبت أن تذل النفوس الكرام
وديغول خبر دولتك   باريس مربط خيلنا
ويافرنسا لاتتوهمي
وليسقط وعد بلفور. . الخ. . وفلسطين عربية
بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان. . .

كانت فترة الأربعينيات من أروع فترات تاريخ النضال في سورية، وكانت تتسم بالحماس والاستعداد للتضحية والعداء للمستعمر. وكان هذا الحماس يطغى على عامة الناس وجماهير الطلاب فينسيهم كل مايعانوه من فقر وبؤس وحرمان وضائقة الحرب والتدابير التي لجأت اليها قوات الاحتلال بمصادرة الحبوب ووسائل النقل وتقنين كل شيء، وأصبح الرغيف في رأس قائمة المطالب الشعبية التي استخدمتها القوى الوطنية لإسقاط حكومة الإلشي ورئاسة الشيخ تاج الدين الحسني المعروفين بتعاونهما.

وكنا نحن الطلاب نقاسي بدورنا من هذا البؤس وكم من مرة كنا نعجز عن شراء رغيف الخبز أو صحن المسبحة أو الفول، عندما يتأخر الأهل بارسال نفقاتنا وكان ذلك يتكرر مرة أو أكثر كل شهر. وكم من مرة ساورت أهلنا في القرية فكرة قطع دراستنا خاصة بعد أن نلنا شهادة الكفاءة التي أصبحت تؤهلنا لبعض وظائف الدولة كالتعليم أو مصلحة الميرة أو الشرطة، ومراقبي الانتاج ومن حسن الحظ أنني حصلت على الكرسي المجاني مما شجع الأهل على اكمالي الدراسة الثانوية.

لقد أصبحت وزملائي في القرية من المتعلمين المرفهين والعاطلين عن العمل في نظر الفلاحين، بل لقد أصبحت بعض القرى المجاورة تنظر الى قريتنا على أنها من القرى المتطورة في المحافظة وتأتي مباشرة بعد قريتي خبب وبصير المعروفتين بكثرة عدد المتعلمين والموظفين فيها فقد اشتهر أهل هاتين القريتين بأنهم فلاسفة وسياسيون من راعي البقر حتى المختار.

كانت هذه المرحلة من أصعب وأهم مراحل حياتي. إذ عبرت فجأة رغماً عني وبسرعة مرحلة الطفولة الى مرحلة الشباب بل الرجال وأخذت وعدد من زملائي أتصرف كما يتصرف شيوخ القرية وابتعدنا عن كل مايعرفه أمثالنا من أطفال القرية بل وجهالها (حسب تعبير الشيوخ وأصبحنا نشارك شيوخ القرية برضاهم العفوي في كل المناسبات، وفي الدعوات والولائم ولم يعد يستغرب أحد أن ندعى الى الجلوس الى المنسف مع الوجهاء والمسنين من أهل القرية والتصدر أحياناً في المضافات)

هذا الوضع أثار في نفسي بعض الطموحات وأخذت تداعب خيالي الآمال العريضة بمستقبلي ومستقبل بلدي وأتباهى بمنشأي القروي المتواضع وعصاميتي، وأطمح الى تكريس حياتي في خدمة وطني والمناطق الريفية المحرومة بشكل خاص والنضال في سبيل رفع مستواها أو محاربة الجوانب السلبية في مجتمعاتها.

وكم كنت أقضي الليالي مع بعض زملائي في القرية مثل عبد الله منصور وفواز محارب والياس البدين وصبحي البدين وهايل بدين وسليم الهزيم نناقش

مشاكل القرية وأوضاع المجتمع فيها، وتقاليده وعاداته ونضع المشاريع الخيالية لحلها، أو لمقاومة بعضها، ونحاول تصور المجتمع الأفضل الذي لم يكن واضحاً في أذهاننا في ذلك الوقت ونستعرض معاً مانسمعه ومانقرؤه عن نشاط وآراء المنظمات السياسية السورية كالكتلة الوطنية والحزب الشيوعي والحزب القومي الاجتماعي والحلقات التي ينظمها الأساتذة عفلق والبيطار لتأسيس حزب جديد ولم يكن أساتذتنا يزودونا بصورة واضحة عن هذا المجتمع وكانت نداوتهم ومحاضراتهم وبياناتهم تتركز على موضوعي التحرر من الاستعمار أي الاستقلال والوحدة العربية. أما الشؤون الاقتصادية والاجتماعية فلم تنل اهتمامهم على العكس، فكثيراً ماكانوا يوجهوننا لمحاربة الشيوعية ومقاومة زملائنا الطلاب الذين ينادون بأفكارها في أوساط الطلبة، حتى لقد أصبحنا نضع الشيوعيين في مصاف المعادين للعروبة والاسلام والوطن ولانتحرج أحياناً في اتهامهم بالتعاون مع المستعمرين والعمالة للاتحاد السوفيتي. كما كانوا يحذرون من الحركات الشعوبية، ويلحون على الوحدة الوطنية ويضعونها في مقدمة الأهداف المقدسة.

كنا نشعر أننا في ثورة أو حالة تمرد ضد نظام الانتداب، والفئة القليلة المتنفذة المتعاونة معه، وضد العلاقات الاجتماعية والعشائرية والقبلية التي تسود الريف والتي تقوم أساساً على الرضوخ للسلطة والاستعانة بها لتعزيز سيطرتهم واستغلالهم لغالبية الفلاحين.

وكانت الطبقة المهيمنة في الريف عامة في جميع القرى تعتمد على العلاقات العشائرية وعلى رجال الدرك وموظفي الدولة. ومما تجدر الاشارة اليه ان محافظة حوران لاتعرف النظام الاقطاعي تقريباً، إن الأرض الزراعية بكاملها تقريباً ملك للفلاحين باستثناء عدد ضئيل من القرى التي اقتطعها العثمانيون لبعض أعوانهم(*) وهي لاتشكل مساحة كبيرة بالنسبة لاتساع أراضي المحافظة.

وكنا نقارن بين الحرية التي نتمتع بها كطلاب في المدينة والآفاق الواسعة التي نتحرك بها، وبين الطغيان الجاهلي والأفق المحدود الذي نغرق فيه عندما

نعود الى القرية، فنشعر وكأننا ننتقل من جو الحرية الطليق الى السجن الضيق، ومن مجتمع الحضارة الى مجتمع القرون الوسطى بكل مالهذا المجتمع من صفات رذيلة أهمها الجهل والعبودية والطاعة العمياء والتعصب القبلي . . .
وكان الرجال الذين يمثلون هذا المجتمع على مستوى القرية والمحافظة محط انتقادنا رغم صغرهم وبساطتهم، لقد أصبحوا بنظرنا يمثلون الجهل والتخلف والظلم والركائز الأساسية للاستعمار الأجنبي، بل أنهم العقبة التي تسد آفاق التطور والتقدم في الريف وان علينا أن نحطم هذه الأصنام لنفتح الطريق أمام جماهير الفلاحين للتحرر من أنفسهم ومن عبودية القبلية والجهل، وأن ينخرطوا في الحركة الوطنية وحركة التطور المتاحة الى جانب أبناء المدن الكبرى ليشكلوا التيار الجديد الذي سيقوم عليه المجتمع الجديد والأمة العربية ذات الرسالة الخالدة التي تستطيع استئناف سيرها الحضاري الى جانب بقية أمم العالم.

غير أن ذلك لم يحل بيننا وبين الاندماج الشكلي على الأقل في حياة هذا المجتمع والمساهمة في كل نشاطاته كأفراد قلائل محدودي الامكانيات ولكن دون أن نعترف بشرعية النظام الاجتماعي أو دوامه ولم نعد نعترف بقدسية بعض التقاليد والعادات. واستطعنا بهذا الأسلوب أن ننال ثقة واحترام الغالبية من سكان القرية وأن نصل الى أعماقهم ونكتشف الثورة العارمة المكبوتة التي تكمن في صدورهم والتي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم منذ مئات السنين وأصبحت بسبب تعاقب الطغيان مغلفة في قواقع كالفولاذ لابد من التركيز عليها أيام وسنين حتى تتحطم وينطلق من داخلها المواطن الأصيل المتطلع للحرية والتقدم، هذا المواطن الذي يصعب التعرف عليه من خلال المظاهر الساذجة الخانعة التي يتصف بها الفلاح في ريفنا، فيخدع بذلك حكامه وزعاماته ويختبيء وراءها ليستطيع الاستمرار في «حياة غيتو» التي فرضت عليه منذ أيام المماليك والحكم العثماني، والاستعمار الأوروبي . . . انه كما يردد شيوخ القرية باستمرار «فلاح لمن دامت سعادته» أو كما تقول السيدات المسنات لأبنائهن: «الله يحميكم من الحكام والظلام» وان العين لاتقاوم المخرز . . . وأبعد عن

الشر والبد . . الخ . . هذه الأمثال والمقولات التي تنطوي على الكثير من الخبث والحقد المكبوت والخنوع الظاهر. . .

غير أن الأمور لم تكن تبدو لأعيننا وتصوراتنا الساذجة إلا جوانبها السطحية ولم نكن مؤهلين لاكتشاف جذور التخلف وأصوله . وكنا نسعى عن طريق المطالعات والاصغاء لأحاديث السياسيين والأساتذة في المدينة لنجد الأجوبة والحلول على تساؤلاتنا التي لاتحصى وعلى الصمت المخيف الذي يعم المجتمع الريفي ، ودفعنا ذلك الى الانخراط في تيارات النضال السياسي والاجتماعي ونحن لانزال في طور «المراهقة» . وبهذه المناسبة لاأزال أذكر الرأي الذي أبداه لنا الأستاذ ميشيل عفلق عندما وجهت اليه ولجماعته الانتقادات لأنهم يغررون بتلامذة المدارس المراهقين ويحرفونهم عن دراستهم ويشجعونهم على المساهمة بالنشاط السياسي . فقد قال آنذاك مامعناه «إن قلة عدد المتعلمين في البلدان المتخلفة وضعف الوعي عند الأكثرية من الكبار وارتفاع نسبة الأمية تُلقي على طلاب المدارس الاعدادية والثانوية أن يقوموا بدور الطليعة في حركة النضال السياسي والاجتماعي ، لأنهم حصلوا على حد أدنى من الوعي والمعرفة يمكنهم من تحمل هذه المسؤولية الشاقة التي تتجاوز طاقاتهم الطبيعية كأطفال ، وأن كونهم مُستعمرين لايمكنهم من التمتع بطفولة هادئة رغيدة كما هو الأمر بالنسبة لأقرانهم في الدول المتحررة والمتطورة . . . » .

ولقد آمنت بهذه الفكرة وأصبحت أصغي للأحاديث الفلسفية التي كانت تتميز بها ندوات الأستاذ عفلق ، وأصبحت واحداً من المجموعة التي كانت تتردد الى منزله في باب المصلى ومقر الجماعة في زقاق الحطابين المتفرع عن شارع خالد بن الوليد وفي المزرعة بعد عام ١٩٤٤ .

أما في القرية فكنا محط الأنظار لأننا نختلف قليلاً عن أمثالنا وأقراننا من الشباب المراهقين ، وكانت فتيات القرية وصباياها يتنافسن بالتقرب إلينا ، وعندما كانت تقام الأعراس والأفراح كنا نعتبر نجوم هذه الحفلات الريفية . . الأمر الذي جعلنا هدفاً لانتقادات الشيوخ وغضبهم ، ولحقد وحسد بعض أبناء جيلنا من غير المتعلمين .

والحقيقة أن أجمل أيام القرية بالنسبة لي في ذلك الوقت هي تلك الساعات التي كنت أقضيها ورفاقي عندما كنا نساهم في عطلة الصيف وفي الليالي المقمرة خاصة، بالرقصات الشعبية بالأعراس وسهرات جرش البرغل والنزهات في الحقول أيام الربيع وفوق التلول المحيطة بالقرية، وبهذه المناسبة اذكر إحدى المغامرات الصبيانية التي أقدمنا عليها في احدى العطل المدرسية عندما اجتمعت وزملائي من تلاميذ القرية وقد فاجأتنا العطلة الدراسية ولم يكن في جيب كل منا مايكفي لدفع أجرة النقل بالقطار أو السيارة الى القرية . . . كان الوقت عصراً، ولم يعد بامكاني العودة الى التجهيز لأن المطعم قد أغلق بسبب بدء العطلة، وعندما تلمست جيبي لم أجد فيه إلا بضعة قروش تكاد لاتكفي ثمن «قطعة سندويش» وتداولت بالأمر مع الزملاء وكنا «خمسة» من أبناء القرية وسرعان ماقررنا الذهاب الى القرية ليلاً وسيراً على الأقدام تحت ضوء القمر، وكان ذلك فعلاً . . اشترينا كمية من الخبز والحلاوة، وركبنا الترامواي من المرجة حتى نهاية خط الميدان وكان الوقت بعد العصر وغروب الشمس، واستلمنا طريق دمشق ـ درعا وهات ياضحك، وهات ياأناشيد وهات ياهتافات. . . وبقينا نسير طوال الليل ولم نتوقف إلا لدقائق معدودة بين حين وآخر لنستريح أو لنقضم بعض مالدينا من خبز وحلاوة وندخن بعض السجائر من باكيت «جوكي كلوب» اشتريناه مع السندويشات بما بقي لدينا من قروش معدودة وعند طلوع الفجر كنا نعبر أزقة غباغب فتلاحقنا كلاب القرية بنباحها فنرتعش خوفاً ونستأنف الركض. . . ومع بزوغ الشمس وصلنا القرية دون أن يشعر بنا أحد. . . وكم كانت مفاجأة الأهل بي، وعندما قصصت عليهم هذه المغامرة بكت والدتي ووبخني والدي وأشقائي ولكنهم أبدوا الكثير الدهشة والاعجاب.. وأمرتني والدتي بأن أغسل رجليّ ووجهي وأنقع قدميّ بالماء الساخن والملح ثم أنام ولم أنهض من نومي في ذلك اليوم إلا في المساء . .

كانت هذه من المغامرات التي لاتنسى . لقد قطعت مع زملائي مسافة

٤٢ كم في ليلة واحدة دون توقف ونحن في سن لايتجاوز الخامسة عشر. وانني لأفخر بها كلما ذكرتها لأولادي حتى يومنا هذا.

انتخاب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية السورية :

ومن بين الاحداث البارزة التي لا زلت أذكرها في عام ١٩٤٣، اجتماع الكتلة الوطنية في جامع دنكز، حيث كنا نتابعه كطلبة من خارج الأسوار وفي نفس هذا العام تم انتخاب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، وتشكيل المجلس النيابي والحكومة الوطنية الأولى برئاسة سعد الله الجابري وعضوية السادة: فارس الخوري وجميل مردم، وكان لأسماء هؤلاء الزعماء وقع خاص في نفوسنا، واستمر ذلك الى أن نما وعينا السياسي خاصة بعد أن انتسبت شخصياً لمجموعة الأساتذة ميشيل عفلق وصلاح البيطار التي كانت النواة الأولى لحزب البعث منذ عام ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ فأصبحنا بعد ذلك نُعجب بالنواب المعارضين من أمثال السادة أكرم الحوراني ورئيف الملقي ورشدي الكيخيا، وناظم القدسي، وأحياناً كنا نصطدم في المدرسة مع رفاقنا الطلاب الذين ينتمون للكتلة الوطنية أو لجماعة فيصل العسلي ولأعضاء الحزب الشيوعي.

الهوايات والمطالعة :

وتمضي أيام الدراسة سريعة ولايكاد يمر أسبوع أو شهر إلا ونخرج أكثر من مرة للتظاهر ضد السلطات الفرنسية والحكام المتعاونين معها، وأحياناً لدعم النضال في الوطن العربي الكبير وكانت هواياتي في ذلك الوقت هي السينما ومطالعة بعض كتب الأدب للأساتذة طه حسين أو أحمد حسن زيات، ولطفي المنفلوطي وتوفيق الحكيم وقراءة بعض المجلات المعروفة آنذاك مثل مجلة الاثنين والرسالة والمختار. وكانت المجلات المصورة تستهويني وكنت أوفر القروش لأشتري بعضها لأطالع فيها بعض المقالات وأتمتع بصور الممثلات الجميلات

والممثلين . . وكنـا ورفـاقي نحفـظ القليل من الأغاني الفرنسـية والانكليزية التي نسمعهـا من السينما، والكثير من أغاني الأفلام العربية لمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومحمد فوزي وفريد الأطرش واسمهان وغيرهم، ونرددها في القرية وكثيراً ماكانت المدرسة تنظم لنا بعض الرحلات المدرسية للغوطة أو للزبداني نشترك فيهـا بمبالغ زهيدة، أما رياضتي المفضلة فكانت كرة السلة والركض والقفز، ولكنني لم استطع المثابرة على كرة السلة لأن أهلي كانوا يحذرونني من ضياع أوقات الدراسة «باللعب» بالاضافة الى أن ذلك يكلفني بعض النفقة الاضافية التي لاطاقة لهم بتحملها مثل شراء الألبسة الخاصة والأحذية الرياضية . .

غير أنني لم أحاول أبداً تعلم الموسيقى او الرسم أو العزف أو أي نوع من الفنـون الجميلة، لأنها كانت في نظري آنـذاك مضيعة للوقت ولاتنسجم مع التربية التي تلقتها، وكم ساورني الندم على فوات تلك الفرص عندما أنهيت الدراسة .

عيد النصر ونهاية الحرب العالمية الثانية :

ومن بين الذكريات الخالدة التي لاأنساها ذلك اليوم الذي أعلن فيه انتصار الحلفاء على المحور كانت ذلك صباح يوم ٩/ أيار/١٩٤٥ ، وكنا في قاعة الدرس نستمع الى محاضرة السيد خلدون الكتاني أستاذ الأدب العربي ، عندما بدأت قوات الاحتلال تحتفل والمدافع تطلق احتفالاً بهذه المناسبة . . ولأول مرة خرج الأستاذ الكتاني عن موضوع الدرس وألقى محاضرة وطنية حماسية شرح فيها معنى انتصار الحلفاء بالنسبة لسورية التي لازالت ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي ، وأن انتصارهم يعني تفرغهم لإذلالنا ، وتكريس طغيانهم ومصالحهم ، وأن عيدنا نحن هويوم نطرد هؤلاء المستعمرين وان علينا أن نحـول هذا اليوم الى مأتم يفهم من خلاله المستعمرون بأن فرحتهم لاتعنينا وأن فرحتنا لايمكن أن تكتمل إلا برحيلهم وانتزاع الاستقلال الكامل . وما أن

أنهى الاستاذ كلامه حتى خرجنا من قاعة الدرس وخرج بقية الطلاب وكأننا على موعد، ويبدو أن ذلك لم يكن مجرد صدفة فجميع الأساتذة ساهموا في التحريض على الاضراب في ذلك اليوم وسارت جموع الطلاب كعادتها مع بقية طلاب الكليات والمدارس الأخرى وأبناء الشعب وتحولت شوارع دمشق الى ساحة صدام حامية بين المواطنين والطلاب من جهة وأجهزة الأمن والجيش الفرنسي من جهة أخرى وبقيت دمشق ذلك اليوم وكأنها في ثورة عارمة واستخدم الفرنسيون العنف لايقاف المظاهرات ولكنهم فشلوا في ذلك وسقط عدد من القتلى والجرحى من المواطنين والطلبة.

انتصار المقاومة وعودة الهدوء للعاصمة:

كان ذلك اليوم بداية الثورة في دمشق وبقية المدن والمحافظات السورية، وقد تكررت الصدامات المسلحة مع قوات الاحتلال الفرنسية، وتعطلت المدارس والجامعة في سورية، ومع تصاعد النضال أخذت الأخبار تتوارد للعاصمة عن انضمام عدد من ضباط الجيش والجنود للقوات الوطنية، وذهبت مع عدد كبير من طلاب التجهيز الى قلعة دمشق للتطوع في الدرك وكانت هذه القوة الوحيدة التي تسيطر عليها الحكومة الوطنية وقد وزعت علينا آنذاك الألبسة العسكرية والبنادق وبدأنا التدريب في قلعة دمشق وأخذوا يدربوننا على استخدام فك وتركيب الأسلحة والنظام المنضم، ولكن الأحداث أخذت تتلاحق بسرعة وترتدي طابعاً أكثر عنفاً وباشر الفرنسيون بقصف القلعة وأحياء دمشق بالمدفعية والطائرات وأصبحت دمشق في حالة حرب مما اضطر المسؤولين عن التطوع للايعاز لنا للخروج من دمشق والالتحاق كل بمحافظته.

عدت الى القرية مع الزملاء ونحن نتحرق للمساهمة بالنضال، وهناك سمعنا عن سقوط موقع درعا والسويداء وازرع فقمت مع عدد من رجال القرية برئاسة المختار بجمع بعض الأسلحة من بنادق حربية ومسدسات وبنادق صيد ولم تتجاوز السبع قطع، فوزعت على الراغبين وكان نصيبي بندقية صيد،

ذهبت جماعتنا الى غباغب حيث انضممنا لرجال مخفر الدرك وبعض المسلحين من القرى المجاورة وقيل لنا أن مهمتنا اقامة الحواجز وقطع الطريق على امدادات الفرنسيين التي قد تأتي من دمشق، ومطاردة القوات الفرنسية التي تنسحب من محافظة درعا والسويداء باتجاه دمشق، على طريق درعا، غباغب، دمشق.

وسهرنا طوال الليل دون أن نشاهد أي شيء غير عادي، في الصباح رأينا وحدة مسلحة من الفرسان قادمة من درعا والسويداء وازرع أكدوا لنا سقوط الثكنات العسكرية بيد القوى الوطنية وبأنهم ذاهبون الى دمشق للالتحاق بالقوى الوطنية وبالمقاومة هناك ولاندري اذا كانوا صادقين بدعواهم أو كانوا من العناصر التي انضمت للجيش الفرنسي عند انسحابه من سورية الى لبنان، غير اننا صدقناهم وعدنا في اليوم الثاني الى القرية بعد أن وصلتنا الأنباء من دمشق عن صدور انذار من القيادة البريطانية للقوات الفرنسية لوقف اطلاق النار والتجمع في ثكناتها خارج مدينة دمشق، الأمر الذي ساعد القوى الوطنية على السيطرة على العاصمة بعد أن سقطت جميع المدن السورية الأخرى.

وماهي إلا أيام حتى وردتنا الأخبار عن هدوء الحالة في العاصمة وافتتاح المدارس، وانسحاب القوات الفرنسية من المدن بعد أن انضم معظم الجنود وضباط الصف والضباط السوريين الذين كانوا في جيش الشرق الفرنسي، الى القوات الوطنية وشكلوا النواة الأساسية للجيش السوري ووضع بيان الجنرال كاترو الذي أصدره عام ١٩٤١ عند دخول القوات البريطانية والفرنسية الحرة الى سورية موضع التنفيذ. وعلى الأثر نظمت الاحتفالات والأفراح والأعياد في طول البلاد وعرضها. في هذه الأيام عدت الى دمشق لأتقدم لفحوص البكالوريا واستأجرت غرفة مستقلة عند عائلة مسيحية في باب المصلى وبدأت الاستعداد للفحص وبين وقت وآخر كنت وزملائي الطلاب نساهم في بعض الاجتماعات التي تنادي بالانسحاب الكامل للقوات الفرنسية. كما أذكر تلك الأيام التي اشتركت فيها مع العديد من الطلاب بجمع الكتب الفرنسية من مكتب التجهيز، ومن بعض المكتبات وجعلنا منها كومة كبيرة في الساحة الواقعة

أمام التجهيز الأولى وقمنا باحراقها . . . وكأننا في احتفال ديني يشبه احتفالات القبائل البدائية في أدغال القارة السوداء ، وأعلنا يومها أننا قمنا بإحراق الثقافة الفرنسية . . ولاأدري حتى الآن من أين جاءت هذه الفكرة ومن المحرضون عليها وفيها بعد أصبحت أعتقد أن عملاء بريطانيا كانوا وراء هذه العملية الخبيثة ، لأن الشيء الوحيد الايجابي الذي ورثه الشعب السوري عن الفرنسيين هو ثقافتهم وتعلقهم بالحرية . ويبدو أن هذا الشيء كان يخيف بريطانيا التي كانت تطمح لوراثة النفوذ الفرنسي في سورية ، وترويج اللغة الانكليزية بدلاً من اللغة الفرنسية ، والانفراد بالسيطرة على مجموع الشرق الأوسط من مصر الى العراق مروراً بسورية ولبنان .

هوامش الجزء الأول

(١): من المؤسف ان هذا المبنى ذهب ضحية جشع تجار البناء واهمال الدائرة الفنية في أمانة العاصمة في منتصف الخمسينيات فقد أزيل وأقيم مكانه بناء شاهق لاطابع له.

(٢): المفرع هو حاسر الرأس والجمع «مفرعون»... هكذا.

(٣): بتاريخ ١/ أيلول ١٩٣٩ اجتازت القوات المسلحة الألمانية الحدود البولونية، وأعلنت ايطاليا وقوفها جانباً، وبتاريخ ٣/ أيلول من نفس العام أعلنت بريطانيا العظمى وفرنسا الحرب ضد ألمانيا الهتلرية، كما انضمت كل من استراليا والهند ونيوزيلاندا وجنوب افريقيا، وفي ١٧/ أيلول شن الاتحاد السوفييتي الحرب على بولونيا الشرقية وبذلك اشتعلت الحرب الدامية التي شملت أرجاء الكرة الأرضية تقريباً ودامت خمس سنوات انتهت بانتصار الحلفاء.

(٤): أصبحت هذه الدار العربية القديمة في السنوات التالية «مدرسة خاصة سميت دار الحكمة وكانت تشكل نوعاً من النادي الثقافي وتلقى فيه المحاضرات العلمية والسياسية بشكل خاص.

الجزء الثاني

الجيش العربي السوري

الفصل الأول

إنهاء الدراسة الثانوية والانتساب للكلية العسكرية

تقدمت في نهاية عام ١٩٤٥ لفحص البكالوريا ونجحت فيها بدرجة جيد . وبذلك انتهت أمتع وأهم مرحلة في حياتي وبدأت الاستعداد لدخول الحياة العملية لكي أساهم في خدمة أسرتي التي طالما انتظرت هذه الحدث الحاسم بالنسبة لي شخصياً وبالنسبة لأسرتي بشكل عام .

كان علي أن اختار بين طريقين ، الأول متابعة الدراسة الجامعية ، وقد تقدمت باضبارة لكلية الآداب ، أو اختيار طريق الوظيفة لكي أحصل على مورد أساعد به أسرتي ، وأفسح المجال لأشقائي الآخرين ليكملوا دراستهم الثانوية في دمشق . وتشاء الصدف آنذاك أن قررت الحكومة الوطنية السورية انشاء جيش وطني وافتتاح الكلية العسكرية لتخريج الضباط الذين يحتاجهم هذا الجيش الفتي بعد انسحاب القوات الفرنسية . وانتهزت هذه الفرصة وقررت الانتساب للكلية العسكرية ، لأن في ذلك فرصة تمكنني من مساعدة أهلي بحدود ضيقة ، وأن أصبح ضابطاً في الجيش الوطني لأن ذلك كان حلم الكثير من الشباب أن يصبحوا ضباطاً للدفاع عن استقلال بلدهم الفتي وكنت من بين هؤلاء .

كان لابد لي من الاختيار بعد انتهاء الدراسة الثانوية، فقد أرهقت كاهل أهلي طوال سنوات، ولو فكرت بامكانياتهم لما تجرأت على أن أطلب منهم المزيد من التضحيات، رغم اعتيادهم شظف العيش. وبعد مناقشات قصيرة مع الأهل قررت محاولة الانتساب للكلية العسكرية مفضلاً ذلك على مهنة التعليم التي يميل اليها المتعلمين من أبناء القرى. لم يكن لي ولاسرتي أولاي شخص في القرية صلة أومعرفة بأحد الضباط أوممن لهم تأثير على اختيار المتقدمين لفحوص الانتساب، وكل ماأعرفه عن الموضوع هو الاعلان بالصحف حول شروط الانتساب للكلية العسكرية. وتقدمت للفحوص الثقافية والصحية في نادي ضباط جامعة دمشق، وكان دخول هذا النادي حلماً بالنسبة لي ولرفاقي الطلاب، لأننا كنا ونحن في التجهيز الأولى ننظر اليه على أنه رمز للاستعمار الفرنسي فهو مخصص للضباط الفرنسيين والضباط المتعاونين معهم يحيون فيه الحفلات الراقصة والصاخبة ونعتبره بين الأمكنة المحرمة على السوريين. .

وبعد اجراء الفحوص الخطية والشفهية، عدت أدراجي الى القرية بانتظار النتيجة ، بدأت أسمع الكثير من التعليقات من أفواه الفلاحين البسطاء، الذين لم يكونوا ليتصوروا أنه يتمكن لأحد أبناء قريتهم الحصول على هذه الوظيفة التي كان يحتكرها الأجانب وبعض أبناء الأسر الارستقراطية في المدينة وأبناء زعماء العشائر والأقليات ولم يصدقوا انني سأنجح بمسابقة القبول لأصبح في المستقبل ضابطاً تتجاوز رتبتي، رتبة رؤساء المخافر وقادة فصائل الدرك الذين يمارسون أوسع السلطات عليهم. ومرت الأيام بطيئة وثقيلة، كانت كأنها سنين، وفي ذات يوم من أيام كانون الأول وكنا منهمكين في اصلاح سطح منزلنا كالعادة في نهاية فصل الخريف من كل عام، اذا بدورية من الدرك تأتي الى منزلنا وتسلمني مغلفاً رسمياً مرسلاً من مدير الكلية العسكرية باسمي لتسليمه باليد وعندما فتحته وجدت فيه رسالة من العقيد فوزي سلو مدير الكلية العسكرية، يعلمني بنجاحي ويطلب إلي الالتحاق بالكلية في نهاية الشهر[1].

ماأن قرأت الرسالة حتى كدت أطير من الفرح وبالطبع سارعت لاعلام والدي وأشقائي ففرحوا وقبّلوني، وعندما شاع الخبر بين الأهل وأبناء القرية

تحولت ورشة العمل في بيتنا الى عيد ، وكان ذلك مفاجأة لكل أهل القرية تكاد تكون أعجوبة . ولو لم يحمل الدرك الرسالة ويبلغوني اياها أمام الناس ويقرأها معي بعض الحشريين لما صدقوا ماسمعوا . . . ولكن القليل منهم قالوا انا لانستغرب ان يصل هذا الفتى أحد الى مثل هذه المواصيل . .

وبهذه المناسبة أخذ رجال القرية يتساءلون عن خلفية الحدث وعن المعجزة التي حدثت في البلاد حتى أصبح في مقدور ابن الفلاح البسيط ان يدخل الكليات العسكرية ليصبح ضابطاً بينما كانت هذه الوظيفة محتكرة للمتنفذين رغم اعتقادي أن هذه الحادثة قربت الى أذهانهم فكرة الاستقلال ومزقت بعنف الغشاوة التي طالما حجبت عنهم الرؤى البعيدة ، ووجهت ضربة عنيفة لحذرهم الموروث من السلطة فأخذت تتبدل نظرتهم للدولة وللمتعلمين وللمدارس ولأوضاعهم الاجتماعية وعلاقاتهم بالأجهزة الرسمية .

بل لقد اعتراهم شيء من الشعور بأنهم مواطنون كغيرهم من سكان العاصمة وأصبح لأبنائهم بعض الحقوق التي كانوا يعتقدون بنتيجة تجاربهم الطويلة المريرة بأنها حكر لأبناء المدن وللطبقات الحاكمة التي لا صلة لهم بها .

فرح زملائي وخاصة أعز أصدقائي زملائي الطلاب والذين أخذوا يعلنون لأهل القرية بصوت عال أن هذه أول ثمرات الاستقلال التي كنا نتحدث لكم عنها ، والأيام القادمة سوف تريكم من خيرات العهد الوطني ، وفرح الأهل والأشقاء لأن نجاحي بالكلية سيحررهم من نفقات دراستي ، ويمكن لأخي الأصغر عبد الحميد من استئناف الدراسة بعد أن توقف أكثر من عامين بعد السرتفيكا بانتظار انتهائي من الدراسة الثانوية لكي يستأنف دراسته .

وبادرت والأهل نستعد ليوم رحيلي فكان لابد من شراء بعض الألبسة لكي أظهر بمظهر يليق بهذه المناسبة . وفي صباح يوم ٢٩ / كانون الأول عام ١٩٤٥ ، أفاقت العائلة من الفجر ، وكانت الوالدة تعد لي ألبستي وحاجياتي البسيطة وبعض الأطعمة التي حضرتها حصيصاً لهذه المناسبة ، أما الوالد الشيخ فقد أفاق ليتوضأ ويصلي صلاة الصبح ويقرأ القرآن كعادته ولكنه في ذلك اليوم

خصني بالكثير من الأدعية والابتهالات باعتباري أول من سيدخل من أولاده وظائف الدولة ويسافر الى مدينة بعيدة هي حمص لايعرف أحد من القرية عنها إلا القليل. وكان لايتوقف عن التنقل بين غرفة نومه والغرفة التي أنام فيها مع بقية اخوتي، والمطبخ حيث تعد والدتي الافطار لجميع العائلة، وكان يعرج على الاسطبل (البايكة) ليلقي نظرة الصباح على مواشيه القليلة ويطمئن عليها.

ومع بزوغ الشمس كانت العائلة كلها والدي وزوجتيه وأبناءه جميعاً يلتفون حول طبق القش الواسع لتناول الشاي والفطور وأبصارهم وأفكارهم تتركز علي.

كانت أفكاري شخصياً بعيدة قليلاً عن هذا الجو العائلي أحاول ان أفتش عن طريقة أودع بها فتاة أحلامي التي تعلقت بها وتعلقت بي منذ عدة سنوات، واصبح معظم أهل القرية حتى ذويها يعرفون هذه العلاقة الافلاطونية، ولايستنكرونها، ويعتبرون كعادتهم أن هذه الفتاة ستكون شريكة حياتي في المستقبل، وان واجبي ألا أغدر بها وألا أنساها بعد ان أصبحتُ على طريق يمكنني من التعرف على غيرها من بنات المدينة الجميلات المتعلمات. كنت واثقاً أنها لم تنم تلك الليلة ولاأدري كيف استطاعت أن تخفي قلقها وحزنها عن ذويها. وماهي إلا ساعة أو ساعتين حتى امتلأت دارنا بالأقارب والأصدقاء وبينهم جدتي الحنونة لوالدتي، والتي طالما تعبت وساهمت بتربيتي وتربية أشقائي، وبدأت الوالدة والجدة وبعض النسوة بالبكاء وكأنني أستعد للسفر الى ماوراء البحار، ويبدو أنهن تذكرن أيام الخدمة الاجبارية في الجيش العثماني عندما كان المجندون يذهبون ولايعودون.

وعادت بي الذاكرة للقصص التي كان الفلاحون يقصونها علينا من أخبار الحرب العالمية الأولى (السفربرلك) عندما كان الأهل يودعون أبناءهم الذين تسوقهم الجندرمة العثمانية للجندية الالزامية، ويبدو أن بعض الشيوخ والنسوة المسنات من الأقارب كانوا يفكرون بتلك الأيام ويخشون أن يكون مصيري

كمصير أولئك الذين ذهبوا الى بلاد مجهولة (بلاد الروملّي) ولم يعودوا وإذ كان بعضهم قد عاد ولكن بعد ان شاهد الأهوال.

بدأ الوداع، فتلقيت المئات من القبلات والمعانقة، وانسابت دمعات حارة على خدي لم استطع التحكم بها، وغادرت الدار وحولي قافلة صغيرة من النساء والرجال والأطفال معظمهم من الأهل، وكان من بينهم زميلي وصديقي عبد الله منصور الذي كان يشجعني ويلومهم على هذا الموكب الحزين.

وحملت حقيبتي الصغيرة، ورافقني الوالد والوالدة وشقيقي وصديقي عبد الله واخوتي، حتى الطريق العام (السلطاني) الذي يبعد عن القرية حوالي ٢ كم وعندما خرجت من القرية تلفت فوجدت فتاتي أوزوجتي الحالية أمينة تقف مع شقيقها تراقب الموكب. بل لقد لمحت حركة خجلى من يدها تؤكد لي فيها حبها وحزنها لهذا الفراق.

ركبت الباص الى دمشق، ثم أسرعت الى كراج حمص وحجزت مقعداً في احدى الباصات المتجهة الى حلب ووصلت مدينة حمص قبل غياب الشمس. ودلني الشخص الى «فندق رغدان» الذي لايبعد إلا القليل عن مكان نزولي من الباص.

قضيت تلك الليلة في الفندق وفي الصباح الباكر استأجرت عربة يجرها حصانان كانت تشتهر بها مدينة حمص واتجهت نحو الكلية التي تقع فوق هضبة شمال غربي المدينة وتبعد عنها مسافة ٦ كم تقريباً.

وعندما بدأنا نقترب من الكلية أخذنا نسمع طلقات كثيفة ورشاشات من الأسلحة النارية متنوعة لم يأبه بها العربجي، ولكنها استمرت وأصبحت أصوات الانفجارات تقوى وتتكاثر بعد وصولنا الى جسر الميماس على نهر العاصي، وهناك اعترض طريق العربة صاحب الدكان الوحيدة في هذه المنطقة ونصح العربجي بأن يتوقف ولايتابع سيره الى الكلية لأن هناك حركة تمرد عناصر سرية الخدمات في الكلية بسبب لايعرفه وقد حضرت قوات من حمص ودمشق للقضاء على هذا التمرد.

كنت أصغي لهذا الحديث ولاأفهم معناه، غير ان الحوذي طلب إلي النزول بعد إلحاح صاحب الدكان واعتذر عن المتابعة فدفعت له حسابه ودعاني صاحب الدكان للجلوس عنده ريثما تهدأ الحالة، وبعد انتظار دام حوالي أربع ساعات شعرت بأنه الزمن بطوله، بعدها شاهدنا سيدة قادمة من اتجاه الكلية، تحمل على رأسها صرة كبيرة «بيضاء» فتعرف عليها الدكنجي، وقال لي بأنها السيدة التي تقوم بغسيل ألبسة الطلاب الضباط وأن باستطاعتها إعطاءنا الخبر اليقين عما حدث. استوقف الدكنجي المرأة، فقصت علينا حكاية التمرد وان القوات التي أتت من دمشق وحمص قضت عليه وعادت الكلية الى الهدوء. بعد سماع هذا الحديث قال الدكنجي الآن يمكنك متابعة طريقتك للكلية، بادرت فوراً لتوديع هذا المواطن وشكره وتوجهت للكلية التي لاتبعد أكثر من مائتي متر فوق هضبة وعرة تشرف على وادي العاصي. استقبلني حرس الكلية فقدمت لهم كتاب المدير، فقادني أحدهم مباشرة الى الضابط المناوب، الذي أخذني بدوره الى معاون مدير الكلية النقيب نبيه الصباغ فرحب بي أيضاً وأوعز للمناوب بأن يقودني الى المهجع المخصص لي وهناك سلمني المناوب مفتاح خزانة صغيرة وضعت فيها حقيبتي وبدأت التعرف على زملائي الطلاب وخاصة منهم رفاقي في التجهيز الأولى بدمشق، منهم طعمة العودة الله وأكرم الديري ومطيع الجابي وجورج محصل. فرحبوا وفرحوا بي، بعد ذلك أخذني الضابط المناوب الى حلاق الكلية فقص شعري على الصفر، ومر بي بعد ذلك الى مستودع الألبسة وسلمني الألبسة والتجهيزات المخصصة لكل تلميذ ضابط، وكنت قبل ذلك قد وقعت عقداً بالتطوع في الجيش وبصمت عليه بكف يدي وبذلك أصبحت منذ تلك اللحظة : التلميذ الضابط أحمد عبد الكريم.

وزير الدفاع ورئيس الأركان العامة يهنئاني على شجاعتي :

في مساء ذلك اليوم دعا الضابط المناوب طلاب الكلية للاجتماع في قاعة المحاضرات، وهي عبارة عن قاعة واسعة مربعة الشكل وفي أحد أركانها منبر

عال وفي الوسط عدد كبير من مقاعد خشبية لامساند لها. كان هناك حشد كبير من الضباط القادة وعلى رأسهم وزير الدفاع احمد الشرباتي ورئيس الأركان العامة اللواء عبد الله عطفة، والزعيم الركن عبد الوهاب الحكيم قائد منطقة دمشق ورؤساء شعب الأركان ومدير الكلية العسكرية الزعيم فوزي سلو وهيئة الضباط المدربين في الكلية. وكنت ومعظم رفاقي من الطلاب مأخوذين بهذا التجمع الغريب، لأننا نواجه لأول مرة في حياتنا هذا العدد الكبير من الضباط، الذين كانوا الى فترة قصيرة جداً يمثلون بالنسبة لنا أبشع صور الاستعمار الأجنبي . . . غير أن لقاءنا معهم هذه المرة كان بداية لعهد جديد شعرنا بالصلة التي تربط بين أبناء الوطن والتي تبنى على وحدة المصير والهدف والمشاعر. وانتابني شخصياً نوع من الرهبة المشوبة بالغبطة، ذلك أنني لم أجتمع مرة حتى هذا اليوم بجندي أو صف ضابط أو ضابط إلا وكنت أشعر بهوة سحيقة تفصل بيني وبينه، وكان ذلك يذكرني دائماً بعساكر الانتداب والدرك في القرى والشرطة ورجال الأمن في المدينة الذين كانوا يعتبروننا دائماً كالطرائد المشبوهة.

افتتح الاجتماع الزعيم فوزي سلو فقدم وزير الدفاع ورئيس الأركان وقال بانه يريد ان يلقي كلمة توجيهية لطلاب ضباط أول دورة في العهد الوطني.

وبدأ اللواء عبد الله عطفة كلمته بلهجة قريبة من العامية ولاتخلو من اللعثمة وكان أهم ماورد فيها ان على الطلاب أن يكونوا في مستوى المهمة التي ينتظرها منهم الجيش ويتمسكوا بالانضباط وان ينفذوا أوامر قادتهم المباشرين وأن يكونوا دائماً على استعداد للتضحية من أجل خدمة وطنهم والمحافظة على استقلاله وبذل أرواحهم في هذا السبيل . . .

وانتقل بعد ذلك الى الاشارة لتمرد بعض عناصر سرية خدمات الكلية، وقال هذه الفئة تعتبر خروجاً على أنظمة الجيش وبادرة تهدد أمن الوطن، لذا فإن القيادة ستطبق بحقهم القوانين وسينالون العقاب الذي يستحقونه وانها ستضرب بيد من حديد على كل من يتجرأ على الخروج عن النظام والمساس

بوحـدة الجيـش وأمن الـوطن في بداية العهد الوطني لأن ذلك لايخدم إلا مصـالح المستعمرين خاصة وان القوات الفرنسية لم تجل بعد عن البلاد.

بعـد ذلـك نادى مديـر الكليـة الحربية على بعض العسكريين من سرية الخـدمـات فهنأهم وزيـر الـدفـاع ورئيـس الأركـان على شجـاعتهم ووطنيتهم وسلوكهم حيال حركة التمرد ومساهمتهم بالقضاء على الفتنة وفجأة، نادى مدير الكليـة العقيـد فوزي سلو على الطالب أحمد عبد الكريم ، لم أكن أتوقع هذا النـداء وظننت أنـه لايقصدني ولكن مالبث أن كرر النداء مما لفت أنظار رفاقي وأخذ الجميع يلتفتون ناحيتي، وعندما تأكدت بأنني المقصود بالنداء شخصيا اعترتني رعشة من الرهبة والخوف وقمت أفتش عن الطريق الى المنصة بين مقاعد الطلبة وأنا أتعثر في سيري، ويتصبب العرق فوق جبيني، وعندما وصلت أمام المنصة لم أعـرف كيف يجب أن أتصـرف ولكني مع ذلـك حييت كما حيـا الجنـود الذين سبقـوني وقـدمت نفسـي . . . فما كان من العقيـد فوزي سلو إلا أن قال موجهاً كلامـه لوزيـر الـدفاع : هذا هو الطالب الضابط الذي حدثتكم عنه . . والذي حضـر الى الكليـة صـباح هذا اليوم وقدم نفســه في الوقت الذي كانت تجري فيه عملية اخماد التمرد قبل أن يوقف اطلاق النار تماماً. وان تصرفه هذا لدلالة على الشجـاعـة والتصـميم على الخـدمـة في الجيش مما يستحق التقدير والثناء، فقال وزير الدفاع موجهاً كلامه لي : بارك الله فيك يابني وبأمثالك ومد يده فصـافحني وصـافحني رئيـس الأركـان ومـدير الكلية، وتعلقت عيون رفاقي بزميلهم الجديد الـذي حظي يوم دخـولـه بتكـريم لاينتظـره العسكـري ولايحلم به إلا بعد فترة طويلة من الخدمة وعندما يقدم لجيشه ووطنه خدمة عظيمة . .

كان ذلـك مفـاجأة لي وبـدايـة مشجعـة، وأصبحت منـذ تلك اللحظـة أحظى بمكانة خاصة عند مدير الكلية وهيئة التدريس . . والحقيقة أنني لم أكن أدرك شخصياً أهمية مبادرتي واصراري على دخول الكلية رغم ماسمعته أذناي من اطـلاق النـار ومـاقـالـه لي الحـوذي والتـاجـر عـنـدما نصحاني بعدم المغامرة بالـدخـول للكليـة في ذلـك اليـوم والانتظـار حتى تنجلي الأمـور . . إنهـا مجرد صدفـة . . ولكن لابـد من القـول ان إصـراري على متـابعة طريقي كان مبعثه

أســاســاً عدم الـرغبة بالعودة الى القرية أجر أذيال الخيبة متذرعاً بأن أصوات الـــرصـــاص هي التي كانت ســبب عودتي ، لأن العــار سيركبني طوال حيــاتي ، بالاضــافـة الى إضــاعة الفرصـة التي أتيحت لي مما لم يكن ميــسـراً لأمثالي من أبناء الفـلاحـين، لافي المهد العثماني ولافي عهد الانتداب الفرنـــسي . . . لقد قررت ان امضـي في ســبـيـلي مهـما كان ثمن المغـامـرة . وهكذا أصبحت بطلاً رغم أنفي ودون أن أدري .

الحياة في الكلية العسكرية :

هكـذا كانت أول خطـوة خطـوتها في حياتي العملية وكانت بداية المرحلة شاقة مليئة بالأحداث والمصاعب والنجاح والفشل تلك هي مرحلة الحياة العــسكرية .

كان تعداد أول دورة في الكلية العــسكرية حوالي ستين طالباً معظمهم من خريجي المدارس الثانوية في عام ١٩٤٥ ، وماقبله ممن لم يــسبق لهم أي خدمة في الجيش ، وكـان بعضـهم موظفـين في الـدولـة كمعلمـين في وزارة الـتر بيـة أو في الـدرك، ثم أضيف للدورة اثنان ممـن كانـوا يخدمـون في الجيش الفرنـــسي برتبة رقيب أول أو مــســاعـد ويعملون بالادارة والمحاسـبة وكان فارق الـسـن كبيراً بينهم وبين بقية الطلاب .

كان الطـلاب خليطـاً من أبنـاء جميع أنحاء القطر، ومعظمهم ينحدرون من أســـر متـوسـطـة الحـال ، وكلهم سـاهموا في فترة النضــال والمظـاهـرات ضد الفرنــــسيين كتلاميذ في المدارس الثانوية وكانت الروح الــسائدة بينهم هي الايمان العميق بالوطن والأمة العربية .

وكــان في الكليـة عدد من طلاب الــسـنة الثانية (المتقدمين) الذين لايزيد عددهم عن ستة عشر طالباً ممن انتسبوا للكلية الحربية في عهد الانتداب الفرنـــسي .

أما هيئة التدريس : فكان على رأس الكلية ضـابط قديم معروف بكفاءته

وخبرتـه وقـوة شخصيتـه وتمسكـه بالتقـاليـد العسكرية هو العقيد فوزي سلو، ويعاونه (الرئيس) أو النقيب نبيه الصباغ وهو من خيرة ضباط الجيش بالاضافة الى الرئيس نوفل شحم، المسؤول عن دورة المتقدمين، والرؤساء يعقوب مبيض، واليان مارين، والملازم الأول هشام السمان والملازمون: نامق كمال، هشام الميداني، زهير الصالح، وكان الرئيس يعقوب مبيض مديراً لدورتنا (أو مايسمى بدورة المستجدين). كانت الحياة في الكلية مختلفة تماماً عن كل مااعتدناه في حياتنا الماضية كتلاميذ في المدارس الثانوية من جميع الوجوه.

النظام: نهوض مبكر من الفراش الساعة السادسة، حلاقة الذقن الرياضة البدنية بالبنطال القصير ثم الاستحمام، الافطار، فارتداء اللباس العسكري بعد تلميع الأحذية واللوازم الجلدية، وتلميع الأزرار، التفتيش والتفقد الصباحي بلباس العمل حوالي الساعة الثامنة، والخروج لتمارين النظام المنضم ثم الدروس النظرية على أنظمة الجيش، والأسلحة وبعض المواد الثقافية العامة . . . تناول الغداء في ساعة محددة، استراحة قصيرة، ثم دروس نظرية في القاعات حسب الحضائر، تناول العشاء ثم المطالعة. وفي الساعة التاسعة مساء ينفخ بوق النوم وتطفأ الأنوار وعندها يلجأ الطلاب الى أسرتهم ويصبح من واجبهم ان يناموا ليستيقظوا مع طلوع الفجر كل يوم.

كل ذلك شديد الصعوبة علينا في البداية خاصة الاعتياد على اطاعة الأوامر وتقديم فروض الاحترام للضباط والطلاب المتقدمين وتنظيف البندقية التي أصبحت الرفيق الأول للطلاب بدل الكتاب وتحول الاهتمام الى دروس القتال وفنون الحرب والقيادة بدلاً من دراسة الأدب والرياضيات والفلسفة والعلوم، لقد دخلنا عالماً آخر غريباً تماماً عما اعتدناه منذ طفولتنا وحتى نهاية دراستنا الثانوية.

سارت الحياة بطيئة وثقيلة في البداية، ثم مالبثنا ان تأقلمنا معها وسيطرت على الطلاب روح الجد والمنافسة بعد ان اتضح لنا ان الترتيب أثناء الدراسة سيكون له أثر في الأقدمية طوال الحياة العسكرية، بالاضافة الى ان الأوائل سيكون لهم الأفضلية في اختيار الاختصاص الذي يناسبهم.

طلاب الكلية يقدمون استقالاتهم احتجاجاً على خرق نظام القبول في الكلية :

وبعد مضي أسبوعين على بدء الفصل الدراسي قدم الى الكلية ثلاثة طلاب جدد للالتحاق بدورتنا، وماهي إلا دقائق حتى سرت أخبارهم بين أفراد الدورة، وتبين لنا أنهم لايحملون شهادة الدراسة الثانوية وأنهم مزودون بكتب توصية من وزير الدفاع السيد أحمد الشراباتي توصي بقبولهم استثنائياً بسبب الخدمات التي قدمها بعض أقاربهم أثناء النضال الوطني ضد الانتداب، وكان الخبر بمثابة شرارة اشعلت النار في صدور الطلاب وماهي إلا ساعات حتى قرر الجميع بدون استثناء ان يقدموا استقالات خطية بسبب خرق السلطة المسؤولة لنظام الكلية وشروط الانتساب مما يجعل الطلاب في حل من العقد الذي وقعوه مع الكلية، ولأن هذه البادرة ستكون سابقة خطيرة تفتح الباب على مصراعيه في المستقبل لتجاهل القوانين وسيطرة المحسوبيات. . وكان ذلك بالفعل، وقدم كل فرد من أفراد الدورة استقالة خطية الى ادارة الكلية(٢)، وأبلغنا الضابط المسؤول بأننا سنمتنع عن الدراسة اذا قبل هذين الطالبين. . . وكان لهذه الاستقالة الجماعية وقع الصاعقة على ادارة الكلية ووصل صداها الى قيادة الجيش بدمشق، وسرعان ماوصلت الى الكلية لجنة تحقيق برئاسة مدير مخابرات الجيش آنذاك الرئيس أحمد الفصيباتي . . . لمعرفة المحرضين على هذا العمل المناقض لقوانين وتقاليد الجيش . . وتبين لهذه اللجنة انه لم يكن هناك شخص مسؤول عن هذا التصرف وان قبول الطلاب الجدد معناه الاستغناء فعلاً عن خدمات ستين طالباً تم انتقاؤهم نتيجة فحوص واختبارات دقيقة، بالاضافة الى مايمكن ان يترتب على ذلك من اساءة لسمعة القوات المسلحة، وللعهد الوطني الذي لايزال في بدايته، خاصة وان المعارضة ستستخدم هذه «الفضيحة» لاضعاف النظام والحزب الحاكم آنذاك وهو «الكتلة الوطنية».

لم يمض سوى يوم واحد حتى أبلغنا مدير الكلية بأن القيادة أخذت

بعين الاعتبار هذا الموقف الجماعي من الطلاب فقررت عدم قبول الطلاب الجدد، ولكنها تحذر الطلاب بأن هذا السلوك مخالف لقوانين الجيش ولقواعد الانضباط العسكري وان تكرار مثل هذا الموقف سيضطرها لاتخاذ أقصى العقوبات بحق المرتكبين والمحرضين ولن تتوانى حتى عن احالتهم للمحاكم العسكرية . .

غير اننا حصلنا على النتيجة التي أردناها وهي احترام نظام الكلية، وكان ذلك درساً وطنياً لبعض المسؤولين السياسيين لكيلا يتركوا لنزواتهم العنان فيتلاعبوا بالقوانين الأساسية التي تحفظ حقوق المواطنين وتحفظ وحدة الجيش الفني وتصون معنويات أفراده وهكذا سجلت أول دورة في العهد الوطني موقفاً وطنياً وسياسياً وعسكرياً ميزها عما سبقها من الدورات في عهد الانتداب وسيكون لهذا الموقف تأثير عميق وفعال على تاريخ القوات المسلحة الوطنية في المستقبل، لأن نوعية وعقلية أول دفعة من ضباط الجيش الوطني تختلف جذرياً عن نوعية وعقلية وسلوك معظم الضباط الذين ورثهم الجيش السوري من الجيش الفرنسي المحتل. وان واجب الموضوعية والأمانة يحتم على ان أقر بأن مدير الكلية وغالبية الهيئة التدريسية في الكلية كانت الى جانب الطلاب كما كانت هيئة الأركان العامة راضية عن تصرف الطلاب لأنها حدت من تسلط وزير الدفاع آنذاك السيد أحمد الشراباتي. وقد لمسنا فيما بعد اغتباطهم لموقفنا والنتيجة التي ترتبت على موقفنا. . غير ان هذا الموقف لم يرق لوزير الدفاع السيد أحمد الشراباتي والمقربين منه وبعض كبار الضباط الذين أصبحوا يحملون بعض الضغينة على مجموع دورتنا، بل لقد كان بعضهم يصرح أن هذه الدورة متمردة ويجب ان ينظم لها دورة انضباطية تأديبية لغسل أدمغة أفرادها وانتزاع ماعلق بها من حياة الثانويات أيام الانتداب، وبالفعل فقد نظمت لنا دورة خاصة في معسكرات قطنا بعد انتهاء العام الدراسي الثاني واتمام فحوص التخرج. وعين لهذه الدورة الاضافية ضباط معروفون بشدتهم وتقديسهم للانضباط ومنهم المقدم توفيق اليازجي، وكان ذلك سابقة لم نسمع بأنها تكررت فيما بعد.

استؤنفت الدراسة بعد هذا الحادث وأقبلنا على التدريب بكل حماس وأصبحنا نفتخر بانتمائنا لهذا المعهد، ونفخر بقيادة الكلية التي دعمت موقفنا.

كان الطالب الضابط المستجد في السنة الدراسية الأولى يتقاضى تعويضاً شهرياً مقداره ٥٠ ل. س يقتطع منها ثمن الطعام واللباس وثمن ٢٠ علبة سجاير خاصة بالجيش بحدود ثلاثين ليرة سورية وكنت أسعى جهدي لكي أوفر من هذا المبلغ الزهيد جزءاً منه، فلا أتردد على مقاهي ومطاعم مدينة حمص أيام الجمع والعطل إلا نادراً. وكانت هوايتي الوحيدة هي السينما وشراء بعض الكتب الأدبية والروايات وكنت أرسل لأهلي من وقت لآخر ماتجمع لدي من السجائر وماوفرته من تعويضاتي القليلة للمساهمة في نفقات دراسة شقيقي الأصغر في دمشق أو أنتظر حتى أحمل لهم ذلك معي في العطل الرسمية..

وكم كنت أسعد عندما أتلقى رسائل الأهل والأصدقاء وخاصة منهم ابن خالي المرحوم عبد الله منصور الذي كان أقرب الناس إلي بعد أشقائي، وكانت رسائله بمثابة الحوليات بالنسبة للقرية، فهي تحوي كل صغيرة وكبيرة من أخبار الأهل والأقارب والأفراح والأتراح وأخبار الموسم والأمطار، وكانت تحتوي بشكل خاص أخبار «أمينة» التي كنت أكن لها أعمق الحب، والتي أصبحت رفيقة حياتي فيما بعد. ذلك لأنها تعرف مدى صدق علاقتي مع هذا الأخ والصديق، ولما كانت لاتجرؤ على الكتابة بنفسها بسبب التقاليد فانها اعتادت ان تبثه بعض مشاعرها من وقت لآخر لينقلها إلي، لذلك كنت أنتظر رسائله بفارغ الصبر وكانت تساعدني على تحمل مشاق حياة الكلية المجدية القاسية.

انتهى العام الأول وكان ترتيبي كما أذكر ٢٤ من أصل ٦٢ ولم ترضني هذه النتيجة، غير ان علاقتي بالأساتذة وبرفاقي كانت بمستوى جيد وأصبح لي أصدقاء حقيقيون، ولذلك فقد أتيح لي ان أختار سلاح الفرسان (وهو سلاح المدرعات آنذاك) وقد ساعدني على ذلك ماأبديته من نشاط في دروس الفروسية، وكان الطلاب الذين اختيروا لهذا الاختصاص من بين أحسن طلاب الدورة وأذكر منهم: عبد الحميد السراج، وطعمة العودة الله، وجاد وعز

الـدين وأحمـد جنيـدي وعـدنـان مراد، وهذه أسماء معروفة كان لها دور فعال في تاريخ القوات المسلحة السورية.

وفي نهايـة العـام أقامت الكلية حفلة لتخريج دورة المتقدمين، وأصبحت دورتنـا نحن في بدايـة العام الدراسي الثاني تحمل اسـم دورة المتقدمين وأصبحنا نحن نحمل لقب «طالب متقدم». استقبلت الكلية ثاني دورة في العهد الوطني وسُمي المرحـوم الـرئيس عدنـان المـالكي مديـراً لهذه الـدورة، وكان من ذوي السمعة الوطنيـة والعسكرية الممتازة بين ضباط الجيش السوري وله مكانة خاصة لدى القيـادة، لذلـك أصبحنـا نحسـد زملاءنا طلاب السنة الأولى لأن وجوده على رأسهم أكسبهم سمعة خاصة. ومالبث هذا الشعور أن تطور الى منافسـة شديـدة وأصبـح كل منـا يرى ان من واجبـه أن يثبت تفـوق دورتـه في كل المجـالات، ويبـدو ان ذلـك أغـاظ المرحـوم المـالكي لأنـه يحرص على سمعة دورته.. ولم تمر هذه المنافسة دون نتيجة، ففي أحد الأيام وكان الرئيس المالكي ضـابطـاً أسبـوعيـاً فوجـه لدورتنـا كلامـاً جارحاً بسبب موقفنا الشديد من رفاقنا المستجـدين ولكنـه عنـدمـا أوعز لنا بالاستعداد قبل الدخول الى المطعم كانت استجـابتنـا لايعـازه ضعيفة أو أنه توهم ذلك، فاستشـاط غضباً وأعاد إيعازه مرة أخـرى ولكننـا هذه المرة لم ننفـذ الأمـر بالحماس الذي أراده وعندما سلم القيادة للطالب الضـابط المناوب، كانت استجابتنا لأمره قوية وسمعت أصوات أقدامنا تهز أركان البناء عندها اعتبر ذلك تحدياً غير مقبول. وفرض بحق ٢٠ طالباً منا عقـوبـة بالسجن لمدة عشـرة أيام، وكنت بين هؤلاء الطلاب المعاقبين وتم نقلنا الى غرف الحجـز المخصصـة لسجن الطـلاب وأعطي لكـل منـا حرامان من الصـوف وأخـذت منـا الأحـذيـة وسيـور الأحـذيـة، ومنعت عنـا كل الأدوات الحـادة، ولكننـا لم نحـرم من التمارين اليومية القاسية، إلا أننا نتناول الطعام في غرف الحجز، ونقضي ساعات المطالعة والنوم فيها أيضاً وكانت هذه أول تجربة لي بالسجن. غير أنني أحفـظ هذه الأيـام من بين الأيـام الممتعـة التي لاتنسى، لأننـا كنـا نقضي أوقاتنا بالدراسة ولعب الورق والمنافسـات الشعرية وخاصة منها الشعـر الهجـائي السـاخـر وكتـابـة المقامات السـاخرة مقلدين مقامات الحريري

المشهورة فتصور حياة الكلية وتضمنها تقدماً لمدربينا . والغريب أنه على الرغم من هذا الاجراء الذي فرضه المرحوم المالكي بحقنا، فإنه كان يكن لدورتنا كل اعجاب وحب وكنا نبادله ذلك الاعجاب والحب بل وقد انعقد بينه وبين معظم أفراد الدورة صداقات خاصة بعد أن أصبحنا ضباطاً، وتحولت هذه العلاقة الى شيء من الاحترام والتقدير لوطنيته وسلوكه الأخلاقي الرفيع كما كان لهذه الصداقة دور كبير في تاريخ الجيش السوري في بداية الخمسينات وحتى مصرع هذا الضابط الوطني الذي أصبح رمزاً لمقاومة الجيش والشعب للمشاريع الاستعمارية والتفاني من أجل وحدة الأمة العربية .

ومن الجدير بالذكر انه بينما كنا نقوم بتطبيق أحد دروس الفروسية في نهاية العام الدراسي الثاني، رفسني أحد الأحصنة فكسرت ساقي ونقلت الى المستشفى العسكري بالمزة وكان بإدارة المرحوم الدكتور أمين رويحة ثم عدت الى الكلية بعد أيام لأقدم الفحص النهائي ولاتزال ساقي مغلفة بالجبصين، ومع ذلك فقد استطعت أن أحصل على نتيجة جيدة وكان ترتيبي ١٣ من أصل ٦٤ علماً بأنه أضيف إلينا في العام الدراسي الثاني اثنان من ضباط الدرك برتبة مساعد أول ممن يحملون البكالوريا وأصبح ذلك تقليداً دائماً.

في بداية عام ١٩٤٨ تم تخريج الدورة غير أننا نقلنا الى معسكرات قطنا لاتباع دورة تأديبية شاقة وأذكر أننا أمضينا فيها كما سبق أن ذكرت حوالي شهرين قطعنا خلالها مئات الكيلومترات فوق جبل الشيخ وجبال قطنا في ظروف الشتاء القاسية .

ونظراً لتوتر الأوضاع في فلسطين بعد قرار التقسيم وبدء الاستعدادات في العالم العربي لشن حرب لانقاذ هذا البلد العربي من الغزو الصهيوني، فقد بادرت القيادة لايقاف الدورة وتسميتنا ضباطاً ملازمين، ووزعتنا على الوحدات مباشرة دون أن تقام للدورة الحفلة التقليدية التي جرت العادة على احيائها في مثل هذه المناسبة وأطلق على الدورة اسم «دورة خالد بن الوليد» وكان نصيبي بالتعيين في كتيبة الفرسان الأولى كآمر فصيل والتحقت بمركز عملي على الحدود السورية الأردنية، وكان مقر الفصيل في محطة القطار في

المزيريب. ولكن هذا التعيين لم يرق لي ولم استطع التكيف مع هذه المهمة التي تقوم أساساً على مراقبة الحدود ومنع التهريب من الحمة غرباً حتى حدود البادية شرقي جبل العرب. واتضح لي ان هذا العمل يبعد العسكريين عن مهنتهم الأصلية ويفسدهم. ولاحظ قائد الكتيبة آنذاك المقدم قاسم الخليل، عدم انسجامي مع طريقته بالقيادة ولامع هذا العمل نظراً لما أحمله من أفكار وقناعات عن مهمة الجيش النظامي والحياة العسكرية كما تعلمتها في الكلية العسكرية الأمر الذي يصعب تطبيقه على أفراد الجيش المنتشرين في مخافر متباعدة بمفارز لايتجاوز عدد أفرادها الخمسة وبعضها يقيم في ظروف قاسية جداً تحت الخيم ولاتتوفر لهم أدنى وسائل النظافة ولايسعهم بالتالي التجاوب مع الأسلوب والمعاملة الانضباطية التي اعتدتها في الكلية. ولحسن الحظ أنه لم يمض على وجودي في هذه الكتيبة إلا شهر واحد حتى تلقيت برقية بنقلي فوراً الى الكلية الحربية بحمص وكان ذلك مفاجأة سارة لي أثرت على سير حياتي ومستقبلي في القوات المسلحة، كانت ترقيتي لرتبة ملازم ثم تعييني مدرباً في الكلية الحربية بداية مرحلة حاسمة في حياتي. فقد أصبحت محط آمال الأسرة وموضع اعتزازها، ومثلاً يحتذى بالنسبة لكل شباب القرية والقرى المجاورة، ولاأبالغ اذا قلت أن ذلك كان بمثابة الحدث الهام بالنسبة لهذه القرية والقرى المحيطة بها، والتي لم تكن تعرف بين أبنائها أكثر من شرطي في الدرك أو معلم مدرسة.

وشعرت لأول مرة بالاستقلال التام وبقدرتي على تقديم العون الفعال لأهلي وأشقائي، بالاضافة الى ماكنت أشعر به من اعتزاز وفخر بهذه المهنة الشريفة التي اخترتها والتي تتيح لي أن أقدم أقدس الخدمات لوطني.. والحقيقة ان المواطنين كانوا آنذاك ينظرون للجيش ولضباطه نظرة حب وتقدير ويرون فيهم عنواناً للاستقلال والكرامة.

كان صدري يطفح بالآمال ورأسي تلتهب بالمثاليات الغامضة وخيالي يصور لي مستقبلاً زاهراً لبلدي وأشعر وكأني في بداية معركة طويلة نبيلة بدأت تشتعل للدفاع عن أرض الوطن المقدس في فلسطين، وسيكون لي شرف المساهمة في هذه المعركة فأقدم أغلى ماأملك وهو دمي وكان جميع زملائي

ينتظرون بفارغ الصبر الوقت الذي سيشاركون فيه بهذه المعركة ضد الغزاة الأجانب الذين يريدون اقتطاع جزء هام من قلب الوطن العربي ليمنعوا تطوره ويفسدوا عليه متعة الاستقلال ويحولوا دون الوحدة العربية التي ينشدها الشعب منذ بداية الثورة العربية الأولى في عام ١٩١٦ . كانت فكرة الوحدة العربية تملأ جوانحي وأمثالي من أبناء الجيل ، فقد زرعها أساتذتنا في أفئدتنا وعقولنا حتى أصبحنا نؤمن بأن مهمتنا الأساسية هي تحقيق هذه الوحدة كسبيل للتطور والتحرر والتصدي للتحديات الكبيرة ومباشرة الدور الانساني الذي خلقت الأمة العربية من أجله ، ولم أكن رغم نشأتي المتواضعة أعي مشكلة الصراع الطبقي رغم المعاناة التي يعيشها أبناء الريف في منطقة قليلة الأمطار يكثر فيها تواتر القحط ولامورد آخر للسكان سوى مواسمهم الزراعية ، كما لم أكن أعرف الشيء الكثير عن الفكر العالمي والحركات الثورية الاشتراكية والأممية ، وكنت أكن الحقد والكراهية للشيوعية والالحاد دون أن أعرف كنه هذه الايديولوجية ، وكان يكفيني أن أعرف أنها ضد القومية وان الكثير من أعضاء الحزب الشيوعي في سورية من غير العرب وبعض الأقليات الحاقدة ، وماكنت أغفر لانسان ينقص أو يعيب شيئاً على العرب والعروبة . كان ذلك بالنسبة لي يشبه الايمان ولم أدرك أن ذلك نوعٌ من التعصب الأعمى ، وانها الفاشستية بعينها ، إلا بعد سنوات عديدة . وهذا يدل دلالة واضحة على ضحالة المعلومات التي تلقيناها في المدارس الثانوية والكلية العسكرية ، والجو العام الذي كنا نعيش فيه في الأربعينيات . كنت شغوفاً بالمطالعة وقراءة كل مايقع تحت يدي من كتب ومجلات غير ان ذلك لم يخرجني من الدائرة الضيقة التي كنت أدور فيها منذ أيام الدراسة الثانوية والكلية الحربية ، ولم يسمح لي عملي بتوفير الوقت لاستدراك الكثير من المعرفة ، غير أنني بدأت مع الأيام أشعر بكثير من المرارة بالثغرات الواسعة في ثقافتي العامة ومع ذلك فإن ظروفي لم تتح لي الفرصة لتوسيع معرفتي ، كما ان الظروف العامة التي أخذت تهيمن على سورية والوطن العربي منذ منتصف عام ١٩٤٨ وخاصة بعد هزيمة الجيوش العربية السبع وقيام دولة اسرائيل ، أصابتني وأصابت كل أبناء جيلي بالخيبة ، ولكننا لم نستطع فهم

الأسباب الحقيقية لهذه الكارثة، بل سارعنا لالقاء مسؤوليتها على الفئة السياسية الحاكمة وخيل لمعظم العسكريين ان تقصير الحكومة المدنية والفئات المساندة لها والحكومات العربية الأخرى كان العامل الأساسي في ضياع فلسطين، لذا كان من السهل توجيه الحقد نحو النظام البرلماني القائم لاسقاطه وانقاذ سمعة ومعنويات القوات المسلحة بواسطة انتصار سهل في الداخل. وهكذا توفرت أول الشروط للانقلابات العسكرية في اللحظة التي عجز فيها الجيش عن تحقيق انتصار حاسم في فلسطين.

كنت أعتقد مع ذلك ان انتمائي لحزب البعث العربي ومركزي كضابط يجعلاني في الصفوف الأمامية بين الطليعة النضالية في شعبنا ويبدو أن هذه الفكرة عززت في أذهاننا لدرجة أنها جعلتنا نستهين بالظروف الموضوعية السائدة وبالقوى الاجتماعية والمنظمات السياسية الأخرى وننكر عليها

حق ممارسة الدور الذي تستحقه في ادارة البلاد ونعتقد أن جيل الشباب والحزب الذي ننتمي اليه هو وحده الجدير بحمل رسالة الأمة وتحقيق أهدافها وتطلعات جماهير شعبنا في سورية وفي بقية الاقطار والثأر للهزيمة التي تكبدتها الجيوش العربية أمام العصابات الصهيونية، والتي نتج عنها قيام دولة اسرائيل، وتشتيت غالبية الشعب الفلسطيني وتكريس عدم الاستقرار في المنطقة.

الفصل الثاني

الحـــرب الفلسطينيـــة

ناقشت الجمعيـة العـامة للأمم المتحدة قضيـة فلسطين في الجلسات التي عقـدتها بين ١١ ـ ١٣/ تشـرين أول ١٩٤٧، وبتاريخ ٢٩/ تشـرين الثاني من نفس العام أصـدرت القرار المعروف «بقرار التقسيم» والذي يقضي باقامة دولتين على أرض فلسطين إحـداهما للعـرب والأخرى لليهود. وفي ٤/ أيار من عام ١٩٤٨ عقد في بلودان مؤتمر لرؤساء الـدول العـربيـة واتخذ قرار برفض قرار التقسيم وأكد وحدة التراب الفلسطيني وان فلسطين يجب ان تشكل دولة عربية موحـدة يكون فيهـا لليهـود نفس الحقـوق التي للمواطنين العرب الفلسطينيين ويمكن ان يمنحوا ادارة محلية في المناطق التي يشكلون فيها الأكثرية اذا رغبوا في ذلـك. كما اتخـذ هذا المؤتمـر قرارات سريـة تدعـو الـدول العـربيـة المستقلة للاستعـداد عسكريـاً وسياسياً لمقاومة قرار التقسيم بالقوة ومنع اقامة دولة يهودية بعـد هذا المؤتمـر. وأخـذ الوضـع يزداد توتراً يوماً عن يوم، وتركزت أنظار العرب على السـاحة الفلسطينية، وبدأ الكثير ون يتطوعون للنضال داخل فلسطين.

وكـانت الصهيـونيـة منـذ نهايـة الحـرب العـالميـة الثانية تستعد للمعركة

المصرية مستفيدة من الوضع الدولي، وتضع كل امكانياتها وتشغل كل امكانيات أصدقائها وكل نقاط ضعف العرب لكي تخوض حرباً ظافرة ضد الشعب الفلسطيني والقوات العربية النظامية وقوات جيش الانقاذ، والفصائل الفلسطينية المختلفة التي تسلحت نسبياً وبشكل عفوي لتدافع عن أرض فلسطين التي تخلى عنها الاستعمار البريطاني بعد ان اطمأن على تفوق القوى اليهودية على الأكثرية العربية غير المنظمة.

وفي مساء ١٤/ أيار أعلن المؤتمر اليهودي في فلسطين قيام دولة اسرائيل وبعد دقائق من هذا الاعلان اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالدولة الجديدة وبعد أيام قليلة اعترف الاتحاد السوفييتي بهذه الدولة ثم تتابعت اعترافات الدول باسرائيل من كل أنحاء العالم، من الدول الاشتراكية والرأسمالية على حد سواء، وأعلنت الدول العربية بأنها لن ترضخ للأمر الواقع، وبادرت الى وضع قرار مجلس الجامعة السري موضع التنفيذ.

وفي صبيحة يوم ١٥/ أيار ١٩٤٨ عبرت الجيوش المصرية والسورية واللبنانية والأردنية والعراقية، حدود فلسطين الدولية لتعزيز جيش الانقاذ وفصائل الثورة الفلسطينية الأخرى التي كانت قد بدأت المعركة منذ قرار التقسيم.

أعطيت القيادة العامة للجيوش العربية الخمسة للمرحوم الملك عبد الله ملك الأردن بناء على اصراره واتخذت الحرب شكل المسرحية تقوم فيها الجيوش بأدوار معينة لاتخرج عن إطار الخطة العامة التي وضعتها الدول الكبرى، وهكذا وجدت الجيوش العربية نفسها يقاتل كل جيش فيها على انفراد في جبهة لا صلة لها بالجبهة الأخرى ولكنها مع ذلك كانت تقوم بمهماتها بحماس وايمان منقطع النظير، ولم يمض إلا أيام حتى استنفذت كل امكانياتها دون ان تصل الى أية نتيجة حاسمة بينما كانت القوات الاسرائيلية (أوجيش الهاغاناه) تزداد عدداً وتسليحاً يوماً بعد يوم، وتخوض معارك عنيفة على جميع الجبهات وتجبر القوات المسلحة المصرية ووحدات جيش الانقاذ والمقاومات الفلسطينية الأخرى على الانسحاب من الأراضي التي خضعت لليهود حسب قرار التقسيم، وعندما

كانت تلاقي بعض المصاعب في إكمال مهمتها والوصول الى أهدافها كان مجلس الأمن يسارع لنجدتها باصدار القرارات بوقف اطلاق النار واعلان الهدنة تلو الأخرى ليفسح المجال لها للاستراحة واعادة تنظيم صفوفها وتجديد أسلحتها وذخائرها، واسترداد المبادرة، بينما كانت الجيوش العربية تزداد ضعفاً ولا تجد الوسيلة لاستدراك مافقدته من أسلحة وذخيرة.

كان جنود الجيش السوري يقاتلون بشجاعة خارقة وقد خاضوا معارك مشرفة خلدها التاريخ واعترف بها العدو في مستعمرات داغانيا آ، وداغانيا ب وكنيريت ومدينة سمخ جنوب بحيرة طبريا واستطاعوا في الأيام الأولى للحرب من تهديد طبريا وكبدوا قوات البالماخ خسائر فادحة، وتقدمت القوات السورية عبر القطاع الأوسط فاجتازت جسر بنات يعقوب واحتلت المرتفعات الغربية المسيطرة على نهر الأردن وأسقطت مستعمرة مشمارهايردن واحتلت مزرعة الخوري وردت القوات الاسرائيلية الى المرتفعات الواقعة على السفح الشرقي لجبال الجليل المطلة على سهل الحولة، كما وجهت ضربات عنيفة للمستعمرات اليهودية بين المطلة وجسر بنات يعقوب ووقفت على أبواب مستعمرة ماهانايم (أو نجمة الصبح) وقام الجيش العراقي باحتلال سهل بيسان وأصبح يهدد السهل الساحلي ويقطع فلسطين الى جزئين ويسيطر الجيش العربي الأردني بقيادة كلوب باشا (أبو حنيك) على القدس القديمة والخليل واللطرون ونابلس وطول كرم ويقطع طريق القدس تل أبيب، وخاض معارك عنيفة مع الاسرائيليين الذين حاولوا فك الحصار عن مدينة القدس القديمة.

وقام الجيش المصري بالتقدم على محورين أحدهما باتجاه يافا والآخر باتجاه الشمال الشرقي من بئر السبع، وحقق نجاحات باهرة بالاستيلاء على مستعمرة أشدود وهدد بفصل منطقة النقب عن جسم فلسطين وهدد تل أبيب، وقامت بعض الطائرات المصرية بالاغارة على هذه المدينة ولكنه مالبث ان استنفذ ذخيرته واضطر لاتخاذ وضع دفاعي في أسدود والفالوجة وشمالي قطاع غزة بعد أن أصبحت يافا وتل ابيب في متناول يده.

وفي الهدنة الثانية ركز اليهود هجومهم على جيش الانقاذ واضطروه

للانسحاب من الجليل واحتلوا صفد، وجمدوا الجيوش الأردنية والعراقية والسورية في مواقعها، وحولوا قواتهم الى الجنوب فطوقوا القوة المصرية الرئيسية في الفالوجة، وزجوا بقواتهم الجاهزة باتجاه سيناء. وأصبح من الواضح ان الجيوش العربية لم تعد قادرة على التحرك بل لقد عبرت القوات الاسرائيلية الأراضي اللبنانية طاردة جيش الانقاذ وبعض الوحدات اللبنانية التي كانت تقف على الحدود... وعندما أصدر مجلس الأمن قراره بوقف اطلاق النار للمرة الثالثة كانت اسرائيل قد احتلت معظم الأجزاء التي خصصتها لها هيئة الأمم المتحدة في قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ولم تكتف بذلك بل وجهت وحدات عسكرية الى خليج العقبة واحتلت ميناء ايلات وبذلك تمكنت من ضم منطقة النقب بكاملها وأقامت سداً بين المنطقة العربية الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط ويعتبر هذا الحدث المأساة من أهم الأحداث التاريخية منذ الحروب الصليبية، وطالما تطلعت اليه اوروبا الاستعمارية لفصل المشرق العربي عن المغرب العربي وضرب فكرة الوحدة العربية وتمزيق الأمة العربية.

أول تعميد بالنار (أول لقاء لي مع الحرب)

منذ أواخر عام ١٩٤٧ فتحت بعض المعسكرات للتدريب ومكاتب التطويع لجيش الانقاذ في سورية، وأقبل العديد من الشباب والطلاب والأساتذة ورجال الأحزاب والسياسيين على التطوع، واختارت القيادة بعض الضباط للخدمة والتدريب في هذه المنظمة المسلحة وكان من بين كبار الضباط الذين تطوعوا للقتال في فلسطين العقيد أديب شيشكلي، والمقدم مأمون البيطار والمقدم غسان جديد والمقدم فايز القصري وعدد آخر من مختلف الرتب بينهم بعض أفراد دورة خالد بن الوليد: جودت أتاسي، جادو عز الدين، عدنان مراد وغيرهم.

وقد استشهد منهم المقدم مأمون البيطار والملازم شفيق عيسى على تراب فلسطين، والحقيقة ان العقيد أديب الشيشكلي نال سمعة عالية خلال عمله في جيش الانقاذ بالاضافة الى ماكان يعرف عن وطنيته أثناء فترة الانتداب

الفرنسي وتمرده مع عدد كبير من ضباط جيش الشرق والتحاقهم بالقوات الوطنية عام ١٩٤٥ وشكلوا مع العسكريين وضباط الصف النواة الأساسية للقوات المسلحة السورية.

كنت في الكلية العسكرية عند بدء العمليات الحربية في ١٥/ أيار ١٩٤٨، وفي هذه الفترة اتصل بي الرئيس سليمان نصر هاتفياً من دمشق واستشارني حول استعدادي للتطوع في جيش الانقاذ فأجبته بالموافقة شريطة أن تسمح لي قيادة الجيش بذلك. . ولم أتلق بعد ذلك منه أومن القيادة أية اشارة. . . ويبدو أنه كان ينتظر مني الالتحاق بقوى الانقاذ دون الموافقة المسبقة للقيادة العامة، لكي استفيد من الخبرة والسمعة التي استفاد منها بعض زملائي في دورة خالد بن الوليد ونالوا على أساسها ترقيات استثنائية ومن بينهم عبد الحميد السراج وجودت الأتاسي وأكرم الديري وهشام العظم وعدنان مراد وجاد وعز الدين والمرحوم شفيق عبيسي وكونوا علاقات خاصة مع كبار الضباط الذين عملوا مع جيش الانقاذ.

وفي بداية شهر حزيران صدر قرار بنقلي من الكلية الحربية والالتحاق بكتيبة الفرسان الأولى المتمركزة في القنيطرة، وكانت تسمى أيضاً «بكتيبة الشراكسة» لأن الغالبية العظمى من عناصرها من أبناء الأقلية الشركسية في سورية وكان على رأس هذه الكتيبة المقدم المرحوم محمود بنيان، والذي أصبح اسمه علماً بين ضباط الجيش السوري خلال فترة الحرب نظراً للبطولات التي اظهرها مع هذه الكتيبة حتى أخذت القيادة تطلق عليها اسم «كتيبة المغاوير» بسبب مساهمتها الفعالة في عملية اجتياز نهر الأردن واحتلال مستعمرة مشمارها يردن ومزرعة الخنوري واستعادة تل العزيزيات والتقدم على محور مدينة صفد وتحطيم أسطورة تحصينات المستعمرات.

ويبدو أن الجيوش العربية في جميع الجبهات كانت تتفوق في الأسابيع الأولى للحرب على القوات الاسرائيلية حتى لقد بدأت تظهر علائم التفكك في صفوف قوات الدفاع الاسرائيلية، الأمر الذي دعا مجلس الأمن الى اصدار

قرار بالهدنة الأولى التي كان هدفها اعطاء الفرصة لاسرائيل لاعادة تنظيم قواتها وتسليحها ومراجعة الخطط الدفاعية على ضوء المعارك الأولى .

وفي هذه الفترة بالذات أي في نهاية الهدنة الأولى التحقت بوحدتي الجديدة في القنيطرة في أواخر حزيران،عندما وصلت الى مدينة القنيطرة ، كانت شوارعها تعج بالعسكريين والأليات الحربية ، التحقت فوراً بالكتيبة وكان مقرها في احدى مدارس المدينة، وما أن وصلت باحة المدرسة المذكورة حتى سمعت أصوات طلقات نارية صادرة عن احدى الغرف ، استفسرت من الحاجب عن مكان قائد الكتيبة وطلبت اليه أن يستأذن لي منه لأقدم نفسي له . فدخل الغرفة التي تصدر منها أصوات الطلقات ثم خرج ليستدعيني فدخلت وفي رأسي الكثير من الأسئلة والاستغراب . كان قائد الكتيبة يجلس وراء مكتبه في صدر الغرفة يحيط به عدد من الضباط وكانوا يتضاحكون ويلوح بعضهم بمسدسات بأيديهم . إنه لمنظر مرعب، ولكنه أثار دهشتي . . !! واستغرابي .

حييت وتسمرت في وسط الغرفة وقدمت نفسي الى آمر الكتيبة الذي نهض وصافحني وشد على يدي وطلب إلي الجلوس ، ثم استأنف حديثه مع الضباط المحيطين به، فعرفت أن معظمهم من الضباط الشراكسة المتقاعدين ، وان أصوات الرصاص في المكتب كانت عبارة عن منافسة بين آمر الكتيبة وبعض ضباط الكتيبة موضوعها : إصابة مسمار مغروز في أعلى أحد جدران الغرفة ، وماهي إلا دقائق حتى استؤنفت الرماية من جديد وفاز قائد الكتيبة ، وكان الرهان على غداء في ندوة الكتيبة . . كانت تلك الحادثة مفاجأة أذهلتني لأنني لم أكن أتوقعها وكيف لضابط صغير مثلي لم يمض على تخرجه من الكلية إلا أشهر أن يتصور مثل هذا المشهد ولاتزال حاضرة في ذهني حتى الساعة . . بعد انتهاء المباراة انتقلنا الى ندوة الكتيبة لتناول الغداء وما ان انتهينا من ذلك حتى كلفني آمر الكتيبة بتشكيل سرية مشاة من الجنود وضباط الصف الاحتياطيين الذين استدعوا للخدمة علماً بأنهم من العناصر التي سرحت من قوات الجيش الفرنسي بعد الاستقلال ومعظمهم من الشراكس وبدأت أعمل مع آمر السرية هو ضابط متقاعد برتبة نقيب وضابطين ومساعد أول من الجيش العامل حتى تمكنا من

توزيع الألبسة والأسلحة والذخائر على الجنود وأذكر انه لم يكن في السرية النصاب النظامي من الأسلحة والمسدسات والذخيرة والقنابل اليدوية الهجومية ولم نستطع توفير الحقائب الجلدية اللازمة لحفظ الذخيرة، لذلك طلبنا من الأفراد وضعها في المزاود القماشية التي وزعت عليهم، وكانت البنادق من النوع الفرنسي القصير ذي الثلاث طلقات الذي استخدم في الحرب العالمية الأولى.

لم يكن أمامنا الوقت الكافي للتعرف على الجنود وضباط الصف من قادة الحضائر، إذ مالبثنا أن سمعنا في المساء عن انتهاء فترة الهدنة بل خرقها من قبل اسرائيل، فصدرت الأوامر للكتيبة للتوجه في اليوم التالي لوصولي الى الخطوط الأمامية والاشتباك مع العدو في القطاع الأوسط، علماً بأنه لم يبق لمعظم الضباط أو ضباط الصف والعساكر ان استطلع القطاع الذي تجري فيه المعركة باستثناء قائد الكتيبة وبعض الضباط الذين اشتركوا في معركة مشهارهايردن، وكان كل مانعلم عن الوضع الخاص هو اننا سنجتاز نهر الأردن في جسر بنات يعقوب ونصعد غرباً المرتفعات الواقعة شرقي مدينة صفد باتجاه مستعمرة ماحانايم، ونشتبك مع العدو المتمركز أمام هذه المستعمرة فوق تل أبو الريش، ونحل محل احدى كتائب المشاة التي كانت تشتبك مع العدو طوال الليل. وأذكر انني دخلت المعركة دون خوذة وليس معي أي سلاح سوى المسدس البراون من عيار ٧,٦ الذي تسلمته عند تخرجي من الكلية ومعه ٢٥ طلقة، وأما الجنود فكان سلاح كل منهم بندقية وحوالي ٥٠ طلقة ومع ذلك فقد كان جميع الأفراد يلتهبون حماساً للاشتباك مع العدو.

غادرت الكتيبة القنيطرة حوالي الساعة الثانية عشرة من ليلة ٨/٩/ تموز ١٩٤٨ وماهي إلا ساعة ونيف حتى بدأنا نسمع أصوات الأسلحة المتنوعة ونشاهد بريق انفجار القنابل ورصاص الرشاشات تضيء ظلام الليل، وعندما أخذت السيارات تنحدر نحو وادي الأردن بعد اجتياز نقطة الجمارك السورية المسماة بالعليقة، أخذت تتساقط علينا بعض قنابل المدفعية، وازدادت كثافة النيران مع تقدمنا نحو جسر بنات يعقوب وعندما تجاوزنا مستعمرة مشهارهايردن (قرية كعوش) اضطرت السيارات للتوقف نظراً لغزارة النيران، وسرنا دون أي

نظـام حتى بلغنـا سـفـح تل أبـو الـريش الـواقع بين مـستعمرة كعوش ومـستعمرة ماحـانـايم وهنـاك أعلمنـا قائد الكتيـبة أننـا سـنصـعد الى هذا التل لنحل محل أحد أفواج المشـاة الذي أنهكه القتال وتكبد خـسـائر كبيرة .

وهكذا أخذت سـرايا الكتيـبة تشـكيل القتال وصـعدنا سـفح التل تحت وابل من نيران الـرشـاشـات والهاون والمدفعية ، وكنا نشـاهد بعض الجثث القتلى من جنود الوحدة الـسـورية الـسابقة وبعض الجرحى وبعض الأسـلحة الخفيفة والعتاد الملقى في أرض المعـركـة تركتـه وحدات العدو أو قتلانا ويبدو ان قوات العدو قد أخلت التل بعد هجوم فوج المشـاة الرابع واتخذت وضـعاً دفاعياً على المرتفعات التي تحمي مـستعمرة ماحانايم من الجهة الشـرقية .

والحقيقـة انـنـا لم نكن نعرف مكان العدو إلا من بريق نيرانه من رشاشـاته ومـدافعـه وكـان التقدم بطيئاً ولكنه غير صعب خلال فترة الليل غير ان النيران أصـبحت دقيقـة ومؤثـرة ومـع بزوغ الفجر وأخذنا نرى بعض جنودنا يتـساقطون دون ان يكون لدينا القدرة على الرد المحكم على نيران العدو بـسـبب استمرارنا على التقـدم وكـان العـدو يتخذ وضعية الدفاع وراء تحصينـات محضرة مـسبقاً في ضواحي مـستعمـرة ماحـانـايم . وعنـدمـا بزغت الشـمـس كان اثنان من زملائي الضبـاط في الـسـرية قد استشهدا ومنهم آمر الـسـرية نفسـه المرحوم الملازم يعقوب والملازم مير زا.طلب مني قائـد الكتيـبة أن أتسـلم قيادة الـسرية ، وعندما حاولت مع طلوع الشـمـس ان استعيد ذكريات أنظمة القتال لأطبقها وجدت أنني لاأعرف أسماء قادة الفصـائل بل ولاأذكر أي واحد من الجنود الذين التقيت بهم منذ ٤٨ سـاعـة فقـط لأول مرة في مقـر الكتيـبة بالقـنيطـرة ، ووجـدتني أصـرخ على آمـر الفصيـل اليـمني أو آمـر الفصيـل اليـسـاري لأعطيـه الأمـر بالتقدم أو التركيز أو توجيه نيرانه باتجاه مصـدر نار العدو، ولكني أعترف ان اهتمامي الأول كان مركزاً على حماية نفـسي من القذائف التي تتـساقط كالمطر حولي ، فما كنت أنهض لأقف حتى أجـدني مضطـراً للانبطاح والالتجاء وراء صـخرة أو حفرة ، وفجأة سمعت هديـر صـوت آمـر الكتيـبة المقدم بنيان يوبخني ويقول بصرامة مخيفة أيها الضـابط

الغر لماذا ترتعد من الخوف وتتلكأ بالتقدم ولاأراك وأنت تنتقل كالأرنب من وراء صخرة الى وراء صخرة دون ان تعطي المثل والقدوة لجنودك!! . .

وأضاف ان الرصاص الذي تسمع صوته لايصيبك والرصاصة التي تكون موجهة اليك لايمكنك ان تسمعها . . . تقدم .

التفت نحوه فإذا به يتقدم منتصب القامة وبيده عصا غليظة دون أي سلاح سوى مسدس في حزامه ويصرخ على ضباطه وجنوده ويأمرهم بالتقدم دون أن يأبه للرصاص والقنابل من حوله وأحسست بالعرق البارد يغسلني وكأنني وجدت نفسي عارياً بين جنودي ورفاقي ، وفقدت كل احساس بما يجري حولي ولم أعد أفكر إلا بهذا الرجل الفظ الذي يراقبني ولايتورع عن رفسي بقدميه اذا بدا مني أي تخاذل أو تقاعس .

والحقيقة ان صوت هذا القائد كان بمثابة صدمة عنيفة أعادت إلي رشدي ورباطة جاشي وتماسكي وثقتي بنفسي ، ولم أعد أفكر حتى بأي خطر لأن الخطر العظيم الذي يهددني هو ان أسقط في عيني هذا القائد الرهيب الذي لايعرف الخوف طريقاً الى قلبه والذي كان يتجول بين وحداته بعصبية وينادي على ضباطه وضباط الصف بل وبعض الجنود بأسمائهم ويثير حماسهم وأحقادهم على العدو وكان صوته يجلجل وتتردد أصداؤه في ظلام الليل بين صخور هذا التل حتى لم أعد أسمع إلا هذا الصوت .

ويبدو أنني تجاوزت بعد فترة قصيرة دون أن أشعر أصعب مرحلة في حياتي ، أو مايسمونه «بالتعميد بالنيران» وعند الظهيرة كان القتال على أشده فوجئت مرة وأنا أحاول الانتقال من حفرة الى متر اذا بعكازة معقوفة تمسك قدمي من الخلف فأنطرح أرضاً على وجهي ، وأسمع بعدها هدير صوت القائد مرة أخرى يقول لي مامعناه «مابالك أيها المغرور لقد جننت ان رشقات رشاشات العدو تستهدفك وعليك ان تزحف زحفاً وتستعمل الأرض كما علموك في الايكول ميلتير . . (المدرسة الحربية) . . » . .

والتفت فإذا بي أجده خلفي والى جانبه رئيس أركان الكتيبة الملازم الأول ابراهيم الخوري وأحسست كأن الدنيا لم تعد تسعني . . هاقد استعدت

ثقة هذا القائد المخيف قبل أن تغيب شمس النهار الأول من القتال. استمر القتال حتى عصر اليوم التالي، وفي المساء تلقت الكتيبة أمراً بالتراجع الى جسر بنات يعقوب للاستراحة على أن يحل أحد أفواج المشاة محلها.

وصلنا في المساء الى موقع الاستراحة وهو عبارة عن غابة من الكاليبتوس تقع شمالي جسر بنات يعقوب على الضفة اليمنى لنهر الأردن خلف المرتفع الذي تقع عليه مستعمرة مشمارهايردن.

لم نستطع خلال هذه الفترة تناول شيء من الطعام، بل لم يكن لدي أو لدى مرافقي قطرة ماء وهكذا بقيت مدة ٣٦ ساعة دون طعام أو شراب أو نوم، ولاأذكر إلا أنني استلقيت في ظل إحدى الأشجار الضخمة داخل حفرة عميقة مع بعض الجنود ولم أفق من نومي إلا على أصوات انفجارات قريبة من موقع الكتيبة ألقتها طائرة تدريب ذات جناح مزدوج «بير كاب» وكانت هذه أول مرة أشهد بعيني غارة جوية من طائرة اسرائيلية.. كان صوت الانفجارات عنيفاً ولكنه لم يحدث أية نتيجة مادية، وبعد أن ابتعدت الطائرة سارعت مع بعض الزملاء والجنود لتلقي نظرة على مكان انفجار القنابل، واذا بنا نشاهد قطعة قسطل من الحديد الصب لم تتشقق نتيجة احتراق المتفجرات التي في داخلها.. ويبدو أنها جزء من قسطل معدني للمجاري... وضحك الجنود وكان لهذا المنظر أثراً معنوياً ايجابياً في العساكر فقد شاهد الجنود بأم أعينهم تفاهة الغارة الجوية وعدم فعالية المتفجرات التي تلقيها عليهم طائرات العدو، غير أن ذلك لاينطبق على قنابل المدفعية والهاون والرشاشات والصواريخ التي كان يطلقها جنود العدو. مما لم يكن له مثيل قبل الهدنة الأولى، وهو يدل على ان القوات الاسرائيلية تلقت أسلحة برية حديثة جداً خلال فترة الهدنة ولم نتلق أي شيء.. بل على العكس لقد نفذ نصف ذخيرتنا ولم يبق لدى الكتيبة أي احتياط.

الهجوم على موقع مزرعة الخوري:

وفي مساء اليوم التالي تلقت الكتيبة أمراً من القيادة العامة للاستعداد

لمهاجمة الموقع الواقع في الضفة الجنوبية لبحيرة الحولة عند مخرج نهر الأردن منها وتسمى بمزرعة الخوري. وكان الموقع عبارة عن بيارة برتقال مربعة الشكل تبلغ مساحتها حوالي ٢٠ ـ ٣٠ هكتاراً محاطة بشجر السرو. أقام الاسرائيليون على جوانبها الأربعة تحصينات سريعة لحماية مستعمرة محصنة تسمى «الدردارة».

ومع فجر اليوم التالي اتخذت الكتيبة قاعدة للانطلاق عند النهاية الشمالية لغابة الكاليتوس بين سفح المرتفع غرباً ونهر الأردن شرقاً، وقد عززت الكتيبة بفصيل من مصفحات المارمون (البريطانية بقيادة الملازم هيثم كيلاني وفصيلة دبابات هوتشكير الفرنسية بقيادة الرئيس أمين النفوري) كما قامت المدفعية المتمركزة في الأراضي السورية على المرتفعات الشرقية المطلة على وادي الأردن غربي موقع العليقة برمايات تمهيدية للهجوم منذ طلوع الشمس ولمدة ربع ساعة تقريباً بقيادة العميد كرامانوكيان، آمر سلاح المدفعية.

وحوالي الساعة السابعة صباحاً تقريباً أعطى آمر الكتيبة الأوامر بالهجوم، وكانت الدبابات الثلاث قد انطلقت أمام الكتيبة، وكُلِّف فصيل المصفحات بحماية مسيرة هجوم الكتيبة الى الشمال الغربي باتجاه قريتي الغنامة والبقارة حيث توجد احدى كتائب المشاة بقيادة المقدم هشام السمان وكانت سرية المغاوير التابعة لكتيبة الفرسان بقيادة الرئيس خالد عيسى في المقدمة، وتحركت السرايا الثلاث على نسق واحد تقريباً.

وكانت السرية التي أنتمي اليها بقيادة الرئيس أنزور وهو ضابط شركسي متقاعد يتجاوز سن الستين، ونظراً لمرضه في ذلك اليوم كُلفت شخصياً بقيادة السرية، ولم أبلغ بهذا الأمر إلا عند بدء الهجوم. كنت مع سريتي في الجناح الأيسر للكتيبة ومهمتنا احتلال سياج المزرعة الغربي والاسراع بطرد العدو من حقول القمح غربي المزرعة والتمركز على حدود المزرعة الشمالية بمواجهة مستعمرة مسادا والقضاء على بقايا عناصر العدو المتراجعة نحوها.

سار الهجوم لأول مرة بشكل نموذجي ينطبق على المبادىء التي تلقيناها في الكلية العسكرية وكانت وحدة العدو المتمركزة بين أشجار السرو في تحصينات مؤقتة تمطرنا بنار غزيرة من الرشاشات والبنادق ومدفعية الهاون كما تساندها

بعض قطع المدفعية المتوسطة المتمركزة في مستعمرة مسادا شمالاً ، ولكن سرعة الحركة ، وعدم وجود موانع اصطناعية للعدو ساعد في ابطال نيران العدو واستطاعت سرية المغاوير الانقضاض على مواقع الرشاشات المتمركزة ضمن المزرعة وأبطلتها وأبدى عساكر الكتيبة في هذه المعركة شجاعة وحماسة تستحق الثناء والتقدير وتخلد دور هذه الوحدة . ولم يكن العساكر يعبأون بالخسائر بل لقد لاحظت استهانتهم بجنود العدو الذين .بدأوا بالفرار داخل حقول القمح . واستطاعت الكتيبة ان تنجز احتلال المزرعة وتطرد العدو منها حوالي الساعة الرابعة عشرة تقريباً . وعندما حاولت التقدم في حقول القمح الواقعة بين المزرعة والمستعمرة شمالاً ، أشعل العدو النيران في الحقول مما اضطر المصفحات للتراجع وأعطيت الأوامر للكتيبة للتمركز على طول حدود المزرعة الشمالية والقرية والمباشرة بتحضير تحصينات مؤقتة . . . وفي هذه الأثناء خرج ثلاثة من جنود العدو من وسط حقل القمح أمام سريتي ورفعوا أيديهم مستسلمين بعد أن ألقوا سلاحهم ، وحاول أحد ضباط الصف ان يطلق النار عليهم ، ولكني منعته من ذلك وبعد ان تم التعرف عليهم تبين انهم ينتمون لوحدة هندسية مكلفة بزرع الألغام أمام تقدمنا ، وكان بينهم ضابط برتبة ملازم أول من أصل روماني أما العنصران الآخران فهما من أصل بولوني ، تم أسرهم وسلمتهم الى قائد الكتيبة .

انتهت المعركة في تمام الساعة الثانية عشرة كما قلت وكانت خسارة الكتيبة حوالي خمسة عشر بين قتيل وجريح . . . وقد بلغت الكتيبة أقصى حدود امكانياتها وأصبح الجنود يطالبون بالاستراحة . وبالفعل تلقينا الأمر بأن نكون جاهزين لتسليم مواقعنا لكتيبة الفرسان الثالثة بعد حلول الظلام . والجدير بالذكر انه لم يكن لدى الكتيبة المعدات اللازمة للتحصينات الفردية لأن تشكيل الكتيبة مبني على أساس انها وحدة مغاوير مهمتها الهجوم فقط . . (كذا) . . وليست مجهزة بوسائل الدفاع الفردية كالمعول والمجرفة ، ونظراً لأن معظم أفراد الكتيبة من الفرسان فإنهم لم يعتادوا استخدام هذه الأدوات ، بل لقد كانوا يترفعون عن استخدامها ويعتبرون ذلك من مهمة جنود المشاة فقط ، ولذلك لم

يكن بمقدور الجنود القيام بحفر المواقع البسيطة للحماية من نيران الرشاشات وشظايا قنابل الهاون، وكان من نتيجة ذلك تكبد الكتيبة بعض الخسائر الاضافية بسبب تمركز أفرادها بالعراء دون أية حماية وقد جرح مرافقي وهو منبطح الى جانبي برصاصة أصابته في كتفه واستقرت في جسمه وأخذ يصيح من الألم ولم يكن باستطاعتي اسعافه لأن السرية ليس فيها ممرض كما لا يوجد تحت تصرفي أية وسيلة لتضميد جرحه أو نقله لأنه لم يكن في الكتيبة وحدة صحية للاسعافات الأولية الميدانية وقد نقله الى الخلف عنصران من السرية حملاه على ظهرهما بدون نقالة معرضين أنفسهما للنيران . . . والحقيقة أن الروح العالية والأخوة التي تربط عناصر الكتيبة ومعرفتهم لبعضهم كانت تجعل منهم كتلة متماسكة على استعداد للتضحية في سبيل الدفاع عن المجموع وعن أي فرد من الأفراد ضابطاً كان أو جندياً وهذه احدى الميزات الهامة في الظروف القتالية الصعبة، غير أنها لا تخلو من بعض المساوىء في مناسبات أخرى كتلك الحادثة التي سأذكرها فيما يلي: من الحوادث المؤسفة التي وقعت خلال معركة مزرعة الخوري المذكورة، تلك التي أدت الى استشهاد أحد ضباط الصف المعروفين بشجاعتهم الخارقة في سرية المغاوير، فبعد ان استطاع هذا المغوار من الاستيلاء على أحد أعشاش الرشاشات طلب من الجنود الاسرائيليون إلقاء أسلحتهم والنهوض والسير أمامه وعندما تردد أحدهم بالوقوف خوفاً من رصاص رفاقه الذين أخذوا يطلقون النار على المربض بعد سقوطه مما دفع الرقيب لتهديده بل وحاول اطلاق النار عليه من الرشيشة الايطالية (البريتا) التي كان يحملها، ولكن الرشيشة استعصت ولم تنطلق الرصاصة، لاحظ أحد الأسرى ذلك فبادر إلى تناول سلاحه الملقى على الأرض وأطلق النار على الرقيب فأرداه قتيلاً، ولاذ هو ورفاقه بالفرار. كان استشهاد هذا البطل أمام رفاقه وبهذا الشكل المؤسف مأساة حقيقية أثرت على معنويات أفراد الكتيبة وأصر بعضهم لكونهم من أبناء قريته المنصورة على الذهاب مع الجثمان للمساهمة بدفنه، وبكاه جميع رفاقه لما عرف عنه من فروسية وشجاعة. ويؤسفني الآن أنني لا أذكر اسمه فليرحمه الله . . .».

وفي تمام الساعة الرابعة والعشرين وصلت كتيبة الفرسان الثالثة الى مواقع الكتيبة الخلفية وطُلب إلينا التراجع الى ماوراء المزرعة دون ضجيج فتم انسحابنا خلال فترة لاتزيد عن نصف ساعة لأننا كنا ننتظر هذا الأمر منذ غروب الشمس، وبعد ان تجمعت الكتيبة امتطينا سيارات النقل وعدنا باتجاه جسر بنات يعقوب، وما أن ابتعدنا بحوالي نصف كيلومتر عن موقع الكتيبة حتى سمعنا صوت الانفجارات والرصاص. الذي أخذ ينهال كالمطر على مواقع تمركز الكتيبة الجديدة، طلبت من السائق ان ينحرف قليلاً عن الطريق لأتمكن من إلقاء نظرة الى الخلف، وكان مشهداً رهيباً، ذلك ان العدو كما يبدو لاحظ وصول الوحدة الجديدة فشن هجوماً معاكساً محاولاً استرداد الموقع قبل ان يتم تمركز الجنود بشكل جيد والتفت إلي بعض الجنود وقالوا لي كانت هذه القنابل ستسقط على رؤوسنا فليكن الله في عون رفاقنا الجدد. . . إن ليلتهم ستكون سوداء. . .

ولكننا علمنا في الصباح أن هجوم الاسرائيليين المعاكس باء بالفشل وتكبدت الكتيبة الجديدة بعض الخسائر الطفيفة ولكن جنودها ثبتوا ببسالة.

ومن أطرف القصص التي سمعتها في اليوم الثاني، ان هذه الكتيبة كانت موزعة على الحدود السورية التركية للحراسة. وقد تلقت في صباح ذلك اليوم الأوامر بالتجمع والانتقال الى الجبهة، لتحل محل الكتيبة الأولى أي كتيبتنا، بعد ان لمست القيادة العامة مدى الأعباء والخسائر التي تكبدتها خلال ثلاثة أيام متواصلة من القتال. وقد استطاعت الكتيبة الثالثة بقيادة الرئيس سنجر الوصول الى الحدود الفلسطينية باليوم نفسه والتمركز في مزرعة الخوري بدلاً من كتيبتنا، وهذا بحد ذاته عمل جدير بالاعجاب خاصة وأن قيادة الكتيبة وضباطها ورتباءها لم يكن لديهم أية فكرة عن المهمة التي تنتظرهم، ولايعرفون شيئاً عن الموقع الجغرافي الذي ستتمركز فيه وحدتهم ولم يزودوا بأية معلومات عن العدو، ونظراً للفوضى التي كانت سائدة وعدم وجود وحدات خاصة لتوجيه السير على المحاور في الجبهة من الشرطة العسكرية، فقد كان من الصعب على أي وحدة من الكتيبة الجديدة الوصول الى المكان المحدد لها. .

ويبدو أن ضابطين من ضباط الكتيبة الجديدة كانا يمتطيان سيارة جيب يقودها أحدهم اجتازا جسر بنات يعقوب دون أن يوجهها أو ينبهها أحد الى الطريق المؤدية لمزرعة الخوري (أو مكان تمركز كتيبتهم) لذلك استمرا بالسير على الطريق المعبد صاعدين باتجاه مستعمرة مشهاهايردن ثم تجاوزاها مسرعين باتجاه مستعمرة ماحانايم، ونظراً لعدم معرفة الضابطين بالمكان الذي يسيران فيه ولاعتقادهما أنهما لايزالان بعيدين عن الجبهة لم يفطنا الى اطفاء مصابيح السيارة، بل لم ينتبها الى تجاوز الخطوط الأمامية وأصبحا في منطقة العدو ولكنهم مالبثا أن لاحظا ان المناظر حولهم أصبحت غريبة قليلاً، بل لقد سمعا بعض الأصوات تناديهما بلغة لم يفهماها، فأخذ الشك يراودهما فأوقفا السيارة وأطفأا المصابيح وارتميا في احدى الحفر بعيدا عنها وماهي إلا ثوان حتى فتحت النار باتجاه السيارة وعندها أدركا مدى الخطر الذي يحيق بهما. . فأخذا يزحفان شرقاً بعيداً عن الضوضاء ومواقع اطلاق النار وعند بزوغ الفجر استطاعا الوصول الى الخطوط السورية الأمامية وكانا في حالة يرثى لها، وقد تمزقت ألبستهما وسالت الدماء من وجهيهما وأيديهما. . . وأخيراً تمكن هذان الضابطان من الالتحاق بوحدتهما بعد أن قضيا أطول وأصعب ليلة في حياتهما. . وكانت قصتهما تلخص الوضع المأساوي الذي كانت عليها القوات المسلحة السورية وافتقارها للوسائل الأساسية الضرورية لخوض معارك حقيقية.

قضينا بقية الليل في العراء حول موقع العليقة ولم يغمض لنا فيها جفن بسبب كثرة الحشرات والبعوض. وفي الصباح عادت كتيبتنا الى الخلف وتمركزت في موقع العليقة وكلفت ببعض المهمات الجديدة ثم انتقلت الى مقرها في القنيطرة.

وبعد أيام قيل لنا بأن الهدنة ستنتهي وأن الكتيبة ستساهم بهجوم على القطاع الشمالي غايته استرداد «تل العزيزيات» الذي احتله الاسرائيليون خلال الفترة السابقة. وهو موقع يسيطر على المستعمرات اليهودية الواقعة شمال شرقي سهل الحولة. ويعتبر النقطة الوحيدة التي احتلها الاسرائيليون داخل الحدود الدولية السورية كذلك رأت القيادة أنه لايجوز أن تنتهي الحرب ويبقى هذا

الموقـع تحت تصـرف الاسـرائيلـين لأن ذلك إهانة لكرامة القوات السـورية . . . كلفت سريتــان من الكتيبـة للمســاهمة في هذه المعـركـة مع بعض الـوحـدات الســورية الأخـرى من بينهـا وحـدات من قوى البادية . ولم تكن لـسريتي شرف المســاهمة في هذه المعـركـة ، التي تكللت بالنصر ، ولكن الكتيبة فقدت عدداً من أبطالها الذين غسلوا بدمائهم الزكية هذا المرتفع ، وكان من بين هؤلاء الأبطال الشهيـد الـرئيـس «جـواد انزورو»[٣] الـذي سـطـر قبـل استشـهـاده أعظم وأروع صفحـات الجيش السـوري في هذه الحـرب . . . وسيـبقى بين القـادة الأبطـال الـذين يعتـبر ون مفخـرة في تاريـخ جيشنا نال بعضهم الشهادة وشـاء القدر أن يبقى بعضهم على قيـد الحيـاة رغم كل ماأبـدوه من أنـواع البـسالة ومن بينهم : محمـود بنيـان وسـامي الحنـاوي ، وحـسن مهنـا ، والطيار راشد كيـلاني وقاسـم الخليـل ، الحـاج يعقـوب ، مأمـون البيطار ، مارسيـل كرامي ، فتحي الاتاسي ، احســان كم الماز ، خالـد عيـسى والطيـار الاسطـواني وسليـمان كريـدي وشفيق عيـسي ، وسليـمان ناجي ، وكثـير ون غيرهـم من الضبـاط والرتبـاء والجنود الذين كانـوا ينـدفعـون للقتـال بحـماس وايمان رغم تفاهة الأسلحة التي بين أيديهم . ومعاذ الله ان أكون حكماً في هذا الموضـوع لأن هنـاك الكثير من الضبـاط وضبـاط الصف والجنـود الـذين استبـسلوا في المعـارك ونالوا الشهادة ورفعوا اسم جيشهم وبـلادهم كما ان هنـاك الكثـير غيرهم ممن أبلوا في الحـرب بلاء حسـناً وكـانت شجـاعتهم مضـرب الأمثـال ولم تكتب لهم الشهادة . وأذكر منهم الزعيم سـامي الحنـاوي والعقيـد محمـود بنيـان والعقيـد قاسـم الخليل والرئيس عدنان المالكي والـرئيـس البـير كبلاجيـان والـرئيـس خالد عيـسى والرئيس راشد كيلاني وامين النفــوري وأمـين أبـو عســاف وغـيرهم ممن كانت أخبـارهم تتردد على ألـسنة العـسكـريـين ولم تـسمـح لي ذاكـرتي الآن ورتبتي آنـذاك بأن أذكر أسماء الأبطال الآخـرين ، وأعتقـد أنهم لم ينـالـوا مايـستحقوا من تكريم في ذلك الوقت ، وبهذه المناسـبة فإني أجـد من واجبي التنويه بالبادرة التي أقدمت عليها القيادة العامة للجيش والقـوات المسلحـة بعد حرب تشرين التحريرية لعام ١٩٧٣ . فأعطت للشهـداء حقهم في التكـريم ولأبنـائهم وأسرهم مايحتاجون من رعاية ، فكان ذلك حدثاً

كبير الدلالة لأنه يرد لهؤلاء بعض الذي لهم في عنق الأمة والوطن ويساهم برفع معنويات العسكريين الأحياءلايمانهم أن الوطن والأجيال اللاحقة لن تنساهم ولن تهمل ذويهم اذا لاقوا حتفهم في الدفاع عن بلدهم . وحبذا لو أكملت هذه المبادرة بتشكيل لجنة من المؤرخين وذوي الاختصاص المشهود لهم بحيادهم وموضوعيتهم لكتابة تاريخ الجيش السوري لتخليد أبطال حروب فلسطين منذ عام ١٩٤٨ والحروب التالية حتى عام ١٩٨٢ .

انتهت الحرب تقريباً على الجبهة السورية بعد ان توقف اطلاق النار استناداً لقرار آخر من مجلس الأمن ولكن المعارك كانت لاتزال قائمة على الجبهة المصرية . وكانت تصلنا بعض المعلومات عن تطويق الجش المصري في الفالوجة واختراق الوحدات الاسرائيلية للحدود المصرية في سيناء وتراجع قوات الانقاذ وراء الحدود اللبنانية ونحو الضفة الغربية . وفجأة أبلغتنا القيادة بأننا سنقوم بهجوم عام مع بقية الجيوش العربية لرفع الضغط عن الجيش المصري . وبدأنا نستعد لهذا الهجوم . وكنت في هذا الوقت قد عينت آمراً لسرية تتمركز بين جسر بنات يعقوب جنوباً وتل هلال شمالاً وتتوزع عناصرها على مخافر أمامية بعضها لايتجاوز حضيرة قتال (أو اثني عشر عنصراً) وعندما بدأنا نحصي الذخائر التي بقيت لدينا كان متوسط مالدى كل جندي من الذخيرة لايتجاوز ٢٧ طلقة ولحسن الحظ مالبثنا ان تلقينا تعليمات بالانتظار لأن القيادة العامة السورية لم يبق لديها أي احتياط من الأسلحة والعتاد والذخيرة . . . وان زج الجيش في معركة يائسة سيترتب عليه كارثة مؤكدة . . . ونظراً لأن القوات الاسرائيلية لم تتجاوز خط الحدود السورية ، وأن القوات السورية كانت لاتزال تحتل موقعاً حساساً داخل فلسطين هو مثلث المرتفعات الواقع غربي نهر الأردن بين مخرجه من بحيرة الحولة ومصبه في بحيرة طبريا ، بالاضافة الى منطقة الحمة بكاملها . . وبعد قليل ألغيت فكرة الهجوم وطلبت الينا القيادة السورية البقاء في مواقعنا الدفاعية على طول الحدود السورية ـ الفلسطينية الدولية . وقد علمت فيما بعد أن القيادة السورية تلقت تعليمات من القيادة العربية العامة بإلغاء فكرة الهجوم . .

وبعد أيام أعلن عن وقف اطلاق النار على الجبهة المصرية أيضاً وفك الحصار عن القوات المحاصرة في الفالوجة . وانتهت بذلك حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وحققت اسرائيل نصراً واضحاً على الجيوش العربية الخمسة (المصري والاردني والعراقي والسوري واللبناني بالاضافة الى قوات الانقاذ) واستولت على القسم الأعظم من التراب الفلسطيني الممتد من خليج العقبة الى المطلة شمالاً . . . وانسحبت جميع الجيوش العربية الى ماوراء حدود فلسطين ماعدا القوات الأردنية التي بقيت في الضفة الغربية ، وبعض الوحدات المصرية التي كانت تحتل قطاع غزة . . وقامت الدولة الاسرائيلية بعد ان طردت من المناطق التي احتلتها مايزيد عن نصف مليون فلسطيني التجؤ وا الى البلدان العربية المجاورة واختار معظمهم المملكة الأردنية الهاشمية وجنوبي لبنان وسورية ، ولتشجيع هجرتهم وتخليهم عن وطنهم فتحت لهم أبواب دول الخليج العربي وسهلت هجرتهم الى ألمانيا الغربية وكندا والولايات المتحدة[١] .

وعندما انتهت الحرب صدر أمر من القيادة بنقلي الى كتيبة الفرسان الرابعة بقيادة المقدم بديع بشور التي تتمركز على ضفاف بحيرة طبريا الشرقية وتتخذ مقراً لها في موقع الحاصل عند مصب نهر الأردن في البحيرة ، وكانت مهمتها تغطية قطاع البطيحة الواقع بين القطاعين الأوسط والجنوبي على الضفة الشرقية لبحيرة طبريا . وقد بقيت في هذه الوحدة حتى منتصف آذار ١٩٤٩ . فكانت الفترة التي قضيتها فيها من أسعد أيام الخدمة في الجيش نظراً لما يمتاز به قائد الكتيبة من الشهامة والفروسية بالاضافة الى الصفات العسكرية والانسانية مما كان له أعظم الأثر في حياتي المسلكية .

هوامش الجزء الثاني

(١): نص الكتاب:

رقم ٣٨/ ف. أ. ك تاريخ ٢٢/ت٢/١٩٤٥

العقيد فوزي سلو مدير الكلية العسكرية
الى الطالب السيد أحمد عبد الكريم رقم ٣٦
مرتبين ـ قضاء ازرع ـ حوران

وفقاً للبلاغ رقم ٣/٣٢٩ الصادر عن رئاسة أركان الجيش السوري بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٥، وبناء على النظام الخاص بالكلية العسكرية (الباب الرابع المادة ٣٢).

أعلن فوزكم في مسابقات وفحوص الانتساب للكلية العسكرية

فعليه يجب حضوركم الى الكلية العسكرية في حمص يوم السبت الواقع في واحد كانون الأول ١٩٤٥ في تمام الساعة التاسعة صباحاً لاتمام المراسم المتعلقة بقبولكم.

لايعتبر انتسابكم نهائياً للكلية العسكرية إلا اذا قبلتم بنتيجة الفحص الطبي ووقعتم بعد ذلك عقد الانتساب لهذه المؤسسة.

/ الخاتم والتوقيع /

(٢): صورة عن الاستقالة الشخصية:

الجمهورية السورية
وزارة الدفاع
الجيش
الكلية العسكرية
الصف الثاني

حمص/١٢ كانون أول ١٩٤٦

من الطالب الضابط أحمد عبد الكريم ذي الرقم ٤٥٠٤٠
الى
مقام وزارة الدفاع الوطني (عن طريق التسلسل)

المآل: للطالب الضابط أحمد عبد الكريم ذي الرقم ٤٥٠٤٠ الشرف بتقديم استقالته من الجيش السوري.

فمن الشروط التي يجب ان يحوزها طالب الانتساب الى الكلية العسكرية ان يكون حاملاً للبكالوريا السورية - القسم الأول على الأقل - وعلى أساس هذه الشروط وغيرها من مواد النظام الأساسي للكلية انتسبت اليها في دورة ٤٥ - ٤٧ وكان الملاحظ في مجرى تلك الفحوص ان الاعتبار الأول والأخير كان للكفاءة، وكان العدل والانصاف سائدين ولاكلمة إلا لهما. وذلك تحت اشراف العقيد مدير الكلية.

أما هذا العام فقد استقبلت الكلية رفاقي المستجدين وبينهم بعض الطلاب الذين لم يحوزوا على الشرط الأساسي، وهو البكالوريا السورية، ينتسبون الى الكلية دون عذر يبرر انتسابهم اليها كما انهم لم يشتركوا في دورتي مسابقات الانتساب لدورة ٤٦ - ٤٨.

ولما كنت قد وقعت عقد الانتساب ضمن هذه الشروط التي رضيت بها ولما كان دخول هؤلاء الطلاب المومى اليهم يعد اخلالاً بتحقيق هذه الشروط، لذلك أتشرف برفع استقالتي هذه على ان تنال منكم القبول.

وتفضلوا بقبول أسمى التقدير والاحترام

الطالب الضابط أحمد عبد الكريم
/ التوقيع /

(٣): خلّد بطولة هذا الشهيد العظيم الدكتور عبد السلام العجيلي في احدى قصصه، وستبقى حكاية استشهاده احدى المآثر في تاريخ القوات المسلحة السورية عامة وكتيبة الفرسان الأولى خاصة.

(٤): خلاصة وصف الملازم أحمد عبد الكريم
من قبل المقدم محمود بنيان آمر الكتيبة الثانية
وذلك في المدة الكائنة بين ١٩٤٨/٧/١ ولغاية ١٩٤٨/٩/١

١ ـ قيمة الضابط الثقافية: يحمل شهادة التعليم الثانوي ومعلوماته العامة جيدة.
٢ ـ قيمته العسكرية: ذو معلومات عسكرية متوسطة بالنظر لحداثته بالخدمة.
٣ ـ الروح العسكرية: روحه العسكرية متوسطة ولكن بالامكان تحسينها.
٤ ـ الحالة الصحية: صحة جيدة تؤهله للقيام بكل المهمات الصعبة والأعمال الشاقة.
٥ ـ أهليته للقيادة: لديه الجرأة الكافية والقدرة للسيطرة على مرؤوسيه.
٦ ـ أخلاقه وسلوكه: عصبي المزاج ـ عنيد ـ متعصب لرأيه يميل لكثرة الكلام.
٧ ـ مؤهلاته للقيام بوظيفته: يتمكن من القيام بجميع الوظائف المكلف بها ولكنه لايفيها إلا إذا ماأرشد.

الموجز: ضابط حديث يمكن أن يكون أحسن حالاً . . . لاتنقصه المعلومات والمقدرة، بل ينقصه الانصياع لارشادات وتوجيهات رؤسائه.

١٩٤٨/٢/٢٨

آمر الكتيبة الثانية
المقدم محمود تيان

الجزء الثالث

الانقلابات العسكرية

الفصل الأول

الوضع السياسي في سورية قبيل انقلاب حسني الزعيم

كانت الكتلة الوطنية بمثابة الطليعة والعمود الفقري للحركة الوطنية طوال فترة النضال ضد الانتداب الفرنسي، وهي التي استقطبت غالبية القوى وقادتها الى ان حصلت سورية على الاستقلال. ولم تكن هذه الكتلة حزباً سياسياً بالمعنى المعروف عن الأحزاب ذات الايديولوجيات والبرامج المحددة بل كانت تجمعاً وطنياً يضم شخصيات بارزة من مدن وريف سورية جمعتهم فكرة النضال ضد المستعمر، وأصبحت الكتلة الوطنية تجسد تصميم الشعب السوري على انتزاع استقلاله وتقرير مصيره بنفسه.

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية حصلت سورية على الاستقلال بعد احتلال دام ربع قرن تقريباً خرجت منه البلاد فقيرة لاتملك إلا ثقتها بنفسها وبماضيها العظيم وحيوية شعبها وايمانها بأنها جزء من أمة عربية عريقة ذات ماض مجيد لعبت دوراً أساسياً في تاريخ البشرية وساهمت ببناء قسط هام من الحضارة الانسانية، ولاتزال قادرة على استئناف دورها الايجابي بالتعاون

المتكافىء مع غيرها من الأمم والشعوب لبناء حياة أفضل لاتميز فيها بين عرق أو لون وبين دولة صغيرة أو متوسطة أو كبيرة .

كان تعداد سكان سورية في عام ١٩٤٥ أي عند انتهاء الحرب العالمية الثانية لايتجاوز ثلاثة ملايين ونصف نسمة ، ويكاد لايكون فيها أية صناعة هامة عدا بعض الصناعات الصغيرة وأهمها صناعات النسيج ، وتعتمد زراعتها بالدرجة الأولى على الأمطار وأساس هذه الزراعة هي الحبوب ، وتبلغ نسبة الأميين حوالي ٩٠٪ من السكان . ولايزيد استيعاب المدارس الابتدائية والثانوية عن ٥٠٪ من الأطفال الذكور تقل أعمارهم عن عشرين عاماً ، ولم يكن في سورية سوى كليتي الحقوق والطب البشري اللتين لايزيد استيعابهما عن عشرات الطلاب .

أما الادارة والخدمات الأخرى فكانتا في منتهى الضعف وتفتقران للاختصاصين والفنيين ولم يكن في المدن الصغرى والقرى أية خدمات أساسية كماء الشرب والكهرباء والعيادات والمستشفيات وليس في البلاد أثر للخدمات البيطرية أو الارشاد الزراعي .

ومن الناحية السياسية كانت الأحزاب ممنوعة رسمياً وما وجد منها كان يمارس نشاطه بشكل سري وفي ظروف صعبة . وكانت الكتلة الوطنية أكبر هذه التنظيمات السياسية ، هذا بالاضافة الى حزب البعث العربي الذي بدأ في عام ١٩٤٣ وأعلن انشاؤه رسمياً عام ١٩٤٧ ، وحزب الشعب الذي أنشىء في حلب عام ١٩٤٦ والحزب العربي الاشتراكي الذي أنشأه أكرم الحوراني في مدينة حماة ، والحزب الشيوعي الذي أنشىء في فترة مابين الحربين عام ١٩٢٤ ، والحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أنشىء في مطلع الثلاثينيات وبقايا عصبة العمل القومي وبعض النوادي السياسية التي تساهم بشكل غير مباشر بالعمل السياسي عن طريق النشاط الثقافي والمنشورات .

ورثت سورية عن الانتداب الفرنسي ، النظام الجمهوري القائم على الديمقراطية البرلمانية وتعدد الأحزاب وعلى هذا الأساس كانت السلطة موزعة فعلياً بين السلطة التنفيذية الممثلة برئيس الجمهورية ومجلس الوزراء ، والسلطة

التشريعية الممثلة بالمجلس النيابي أما السلطة القضائية فكانت مستقلة . . كما كانت الصحافة مستقلة وتتمتع بالحرية الكاملة نسبياً .

كان النشاط السياسي بالمعنى الصحيح مقصوراً الى حد كبير على العاصمة والمدن الكبرى مراكز المحافظات، وكان أهم مايشغل الرأي العام في هذه المرحلة هو تدعيم الاستقلال وتنشيط الاقتصاد واثبات الوجود الوطني على الأصعدة الداخلية والعربية والعالمية وتنظيم الادارة وانشاء الأجهزة اللازمة لادارة شؤون الدولة وانشاء جيش وطني لحماية الاستقلال، والدفاع عن حدود الوطن ضد تحرشات البريطانيين المتسترين بالنظامين الهاشميين في بغداد وعمان آنذاك . والجدير بالذكر أن بعض القادة السياسيين كانوا يعتقدون بعد جلاء المستعمر عام ١٩٤٦ بعدم الحاجة للجيش والاكتفاء بقوات الشرطة والدرك للمحافظة على الأمن والنظام .

لم يمض على استقلال سورية أكثر من عام ونيف حتى تفجرت المشكلة الفلسطينية، عام ١٩٤٧ وأخذت الحكومة البريطانية المنتدبة في فلسطين تعد العدة لتسليم جزء من القطر الفلسطيني للصهيونية لاقامة الوطن القومي اليهودي تنفيذاً لوعد «بلفور» وهكذا وجدت سورية نفسها مضطرة لبذل جهود وأموال اضافية لاعداد قوات مسلحة تساهم في رد الغزو الصهيوني على قلب الوطن العربي مع بقية البلدان العربية الأخرى الحديثة الاستقلال بعد ان كان بعض السياسيين في عام ١٩٤٦ يعتقدون ان سورية المستقلة لن تكون بحاجة الى جيش نظامي وان ماتحتاجه هو قوات أمن تحفظ النظام في الداخل[١] . كان الغزو الصهيوني مدعوماً من الاستعمار الاوربي القديم وتقف وراءه الامبريالية العالمية بكل قواها كما ينال الدعم المعنوي والمادي من الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي، فقد كان ستالين يعتقد ان اسرائيل ستشكل رقبة جسر للشيوعية في البلدان العربية والاسلامية المستعصية على الأفكار الماركسية ولهذا سرعان مابدأت الأمور والأحداث تتطور بسرعة مذهلة وبتخطيط دقيق تجاوز استعدادات الشعب الفلسطيني وبقية الدول العربية المجاورة لفلسطين، والتي

كان معظمها لايزال خاضعاً للاحتلال العسكري وللنفوذ الاستعماري المباشر (باستثناء سورية والسعودية ولبنان واليمن الشمالي) .

وعندما انسحبت القوات البريطانية من فلسطين في يوم ١٤ أيار ١٩٤٨ بادر الصهاينة الى اعلان قيادم دولة اسرائيل ولم تمض إلا دقائق معدودات حتى اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بهذه الدولة وتلاها بعد ثلاثة أيام اعتراف الاتحاد السوفيتي وغالبية بلدان العالم الأعضاء في الأمم المتحدة، كما ذكرنا سابقاً .

وفي صبيحة يوم ١٥/ أيار من العام نفسه عبرت سبعة جيوش عربية حدود فلسطين كما سلف أن ذكرنا ونشبت حرب غير متكافئة بين هذه الجيوش التي لم تكن مستعدة للقتال من جهة وبين القوات الصهيونية (التي كانت تستعد لها منذ بداية الحرب العالمية الثانية وتنسق خططها مع الخطط الاستعمارية في المنطقة) من جهة ثانية . وانتهت بهزيمة هذه الجيوش واضطرار أكثر من نصف الشعب الفلسطيني للنزوح الى البلدان العربية المجاورة، وأصيب العالم العربي من أقصاه الى أدناه بالذهول، وأفاق الشعب العربي في كل الأقطار العربية على هول الكارثة التي لم يكن يتصورها وساد سورية بشكل خاص نوع من القلق والاضطراب، فكثرت الاضطرابات وتعالت الاتهامات بين القوى السياسية، ونال الجيش نصيبه من هذه الصراعات الداخلية فاتهم بعض الضباط القادة في الجيش السوري بالفساد[1]، واعتبرت غالبية الضباط ان هناك نية مبيتة من السياسيين لالقاء تبعة الهزيمة على الجيش، وأصبح بعض القادة يحقدون على القيادة السياسية ممثلة برئيس الجمهورية والحكومة والبرلمان لانها لم تقدم له الأسلحة والاعتدة اللازمة لخوض المعركة وعندما ازداد التوتر في الشارع وتفاقمت الاضطرابات اضطرت الحكومة لانزال الجيش لقمعها، مما هيأ الفرصة والجو الملائم للجيش للانقضاض على السلطة التي أصبح يحميها من الجماهير .

ومن الجدير بالذكر ان زعماء المعارضة ساهموا في خلق الجو الملائم والمشجع للعسكريين للاقدام على الانقلاب، بالاضافة الى التشجيع المباشر

وغير المباشر الذي كان يأتي من الخارج للقضاء على أول تجربة ديمقراطية سلمية وفعالة في العالم العربي بل وفي آسيا وافريقيا وجاء الحادث الذي يعتبر بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، وذلك عندما أقدم أحد أتباع النائب فيصل العسلي على اغتيال شاب من الحزب العربي الاشتراكي،وحدث بعد ذلك ان هاجم هذا النائب المقرب من الرئيس القوتلي قائد الجيش الزعيم حسني الزعيم واتهمه بالفساد وهدد بتسريحه ومحاكمته أمام محكمة خاصة، وعندما بلغ الزعيم ذلك تشاور مع بعض كبار الضباط فقرروا الاحتجاج للحكومة على هذه الحملة، ولكن الاحتجاج لم يلق أذناً صاغية لدى كبار المسؤولين وخاصة السيد أحمد الشراباتي وزير الدفاع، بل على العكس فقد سرت شائعة عن اعداد مرسوم بطرد الزعيم وبعض الضباط من الجيش وهكذا تجمعت كل الشروط للحركة الانقلابية، وفي تلك الليلة قرر عدد من الضباط القادة القيام بالانقلاب بزعامة حسني الزعيم.

في صباح ٣٠/ آذار ١٩٤٩، أفاق سكان العاصمة على منظر لم يألفوه من قبل فقد أنزلت بعض وحدات الجيش الى العاصمة واحتلت الاذاعة والهاتف ودار الحكومة وتم اعتقال كل من السادة رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء خالد العظم ومحسن البرازي وزير الداخلية وأحمد الشراباتي وزير الدفاع وفيصل العسلي نائب دمشق وميشيل عفلق رئيس حزب البعث العربي ووضع السيد فارس الخوري تحت الحراسة المشددة. وهكذا وقع أول انقلاب عسكري في سورية ولم يمض على الاستقلال سوى ثلاث سنوات ونيف، وكان فاتحة لسلسلة من الانقلابات التي سممت جو المنطقة وتفشت فيها بعد حتى شملت العراق ومصر والسودان واليمن والمغرب فنجح بعضها وانتهى بعضها الآخر للفشل ولكنها سجلت بداية تدخل العسكريين في معظم أقطار المنطقة العربية في الشؤون السياسية واعتادوا التطلع للسلطة واستمرأوا الحكم.

كان من بين أبرز الضباط الذين ساهموا بالانقلاب: العقيد أديب الشيشكلي والعقيد أمين أبو عساف والعقيد محمود بنان والعقيد ابراهيم الحسيني

والعقيد سامي الحناوي والمقدم بديع بشور والعقيد بهيج الكلاس، والعقيد عزيز عبد الكريم. وقد تشكلت لجنة من هؤلاء الضباط برئاسة الزعيم حسني الزعيم وسميت بالمجلس الحربي الأعلى: وأذاعت بياناً على الشعب سمي بالبلاغ رقم /١/ جاء فيه: بأنه نزولاً عند إرادة الشعب ونظراً لما آلت اليه حالة البلاد من التدهور، قام الجيش بالاستيلاء على السلطة.

الانقلابات العسكرية ـ وزج الجيش في السياسة

الانقلاب العسكري الأول في سورية بقيادة الزعيم حسني الزعيم:

في صبيحة يوم ٣٠/ آذار ١٩٤٩ قامت القوات المسلحة السورية بانقلاب عسكري بقيادة الزعيم حسني الزعيم وسيطر الجيش على السلطة وتم اعتقال رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي، والسيد خالد العظم رئيس الوزراء ووزير الدفاع السيد أحمد الشراباتي، وأصدر الزعيم قرار ترقية نفسه الى رتبة المشير وأصبح رئيساً للدولة وقائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة. كان ذلك مفاجأة تامة لي شخصياً.

ويبدو أن آمر الكتيبة المقدم الخيّال بديع بشور كان مساهماً بهذه الحركة ففي اليوم الثاني للانقلاب أصدرت القيادة قراراً بتعيينه رئيساً للشعبة الثانية في الأركان العامة (أي المخابرات العسكرية) وكان وقع هذا القرار عميقاً في نفوس عسكريي الكتيبة عامة، وفي نفسي بشكل خاص لأنني أسفت كثيرا على نقل آمر الكتيبة، وقد عبرت عن هذا الشعور في الأمر اليومي الذي كتبته بيدي ووزعته على الفصائل بهذه المناسبة، لأنني كنت أعمل في أركان الكتيبة. . . وبعد أيام تلقيت برقية من القيادة العامة تقضي بنقلي الى الأركان ـ الشعبة الثانية ـ وعينت بالفرع الخاص بفلسطين. وهكذا فتحت أمامي منذ تلك اللحظة آفاق جديدة كان للمقدم بشور الفضل الأول فيها. ومنذ ذلك اليوم

اصبحت بحكم عملي أهتم بتتبع الأمور السياسية الخارجية وأقضي وقتي بشكل خاص لتتبع نشاط العدو والحركة الصهيونية الدولية وعلاقاتها الدولية فأطلع يومياً على جميع الصحف المحلية بالاضافة الى بعض الصحف والمجلات الصادرة في اسرائيل، والكثير من المجلات والصحف الأجنبية الأمريكية والفرنسية والبريطانية التي تتعرض للصراع العربي الاسرائيلي... ويقوم بترجمتها مكتب خاص ملحق بالشعبة الثانية.

والواقع أن تخصصي بهذا الموضوع أبعدني كثيراً عن جو الوحدات وعن الاهتمام بالسياسة الداخلية، ونظراً لجهلي باللغة العبرية وعدم اتقاني اللغة الانكليزية كان لابد لي من الاستعانة بمكتب للترجمة، وأخذت على نفسي تحسين معلوماتي باللغة الفرنسية. اشتمل المكتب على أربعة أفراد يتقن اثنان منهم اللغة العبرية وثالث يتقن الانكليزية ورابع يتقن اللغة الألمانية وكانت لغتي الفرنسية تساعدني الى حد ما على قراءة الصحف الفرنسية مستعيناً بالمعجم، وهكذا أصبحت تتجمع لدي يومياً عدد من التراجم والصحف الأجنبية والعربية بشكل يملأ علي كل أوقاتي، بل لم أعد أجد إلا القليل من وقتي للاهتمام بحياتي الخاصة. وكنت أجد متعة كبيرة في ملاحقة بعض مايكتب عن اسرائيل والصهيونية ومواقف الدول الأجنبية من هذا الكيان الدخيل وأقضي الليالي في قراءة بعض الترجمات والكتب التي كانت كثيرة بالنسبة لي رغم ندرتها في ذلك الوقت، والواقع لم يكن قد صدر حتى ذلك الوقت باللغة العربية شيء جدّي يذكر عن الدولة الصهيونية والقوات الاسرائيلية وكانت معظم معلوماتنا عن العدو مصدرها الصحافة الغربية وبعض الصحف والمجلات الاسرائيلية التي بدأنا نحصل عليها من جزيرة قبرص والضفة الغربية وبعض البلدان الأوروبية وخاصة فرنسا وانكلترا.

الزعيم حسني الزعيم يتسلم جميع السلطات:

كان البلاغ رقم /١/ قد أعلن استلام القوات المسلحة للسلطة وحل

البرلمان وأطلق لقب القائد العام للجيش والقوات المسلحة على الزعيم حسني الزعيم وقد تمت عملية الانقلاب دون ان تراق نقطة دم واحدة ذلك ان الحكومة لم يكن لديها أية قوة تستطيع الدفاع بها عن النظام بمواجهة الجيش،ولم يكن الشعب على استعداد لحمل السلاح و الدفاع عن النظام خاصة وأن أحزاب المعارضة تحمل الحكومة مسؤولية الكارثة الفلسطينية مع بقية الدول العربية القائمة آنذاك . والجماهير تريد كبش فداء .

وفي نفس اليوم استدعى الزعيم بعض السياسيين من المعارضة للتشاور معهم حول الوضع بعد الانقلاب وقد اقترح على قادة حزب الشعب المساهمة بتشكيل حكومة ولكنهم اشترطوا عليه العمل للاتحاد مع العراق، بينما كانت غالبية ضباط الجيش تعارض هذا الاتجاه وتفضل النظام الجمهوري وتحقيق بعض الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون ان يكون لهم خطه أو مفهوم معين حول هذه الاصلاحات، كما لم يكن لديهم أية فكرة عن شؤون الدولة الداخلية والخارجية، وكان الضباط ينقسمون إجمالاً الى فئتين رئيستين : الضباط الكبار الذين التحقوا بالجيش الوطني بعد الاستقلال والضباط الشباب الذين انتسبوا للجيش في العهد الوطني ويدعمهم بعض الضباط القادة المعروفين بوطنيتهم وآرائهم الاصلاحية وطموحهم، وكانت الصفة العامة لضباط الجيش هي ضحالة الوعي السياسي والاندفاع العاطفي .

مصر والعراق تتنافسان على اكتساب ود قائد الانقلاب :

لم يكد حسني الزعيم يتسلم السلطة حتى بدأت تتوافد على العاصمة السورية الوفود الرسمية من مصر والعراق والأردن، فقد وصل فجأة الى دمشق وفد عراقي برئاسة السيد نوري باشا السعيد والزعيم شاكر الوادي لتهنئة الزعيم وجس نبضه حول امكانية عقد اتفاقية عسكرية واقتصادية تضع سورية على طريق الاتحاد مع العراق، ولكن الزعيم لم يكن سهل الانقياد خاصة وقد وجد نفسه فجأة في قمة السلطة وهو المعروف بالغطرسة وحبه للعظمة والنفوذ الى حد

الجنون، هذا بالاضافة الى انه أحس منذ الساعات الأولى للانقلاب بأن مصر لاترضى عن أي تقارب مع العراق، وكذلك المملكة العربية السعودية. كما أن الملك عبد الله لايزال يراوده حلم السيطرة على دمشق وتحقيق مشروع سورية الكبرى، والحقيقة التي لم تكن تخفى عن أصحاب العلم أن وراء كل من هذه المشاريع كانت الأيادي البريطانية الخفية تدير اللعبة لإدخال سورية في نطاق نفوذها، وكانت فرنسا تحلم بالعودة الى الشرق وتقف لبريطانيا بالمرصاد وكانت أمريكا تمارس أول خطواتها بالزحف على هذه المنطقة والسيطرة على ثرواتها البترولية وتأمين ايصالها للبلدان المستهلكة وقد وجدت في الانقلاب الفرصة لتصديق اتفاقية التابلاين التي رفض تصديقها المجلس النيابي السوري.

لقد خيب الزعيم حسني الزعيم آمال نوري باشا السعيد فعاد الوفد العراقي الى بغداد بخفي حنين، وفور انتهاء هذه الزيارة تفتحت شهوات الحكم عند حسني الزعيم فرقى نفسه الى رتبة مشير (مارشال) وسمى نفسه رئيساً للدولة وأصبح بذلك الحاكم المطلق لسورية وبدأ بالفعل يسيّر شؤون الدولة بواسطة الأمناء العامين وبعض المستشارين الذين اختارهم بنفسه ومن أبرزهم عديله المدعو نذير فنصه وهو صحفي مرتزق والسيد محسن البرازي الذي كان من أقرب المقربين للرئيس السابق شكري القوتلي.

موقف الملك عبد الله:

خيل للملك عبد الله ان الفرصة واتته بعد رحيل الرئيس شكري القوتلي العدو اللدود للأسرة الهاشمية، فأرسل الكولونيل عبد الله التل الى دمشق وحمله رسالة شخصية للزعيم يحثه فيها على قبول مشروع سورية الكبرى وتوحيد سورية والأردن ولكن الوفد الأردني عاد الى عمان يجر ذيول الخيبة وترددت بعض الشائعات عن الطريقة التي استقبل بها الزعيم مبعوث الملك عبد الله وترتب على هذه النتيجة توتر العلاقات بين الأردن وسورية طوال فترة حكم حسني الزعيم.

موقف مصر:

أوفد الملك فاروق كلاً من السيد عبد الرحمن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية واللواء عمر فتحي باشا كبير الياوران وحملا معهما دعوة للزعيم لزيارة مصر، وبالفعل فقد لبى الزعيم الدعوة في الأسبوع الثاني للانقلاب وعاد بنفس اليوم ليشن حملة شعواء على الأردن والعراق وبريطانيا التي تقف وراء الهاشميين، وبادر الى اصدار قانون بحل جميع الأحزاب وشكل وزارة جديدة برئاسة السيد عادل ارسلان على ان تبقى وزارة الدفاع وقيادة الجيش ووزارة الداخلية بين يديه وكلف السيد أسعد الكوراني بوزارة الداخلية، وسمي السيد نوري الايبش وزيراً للزراعة، والسيد خليل مردم بك وزيراً للمعارف.

بدأ الزعيم بوضع دستور رئاسي جديد بمساعدة رجل القانون المصري السنهوري باشا، ثم أجرى انتخابات عامة مباشرة أصبح بموجبها رئيساً للجمهورية رسمياً وبلغت نسبة الأصوات التي نالها ٩,٩٩٪ ومنذ ذلك الوقت أصبح أسلوب الاستفتاء ونسبة المصوتين لانتخابات الرئاسة تقليداً تسير عليه جميع الأنظمة الدكتاتورية في سورية وبقية العالم العربي.

كان حسني الزعيم المرشح الوحيد في هذه الانتخابات وبعد ان تسلم السلطة رسمياً قبل استقالة السيد عادل ارسلان ثم كلف السيد محسن البرازي بتشكيل الوزارة الجديدة.

الانقلاب الثاني بقيادة الزعيم سامي الحناوي:

لم تطل فرحة البريطانيين والهاشميين في العراق والأردن بانقلاب حسني الزعيم، فسرعان ماانتضح لهم بأنه قلب لهم ظهر المجن وأصبح يتعاون مع المحور - المصري - السعودي الذي تدعمه الولايات المتحدة الأمريكية وترضى عنه فرنسا نكاية بالبريطانيين، خاصة بعد أن صدق حسني الزعيم على اتفاقية

أنابيب النفط «التابلاين» التي تنقل نفط السعودية عبر الأراضي الأردنية والسورية واللبنانية الى ميناء الزهراني على البحر الأبيض المتوسط هذه الاتفاقية التي لم يقبل البرلمان السوري الموافقة عليها كما أسلفنا.

لم يستسلم البريطانيون للأمر الواقع فقد كانوا القوة الأوربية الوحيدة التي تسيطر على منطقة الشرق الأوسط وتحلم بضم سورية لنفوذها منذ انسحاب الفرنسيين منها، لذلك أخذوا يشجعون الحكومة العراقية للتآمر على نظام حسني الزعيم مستفيدين من التذمر الذي أخذ يعم أوساط الجيش والأحزاب السياسية في سورية بسبب أسلوبه الطائش بادارة شؤون الدولة وتصرفاته الجنونية ومعاملته الفظة التي لاقاها الزعماء السياسيون على يده والاهانات التي وجهت لبعضهم، وبسبب اعتماده على القوى الانتهازية في الجيش وفي الدولة وعلى رأسهم محسن البرازي، بل لقد ترددت الأقاويل عن عزم الزعيم على تشكيل لواء مغاوير لحراسته الخاصة يختار عناصره من المتطوعين والمرتزقة الأجانب، وزاد التوتر بعد اعتقال قادة حزب الشعب ورئيس الحزب القومي السوري الاجتماعي انطون سعادة وتسليمه للحكومة اللبنانية التي نفذت بحقه عقوبة الاعدام بتهمة التآمر على سلامة واستقلال وسيادة لبنان.

وبعد أسابيع من الانقلاب، تخلى السيد أكرم الحوراني رئيس الحزب العربي الاشتراكي عن دعم النظام بعد ان كان من مؤيدي الانقلاب، وقد سبقه الى ذلك الاستاذ ميشيل عفلق فوضع في السجن. وهكذا راحت جميع القوى السياسية ومعظم ضباط القوات المسلحة يعملون للاطاحة بالزعيم. وأكدت بعض الأوساط السياسية أن الكولونيل ستيرلنغ ضابط المخابرات البريطانية المقيم في دمشق كان يبذل نشاطاً ملحوظاً في ذلك الوقت ضد نظام الزعيم، وتحريض القوى السياسية على التخلص منه.

وفي الصباح الباكر من يوم ١٤ / اب ١٩٤٩ انقضت بعض وحدات الجيش على مقر المارشال حسني الزعيم وقامت باعتقاله دون مقاومة، بالتواطؤ مع حرسه الخاص بقيادة الرئيس خالد عيسى كما اعتقلت رئيس وزرائه محسن البرازي وتم اعدامهما فوراً بالرصاص وكان على رأس الحركة الانقلابية:

اللواء سامي الحناوي ـ الرئيس الطيار عصام مريود ـ الرئيس الطيار محمود رفاعي ـ الرئيس خالد جاد ـ والرئيس خالد عيسى وهما من الضباط الشراكسة والمقدم حسين الحكيم، والمقدم الطبيب الميداني والمقدم علم الدين القواص والمقدم محمد معروف والنقيب فضل الله أبو منصور والمقدم محمد ذياب.

السياسة التي سار عليها اللواء الحناوي:

بادر اللواء سامي الحناوي منذ اليوم الأول للانقلاب لاعادة جميع الضباط الذين سرحهم الزعيم من القوات المسلحة ومن بينهم العقيد أديب الشيشكلي الذي سيقضي على نظام الحناوي فيما بعد، ويلعب أكبر دور قام به العسكريون في سوريا حتى ذلك الوقت.

عين الحناوي صهره أسعد طلس مستشاراً خاصاً له وأخذ يعتمد كلياً على حزب الشعب الذي عرف في ذلك الوقت بتأييده للانقلاب ومناداته بالاتحاد مع العراق.

وأصدر اللواء حناوي مرسوماً بتشكيل وزارة جديدة على الشكل التالي:

السيد هاشم الأتاسي	رئيساً
السيد د. ناظم القدسي	وزيراً للخارجية
السيد رشدي الكيخيا	وزيراً للداخلية
السيد فيض الأتاسي	وزيراً للدفاع
السيد خالد العظم	وزيراً للمالية
السيد ميشيل عفلق	وزيراً للمعارف
السيد فتح الله اسيون	وزيراً للصحة
السيد أكرم الحوراني	وزيراً للزراعة
السيد مجد الدين الجابري	وزيراً للأشغال
السيد اللواء عبد الله عطفة	وزيراً للدفاع

وكُلِفت الوزارة بتنظيم انتخابات تشريعية والاشراف على تنفيذها وكان من نتيجتها الفوز الساحق لحزب الشعب وانتخب عن مدينة حماة السيدان أكرم الحوراني ورئيف الملقي اللذان سيلعبان دوراً بارزاً في الحياة السياسية السورية في المراحل التالية .

وعلى أثر ذلك انتخب السيد هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية ، وانتخب السيد رشدي الكيخيا رئيساً للمجلس النيابي .

بادرت الحكومة الجديدة يساندها قائد الانقلاب اللواء الحناوي الى تدعيم العلاقات مع العراق وتهيئة الظروف للاتحاد بين سورية والعراق ، الأمر الذي ذعرت له القاهرة والرياض . وعندما ألقت الحكومة بيانها الوزاري أمام البرلمان كان واضحاً أنها ستعمل للوحدة مع العراق ، بل لقد أُشيع بأن بعض نواب حزب الشعب أخذوا يلمحون الى ضرورة نقل العاصمة من دمشق الى حلب في حالة الطوارىء ، وهكذا برهن حزب الشعب عن التسرع وقلة الخبرة في السياسة وعدم معرفة حقيقة مشاعر المواطنين وخاصة سكان العاصمة دمشق ، كما لم يقم وزناً للرأي العام في القوات المسلحة ، وقد فاتح اللواء الحناوي كلاً من العقيد أديب الشيشكلي والعقيد نظام الدين بأمر الاتحاد مع العراق وطلب اليهما تأييده ولكنهما نصحاه بالتخلي عن الفكرة كما قيل ان السيد رشدي الكيخيا رئيس حزب الشعب حاول اقناع الأكثرية البرلمانية بفكرة الاتحاد مع العراق ، وأرسلت الوفود السياسية والعسكرية لزيارة العراق ، وعينت الحكومة العراقية اللواء عبد المطلب الأمين ملحقاً عسكرياً في السفارة العراقية وهو من الضباط المعروفين في العراق بصلاتهم الوثيقة مع الوصي عبد الإله والأسرة الهاشمية وأوكلت إليه مهمة الاتصال بضباط الجيش السوري واقناعهم بالاتحاد مع النظام الملكي في العراق .

وفي هذا الوقت بالذات اغتيل الكولونيل البريطاني ستيرلنغ في ظروف غامضة جداً ، وقيل فيما بعد ان عملاء فرنسا أو أمريكا هم الذين نفذوا الاغتيال (والله أعلم؟) وكان هذا الاغتيال أحد فصول الصراع الصامت على النفوذ في الشرق الأوسط ، وأبرز فصوله الانقلابات العسكرية .

ومن الجدير بالذكر ان قيادة حزب البعث أصدرت آنذاك بياناً أيدت فيه الاتحاد مع العراق، نشر في صحيفة الحزب، وكان ذلك البيان موضع نقاش حاد في قاعدة الحزب وعلى جميع المستويات، ولما كنت حتى ذلك الوقت عضواً في الحزب فقد ناقشت الموضوع مع العديد من الرفاق والزملاء من الضباط وكان معظمهم لايوافقون على الاتحاد ويعتبرونه وسيلة غير مباشرة لبسط النفوذ البريطاني على سورية والقضاء على نظامها الجمهوري الديمقراطي وعلى الحركات الشعبية التقدمية وضرب القوى الجديدة في القوات المسلحة. وكان من بين الضباط الشباب الذين عرفوا بمعاداتهم لمشروع الاتحاد كل من: حسين حدة، وأمين النفوري وجاد وعز الدين وطعمة العودة الله وعبد الحميد السراج وعبد الغني قنوت، ومصطفى حمدون وبكري الزيري وعبد الحق شحادة وابراهيم فرهود وعبد الله جسومة وياسين الفرجاني وأسعد العمير وأكرم الديري وحسن حدة.. والغالبية العظمى من الضباط الصغار.

عودة الى الشؤون الشخصية (الخطوبة):

خلال السنوات الأخيرة من الدراسة الثانوية أصبحت أشعر بعاطفة خاصة تشدني لاحدى فتيات القرية، وهي ابنة شيخ من وجهاء القرية، تربطنا به صلة قرابة بعيدة بحكم كوننا من أسرة كبيرة واحدة. وتزداد هذه العاطفة وضوحاً ودقة مع الأيام، وأخذت ألمس من جانبها نفس العاطفة، ثم لم تلبث علاقاتنا البريئة المثالية ان أصبحت معروفة من معظم أفراد الأسرتين والأقارب وشباب وفتيات القرية، ذلك ان مثل هذه العلاقات لايمكن ان تخفى على عيون وآذان أهل القرى الذين لاتخفاهم خافية، خاصة عندما يتعلق الأمر بشاب مثقف وابنة أحد الوجهاء المعروفين...

وتطورت هذه العواطف مع الأيام الى حب حقيقي، نتبادله بصمت وبراءة، ولم تكن تقاليد وعادات القرية تسمح لنا بأن نلتقي بمفردنا حتى ولو لدقائق، وكان الطريقة المثلى لتبادل الأخبار هي بعض أصدقاء الطرفين، ولم

نكن نلتقي إلا في مناسبات الأعراس النادرة حيث تجمع شبان وشابات القرية فيمرحون ويرقصون ويعقدون حلقات الدبكة ، وكان الجميع تقريباً يعترفون لنا بحق الجوار في هذه الحلقات ، اللهم إلا بعض أبناء عمومتها حين يعتبرون أنفسهم أولى بعواطفها على أساس التقاليد المعروفة والمرعية في مجتمعات الريف والعشائر (ويبدو ان هذه التقاليد تتجاوز حدود الريف وتشمل كل البلاد العربية بل وجميع سكان البحر المتوسط ، حتى لقد أطلق على هذه العادة «حضارة ابن العم») . وأصبحت منذ ذلك الوقت ملزماً بالمحافظة على هذا الود الذي تقضي التقاليد ان ينتهي حتماً بالزواج ، وأعترف ان ذلك كان بالنسبة لي أكثر من واجب ، بل هدفي الذي لاتتم سعادتي بدونه .

عندما انتسبت الى الكلية الحربية في بداية عام ١٩٤٦ كان أهم مافتقدته بعد أهلي هو فراقها ولقد تأكدت ان سفري كان أشد وقعاً عليها . . . لذلك كنت أنتظر العطل بفارغ الصبر لكي أتمكن من مشاهدتها والاستماع لأخبارها . وكم كنت أشعر بالسعادة عندما تتاح لي الفرص خلال هذه العطل للقائها ولو لدقائق بين أهلها أو في أي مكان من القرية ولو كان ذلك على مشهد من عيون الناس الذين يتلذذون عادة بمراقبة المحبين في القرى .

بعد ان أنهيت الدراسة في الكلية الحربية وحصلت على رتبة ملازم ، أصبح علي في نظر مجتمع القرية ان أقوم بالواجب الطبيعي ، فأخطب يد هذه الفتاة رسمياً لكي تستطيع ان تواجه أهلها وأقاربها بل وسكان القرية برأس مرفوع ، غير ان حرب فلسطين وعدم قدرتي على تحمل نفقات الزواج لأنني لاأريد ان يتحمل أهلي عني هذه المسؤولية ، بعد ان أرهقتهم طوال سني الدراسة.وفي نهاية عام ١٩٤٩ وجدت نفسي مضطراً لاعلان خطوبتي رسمياً خاصة بعد ان أصدرت القيادة قراراً بايفادي ببعثة دراسية للعراق . ولما كنت لاأعرف تاريخ عودتي فقد أصبح لزاماً علي أمام أهل القرية ان أطلب يد الفتاة رسمياً لكي تطمئن على اخلاصي لها ، ولكي أضع حداً لما تلوكه ألسنة السوء التي أصبحت تشيع بأنني لن أبر بوعدي لها بعد ان أصبحت ضابطاً وانني سأفضل عنها احدى فتيات المدينة . . .

وقبل سفري الى بغداد بيوم واحد تشاورت مع والدي واشقائي ، فإذا بهم جميعاً يشجعوني على اعلان الخطبة . . وبادر الوالد لدعوة كبار القرية ، بعد ان حصل على موافقة والد الفتاة المبدئية ، وذهب الجميع الى بيت العروس (ويسمى هذا الحشد بالجاهة) وعندما فاتحوا والدها رحمه الله اجابهم بالموافقة الفورية ، واكد للجماعة بأنه لايريد لابنته مهراً وهو سعيد بأن يقدمها بكل فخر وشرف لهذا الشاب الناجح . وتمت الخطوبة في مطلع تشرين الأول ، وبدأ شباب القرية باطلاق النار وعلت الزغاريد ، وأولم الوالد عشاء فاخراً لشيوخ القرية وشبابها ووزعت السكاكر ، أما أنا فقد ذهبت لزيارة الخطيبة «أمينة محارب» وقضيت الليل بين أهلها ودخل والدها علينا لتهنئتنا ومباركة الخطبة . وكانت فرحتنا لاتوصف ، ومع الفجر ودعتها ثم ذهبت الى منزلنا لأودع أهلي واتجهت الى دمشق حيث غادرتها بنفس اليوم الى بغداد .

الفصـل الثـانـي

بعثة دراسـية في العراق

صـدر قرار من القيــادة العــامـة في مطلع تشـرين الأول من عام ١٩٤٩ بايفـادي والمـلازم أكـرم ديـري لاتبـاع دورة في العـراق للعمـل في أركان وحدة بمسـتـوى لواء، وقـد سـافـرنـا بالفعل مع بعثة عـسـكرية كبيرة الى بغداد بتاريخ ١٢/ تشـرين الأول، واستقبلنـا استقبـالاً حاراً من ممثـلي القيـادة العـامة ونزلنا ضـيـوفـاً على الجيش العراقي في فندق بغداد، وأقيمت لنا حفلة ساهرة في نادي الضبـاط، وفي اليـوم الثـاني التحقت والمـلازم أكـرم الديري بالدورة في معـسـكر الـوشـاش الـواقـع غربي العـاصـمـة. كانت الدورة بقيادة الرئيس الأول الركن مدحت الأمين، هدفهـا اعـداد الضبـاط للعمل في أركان لواء وفرقة، أما عدد ضبـاط الدورة من العراقيين فكان ثلاثين ضـابطاً من مختلف صـنـوف الأسـلحة.

وكان الضبـاط المدربون في الدورة هم السـادة الآتية أسماؤ هم:

مقدم الجو	جلال الأوقاتي من قيادة سلاح الطيران
الرئيـس الأول	ناجي محمد

الرئيس الأول الركن	سليمان الدركزلي
الرئيس الأول الركن	نايف حمودي
الرئيس الأول الركن	فاضل عباس
الرئيس الأول الركن	خالد المدفعي
الرئيس أول طيار	عصام المدفعي

وفيما يلي نص تقرير أرسلته الى الأركان العامة ـ الشعبة الثانية . حول استقبال البعثة العسكرية السورية في بغداد :

وأثبته فيما يلي بنصه الحرفي :

تقرير رقم / ١/ الموضوع البعثة السورية

الى رئاسة الشعبة الثانية ـ الأركان العامة

أثبت فيما يلي بعض ماأمكنني الاطلاع عليه وهو ضئيل نسبياً نظراً لعدم توفر الوقت الكافي لدي وعدم تمكني من الاختلاط بمختلف الهيئات خاصة ونحن مرموقون من أكثر الضباط ، حتى ولوكنا بالألبسة المدنية ، ومما يجدر ذكره أنه من الصعب دراسة وضع من الأوضاع في مدة لاتتجاوز الشهرين فكيف بعدة أيام .

البعثة السورية :

الضيافة :

- لم تترك السلطات العراقية ـ العسكرية منها والسياسية فرصة إلا وبرهنت على التناهي في الكرم، واللباقة .
- ففي أفخم فنادق المدينة حلت البعثة منذ قدومها الى بغداد ، وأفرز أحد الضباط لمرافقة البعثة وتسهيل أمورها في زياراتها وتنقلاتها ، وتقديم جميع مايطلبونه ، وتهيئة وسائل الراحة لهم في بغداد وخارج بغداد . وهوبرتبة رئيس أول ركن : مظفر مجيد التك .

- ووضعت عدة سيارات فخمة تحت تصرفهم أيضاً.
- وكذلك كانت تقام لهم الدعوات في كل يوم لدى الهيئات الرسمية وغير الرسمية.
- وفي كل مكان كانت البعثة تستقبل بأبهى مظاهر الاحتفال والحفاوة.
- وخلاصة القول لقد كان كل شيء مهيأ للبعثة قبل قدومها حتى أوقات وتاريخ الزيارات وأمكنتها والجماعات التي سيرافقونهم أو سيقابلونهم، والأشياء التي سيرونها، والأمكنة التي سيزورونها مهيأة محضرة كما يجب وهناك على سبيل المثال ان بعض الوحدات كانت تتدرب طيلة النهار لكي تظهر في مظهر لائق أمام البعثة. ويتفنن رؤساؤها بألبسة الجنود، ووضع الأسلحة والعتاد وتنظيفها لكي يبدو كل شيء على مايرام.

الصحف والبعثة السورية:

خصصت معظم صحف بغداد العمود الأول منها للترحيب بالبعثة العسكرية السورية. والتعليق على زيارتها، فمنها ما اكتفت بالترحيب، ومنها من ما أخذت تعلق وتشرح أسباب الزيارات وأخرى أخذت تبرز أسماء ورتب البعثة، والغاية من قدومها.

وقالت بعضها بأن البعثة عبارة عن بعثة دراسية للتخصص في مختلف صنوف الأسلحة في الجيش العراقي.

ومنها من قال بأن الغاية من هذه البعثة هو الاطلاع فقط على أساليب الجيش العراقي - وصنوفه، ومنها من رحب وأطنب في التأويل والتفسير حتى ابتعد عن الأمور العسكرية وذكرت ان هناك بعثات أخرى للطيران، والكلية الحربية وكلية الأركان ستأتي عن قريب. ولاتزال الصحف تذكر من وقت لآخر تنقلات وزيارات البعثة والحفلات التي تقام لها.

الضباط العراقيين والبعثة :

أخذ بعض الضباط يتساءلون عن الغاية من البعثة ويؤولون قدومها حسب مايقرؤون في الصحف ، وكثيراً ماكانوا يسألوننا هل نحن من أعضاء البعثة؟ وهل بقية أفراد البعثة يريدون التخصص في صفوف الجيش والدورات الأخرى؟ ويتساءلون عن حقيقة عزم الحكومة السورية على ايفاد تلاميذ الى الكلية الحربية العراقية ، وكلية الأركان ، وليست البعثة هذه إلا الدفعة الأولى من بعثات مقبلة والحقيقة أنهم أخذوا يعللون هذه البعثات الى حاجة الجيش السوري الى المدارس الحربية والدورات المتعددة ، وإلا لما كانت هذه البعثات ، وأخذت ثقة بعضهم في الجيش السوري وامكانياته وكفاءة ضباطه تضعف ، لأنهم كانوا يحملون له في مخيلتهم فكرة حسنة وعالية ويرون في ضباطه القواد القديرين ، ويعتقدون بأنهم يمتازون عنهم في ثقافتهم العامة والعسكرية ، وفي أفكارهم التحررية والقومية .

ويتساءل بعضهم عن مدة الترفيع في الجيش السوري ويقولون بأنها قليلة للغاية ويعتقدون بأن الترفيع سهل جداً ويضربون على ذلك أمثلة لضباط يعرفونهم .

وكنا نحن تجاه كل هذا نقف موقف المدافع الذي حاول ان يصد كل ادعاء باطل ونفهمهم بخطأ أفكارهم . وعندما قدمت بعثة الطيران السورية أخذوا يقولون بأن الطيران العراقي أرقى بكثير من طيران الجيش السوري والجيوش الأخرى .

والحقيقة يعرفها أفراد البعثة السورية التي اطلعت على مختلف الصنوف .

لست أحاول ان أنكر اهمية البعثات الخارجية ولكن بمقدور كثير من الضباط السوريين ان يقوموا بتنظيم دورات مختلفة معتمدين في ذلك على ترجمة المصادر الفرنسية وهي كثيرة ومتوفرة بين أيديهم ومتنوعة وغنية بالمعلومات والمادة .

وأظن ان الفرق شاسع بين الكلية العسكرية السورية والكلية الحربية العراقية ، ولو أن الأخيرة مدتها ثلاث سنوات ، وأكبر دليل على ذلك مانراه

ونلمسه من زملائنا الضباط في الدورة أو ممن نحتك بهم ان كان من الناحية العسكرية أو من الناحية الثقافية العامة.

والخلاصة إننا نفتقر الى الدورات التدريبية المنظمة بين حين وآخر للضباط من مختلف الرتب، كما في الجيش العراقي، وبهذا نستطيع ان نحافظ على السبق في كل مضمار وان نخلق لدى الضباط الصغار روحاً من التنافس الشريف ونجدد فيهم الروح الانضباطية ونعيدهم الى حظيرة الدرس من وقت لآخر ونضمهم إلى الحياة العسكرية لكليتهم... هكذا نرى في الجيش العراقي الدورات كثيرة ودائمة في مختلف الألوية وصنوف الأسلحة.

الرأي العام والبعثة:

لا استطيع التكهن بما يعلق رجل الشارع في بغداد على قدوم البعثة السورية، إلا ان مالاحظته بأن الضابط السوري عندما يسير في شوارع بغداد ترى الأعناق مشرئبة نحوه ويتطلعون إليه كأنه من القطع النادر ويلاقي مبالغة من الاحترام والتقدير لدى جميع الطبقات والأشخاص الذين نتصل بهم وحتى الضباط أنفسهم ينظرون الى الضابط السوري نظرة ملؤها الاعجاب والسرور ويكنون له في صدورهم عاطفة نبيلة لما عرف من الجيش السوري من تفان في فلسطين وماقام به من أعمال باهرة... رغم ضآلة عدده وفنونه. أجل انه فعل الجبابرة هكذا يقولون. ولو ان الجيوش العربية الباقية قاتلت بتجرد كما قاتل الجيش السوري لما قامت دولة اسرائيل...

ويعلق البعض على البعثة بأنها الطلائع الأولية لتحقيق مشروع الاتحاد، وهم يسبغون عليها صبغة سياسية ولكن بتحفظ شديد والمحت بعض الصحف العراقية الى ذلك بصورة خفية.

٢٨/ ١٠/ ١٩٤٩

انتهى / التوقيع/

الرأي العام في بغداد حول الاتحاد مع سورية :

لاأستطيع القول باني اطلعت على الرأي العام بصورة صحيحة لقلة اتصالي وزميلي بالعامة ، كما ذكرت في مكان آخر ولكنني أذكر هنا صدى أصوات من اتصلت بهم وهم في الحقيقة قلائل ومن طبقات معينة : بعض التجار - بعض الشباب المثقف - الضباط .

حديث الجميع في هذه الأيام هومشروع الاتحاد السوري العراقي ولايكاد يعرفنا أي انسان بأنا سوريون حتى يقبل علينا بلهفة منقطعة النظير (هذا ونحن مدنيين) ويفتتح الحديث فيطنب في وصف الاتحاد وذكر محاسنه ، وضرورته ولكل أسلوبه الخاص في البرهان على ذلك .

رأي أحد التجار :

يقول بأن الاتحاد سوف ينقذنا من هؤلاء اليهود الذين يسيطرون على اقتصاديات العراق عامة وبغداد بصورة خاصة فهم يحتكرون كل شيء فالتصدير باسمهم ومحلات تجارة الجملة والمخازن الهامة تعمل لحسابهم والشركات والمؤسسات معظمها يهودية أو أجنبية . وشركات التعهدات والمعامل الصغيرة كلها يهودية . ويعلقون على ذلك بقولهم لقد امتص هؤلاء دماءنا ولعبوا بأموال البلاد ولا حول ولا قوة لنا على دفعهم ولايمكن ان يقضي عليهم إلا التجار السوريون نظراً لخبرتهم في التجارة ولأنهم يملكون رؤوس الأموال التي تساعدهم على منافستهم والتغلب عليهم .

هذا وان العراق مستهلكة وهي تحتاج الى كثير من المواد المصنوعة في سورية ، وبذلك تمكن الصناعات السورية من الانتعاش وتمكين العمال السوريين من العمل وغزو أسواق العراق ، نظراً لمهارتهم .

أما الشاب المثقف :

فيبني برهانه على القومية العربية ووحدة اللغة والحدود والرسالة والغاية ،

وضـرورة التكـتل بالنسـبـة الى مايحيـق بالأمة العربية من مكائد ومايحيط بها من أعـداء يتربصـون بها. إلا ان بعضـهم يتحفـظ عنـدمـا يبدأ بالمقارنة بين سـورية الجمهـوريـة والعراق الملكي من الناحية السـياسـية وتضعف حجته عندما يناقش نوع الوحدة أو الاتحاد خاصة عندما يأتي على ذكر ارتباطات العراق مع الدول الأجنبـيـة الأخـرى وهـو يكـاد لايـرفـع عينـه خجلاً عندما يأتي على ذكر مأساة فلسطـين ومـوقف الجيش العـراقي الذي كان بامكانه ان يحرر فلسطين في وقت ولكن ارادة ماأجبرته على الوقوف ـ وحين يسأل عن موقف هذه الارادة من هذا الجيش في المستقبـل فإنـه لايسـتطيع الجزم بأنها ستكون حسـنة وهوليس بمتفائل الى الحد الذي يتصوره البعض، حتى قد يتشـاءم أحياناً الى حد بعيد.

ان الشباب يرى ضرورة الاتحاد العسكري والاقتصادي لكن لايريد ان ترتبـط سـوريـا بمعـاهـدات تـسـري على العـراق ـ وان تتقيد بنصوص وتعطي امتيـازات لأيـة دولـة أخـرى ـ لأنهم يرون في سـورية منبعاً للأفكار الحرة وأرضاً يجب ألا تعود فتدنسـها أقدام أجنبية من جديد. ويضـيـف يكفينا نحن ان نرى في شوارعنا جنود مطار سن الذباب الانكليز.

ويغـالي البعض بالقبـول بالاتحاد مهما كان الواقع ومهما كانت النتائج ولنا في المستقبل آمال ستحقق في اجتماع الكلمة.

أما الضبـاط:

فكلهم مشـجـع على هذا الاتحـاد، كيف لا وهم الـذين رأوا بأم أعينهم فشـل الجيـوش العـربية في فلسطين على الرغم منها، وهم يقنعون بأقل الحلول ألا وهـو الاتحـاد العسكـري الـذي يزيـل الفروق بين الجيوش ويوحد القيادة، لأجل ان يسـهل الأعمال الحربية في حالة حدوث أي تحد غريب.

وهم أكثر تألماً من الواقع المؤلم. لقد قال أحدهم في جلـسة خاصة «إننا أسوأ حالاً من الهند أو أية مستعمرة أخرى، لسـنا نملك لأنفسـنا ضراً ولانفعاً في الحقيقـة، ونحن نملك كل شيء في الظـاهـر. . . فرضـوا علينا تماثيل آدمية من

بني جلدتنا ويوجهونهم من وراء الكواليس، ويقيدون أيدينا بأغلال من الذهب والحرير الناعم ويقتلوننا بالزهور المشبعة بالسموم الفتاكة، وبذلك يميتون فينا روح الثورة وعناصر الحياة الكريمة، انظر الى هؤلاء الأوغاد (ويعني اليهود في بغداد) وقد قاموا مؤخراً بالمظاهرات انهم خلعوا ثوب الذل وأصبحوا يتفون ذقوننا وهم في أحضاننا يأكلون من خيرات بلادنا ويتلاعبون في اقتصادياتنا وكذلك هم أبعد الناس عن صفات المواطن الشريف انهم طابور خامس ينهش ويهدد كيان أمتنا، ومع ذلك فنحن ننظر اليهم وملء قلوبنا الأسى والحقد ولكن أيدينا لاتستطيع ان تمتد اليهم بسوء أي شيء أصعب من هذا؟». . . . ثم يتنهد ويسيطر الصمت علينا جميعاً . . .

الصحف:

لاتزال الصحف تخصص الصفحات الأولى منها للدعاية لمشروع الاتحاد، وتنشر آراء الساسة العراقيين فيه والشخصيات العربية، ولاتترك تصريحاً لساسة سوريا عن هذا الاتحاد إلا وتذكره فهي تطنطن بقرار الحزب الوطني وبتصاريح العسلي والكيالي، وتصريح سامي كبارة، ورأي دولة فارس الخوري في الاتحاد، ورأي فخامة شكري القوتلي وفخامة هاشم بك الاتاسي وتتبع قضية الانتخابات في سورية وتحمل على عزام باشا، وعلى نظام الجامعة العربية، وعلى مقترحات رياض الصلح بك وعلى السياسة السعودية والمصرية، المناهضة لمشروع الاتحاد وتهاجم بعض الكتاب الذين يكتبون ضد الوحدة مثل محمد التابعي مثلاً، وتشيد بعظمة الاتحاد وموقف الملك عبد الله من هذا المشروع أو تكاد تهمل كل مايتعلق بذلك وقد ذكر بعضها وجود مفاوضات بين الطرف العراقي والسوري ويشترك فيه طرف ثالث وسمت بعض الأسماء - كما ذكرت مشروع معاهدة تقدمت بها بريطانيا لسورية - هذا نقلاً عن صحيفة بيروتية.

وقد انشغلت في هذا الأسبوع في مشكلة مظاهرات واضراب اليهود في بغداد، واحتجاجهم على سوء معاملة السلطات لهم واضطهادهم.

وأكثر الصحف تؤيد الاقتراحات التي تقدم بها السيد نوري باشا

السعيد، لدى الجامعة العربية حول الدفاع المشترك، ولم تعلق كثيراً على مقترحات رئيس وزراء مصر بخصوص الاتحاد العسكري بين الدول العربية.

المعارضون للوحدة:

يدعي الجميع بأن اليهود هم من أكثر الناس معارضة لهذا الاتحاد وذلك لأنهم سيكونون كبش الفداء الأول وسيقضي عليهم مادياً ومعنوياً، وقد دلت على ذلك مظاهراتهم الأخيرة التي هتفوا خلالها بسقوط الفاشية العربية، وهتفوا بحياة الطائفة الاسرائيلية ولروح الشهداء منهم في فلسطين وصاحوا بأن اليهود هم شعب الله الخاص ولعل هذا من جملة الأسباب التي دعتهم الى التظاهر، خاصة وان في بغداد بعثة عسكرية سورية، إلا ان هناك أسباباً أخرى لاضرابهم لم تعرف حقيقتها بعد.

أما المعارضون الآخرون فهم العناصر غير العربية وخاصة الأكراد في العراق وهم يخشون على مركزهم ويرون بأنه سوف يتضاءل أمام كثرة العرب وسيقضي على عنصرياتهم وشعوبيتهم نهائياً.

ويعارض الاتحاد أيضاً الشيوعيون وميولهم وغايتهم معروفة، وهم متفقون مع اليهود.

هذا مااستطعت ان أكتب عنه حتى الآن وسأوافيكم بما يمكنني الوقت والفرصة من كتابته.

بغداد ٢٨/ ١٠/ ١٩٤٩

التوقيع
الملازم الأول أحمد عبد الكريم

انتهى

وفيما يلي أورد بعض الملاحظات التي سجلتها في مفكرتي الخاصة خلال فترة وجودي في بغداد.

معسكر الوشاش - بغداد - ١٤/ ١١/ ١٩٤٩

الحالة الاقتصادية في العراق:

ليس في العراق صناعات وطنية هامة، وهي تعتمد في استهلاكها المحلي على الاستيراد، والمصدر الأول للسلع والبضائع المصنوعة هي انكلترا، وهي تستورد جزءاً هاماً من حاجتها من الأقمشة والمنسوجات القطنية من سورية ويزيد في تدهور اقتصاد العراق عدم توفر رؤوس الأموال الوطنية لاستغلال الثروات الطبيعية ومن الملاحظ ان معظم المؤسسات والشركات التجارية ومكاتب المقاولات هي أجنبية أو يهودية، ولعل المار من شوارع بغداد الرئيسية نهار السبت لايكاد يرى مخزناً مفتوحاً لأن أكثر التجار في هذه المدينة من اليهود وهؤلاء يسيطرون على السوق ويتلاعبون بالأسعار، والأنكى من ذلك هو عدم امكانية التحرر من سيطرتهم لأنه ليس هناك من يستطيع مزاحمتهم، فليس لدى المسلمين والمسيحيين في بغداد الأموال والخبرة التي يمكن بواسطتها تشكيل مزاحمة فعالة. . . ومما يؤسف له ان معظم الشباب المثقف في العراق يتجه نحو التوظيف في الدولة.

وقد روى لي أحد الضباط العراقيين ان التجار اليهود كانوا ضد ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١، وقد نهبت بعض مخازنهم آنذاك إلا انهم استطاعوا تعويض خسائرهم بفترة وجيزة بعد القضاء على الثورة فرفعوا أسعارهم الى حدود غير معقولة، ولم يكن للعراقيين الخيار بالتعامل معهم، لذلك فإن الشعب العراقي يتمنى لو تخلص منهم وليذهبوا الى أي بلد يريدونه، ويعتقد الغالبية ان الاتحاد مع سورية يمكن ان يضعف سيطرتهم على التجارة بسبب مهارة التجار السوريين.

ليلة ١٥ - ١٦/ ١١/ ١٩٤٩ :

في جلسة أخوية مع بعض الضباط العراقيين الشباب تناولت الوضع العام في العراق، قال أحدهم :

- ان المفوضية البريطانية في بغداد ترسم الخطط وتوجه السياسة وتوحي بها للبلاط ونوري باشا أو صالح جبر . . . وماهذا المشروع الجديد الذي يقترحه العراق على سورية لاقامة وحدة أو اتحاد بين البلدين، إلا أسلوب جديد من الأساليب الانكليزية الخبيثة لايقاع سورية في الشبكة التي طالما أرادوا اصطيادها بها .
- عندما بدأت الأزمة الفلسطينية عام ١٩٤٨ كان اللواء اسماعيل صفوت باشا معاوناً لقائد القوات العراقية التي دخلت الى فلسطين بقيادة اللواء نور الدين محمود . وعند مناقشة خطة عمليات القوات العراقية في فلسطين، سأله اسماعيل صفوت رئيس الأركان عن خطته فقال سوف نقوم بالهجوم الجبهي من المثلث العربي ، فصاح به اسماعيل صفوت قائلاً : إنها لمؤامرة على الجيش العراقي وسمعته بل ومؤامرة على البلاد العربية . . فأجابه نور الدين محمود بأن هذه هي ارادة الملك عبد الله القائد العام للقوات العربية ، والوصي فما كان من اللواء صفوت إلا ان اعتذر عن المساهمة بالعملية وعاد فوراً الى العراق .
- وروى ضابط آخر قصة عزل اللواء مصطفى من قيادة القوات العراقية في فلسطين لعدم موافقة السلطات العليا على خطته وطلباته وعينت بدلاً عنه اللواء نور الدين محمود . فقدم استقالته وعاد الى العراق، وقد صرح لضابطه قائلاً :

الحمد لله الذي خلقني مسلماً ولم يخلقني عربياً لأن خيانة الملوك العرب وموافقتهم على المؤامرات البريطانية ستعود بالعار علي الى أبد الدهر .

- وروى ضابط آخر انه عندما أرادت الحكومة السورية تسليح طائرات الهارفرد بمدفع عيار ٢٠مم بريدا، طلبت من الحكومة العراقية تزويدها بالأسلحة التي كانت الطائرات العراقية مسلحة بها، وكانت متوفرة في مستودعات الطيران العراقي، استشارت القيادة العامة الوصي بذلك فأجابها بالحرف الواحد «خليهم يولون».
- قيل لأحد رؤساء العشائر العراقية الكبرى في لواء العمارة.. إبان حرب فلسطين لماذا لم تتبرع للثورة الفلسطينية وقد سبق ان تبرعت بسيف من الذهب للمارشال مونتغمري؟ فأجاب هذا الشيخ شنو هذي فلسطين... هذي شغلة أموية مالنا دخل فيها.. ولما سئل عمن قال له ذلك أجاب: ان المستر بولكي هو الذي شرح لي ذلك والمستر بولكي هو ضابط الارتباط البريطاني في البصرة آنذاك.*
- معظم ضباط الجيش العراقي الشباب لايثقون بالقيادة أو الحكومة، وهم شديدو الحذر وقلقون على مستقبلهم، ويخشون من سيف التسريح المسلط عليهم.

ويتطلع الرأي العام الى سورية باعتبارها البلد العربي الوحيد المستقل، والمثقفون يمقتون النظام الملكي ويرون في الاتحاد مع سورية امتداداً للنفوذ البريطاني لاأكثر ولاأقل، وفي رأيهم ان العراق لايزال مستعمرة بريطانية ولايمكن للجيش ان يقوم بأي عمل إلا بموافقة بريطانيا.

ولما كان مصير العائلة المالكة مرتبط بمصير بريطانيا فهما اذن صنوان... ولاأمل باسترداد حرية العراق مادام هذان الكابوسان رابضين على صدر الشعب العراقي..
- هناك وسائل عديدة يستغلها الانكليز لخلق الفرقة بين الشعب العراقي وتمزيق وحدته الوطنية ومنها:

١ - الأكراد الذين يحرضهم الانكليز بين وقت وآخر ويدفعهم للثورة لاشغال الجيش أو استخدامهم للضغط على الحكومة والمعارضة وتهديدهم بتجزئة الدولة.

٢ ـ الاشـوريـون : ويـستخـدمهم الانكليـز في قواتهم الخـاصـة لحراسة قواعدهم الجوية في مطارسن الذباب والحبانية، وفي الاستخبارات .
٣ ـ القبـائل البدوية : ويـسيطر ضـباط الارتباط الانكليز عليها باغداق الأموال على رؤسائها واطلاق أيديهم بالسلب والنهب وتأييد زعامتهم واقطاعاتهم .
٤ ـ الطائفـة اليهـوديـة : وهي تـسيطر على الاقتصـاد والسـوق التجـارية في بغداد، ويشغل بعض أفرادها وظائف هامة في الدولة والسكك الحديدية ودوائر المالية .
٥ ـ النـزاع بين الطائفتين الاسلاميتين، الشيعية، والسنة : وتعمل المخابرات البريطانية على اذكاء شعلة الحقد والخصام بين هاتين الطائفتين وتؤلبهما على بعضهما، وتشجع التقاليد الشيعية . وهناك بعض المستشرقين الذين يندسـون بين المشـايخ بحجـة دراسة المذاهب ويضع بعضهم العمائم، ويكرسـون جهودهم لغرس العادات الدخيلة في أذهان الشعب البسيط .
ـ يمكن القـول بأن حزب الاستقـلال هو الحزب الأقـوى في العـراق في فترة (الأربعينيـات والخمسينيـات) وتنتمي إليه بعض الشخصيـات السيـاسيـة المعروفة مثل : مهدي كبة، اسماعيل غانم وفائق السامرائي وصديق شنشل، وسلمان الصفواتي وزكي جميل حافظ، وجميعهم من كبار المحامين في العراق . .

ويـرى شـبـاب العراق ان هذا الحزب معتدل في مقـاومتـه للاستعمار البـريطـاني وهـو يماشي الفئـة الحـاكمة في معظم الأحيـان، لابل انه الوسيلة الـوحيـدة التي تـستغلها الـسلطات لمقاومة بقية الأحزاب التقدمية، ومنها حزب البعث العربي الفتي والحزب الوطني الديمقراطي وحزب الأحرار . .

وقـد اشـترك حزب الاستقلال في وزارة السيد مزاحم الباجه جي بعد حركة الوثبة عام ١٩٤٨ التي نشبت في عهد وزارة صالح جبر، عقد معاهدة بورتسموت ـ وكـان الوسيلة التي استطاع نوري باشا بواسطتها القضاء على الحـزب الـوطني الـديمقـراطي وحـزب الأحـرار بل لقـد تمكن من تزويـر

الانتخابات التي جرت في ذلك الوقت ولم يحصل فيها حزب الاستقلال نفسه إلا على خمسة مقاعد في البرلمان العراقي . . . رغم الوعود التي كالها له نوري باشا ، مما اضطر السيد مهدي كبة زعيم الحزب للاستقالة من الحكومة ، ولكن بعد خراب البصرة . .

- ليس في العراق حتى الآن طريق بري معبد يصل بغداد بالبصرة ، إلا ان هناك طريقين ترابيين موازيين لنهر دجلة ، وهما عرضة للانقطاع في فصل الشتاء ، وهناك سكة حديد واحدة لاتفي بحاجات النقل بين ميناء العراق الوحيد والداخل .

والسبب في ذلك كما يقول الناس ان هناك شركة بريطانية تحتكر الملاحة في نهر دجلة ، وتكسب من عملية النقل النهري أرباحاً هائلة ، ولاتستطيع الحكومة العراقية تعبيد الطريق البري بسبب نفوذ هذه الشركة . وقد تدخلت هذه الشركة فعلاً عندما حاولت الحكومة مد خط حديدي أو شراء الخط الحديدي الذي بناه الانكليز خلال الحرب العالمية الثانية . وكانت النتيجة ان انتصرت الشركة ورفعت هذه السكة وبيعت مخلفاتها الى التاجر اليهودي الثري «عدس» الذي نقلها الى فلسطين . . . . (كذا) . . .

ـ أهم الصحف اليومية في العراق :

- لواء الاستقلال : لسان حال حزب الاستقلال وصاحبها السيد مهدي كبة ، ورئيس تحريرها المحامي سلمان الصفواني .
- اليقظة ـ الزمان ـ الأمة (لسان حال السيد صالح جبر) ـ العهد ـ النهضة ـ العالم العربي ـ الشعب ـ صدى الأهالي (وهي صحيفة يسارية) ـ الشمس ـ الحوادث ـ مجلة .
- القرندل : وهي مجلة أسبوعية سياسية ساخرة رئيس تحريرها السيد صادق الأوزي .

مدينة بغداد :

حقاً ان مدينة بغداد رائعة الجمال وأجمل مافيها نهر دجلة وأمسياتها الساحرة التي تكاد تنطق الألسنة الحية بالشعر والبيان. فأنت اذا ماسرت في الليل على جسر الملك فيصل وتوقفت وسرحت الطرف على امتداد النهر العظيم راعتك انعكاسات الأضواء على ضفتيه . . . وذلك الضباب الذي يعلو سطحه كالقطن المنفوش، انه حقاً يخلب اللب بل ان هذا المنظر لهو لوحة عجيبة من أجمل اللوحات التي رسمتها الطبيعة لتقدم للانسان أعظم المتعة وتحرك أنبل مافيه من مشاعر وخيالات عندما تسير في شوارع بغداد الطويلة وأهمها شارع الرشيد يلفت نظرك هذا المزيج الغريب من المارة بألبستهم الملونة وخاصة منها العقال الأسود الثخين المجدول من الأمام الذي يميز سكان ريف العراق عن غيرهم من سكان سورية والأردن والسعودية والعمامات الضخمة المزركشة التي يعتمر بها الأكراد، والسدارة السوداء التي تميز المثقفين وموظفي الدولة والتي تشبه زوارق الورق التي كنا نتسلى بها أيام الدراسة الابتدائية . .

ولعل أبرز مايجلب اهتمام الانسان هو تلك الاشباح الرشيقة الملتفة بالعباءات السوداء، التي تغطيها من منبت الشعر حتى القدمين ومع ذلك فانها لاتخفي بعض مفاتن الأجسام الرشيقة. تلك هي «أم العباية» التي لاتغيب عن الأعين، تراها تخطر بدلال منغم بقامتها الرشيقة الفارهة، فتلوى العباءة السوداء معبرة أحسن التعبير عما يختبيء فيها، وغالباً مايستطيع المرء التمييز بين النساء الجميلات والقبيحات، وكأن العباءة رغم قتامها أصبحت مطواعة شفافة تعكس قسمات الجسم وملامحه وغالباً ماتكون لابسات العبي سافرات عن وجوههن فتعجبك منهن سمرة عربية أصيلة وعيون سوداء ساحرة، ذات أهداب طويلة، وتقاطيع رقيقة ناعمة.

والحقيقة ان هذه العباءة نعمة بالنسبة للكثيرات لأنها تستر عليهن

قباحتهن، وهي قفص ممقوت للغانيات الجميلات تجسد عبودية المرأة على أكمل وجه في مجتمعنا العربي . . .

ومن أجمل شوارع النزهة في بغداد «شارع أبونواس» وهو شارع المقاهي والمشارب ونوادي الليل، ويمتد على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وأذكر من بين ملاهيه: سليكت وعبد الله وهافانا وغاردينيا. . وان أنسى لاأنسى ماتذوقته في هذا الشارع من السمك المسقوف الذي يشوى على خشب القنب على ضفاف النهر ويتبل بالافاوية الحادة اللذيذة ويعتبر من بين أشهر المآكل في العراق. . .

أمسية في حارة البتاوين:

الأحد في ١٦/ ١١/ ١٩٤٩

نزلت من المعسكر الى بغداد مع زميلي أكرم ديري برفقة أحد رفاقنا الضباط العراقيين وذهبنا الى ملهى الهافانا حيث أكلنا السمك المسقوف وشربنا عرق المستكي ثم شاهدنا استعراض فرقة أجنبية راقصة، وبعض الفنانات العربيات، وخرجنا بعدها برفقة أحد الضباط العراقيين الى «حارة البتاوين» وهي مركز الحي اليهودي في بغداد وبؤرة الفساد في مدينة الرشيد.

مررنا في أحد الشوارع فإذا بنا نجد ان جميع أبواب المنازل مفتوحة على مصاريعها فيدخلها المارة دون استئذان وبدعوة من أحد الأشخاص الذين يقفون أمام الباب إذ يقول تفضل تؤنس عيني ليلي ومريم، وراشيل. . . الخ، وندخل فنرى امرأة سمراء مترهلة كالحة شديدة السمنة تتكلم بلهجة عراقية رخوة، فترحب بنا وتستدعي بناتها لننتقي منهن من نشاء. . . ثم ننتقل الى منزل ثانٍ وثالث ورابع وهكذا انقضت سهرتنا بالتجوال لأن الزميل العراقي أكد لنا ان معظم هذه النسوة مصابات بأمراض جنسية خبيثة وانهن لا يخضعن للرقابة الصحية.

أحاديث مع الزملاء العراقيين :

في ١٧/ ١١/ ١٩٤٩

لاشيء هام سوى أحاديثنا الخاصة مع زملائنا الضباط العراقيين الذين يتساءلون عن الأسباب الحقيقية للانقلابات العسكرية في سورية . وهل هناك أياد أجنبية وراءها؟ أما عن موضوع الاتحاد، فميل غالبية الضباط لهذه الفكرة لأنها قد تؤدي الى دعم القوى الدفاعية للعرب فيستطيعون تعويض هزيمتهم في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ على انهم يتحفظون بالنسبة للنظام الملكي والنفوذ البريطاني ويرون ان من حق سورية ان تتردد وتحذر من هذه النواحي خاصة وان العراق لايزال مرتبطاً بمعاهدة مع بريطانيا .

دعوة في حي بني تميم بالقرب من قاعدة الحبانية :

الجمعة ٢١/ ١١/ ١٩٤٩

في هذا اليوم نفذت الدورة مشروعاً لمناورة قيادة لواء في منطقة الحبانية وبعد انتهاء المشروع دعينا مع كبار ضباط الجيش العراقي الذين حضروا المناورة الى بيت شيخ بني تميم حسن بن سهيل، وقد استقبلنا الشيخ في خيمة ذات خمسة أعمدة مفروشة بالسجاد العجمي وعلى أطرافها وضعت الموبيليا الفاخرة، ورحب بنا الشيخ وأبناؤه وهو بناهز الخمسين من العمر مهيب الطلعة، مربع القامة حاد البصر تلمع عيناه بالذكاء .

كان عدد المدعوين يناهز الثلاثين ضابطاً معظمهم من القيادة . .

وبعد ان جلسنا قدم لنا الخدم القهوة المرة، وأقداحاً من البيرة والويسكي . . وفي تمام الساعة الواحدة بعد الظهر دعينا لتناول الغذاء في خيمة ثانية على مائدة عامرة بالخرفان المحشية والدجاج وفتة الرأس والسلطة والمشكي والمقبلات على أنواعها . . . وبعد تناول الطعام قدمت لنا أنوع الفواكه والتمور . . .

ثم ودعنا الشيخ في تمام الساعة ١٤,٣٠ وعدنا الى بغداد .

زيارة مدينة بعقوبة :

الأحد في ٢٣/١١/١٩٤٩

قمنا بتمرين استطلاع في لواء ديالة وزرنا بعد ذلك مدينة بعقوبة وهي مدينة صغيرة تبعد عن بغداد شمالاً بحوالي ٣٦ ميلاً ويتفرع منها طريقان يتجه الأول شمالاً الى كركوك ويتجه الثاني شرقاً الى خانقين نحو الحدود الايرانية.

وتقع المدينة على نهر ديالة أحد فروع دجلة وفيها محطة لسكة الحديد وتحيط بها البساتين الغناء التي تنتج جميع أنواع الفواكه، والثمار وأهمها البلح، ومنها البرتقال والعنب والتفاح والرمان والخوخ والمشمش وتعتبر من أشهر المدن المنتجة للفواكه والخضار التي تزود بها مدينة بغداد...

مظاهرة يهودية في بغداد :

٢٥/١١/١٩٤٩

شاهدنا مظاهرة صاخبة تسير في شارع الرشيد وقد علمنا بأن المتظاهرين من الطائفة اليهودية وهم يطالبون بالهجرة الى فلسطين.

التماثيل في مدينة بغداد :

كان في مدينة بغداد ثلاثة تماثيل هامة على ماأذكر وهي :

التمثال الأول: يمثل الملك فيصل الأول، وهو يمتطي جواداً عربياً ويرتدي الألبسة العربية ويتجه نحو الغرب ويقع التمثال بعد جسر الملك فيصل مباشرة على الجانب الأيمن من نهر دجلة (في منطقة الكرخ) في الشارع المسمى باسمه.

التمثال الثاني: يمثل عبد المحسن السعدون. وهو وزير عراقي مشهور بوطنيته،

رفض توقيع المعاهدة العراقية البريطانية، وصرح برأيه في مجلس النواب العراقي في عهد الملك فيصل الأول، فتصدى له أحد النواب المتعاونين مع البريطانيين وقال له أنك خائن... فرفع يده وأشار الى صدره قائلاً: «أأنا الخائن» وقد صنع له تمثال يمثله في هذه الوضعية، وقد رفع هذا التمثال في عهد الملك غازي.

التمثال الثالث: للجنرال البريطاني «مود» فاتح العراق ويمثله بلباسه العسكري وهو يمتطي جواداً انكليزياً ويتجه التمثال الى الجنوب مشيراً بيده الى الجنوب باتجاه الجزيرة العربية والخليج، ويقع التمثال أمام المفوضية البريطانية في حي الكرخ.

الضباط الأكراد يعارضون الوحدة مع سورية:

١٩٤٩/١١/٢٨

كان بعض زملائنا في الدورة من الضباط العراقيين الأكراد، وهم لايخفون مشاعرهم العنصرية وقد لاحظنا بعض الجفاء في علاقاتهم مع رفاقهم من الضباط العراقيين العرب وينظرون الى بعضهم بكلفة وحذر، ويجاهرون بعدائهم للاتحاد بين سورية والعراق.

الاحتفال بعاشوراء:

دعاني وزميلي الرئيس أول حامد جعفر وهو ضابط شيعي يميل لحزب البعث لمشاهدة الاحتفالات يوم عاشوراء. وفي الساعة العاشرة صباحاً ذهبنا الى حي الكاظمية، وكان الازدحام شديداً بشكل غير عادي وعلى جوانب الشوارع تقف بعض مفارز الشرطة، نزلنا من السيارة بالقرب من «مسجد الكاظم» ولم نستطع شق طريقنا إلا بصعوبة بين الجماهير الحزينة التي تبعث

الكآبة في النفس، وأمام مدخل المسجد شاهدنا مئات النسوة يهزجن ويندبن ويلطمن خدودهن ووجوه معظمهن ملطخة بالطين ولم نستطع دخول المسجد من الباب الرئيسي الغربي، فقادنا الرئيس جعفر الى باب ثانوي، وما ان توسطنا ساحة المسجد الداخلية، حتى شاهدنا رجلاً يرتدي ألبسة سوداء ويقف فوق منضدة ويهتف بصوت متهدج باسم الحسين والعباس والكاظم وآل البيت وحوله جمع غفير من الرجال الذين عروا جذوعهم، يرددون أقواله ويلطمون صدورهم بقوة، فيتردد في أرجاء المسجد أصوات النواح واللطم وكان منظراً مؤثراً وتركنا الساحة وولجنا المصلى حيث ضريح الكاظم فرأينا حشداً من الرجال والنساء يتزاحمون حول المقام يقبلون نوافذه ويرددون التعاويذ ويبتهلون الى الله. وقمنا بدورة حول الضريح بعد ان تصارعنا مع غيرنا ولاحظت ان جميع المصلين يضعون تحت جباههم قطعة صغيرة دائرية من الفخار قيل لي أنها من تراب كربلاء الذي جبل بدماء شهداء آل البيت. وسمعت أحد الرجال يردد جملة «ياسر الله.. ياسر الله مشيراً الى قبر الكاظم». وبعد ان أتممنا الجولة في المسجد قدم كل منا لحارس الضريح ١٠٠ فلس. وما ان عدنا الى الساحة حتى أخذت تصل اليها مواكب الأحياء وكل موكب يزيد عن عدة مئات من الرجال العارية صدورهم، وهم يرددون الأهازيج ويلطمون، وماهي إلا دقائق حتى غصت الساحة بآلاف الرجال وكان منظراً رهيباً يبعث الرهبة والحزن.

وبعد هذا المشهد الطريف، خرجنا من المسجد واتجهنا بالسيارة الى أحد المجالس الخاصة التي تعقد عادة في كل يوم من الأيام العشرة الأوائل من شهر محرم. قادنا الزميل العراقي الى بيت قديم قريب من المسجد، فرأينا جمعاً من الناس في باحة المنزل الداخلية يتجاوز المئات، وجلسنا نحن في صالة واسعة وثيرة ورحب بنا ابن صاحب البيت وهو طالب بالسنة الثانية في كلية الطب، وقدمت لنا القهوة المرة والسجاير، ولاحظت ان لوحة تمثل العائلة المالكة البريطانية تتصدر جدار الصالة، والى جانبها صورة صاحب البيت وأولاده، وعلى المنضدة الصغيرة تكدست المجلات الانكليزية. وهمس زميلنا ان صاحب الدار من أحفاد وزير الدفاع الهندي «مقام الدولة» في عهد

الامبراطورية الهندية التي قضى عليها الانكليز، وعندما قررت السلطات الانكليزية نفيه خارج الهند اختار اللجوء الى بغداد، ولما كان من الأثرياء فقد أراد انفاق ثروته في سبيل الله وأصحاب البيت، فبنى عدة بيوت لإيواء المساكين. وعندما توفي أوصى بأمواله التي تزيد عن خمسة ملايين روبية الى المدعو «آغا محمد» ليديرها هو وأحفاده وينفقوها في سبيل الخير. وأضاف زميلنا بأن المفوضية البريطانية تخصص لهذه العائلة مبلغ ١٥٠٠ جنية شهرياً وذلك كتعويض عن أموالهم الضائعة في الهند . . .

وفي الساعة الثانية عشرة تقريباً دخل علينا رب البيت السيد «آغا محمد» وسلم ثم اعتذر مضطراً ليكون الى جانب الجمهور المحتشد في ساحة المنزل، ويشرف بنفسه على توزيع الشاي والكعك والقهوة . . .

وأذكر ان ساقي الماء والشاي، كان يردد عندما يقدم لكل منا فنجانه: . . . «اشرب والعن يزيد . . . أو العن أم وأبو يزيد . . . اشرب والعن معاوية. وزود لعن معاوية . . .». الخ. وحان وقت اللطمة، فإذا بأحد الرجال ينادي بأعلى صوته «اللهم صلي على محمد» ويردد القوم صلاة الله عليه، ويعتلي أحد الشيوخ سدة خاصة مجللة بالسواد وعلى رأسه عمامة سوداء ويرتدي عباءة سوداء أيضاً، ويلقي بصوت متهدج حزين قصيدة يذكر فيها استشهاد الحسين وبعض آل البيت ويردد الجمع وراءة القافية ويندبون بأصوات حزينة عالية، وهكذا أخذ يسيطر الحزن على الحضور وكأننا أصبحنا نشهد مأتماً عظيماً.

وأخذ الجمع يلطمون على نغمة واحدة مع كل مقطع من القصيدة، وخاصة عندما قال الشيخ مامعناه «وعاد جواد الحسين مثلوم السرج مما يدل على استشهاده»، وهنا علت أصوات النساء وتعالى النواح والعويل، ثم أخذ الشيخ يردد أهزوجة عن كيفية قتل شمر بن ذي الجوشن للحسين رضي الله عنه، ويردد الحضور مقاطع الاهزوجة ويندبون، وتعالى الأنات بين فترة وأخرى و. . . . وهكذا استمر الاحتفال الحزين حتى الساعة الواحدة بعد الظهر تقريباً وبدأ الجمع بالانصراف وانصرفنا معهم.

وقد سمعت بعض الحضور في الصالة يتحدثون عن اللطم بالسيف والساطور، ويقولون ان الشيخ «كاشف الغطاء» أفتى هذا العام بتحليلها، وعادت الى الظهور من جديد وقد لطم خمسة أشخاص وجوههم وصدورهم حتى سالت دماؤهم وذلك تنفيذاً «لنذر» قطعوه على أنفسهم.

نتائج الانتخابات التشريعية في سورية:

١٨ تشرين الثاني ١٩٤٩

أذاع راديو بغداد نتائج الانتخابات النيابية في سورية وقد فاز حزب الشعب بأكثرية ٤٧ مقعداً، وحصل الحزب الوطني على ٩ مقاعد وحزب البعث العربي ٣ مقاعد، والمستقلون على ٣١ مقعداً والحزب السوري القومي على مقعد واحد، والكتلة الاسلامية ٩ مقاعد، ورؤساء العشائر ٩ مقاعد، ويكون مجموع الفائزين مائة وتسعة مقاعد، ولاتزال هناك خمسة مقاعد سيجري التنافس عليها في الانتخابات التكميلية، وسينافس الاستاذ ميشيل عفلق مع ثلاثة مرشحين على المقعد الثاني للناخبين المسيحيين في مدينة دمشق.

مقال افتتاحي حول الوحدة:

الخميس في ١ كانون الأول ١٩٤٩

نشرت صحيفة اليقظة مقالاً افتتاحياً بعنوان «في وحدة البلدين» بقلم المحامي اسماعيل الغنام، وجاء في المقال مايلي: «ان على سورية ان تنضم للعراق وإلا فيكون مصيرها كمصير فلسطين فيتقاسمها اليهود والأتراك الذين لايزالون يطمعون فيها».

زيارة ايوان كسرى :

الأحد في ٤ كانون الأول ١٩٤٩

قمنا هذا الصباح بتمرين خارجي في منطقة «سليمان باك» التي تقع الى الجنوب من بغداد بحوالي ٥٠ ميلاً ، والى جنوب هذه المدينة ، تقوم بقايا آثار «طاق كسرى» أو «ايوان كسرى» ، وهو بناء عظيم من الآجر الأحمر المشوي ، ترتفع جدرانه بحوالي ٥٠ متراً عن سطح الأرض وتزيد سماكتها على خمسة أمتار أحياناً. وتبلغ مساحة الايوان حوالي ٦٠م × ٥٠م تقريباً وسقفه على شكل قوس .

ويرجع عهد هذا الايوان الى ماقبل الاسلام ، ويقال ان الخليفة المنصور العباسي نقل بعض آجره لبناء قصره في بغداد . . . وقد وصفه البحتري في بعض قصائده .

اختتام الدورة :

انتهت الدورة وهي دورة أركان فرقة هذا اليوم وأعلنت النتائج وكنت وزميلي من الناجحين .

نتيجة دورة الاستخبارات الحادية عشرة

من ١١/ ١٠/ ١٩٤٩ ولغاية ١٢/ ١٢/ ١٩٤٩

الرتبة : الملازم الأول

الاسم : أحمد عبد الكريم

الوحدة : البعثة السورية

العلامة

الموضوع	الكاملة	المكتسبة	الملحوظات
الاستخبارات	١٠٠	٧٥	شخصية قوية اشتغل في
واجبات الأركان	١٠٠	٨٠	الدورة واستفاد منها بدرجة

الأمن والرقابة والجفر	٥٠	٤٤	جيدة مقدرته على استقصاء
التصوير الجوي والتخطيط	٥٠	٣٩	المعلومات جيدة .
التمارين	١٠٠	٧٠	يصلح أن يكون ضابط
المجموع	٤٠٠	٣٠٨	استخبارات لتشكيل بمستوى لواء
النتيجة		ناجح	
درجته في الصف		٦	

عن الزعيم الركن
مدير شعبة الاستخبارات

البرلمان السوري يختار السيد كيخيا لرئاسة المجلس والسيد الاتاسي لرئاسة الجمهورية :

أذاع راديو بغداد ان الجمعية التأسيسية السورية عقدت أول اجتماعاتها صباح هذا اليوم وانتخب السيد رشدي الكيخيا رئيساً لها .

وبتاريخ ١٩٤٩/١٢/١٤ انتخب السيد هاشم الاتاسي رئيساً مؤقتاً للدولة بسلطات تشريعية وتنفيذية خاصة ريثما يتم اعداد الدستور الجديد والموافقة عليه ، كما انتخب السيد ناظم القدسي رئيساً للجنة الدستور في المجلس النيابي . وبهذه المناسبة وقع خلاف على نص القسم الذي سيؤديه رئيس الدولة وأعضاء الجمعية التأسيسية وكان يخفي وراءه الخلاف بين مؤيدي الاتحاد مع المملكة العراقية الهاشمية وبين معارضيه . وذلك ان النص الذي اقترحه بعض نواب الأكثرية لم يتضمن صراحة الاشارة الى النظام الجمهوري

وكـان على رأس المعـارضـة لهذا القـسم النائبان أكرم الحوراني وعبد الباقي نظام الدين . . وانضـم إليهما عدد آخر من النواب المسـتقلين ولكن معارضـتهم لم تجد ؛ وصـوت المجلـس على النص المقـترح وكـان ذلك بمثابة تحد للجيـش والمعارضة واستفتـاء يدل على ان أكثرية النواب يؤيدون الاتحاد . وهكذا شعرت المعارضة التي كانت على اتصـال بالعقيـد أديب الشيـشكـلي وبعض ضبـاط الجيش المنـاوئين للاتحاد ، انه لابد من العمل بسـرعة قبل ان توضع البلاد أمام الأمر الواقع خاصة وقد أصبح موضوع الاتحاد مشروعاً من الناحية الدستورية وليـس هناك أي عائق قانوني يحول دون تنفيذه .

الفصل الثالث

العقيد أديب الشيشكلي يقوم بالانقلاب الثالث في سورية خلال عام واحد

الاثنين ١٩/ ١٢/ ١٩٤٩

أذاع راديو بغداد ان انقلاباً عسكرياً وقع في دمشق صباح هذا اليوم بقيادة العقيد أديب الشيشكلي وتم اعتقال اللواء سامي الحناوي، وبعض أنصاره من الضباط، وعين الزعيم أنور بنود رئيساً للأركان، كما عين العقيد أديب الشيشكلي قائد الانقلاب نائباً لرئيس الأركان.

وفي مساء هذا اليوم غادرتُ وزميلي أكرم الديري بغداد في الساعة السابعة عشرة، في احدى سيارات «شركة نرن» عبر الصحراء، ووصلنا دمشق صباح يوم الثلاثاء ٢١/ ١٢/ ١٩٤٩. وفي ظهيرة ذلك اليوم تقدمنا لرئاسة الأركان ـ الشعبة الثالثة، فطلب الينا الالتحاق بعملنا فوراً. وكانت الدبابات لاتزال تطوق الاذاعة والهاتف ودار الحكومة، وتشدد الحراسة على الأركان العامة.

توتر الجو السياسي في البلاد بسبب تعاظم النشاط العراقي في سورية واشتد التذمر في الجيش الذي أخذ يعتبر اللواء سامي الحناوي أداة بيد حزب الشعب، وان السياسة التي تسير عليها الحكومة والبرلمان هي في غير مصلحة البلاد، ويبدو ان الصراع بين محور القاهرة ـ الرياض من جهة وبين العراق من جهة أخرى، أصبح علنياً، وأخذ كل من هذين الطرفين يساند بصراحة الكتلة السياسية التي تتجاوب مع سياسته، وبات واضحاً ان مصر والسعودية لاتقبلان قيام أي تقارب بين العراق وسورية، فمصر تخشى على زعامتها، والسعودية تخشى من اتساع نفوذ الهاشميين، والواقع ان الغالبية العظمى من ضباط القوات المسلحة كانوا بمنأى عن هذا الصراع الذي يجري في قاعة المجلس النيابي، وهم يعتقدون بأن جمهورية سورية الفتية تتعرض لمؤ امرات وأخطار خارجية جدية، أداتها الرئيسية بعض السياسيين وحفنة قليلة من الضباط الكبار الذين يلتفون حول اللواء سامي الحناوي وهم يرمون الى استغلال الشعور الوحدوي في سورية وادخالها في منطقة النفوذ البريطاني الذي قدم فلسطين للصهيونية.

في هذا الجو المتوتر اجتمع عدد من الضباط الكبار بقيادة العقيد أديب الشيشكلي الذي كان يتمتع بتأييد واسع في الجيش بما في ذلك الضباط الشباب، وقرروا الاطاحة باللواء سامي الحناوي وانقاذ سورية من المؤ امرة التي تحاك لها تحت ستار الاتحاد بمعرفة بريطانيا من وراء السلطة في العراق.

وفي صبيحة يوم ١٩/١٢/١٩٤٩ قامت بعض الوحدات المدرعة بقيادة أمين أبو عساف وبعض وحدات حرس البادية بقيادة محمود بنيان بالاستيلاء على المراكز الحيوية في العاصمة وتم اعتقال اللواء سامي الحناوي وأعوانه من الضباط وصهره المدعو أسعد طلس ورئيس الشرطة العسكرية الرئيس محمد معروف ورئيس المخابرات الشعبة الثانية (محمود الرفاعي).

وساهم في هذا الانقلاب من الضباط القادة كل من العقيد نظام الدين

والعقيد أمين أبو عساف والعقيد محمود بنيان والمقدم ابراهيم الحسيني والرئيس فضل الله أبو منصور. وكان من بين الضباط الأعوان الذين ساهموا في تنفيذ الانقلاب، حسين حدة من حزب البعث وعبد الحق شحادة مستقل ومصطفى حمدون، وعبد الغني قنوت، المعروفين بعلاقتهم الوثيقة مع الاستاذ أكرم الحوراني. وآخرون من الضباط الشباب الذين لاأذكر أسماؤ هم خاصة وأنني لم أكن في دمشق.

عُين الزعيم أنور بنود رئيساً للأركان العامة كما عين العقيد أديب الشيشكلي قائد الانقلاب نائباً لرئيس الأركان. وبناء على الاتفاق الذي تم بين الضباط القادة الذين ساهموا بتنفيذ الانقلاب أصبح العقيد الشيشكلي القائد الفعلي للقوات المسلحة.

تشكيل حكومة جديدة برئاسة السيد خالد العظم:

لما كانت الأكثرية في البرلمان من حزب الشعب، فقد حاول هذا الحزب تجاهل الانقلاب العسكري فشكل حكومة برئاسة الدكتور ناظم القدسي بتاريخ ١٩٤٩/١٢/٢٤ بهدف وضع الجيش أمام الأمر الواقع.

ودلَّ هذا التصرف على استخفاف قادة حزب الشعب بدور القوات المسلحة وافتقارهم للمرونة، وهي خطيئة لم يغفرها لهم قائد الانقلاب كما تركت آثاراً سلبية على العلاقة بين حزب الشعب وجماعة الانقلاب والقوات المسلحة بشكل عام منذ ذلك الوقت ودلت على عدم الروية وفقدان الحنكة والمرونة، عند هؤلاء الساسة، دفعوا ثمنها غالياً، وكلفت الشعب السوري الكثير من المعاناة وكانت من جملة الأسباب التي كرست عدم الاستقرار في هذا البلد الذي اغتيلت فيه أول تجربة ديمقراطية برلمانية منفتحة في العالم العربي، على يد القوات المسلحة وبدعم وتشجيع بعض الساسة المغامرين، وفي اعتقادي الشخصي أن القوى الأجنبية المتصارعة على النفوذ في المنطقة والمعادية للديمقراطية لم تكن بعيدة عن هذه الحركات الانقلابية لأنها تُفضل التعامل مع

الأنظمة الدكتاتورية الفردية وخاصة منها العسكرية على التعامل مع حكومات برلمانية منتخبة يقف وراءها عدد من الأحزاب.

لم يقبل قائد الانقلاب هذا التحدي الصريح المهين، فبادر الى ارسال مفرزة من الشرطة العسكرية أجبرت الرئيس هاشم الأتاسي على قبوله استقالة وزارة السيد ناظم القدسي بتاريخ ٢٧ كانون الأول ١٩٤٩ وتكليف السيد خالد العظم بتشكيل حكومة ائتلافية تساهم فيها جميع الأحزاب، بما في ذلك حزب الشعب، وتم بالفعل تشكيل هذه الحكومة بنفس اليوم واشترك فيها بعض أعضاء حزب الشعب على مسؤوليته الشخصية وتألفت على الشكل التالي:

السادة:

خالد العظم	للرئاسة والخارجية
أكرم الحوراني	للدفاع
عبد الباقي نظام الدين	للزراعة
هاني الساعي	للمعارف
سامي كبارة	للصحة
محمد مبارك	للاشغال العامة
فيضي الأتاسي	للعدلية
معروف الدواليبي	للاقتصاد (وكلاهما من حزب الشعب)

وفي هذا الوقت تأكد انتخاب الدكتور ناظم القدسي رئيساً للجنة الدستورية. ورغبة في ايجاد نوع من التوازن داخل البرلمان والحد من تسلط حزب الشعب على السلطة التشريعية، فقد شكل السادة عبد الباقي نظام الدين (مستقل) وأكرم الحوراني (رئيس الحزب العربي الاشتراكي) كتلة برلمانية تعارض الأكثرية الشعبية وتساند الحركة الانقلابية وأطلق على هذا التكتل اسم «الكتلة الجمهورية الديمقراطية» وضمت معظم نواب العشائر وعدداً من المستقلين وبلغ تعداد أعضائها ٣٧ نائباً، وبذلك أصبحت الكتلة البرلمانية

الثانية بعد حزب الشعب، واعتبرت هذه البادرة دليلاً على رغبة أديب الشيشكلي بالمحافظة على النظام الديمقراطي القائم على التعددية.

تصريح الدكتور معروف الدواليبي حول التعاون مع الاتحاد السوفييتي:

في آذار ١٩٥٠ عقد في مقر الجامعة العربية بالقاهرة اجتماع لوزراء الاقتصاد العرب وكان الدكتور معروف الدواليبي ممثلاً لسورية في هذا الاجتماع، ونظراً للصعوبات التي كانت تلاقيها الدول العربية لتسليح جيوشها لمواجهة التحرشات والسياسة التوسعية الاسرائيلية. ونظراً لفشل جميع المحاولات التي قامت بها سورية للحصول على السلاح من الدول الغربية وخاصة فرنسا ودعم هذه الدول لاسرائيل بكل الوسائل.

فقد أدلى الدكتور معروف الدواليبي بعد هذا الاجتماع بتصريح لمراسلي الصحف العربية والأجنبية مفعم بالمرارة قال فيه: «ان العرب يفضلون مائة مرة ان يصبحوا جمهورية تدور في فلك موسكو على ان يكونوا فريسة للعبودية، ثم حمل على الغرب حملة شديدة، وأهاب بالدول العربية الاتجاه نحو الاتحاد السوفييتي والتعاون معه للوقوف في وجه السرطان الصهيوني الذي زرعه الغرب في قلب الأمة العربية».

كان لهذا التصريح صدى واسع في العالم لأنه أول بادرة صريحة تجرأ فيها سياسي عربي على انتقاد الدول الغربية وجاهر بالتعاون مع الاتحاد السوفييتي. وأثار هذا التصريح استياء بعض السياسيين العرب الموالين للغرب. غير انه استقبل استقبالاً ايجابياً من الرأي العام في العالم العربي عامة وفي سورية بشكل خاص، ورحبت به القوى التقدمية.

وعند عودة الدكتور الدواليبي الى دمشق جرى استجوابه في البرلمان من قبل نواب حزب الشعب فأكد انه يتحمل شخصياً مسؤولية هذا التصريح، وتبع ذلك مناقشات حادة بين النواب. كان من نتيجتها استقالة وزارة خالد العظم.

خلاف بين الضباط القادة يؤدي الى اغتيال العقيد محمد ناصر :

لم يكن من السهل على بعض الضباط القادة تقبل زعامة العقيد أديب الشيشكلي، خاصة أولئك الذين يعتقدون ان لهم من المؤهلات مايجعلهم قادرين على القيام بانقلاب لصالحهم، بعد ان وجدوا ان العملية لاتحتاج لأكثر من كتيبة أو كتيبتين للاستيلاء على المراكز الحكومية والمؤسسات الحيوية في العاصمة، ثم اصدار بلاغ قصير من الاذاعة يعلن استيلاء الجيش على السلطة.

ويبدو ان قائد سلاح الطيران آنذاك العقيد محمد ناصر، كان من هؤلاء القادة المرموقين، وقد عرف هذا الضابط باتساع ثقافته وذكائه وطموحه وشعوره بالتفوق على معظم أقرانه. وأصبح ينظر اليه، منذ ذلك، بكثير من الحذر من قبل قادة الانقلاب.

وفي أحد الاجتماعات التي ضمت رئيس الأركان الزعيم أنور بنود ومعاونه العقيد أديب الشيشكلي رئيس الشعبة الثانية ـ المخابرات العامة، انبرى العقيد محمد ناصر للهجوم على دكتاتورية أديب الشيشكلي، واشتد الشجار بين هذين الضابطين حتى أشهر كل منهما مسدسه في وجه الآخر ولكنهما تصافيا بفضل وساطة بقية الضباط وخاصة العقيد توفيق نظام الدين والعقيد عزيز عبد الكريم المعروفان بحيادهما وحكمتهما والاجماع على احترامهما.

وفي ذلك اليوم قرر العقيد محمد ناصر الرحيل الى بيروت فاعترض طريقه المقدم ابراهيم الحسيني بالقرب من قرية دمر، وأطلق النار عليه فأرداه قتيلاً وكان ذلك في ٣١ تموز ١٩٥٠ وأدى هذا الحادث الى الاستياء الشديد بين الضباط القادة ونشب خلاف عميق بين أديب الشيشكلي من جهة والعقيدين عزيز عبد الكريم وتوفيق نظام الدين من جهة أخرى، ومع ذلك لم يترتب عليه أية نتيجة مباشرة واستطاع الشيشكلي استرضاء هذين الضابطين وأسند لكل منهما المنصب الذي يطمح اليه، ونظراً لعدم ملاحقة المقدم ابراهيم الحسيني فقد اعتبرت عملية الاغتيال بالتواطؤ مع العقيد أديب الشيشكلي.

تأليف وزارة جديدة برئاسة الدكتور ناظم القدسي :

أدى تصريح الدكتور معروف الدواليبي واغتيال العقيد محمد ناصر الى نشوب أزمة وزارية فقد خسر الدكتور الدواليبي ثقة حزب الشعب ومؤيديهم، كما أدى حادث الاغتيال الى وقوع خصام بين النائبين أكرم الحوراني وعبد الباقي نظام الدين شقيق العقيد توفيق نظام الدين.

وفي هذا الجو اتجه العقيد أديب الشيشكلي وصديقه النائب أكرم الحوراني الى حزب الشعب رغم الاتفاق على استقالة وزارة السيد خالد العظم وتشكيل حكومة جديدة تكون غالبية الوزراء من حزب الشعب، فتم تشكيلها بتاريخ ٨ أيلول ١٩٥٠ على النحو التالي :

ـ الدكتور ناظم القدسي	رئيساً للوزارة والخارجية ـ من حزب الشعب
ـ الأستاذ رشاد برمدا	للداخلية ـ من حزب الشعب
ـ الأستاذ هاني السباعي	للمعارف ـ (مستقل)
ـ الأستاذ أحمد قنبر	للأشغال العامة والمطبوعات ـ من حزب الشعب
ـ فرحان الجندلي	للاقتصاد الوطني ـ من حزب الشعب
ـ علي بوظو	للزراعة ـ من حزب الشعب
ـ جورج شلهوب	للصحة ـ (مستقل)
ـ اللواء فوزي سلو	للدفاع ـ (عسكري)

نجح العقيد أديب الشيشكلي بفرض رجل عسكري يحوز على كامل ثقته في وزارة الدفاع، وتفرغ شخصياً لاعادة تنظيم القوات المسلحة، وتشديد قبضته عليها ووضع انصاره ومؤيديه في المراكز الحساسة والتخلص من بعض مناوئيه الذين أعلنوا عن مواقفهم خلال فترة الصراع مع حزب الشعب وبعد اغتيال العقيد محمد ناصر.

تحويل الجمعية التأسيسية الى مجلس نيابي وانتخاب السيد هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية :

لم يستطع حزب الشعب ادراك طبيعة الانقلابات العسكرية ، واعتقد بعضهم ان بمقدورهم اخضاع الجيش للحكومة المدنية بواسطة المناورات السياسية والتهديد باصدار القوانين التي تحد من سلطة العسكريين ، فكانوا يصرون على ان تكون وزارة الدفاع بيد أحد المدنيين وان تفصل قوات الأمن الداخلي عن وزارة الدفاع وتعاد الى وزارة الداخلية .

لذلك مرت سورية خلال مايقرب العامين بمرحلة صراع مرير بين قيادة الجيش والقوى السياسية التي استقطبها حزب الشعب بسبب أكثريته البرلمانية . . . وكان طبيعياً ان تنتصر قيادة الجيش على أساس ان مبدأ الحق للقوة ولأن السياسيين لم يستطيعوا تعبئة الرأي العام الذي لم يكن يرى في هذه المعركة مايعنيه . بل لعل جزءاً هاماً وفعالاً من الشعب كان أقرب الى تأييد الجيش والقوى السياسية المتعاونة معه لأنها بنظره قوى تقدمية ولأن الجيش حرر الشعب من احتكار فئة محدودة للسلطة ، وأنقذ النظام الجمهوري من مؤامرات القوى اليمينية وعلى رأسها حزب الشعب مع الأسرة المالكة الهاشمية ، أو بالأحرى هكذا كانت أدبيات القوى اليسارية تصور الوضع للرأي العام . هذا بالاضافة الى ان الحزب الوطني الذي كان الضحية الأساسية للانقلابات العسكرية ، مالبث ان أخذ يشن حملة على حكومة ناظم القدسي ويتهم حزب الشعب بالتآمر على استقلال البلاد لأن هذا الحزب استطاع استقطاب معظم العناصر التي كانت تؤيد الكتلة الوطنية (الحزب الوطني) . وفي السابع من شهر آب ١٩٥٠ ، خرج الرئيس السابق شكري القوتلي عن صمته لأول مرة بعد لجوئه الى مصر ، ووجه نداء للشعب السوري دعاه فيه للدفاع عن استقلاله وكان بمثابة كلمة السر بالنسبة للحزب الوطني الذي دعا الى اضراب عام في دمشق ونظم مظاهرة ضخمة في الخامس من أيلول طالب فيها حل المجلس

النيابي الحالي واجراء انتخابات جديدة. ولكن قوات الأمن قمعت هذه المظاهرة بقوة واعتقلت الدكتور فؤاد القضماني رئيس نقابة المحامين ووجهت التهمة للحزب الوطني بإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار في البلاد. ويبدو أن تحرك الرئيس شكري القوتلي في هذه المرحلة لم يرض قائد الانقلاب ولاحزب الشعب، والقوى التي تقف الى جانب كل منهما. .

في هذا الجو المحموم اقترعت الجمعية التأسيسية بتاريخ ٥ أيلول ١٩٥٠ على مشروع قانون بتحويل نفسها الى مجلس نيابي، ونال هذا المشروع غالبية أصوات الجمعية، كما انتخب السيد هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وتم ذلك بالرغم من معارضة السيد أكرم الحوراني زعيم الكتلة الاشتراكية في المجلس، ومعارضة نواب الحزب الوطني.

وهكذا عاد حزب الشعب من جديد ليكرس تفوقه في المجلس النيابي واصراره على الوقوف بوجه أديب الشيشكلي وتسلط الجيش على السياسة.

استمرار الصراع ومحاولة اغتيال أديب الشيشكلي:

ولعل نجاح الأكثرية التي يقودها حزب الشعب في تحويل الجمعية التأسيسية الى برلمان شجعها على متابعة مناوراتها السياسية لاحتواء الانقلاب وارغام العسكريين على الخضوع للسلطة الشرعية.

وفي هذه المرحلة أعلن عن مؤامرة أردنية لاغتيال العقيد أديب الشيشكلي اتهم فيها الدكتور منير العجلاني والعقيد بهيج الكلاس والشيخ محرم علي أديب وقدموا للمحاكمة ثم أخلي سبيلهم، ولازالت ظروف وحقيقة هذه المؤامرة محاطة بالغموض ويحتمل أنها مختلقة!؟.

وفي ١٢ تشرين الأول ١٩٥٠ جرت محاولة فعلية لاغتيال الشيشكلي قامت بتنفيذها جماعة أطلقت على نفسها «منظمة كتائب الفداء العربي» أسسها الطالب المصري حسين توفيق قاتل رئيس الوزراء المصري أمين عثمان

وشـاب مصـري آخـر اسـمـه توفيق عامر بالاضـافـة الى الشـاب السـوري هاني الهندي وأحد الطلاب العراقيين.

وقـد أطلقـت النـار على سـيـارة أديب الشـيشـكلي في احـدى الليالي على طريق دمشق ـ ونجا بأعجوبة بينها جرح الضابطان اللذان كانا يرافقانه جروحاً طفيفة وهما حسـين حدة وبكري الزيري.

وقد اعترف حسـين توفيق بأنه هو الذي أطلق النار على أديب الشـيشـكلي وان الـذي دفعـه لهذا العمـل هو الـدكتـور أمين رويحة، لاعتقاد هذا الأخير ان جميع الاضطرابات في سـورية سـببها الثنائي أكرم الحوراني وأديب الشـيشـكلي وان التخلص منهما سـيعود بالاستقرار والخير على سورية.

الدكتور ناظم القدسي يقدم للجامعة العربية مشروعاً للوحدة:

وفي اجتـماع مجلـس الجـامعـة العربية في القاهرة بتاريخ ٢ / شـباط ١٩٥١ قدم الـدكتـور ناظم مشـروعاً لتحقيق الوحدة بين الأقطار العربية، واقترح البدء بعقد اتفاقيات اقتصادية وعسكرية بين الأقطار المجاورة على ان تعطى الأسبقية للعراق والأردن وسورية وقوبل هذا المشروع بالارتياح في العراق ولكن المعارضة البرلمانية في سوريـة هاجمتـه بشـدة واتهمت الـدكتور القدسي بالمناورة لتنفيذ المشاريع الاستعمارية الهاشمية.

وكـان العقيـد أديب الشيشـكلي والقـوات المسلحة تؤيد المعارضة وعلى رأسـهـا السـيـد أكـرم الحـوراني، في حملتهـا على حكـومـة القدسي، مما اضطره لتقـديم الاستقـالـة، غير ان رئيـس الجمهـورية ألح عليه بالبقاء وكلفه بتشكيل وزارة جديدة، فشكل وزارة جديدة جميع أعضائها من حزب الشـعـب، ولكنها لم تعمر أكثر من اثنتي عشرة ساعة نظراً لرفض الدكتور القدسي ضم اللواء فوزي سلو لحكومته كوزير للدفاع.

ونتـج عن هذه الأزمـة قيام تكتل نيابي واسـع من الاشتراكيين والمستقلين ونـواب العشـائـر والكتلة الجمهـوريـة تدعمهم القوات المسلحة. استطاع هذا

التكتل تشكيل حكومة ائتلافية جديدة برئاسة خالد العظم والاستغناء عن حزب الشعب، وكان من بين أعضاء هذه الحكومة السادة: عبد الرحمن العظم للمالية، فوزي سلو للدفاع، عبد الباقي نظام الدين للزراعة والعدلية، سامي طيارة للصحة والمواصلات، رئيف الملقي للمعارف، سامي كبارة للداخلية.

لم يقبل السيد رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب ورئيس البرلمان هذه النتيجة فقدم استقالته من رئاسة المجلس النيابي، ورشح الدكتور القدسي والدكتور الدواليبي لهذا المنصب، ففاز الدكتور معروف الدواليبي برئاسة المجلس.

الزعيم أديب الشيشكلي يتسلم رئاسة الأركان وحسن الحكيم يشكل وزارة جديدة:

أصدرت الحكومة الجديدة مرسوماً جمهورياً بترفيع العقيد أديب الشيشكلي الى رتبة زعيم بناء على اقتراح رئيس الوزارة الجديدة وسمي رئيساً للأركان العامة للجيش والقوات المسلحة، وعين الزعيم أنور بنود، رئيس الأركان السابق ملحقاً عسكرياً في أنقرة وقيل آنذاك بأنه احتج على اقالة وزارة الدكتور ناظم القدسي بسبب علاقة القرابة التي تربطه به، وكان ابعاد الزعيم بنود خسارة كبيرة لحزب الشعب.

رد حزب الشعب على هذه العملية بحجب الثقة عن وزارة خالد العظم عند تقديمها الموازنة مما اضطرها للاستقالة.

وكلف السيد هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السيد حسن الحكيم وهو مستقل بتشكيل حكومة جديدة من حزب الشعب وبعض المستقلين وتألفت على الشكل التالي:

حسن الحكيم	للرئاسة والمالية
عبد العزيز حسن بك	للعدلية

حامد خوجا	للاشغال
رشاد برمدا	للداخلية
فتح الله أسيون	للصحة
عبد الوهاب حومد	للمعارف
فوزي سلو	للدفاع
فيضي الاتاسي	للخارجية

الزعيم أديب الشيشكلي يقوم بزيارة رسمية للمملكة العربية السعودية :

بعد تشكيل الحكومة الجديدة أُعلن فجأة عن زيارة رسمية يقوم بها الزعيم أديب الشيشكلي للمملكة العربية السعودية، وقد رافقه في هذه الزيارة الزعيم عزيز عبد الكريم، فاستقبله جلالة الملك عبد العزيز آل سعود استقبالاً ودياً ووافق على منح سورية قرضاً مالياً كدليل على تأييد المملكة للنظام الجديد الذي أظهر كفاءة عالية بالصمود في وجه مؤ امرات الأسرة الهاشمية وأفشل مشاريعها الاتحادية ومناوراتها التي تعتبرها السعودية تطويقاً لها.

الفصل الخامس

الحرب الباردة ومشروع الدفاع عن الشرق الأوسط

في الوقت الذي بلغت فيه «الحرب الباردة» ذروتها بين الكتلة الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية والكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفييتي، كانت بعض الدول العربية في المشرق منصرفة بكليتها لمواجهة الخطر الصهيوني الذي غرسه الاستعمار في قلب الوطن العربي كحاجز طبيعي بين عرب آسيا وعرب افريقيا، والبعض الآخر يخوض معركة التحرر من الاستعمار الاوروبي.

ولم تكن طبول الحرب الباردة التي يقرعها الغرب محذراً من الخطر الشيوعي، تسترعي اهتمام الرأي العام في البلدان العربية لأنها تواجه أخطاراً حقيقية ملموسة تجثم فوق ترابها تتمثل على أبشع وأخطر صورها باسرائيل وبالاحتلال العسكري الاوروبي، البريطاني في ليبيا والعراق، ودول الخليج وجنوب اليمن ومصر ـ والسودان، والفرنسي في المغرب العربي، مراكش، والجزائر، وتونس.

كانت أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية

الثانية تركز اهتمامها وأنظارها على الخطر الشيوعي الذي أصبح يسيطر على أكثر من نصف القارة الأوروبية ويهدد النصف الآخر من الداخل بواسطة الأحزاب الشيوعية التي ساهمت مساهمة فعالة بالقضاء على النازية وأصبحت تستقطب الجماهير التي كابدت الحرمان في الحرب وتعاني البطالة والبرد والجوع بسبب الدمار الذي لحق بأوربا الغربية خلال خمس سنوات من الحرب المدمرة هذا بالاضافة الى ان السوفييت أصبحوا يضعون أقدامهم في مياه البحر المتوسط الدافئة عن طريق البانيا[3]، والثورة التي يشعلها الانصار فوق الأراضي اليونانية.

ويعتبر عام ١٩٤٧ بداية لفترة طويلة من التوتر الدولي أطلق عليها اسم «الحرب الباردة» التي تحول خلالها حلفاء الأمس ضد المحور (المانيا النازية - ايطاليا - اليابان) الى أعداء الداء وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي يقفان بمواجهة بعضهما البعض على أعظم مسرح عمليات عرفه التاريخ يشمل الكرة الأرضية بكاملها.

لقد أقيمت أنظمة شيوعية في مناطق اوروبا التي احتلتها القوات السوفييتية في بولونيا، وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وهنغاريا وبلغاريا، واشتعلت الحرب الأهلية في اليونان وتقدم الجيش الشيوعي في الصين والنجاحات التي أحرزتها الأحزاب الشيوعية في فرنسا وايطاليا تقلق الولايات المتحدة الأمريكية، خوفاً من أن يصبح العالم الذي تحرر من الأنظمة الفاشية الألمانية واليابانية والايطالية عرضة للسقوط تحت السيطرة السوفييتية. لذا بادرت الولايات المتحدة الى اعلان «مبدأ ترومان»[4] الذي قدمه الرئيس هاري ترومان لمجلس النواب الأمريكي في ١٣/ آذار ١٩٤٧، وطلب على أساسه تقديم مساعدات مالية وعسكرية لكل من اليونان وتركيا اللتان تتعرضان لخطر الشيوعية وذلك لانعاش اقتصادياتها، وتعزيز امكانياتها الدفاعية.

وفي ٥ حزيران أعرب وزير خارجية الولايات المتحدة الجنرال جورج مارشال في كلمة ألقاها في «جامعة هارفارد» عن استعداد أمريكا لتقديم عون

مالي هام للمساهمة في انهاض اقتصاد البلدان الاوروبية التي ترغب بذلك ورحبت بلدان اوروبا الغربية بهذا العرض وأنشأت بتاريخ ١٦/ نيسان ١٩٤٨، منظمة أوروبية للتعاون الاقتصادي (O.E.C.E) تحولت عام ١٩٦١ الى منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (O.C.D.E) واطلق على هذا المشروع اسم «مشروع مارشال».

وفي تموز من نفس العام اجتمع في باريس ممثلو ست عشرة دولة اوروبية لتقرير قبول «مشروع مارشال». وكان رد الاتحاد السوفيتي على هذا المشروع الذي اعتبره وسيلة لوضع اوروبا تحت الوصاية الأمريكية ان أنشأ مايسمى بمكتب المعلومات (الكومنتر ن) في تشرين الأول من عام ١٩٤٨ ومهمته تأمين الاتصال والتنسيق بين الأحزاب الشيوعية الأوروبية.

أزمة برلين:

وفي شباط ١٩٤٩ قرر وزراء خارجية الدول الغربية المجتمعين في لندن انشاء دولة ألمانية تضم المناطق التي تحتلها هذه الدول.

ورد الاتحاد السوفيتي على هذه المبادرة بمنع الاتصال والتعامل بين المنطقة الألمانية التي تحتلها القوات السوفيتية، والمناطق الألمانية الأخرى التي تحتلها الدول الغربية، وفي ١/ تموز ١٩٤٨ أعلن فرض الحصار على مدينة برلين الغربية. وسارعت الولايات المتحدة الأمريكية لاقامة جسر جوي لتأمين تموين هذه المدينة والقوات الغربية الموجودة فيها، والمحافظة على اتصالها بالغرب، واستمرت هذه العملية الضخمة حتى نهاية حزيران عام ١٩٤٩، وكان من نتيجة هذا الحصار تقسيم ألمانيا الى دولتين، احداهما مرتبطة بالغرب وتسمى «ألمانيا الاتحادية» والثانية مرتبطة بالكتلة الشرقية وتسمى جمهورية ألمانيا الديمقراطية (في تشرين الأول).

وفي حزيران أدان الكومنفورم المارشال جوزيف بروزتيتو رئيس الدولة اليوغسلافية بالانحراف، مما أدى الى القطيعة بين يوغسلافيا والاتحاد السوفيت، وانسحاب يوغسلافيا من الكومنفرم.

وبانتهاء الحرب الأهلية في اليونان عام ١٩٤٩ تم عزل ألمانيا الشيوعية وأغلقت جميع المنافذ البرية باتجاه البحر المتوسط في وجه الاتحاد السوفييتي .

وفي هذه الفترة بدأت بلدان أوروبا الغربية تفتش عن السبل التي تضمن صمودها أمام خطر الهجوم السوفييتي ، وتوصلت في ١٧ / آذار ١٩٤٨ الى توقيع ميثاق بروكسل وانشاء مايسمى باتحاد اوروبا الغربية (U.E.O) الذي شمل كلاً من فرنسا وانكلترا وبلدان البنيلوكس . ومالبث أن وقعته الولايات المتحدة في ١١ / حزيران من نفس العام . وبتاريخ ٤ / نيسان ١٩٤٩ تم توقيع ميثاق الأطلسي NATO في واشنطن من قبل : بلجيكا وكندا والدانمرك والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا وايسلندا وايطاليا واللوكسمبورغ والنرويج وهولاندا والبرتغال .

وينص هذا الميثاق على اقامة حلف دفاعي يغطي مجمل شمالي الأطلسي والبلدان المحيطة به .

الاتحاد السوفييتي يفجر أول قنبلة ذرية :

وفي أيلول من عام ١٩٤٩ فجر الاتحاد السوفييتي أول قنبلة ذرية وبذلك قضى على احتكار الولايات المتحدة لهذا السلاح الرهيب ، الأمر الذي دفع أمريكا الى تقديم مزيد من المساعدات والدعم لبلدان اوروبا الغربية الموقعة على الميثاق ، وفي أيار ١٩٥٠ وقعت معاهدة حلف شمالي الأطلسي (OTAN) وأنشيء بموجبها مجلس دائم ولجنة عسكرية مختصة وقيادة موحدة يتسلمها الجنرال دوايت ايزنهاور ، ومالبثت اسبانيا ان انضمت الى هذا الحلف بموجب اتفاقية ثنائية مع أمريكا ، كما انضمت اليه كل من تركيا واليونان في عام ١٩٥٢ ، وأخيراً انضمت اليه ألمانيا الاتحادية عام ١٩٥٥ .

الأزمة الآسيوية : (١٩٤٥ - ١٩٥٠) :

جاء انتصار الثورة الصينية ليزيد في قلق الغرب لأن هذا الحدث قلب

موازين القوى في جنوب شرقي آسية والمحيط الهادي وأخل بالتوازن الدولي لصالح الكتلة الاشتراكية .

لقد استطاعت الثورة الصينية في أيلول ١٩٤٩ السيطرة على مجمل الأراضي الصينية القارية واعلان قيام «الجمهورية الصينية الشعبية» وتراجعت فلول جيش شان كان تشيك الى بعض الجزر واتخذت من تايبيه عاصمة جزيرة فورموزا مقراً لحكومة الصين الوطنية . وبادر الاتحاد السوفييتي للاعتراف بالصين الشعبية كممثل وحيد للشعب الصيني وطالبت هذه الحكومة التي شكلت برئاسة «ماوتسي تونغ» بمقعدها الدائم في الامم المتحدة ومجلس الأمن . . . وعقدت الصين الجديدة حلفاً دفاعياً مع الاتحاد السوفييتي .

وهكذا انهار توازن القوى في الشرق الأقصى نتيجة انضمام أعظم دولة آسيوية للمعسكر السوفييتي ، واصبحت الكتلتان السوفييتية والغربية وجهاً لوجه في الهند الصينية أولاً منذ عام ١٩٤٩ ، بدأت أمريكا بتقديم المساعدات العسكرية لفرنسا في فيتنام وكمبوديا ولاووس ، بينما أخذت الصين والاتحاد السوفييتي بقدمان العون لثوار الفييت ـ مين ، في الهند الصينية ، وللشيوعين في كوريا الشمالية .

الحرب الكورية :

وفي ٢٥ / حزيران ١٩٥٠ قامت قوات كوريا الشمالية باختراق خط العرض ٣٨° واجتاحت أراضي جمهورية كوريا الجنوبية الواقعة في منطقة الاحتلال الأمريكي ، ونظراً لمقاطعة الاتحاد السوفييتي للأمم المتحدة بسبب رفض هذه المنظمة قبول عضوية الصين الشعبية ، فقد تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من الحصول على قرار بادانة العدوان الكوري وتفويض من مجلس الأمن بطرد قوات كوريا الشمالية .

وسارعت أمريكا استناداً لهذا القرار الى تشكيل حملة عسكرية ضخمة

تحت علم الأمم المتحدة ساهمت فيها بعض الدول الغربية، وأسندت قيادتها للجنرال ماك آرثر.

وفي ليلة ٢٥ ـ ٢٦ / تشرين الأول ١٩٥٠ زجت الصين الشعبية بحوالي ٣٠٠ ألف جندي وأنزلت الهزيمة بقوات ماك آرثر وأجبرت قوات الأمم المتحدة على التراجع واخلاء كوريا الشمالية في ٢٤ / كانون أول. وهكذا بات من الواضح ان الولايات المتحدة أصبحت على أبواب أول هزيمة في تاريخها منذ الاستقلال مما اضطرها لتوقيع هدنة مع كوريا الشمالية.

وفي ٢٧ / تموز ١٩٥٣ أي بعد عامين من الحرب الدامية التي كلفت أمريكا مليارات من الدولارات وراح ضحيتها الآلاف من الشباب الأمريكيين من الموافقة على انهاء الحرب وأصبحت وحدة كوريا منذ ذلك الوقت مرتبطة بالصراع بين الكتلتين الأمريكية والسوفييتية.

أدركت أمريكا بعد حرب كوريا ضرورة اشراك اليابان بالدفاع عن المنطقة فوقعت معها معاهدة سلام لانهاء حالة الحرب في ٧/ أيلول ١٩٥١. وفي ٨/ أيلول عقد بين البلدين اتفاق آخر أوكل فيه الدفاع عن اليابان للقوات الأمريكية وسمح لليابان بتشكيل قوة احتياطية من البوليس تعدادها ٧٥ ألف رجل وبذلك دخلت اليابان بإرادتها الكاملة في المعسكر الغربي وأصبحت القلعة الرئيسية للغرب في المحيط الهادي وجنوب شرق آسيا.

وفي الأول من أيلول ١٩٥١ وقعت الولايات المتحدة الأمريكية ميثاقاً للأمن العسكري مع كل من استراليا ونيوزيلاندا سمي (بميثاق الانزوس ANSOS) تعهدت فيه هذه الدول بتنمية وسائلها الدفاعية.

الحرب الباردة في ايران وأزمة البترول:

بتاريخ ٧/ آذار اغتيل رئيس وزراء ايران الجنرال علي رازمارا من قبل أحد المتطرفين.

وفي ١٥/ نيسان قامت مظاهرات عنيفة في عبدان المركز الرئيسي لانتاج

البترول، وفي نفس اليوم قرر البرلمان الايراني بالاجماع تأميم البترول في ايران وبتاريخ ١٦/ نيسان حصلت يوغسلافيا على مساعدات عسكرية من الولايات المتحدة بمقدار ٢٩ مليون دولار..

وبتاريخ ٢٨ من نفس الشهر انتخب الدكتور محمد مصدق رئيساً للوزراء في ايران وفي ٢٠ حزيران أكدت حكومة مصدق أول تدابيرها للاستيلاء على منشآت شركة النفط، فاصدرت مرسوماً يقضي باعدام كل عنصر يحاول تخريب ضخ النفط، مما أثار الرعب والسخط في بريطانيا فأرسلت طراداً حربياً الى ميناء عبدان كمظاهرة بالقوة وكلف الرئيس ترومان السيد افريل هاريهان باجراء الوساطة بين حكومتي ايران والمملكة المتحدة.

وفي ٢٠/ تموز ١٩٥١ أطلق أحد الفدائيين الفلسطينيين النار على الملك عبد الله ملك الأردن وهو يصلي في المسجد الأقصى بالقدس فأرداه قتيلاً بحجة انه كان يسعى للوصول الى صلح مع اسرائيل(*).

وفي ٣١/ تموز أوقفت مصفاة البترول في عبدان.

وفي ١٣/ آب عدلت اتفاقية البترول بين العراق وشركة البترول البريطانية (I.P.C) وارتفع نصيب العراق من أرباح البترول بنسبة ٥٠٪.

وفي ٥ أيلول قرر مصدق طرد الفنيين البريطانيين.

مشكلة الدفاع عن الشرق الأوسط وموقف سورية منها:

في كانون الثاني ١٩٥٠ أذاع الحزب الاشتراكي العربي بزعامة السيد أكرم الحوراني برنامجه السياسي دعا فيه الى انتهاج سورية سياسة حرة من أي تأثير خارجي.

وفي آذار من نفس العام أعلنت الجبهة الاشتراكية الاسلامية بلسان زعيمها النائب مصطفى السباعي بياناً جاء فيه مايلي: «إن علينا التوجه الى المعسكر الاشتراكي اذا لم تنفعنا البلدان الديمقراطية الغربية».

وفي الخامس والعشرين من أيار ١٩٥٠ أي قبل انفجار الحرب الكورية بشهر تقريباً أصدرت فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بيانها الثلاثي المعروف، الذي التزمت فيه بحفظ السلام وضمان حدود دول الشرق الأوسط ومعارضتها المطلقة لاستخدام القوة أو التهديد بها. . . وقد قبلت جميع الدول المجاورة لفلسطين بما في ذلك العراق بهذا البيان.

وفي حزيران عام ١٩٥٠ أعلن الرئيس هاري ترومان في رسالة للشعب الأمريكي بعد انتخابه للدورة الثانية: انه قرر تقديم المساعدات الاقتصادية والمالية والتقنية للبلدان النامية، وقد أطلق على هذا الموضوع اسم «النقطة الرابعة» لأنه كان يشكل الفقرة الرابعة من الخطاب وقد رفضتها الحكومة السورية[٦].

وفي أوائل عام ١٩٥١ عقد قادة حلف الأطلسي سلسلة اجتماعات في جزيرة مالطة للتداول في أمر منطقة شرقي البحر المتوسط، وقام على الاثر الجنرال البريطاني السير بريان روبرتسون قائد القوات البرية البريطانية في الشرق الأوسط، بجولة في العواصم العربية، وعقد سفراء فرنسا والولايات المتحدة في الشرق الأوسط اجتماعات موازية وأصدر مساعد وزير الخارجية الأمريكية «ماك غي» بياناً نوه بالتقدم الكبير الذي أحرزته كل من تركيا واليونان وايران في المجال الدفاعي، وأعرب عن أمله بأن تزداد دول أخرى في المنطقة وعياً وتدرك ضرورة مساهمتها الخاصة في أمن المنطقة.

وفي الأسابيع التي سبقت زيارة الجنرال بريان روبرتسون لدمشق في السابق من شباط ١٩٥١. دعا كل من حزب البعث العربي، والحزب العربي الاشتراكي والجبهة الاشتراكية الاسلامية الى سياسة حياد صارم تجاه المعسكرين العالميين ثم قامت مظاهرات في معظم المدن السورية احتجاجاً على زيارة الجنرال روبرتسون[٧].

ولكن الزيارة تمت كما كان متوقعاً لها، وصدر على أثرها بيان رسمي من الحكومة السورية يقول مامعناه: «إن أحداً من الطرفين لم يحاول أن يحصل أو يعطي أي تعهد» وقيل آنذاك ان الجنرال طلب استعمال الطرق والسكك الحديدية والمرافىء السورية في حالة حدوث عدوان، وان بريطانيا بحاجة الى

سورية كهمزة وصل برية بين القوات البريطانية المرابطة في قنال السويس والمراكز الأمامية في العراق المحاذية للاتحاد السوفيتي . . . وقد رفضت الحكومة السورية طلب الجنرال معتبرة ان السماح بنقل القوات البريطانية من السويس الى العراق ستعني فتح الحدود للتعاون مع اسرائيل . . .

والحقيقة ان الغالبية العظمى من الشعب السوري لم تكن لترضى عن التعاون مع الدول الغربية الاستعمارية وخاصة بريطانية لأنه يحملها مسؤولية ضياع فلسطين بالاضافة الى كونها البلد المستعمر الذي لاتزال قواته تدنس التراب العربي في اقطار عديدة . . وقد عبر عن هذا الرأي طلاب الجامعة السورية الذين قدموا مذكرة لرئيس الجمهورية السورية في ١٣ / آذار ١٩٥١ قالوا فيها : «إن الشعب السوري لايرغب في القتال الى جانب سفاحيه» .

عرض مشروع قيادة الشرق الأوسط رسمياً على الحكومة السورية :

وبتاريخ ١٣ / تشرين الأول ١٩٥١ قدم الممثلون الدبلوماسيون لأمريكا وبريطانيا وفرنسا وتركيا مذكرات رسمية من حكوماتهم الى وزارة الخارجية السورية يقترحون فيها انشاء قيادة للشرق الأوسط ، وطلبوا الحصول على جواب سريع وحاسم من الحكومة السورية ، ولكنهم تلقوا جواباً من وزارة الخارجية بالتريث ريثما تدرس الحكومة هذا الموضوع . ودعي المجلس النيابي في ٢٣ تشرين الأول للبحث في مشروع الدفاع الذي قدمته الدول الغربية وجرت مناقشات حادة ، ألقى على أثرها السيد فيضي الأتاسي وزير الخارجية آنذاك كلمة ظهر بنتيجة النقاش انه لم يستشر بها مسبقاً رئيس الوزراء . وقد حمّل السيد فيضي الأتاسي على «مشروع قيادة الشرق الأوسط الذي يستهدف عدواً لم يقترف سوءاً بحق العرب ! ! . وان الدول الغربية كلها تناصب العرب العداء ، في قضيتين هامتين هما : قضية فلسطين ، والقضية المصرية[1] . . . وناشد الدول العربية البقاء على الحياد في النزاع العالمي بين الكتلتين الغربية والشرقية . . » .

وفي هذا الجو الحماسي نهض رئيس الوزراء السيد حسن الحكيم

(المعروف بميوله للغرب) وألقى كلمة مناقضة لبيان وزير الخارجية السيد فيضي الأتاسي واقترح فيها الموافقة على مشروع قيادة الشرق الأوسط وكان من نتيجة هذه التناقضات بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وحملة المعارضة العنيفة على المشروع ورئيس الحكومة . . . نشوب أزمة وزارية حادة سقطت على أثرها حكومة حسن الحكيم.

مظاهرة ضخمة تشترك فيها جميع الأحزاب لاستنكار السياسة البريطانية في مصر:

دعا السادة رشدي الكيخيا رئيس حزب الشعب وأكرم الحوراني رئيس الحزب العربي الاشتراكي وصلاح البيطار الأمين المساعد لحزب البعث العربي والاستاذ مصطفى السباعي رئيس الاخوان المسلمين، جميع الأحزاب السياسية والهيئات والمنظمات الشعبية في سورية للقيام بمظاهرة احتجاجاً على السياسة الاستعمارية البريطانية في مصر، وادانة مشروع قيادة الشرق الأوسط . . . وسارت هذه المظاهرة في شوارع دمشق، وكان في مقدمتها جميع الزعماء السياسيين ومن بينهم السادة:

رشدي الكيخيا ـ ناظم القدسي ـ أكرم الحوراني ـ صلاح البيطار ـ معروف الدواليبي ـ عصام المحايري ـ مصطفى السباعي . وكان ذلك تكريساً للوحدة الوطنية تجاه المخططات الغربية، ودليلاً على ان جميع الأحزاب في سورية كانت صفاً واحداً للدفاع عن حرية واستقلال سورية.

وكان الحزب الوحيد الذي لم يشترك في هذه المظاهرة هو الحزب الوطني.

الأزمة الوزارية وتشكيل حكومة جديدة برئاسة الدكتور معروف الدواليبي ضد ارادة الجيش:

لم يستطع هذا الاستعراض الكبير، حتى ولا حملة السيد فيضي الأتاسي

على مشروع قيادة الشرق الأوسط ان يخفيا الصراع الرهيب الصامت بين حزب الشعب من جهة وبين المعارضة البرلمانية وعلى رأسها السيد أكرم الحوراني والكتلة الجمهورية، والجيش بقيادة الزعيم أديب الشيشكلي من جهة ثانية.

فقد طالب حزب الشعب المشتركين في حكومة السيد حسن الحكيم تأييد اقتراح السيد رشدي الكيخيا بإعادة جهاز الشرطة الى وزارة الداخلية وإسناد وزارة الدفاع الوطني لرجل مدني. وبذلك انقسمت وزارة حسن الحكيم الى قسمين أحدهما وزراء الكتلة الجمهورية والزعيم فوزي سلو وهم يرفضون اقتراح السيد رشدي الكيخيا، والآخر وهو يشكل الأقلية ويتألف من وزراء حزب الشعب مما اضطر السيد حسن الحكيم لتقديم استقالة الوزارة.

وعلى الأثر استدعى رئيس الجمهورية السيد رشدي الكيخيا بصفته زعيم الأكثرية البرلمانية وطلب اليه تشكيل الوزارة وتعهدت جميع الأحزاب بمساندته ولكنه رفض ذلك. واستشير الدكتور ناظم القدسي فرفض أيضاً... لإصرار قيادة الجيش على عدم الموافقة على المسائل المتعلقة بالشرطة ووزارة الدفاع.

وأخيراً كلف الدكتور معروف الدواليبي بهذه المهمة ولكنه أخفق وحاول كل من السادة زكي الخطيب، وسعيد حيدر تشكيل الوزارة ولكنهما أخفقا أيضاً. واستدعي السيد عبد الباقي نظام فخذله حزب الشعب وكلف السيد حامد الخوجا ففشل لنفس الأسباب.

وكانت هذه الفترة هي ذروة الحملة التي شنها حزب الشعب للسيطرة على المجلس النيابي وتحطيم زعامة أديب الشيشكلي ومؤيديه وعلى رأسهم السيد أكرم الحوراني بالذات... ووصل بهم التحدي الى درجة قرروا معها تشكيل الحكومة بصرف النظر عن موقف قيادة الجيش منها.

وأخيراً وفي صباح يوم ٢٨ تشرين الثاني ١٩٥١ تم اختيار الدكتور معروف الدواليبي لهذه المهمة العصيبة وكان كما يبدو أكثر استعداداً من غيره لخوض المعركة حتى النهاية مع أديب الشيشكلي معتمداً على بعض العسكريين المؤيدين له ومن بينهم شقيقه الرئيس مصطفى الدواليبي.

وتألفت الحكومة الجديدة وعلى الشكل التالي وأعطيت المراكز الأساسية فيها لحزب الشعب:

الدكتور معروف الدواليبي	رئيساً للوزارة ووزيراً للدفاع (حزب الشعب)
السيد شاكر العاص	للخارجية (حزب الشعب)
السيد علي بوظو	للاقتصاد (حزب الشعب)
السيد هاني السباعي	للمعارف (مستقل)
السيد محمد الشواف	للصحة (حزب الشعب)
السيد أحمد قنبر	للداخلية (حزب الشعب)
السيد محمد المبارك	للزراعة (من الكتلة الاسلامية)
د. منير العجلاني	للعدلية (مستقل)
السيد جورج شاهين	للاشغال (مستقل)

دهشت المعارضة والزعيم أديب الشيشكلي لمصادقة السيد الرئيس هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية على تشكيل الوزارة بهذا الشكل وتوقيعه المراسم الخاصة بذلك. ولم تفلح تهديدات الشيشكلي بثني رئيس الدولة والدكتور الدواليبي عن المضي في التحدي... وقيل في ذلك الوقت ان السيد عدنان الأتاسي نجل رئيس الجمهورية وهو عضو في حزب الشعب كان مسؤولاً عن توريط والده الذي عرف بحكمته وطول أناته وتحاشيه الدخول بالصراعات العنيفة..

الفصل الخامس

الزعيم أديب الشيشكلي يقوم بانقلابه العسكري الثاني (أي الانقلاب الرابع في سورية) ويتسلم السلطة

غادر الزعيم أديب الشيشكلي مقر الرئاسة بعد حوار عنيف مع رئيس الجمهورية والدكتور معروف الدواليبي ، وأصبح واضحاً لديه ان الأمور وصلت الى الحد الذي لم يبق له أي مجال للخيار ، فإما الخضوع والاستقالة ، وإما الرفض وبالتالي استلام السلطة . . . وكان من الطبيعي ان يختار الحل الثاني خاصة وقد أصبح على ثقة من تأييد الغالبية العظمى من ضباط الجيش له بالاضافة الى تأييد المعارضة البرلمانية وعلى رأسها السيد أكرم الحوراني والسيد خالد العظم زعيم الكتلة الديمقراطية وجماهير الفلاحين والعمال والمثقفين في سورية ، وعدم رضاء سكان العاصمة دمشق عن سياسة حزب الشعب التي تتسم بالاقليمية والعداء الشديد للكتلة الوطنية والرئيس السابق شكري القوتلي الذي يحظى بتأييد دمشق المطلق تقريباً .

وفي مساء ١٩٥١/١١/٢٨ عقد الزعيم الشيشكلي اجتماعاً لبعض كبار الضباط واتصل بمعظم قادة الوحدات في منطقة دمشق والجبهة وبقية المواقع فوجد منها التأييد الكامل لموقفه، وفي صباح ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١ أوعز لبعض الوحدات باحتلال المراكز الحيوية في العاصمة، وقامت الشرطة العسكرية باعتقال زعيم حزب الشعب السيد رشدي الكيخيا والدكتور ناظم القدسي، والدكتور معروف الدواليبي وأعضاء حكومته وبعض النواب الأخرين.

وأذاع أديب الشيشكلي بياناً على الشعب يعلن فيه استلامه للسلطة هذا نصه:

بلاغ رقم - ١ -

تحيط رئاسة الأركان العامة الشعب السوري الكريم علماً بأن الجيش قد استلم زعامة الأمن في البلاد، وترجو ان يخلد الجميع الى الهدوء والسكينة وتسهيل مهمة الجيش ومتابعة أعمالهم دون قلق أو اضطراب. كما تنذر من تسول له نفسه الاخلال بالأمن بأشد الاجراءات.

دمشق في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١

رئيس الأركان العامة

العقيد أديب الشيشكلي

وتلا ذلك اصدار بيانات أخرى توضح أسباب الانقلاب.

موقف البلدان العربية من انقلاب الشيشكلي :

حمل الزعيم أديب الشيشكلي في بياناته على حزب الشعب وتآمره مع النظام الملكي في العراق ضد استقلال سورية ومحاولاته اضعاف الجيش لتنفيذ المخططات الأجنبية .

أما الرئيس هاشم الأتاسي فقد استقال بناء على نصيحة السيد فيضي الأتاسي وغادر دمشق الى مدينة حمص .

أرسلت الحكومة العراقية احتجاجاً شديد اللهجة الى الحكومة السورية مستنكرة الخطوات التي أقدم عليها الشيشكلي ، كما طلبت من بقية الدول العربية مقاطعته ووضع حد لتسلطه على سياسة سورية ، واطلاق سراح المعتقلين لأنهم يمثلون السلطة الشرعية .

وشنت جميع الأحزاب في العراق حملة على الشيشكلي واتهمته بالدكتاتورية وطلبت من رئيس الوزراء نوري باشا السعيد أن يأمر الجيش العراقي بالتدخل لانقاذ سورية .

أما مصر والمملكة العربية السعودية فقد بادرتا لتأييد الانقلاب ، كما أرسل الملك طلال ملك الأردن رسالة عاجلة للزعيم أديب الشيشكلي يعلن فيها ان الحركة عمل داخلي يخص الشعب السوري وحده ولادخل للأردن فيه .

وكلف قائد الانقلاب كلاً من العقيدين شوكت شقير وسعيد حبي بالقيام بجولة في البلدان العربية لشرح أسباب الانقلاب والاعراب عن رغبة الشيشكلي بالمحافظة على علاقات ودية مع جميع هذه الأقطار بما في ذلك العراق .

ومالبثت ان سارعت جميع الدول العربية والأجنبية للاعتراف بالنظام الجديد واستتب الحكم لأديب الشيشكلي . وخسر حزب الشعب مراهنته على الدعم العراقي والمناداة بالشرعية .

تعيين اللواء فوزي سلو رئيساً للدولة :

بعد استقالة رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي اقترح مجلس العقداء تعيين الزعيم أديب الشيشكلي رئيساً للدولة ورئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للدفاع ورئيساً للأركان العامة ولكنه أصر على البقاء كرئيس للأركان العامة فقط وكلف اللواء فوزي سلو برئاسة الدولة ووزارة الدفاع . وصرح بأنه لايرغب بالزعامة ولكنه يريد تكريس جهوده لخدمة المصلحة العامة وحماية النظام الجمهوري من الأخطار الداخلية والخارجية . .

وصدرت بعد ذلك المراسيم بحل المجلس النيابي ، والاعداد لاجراء انتخابات جديدة في ظل دستور جديد ، وكلف الأمناء العامون بالوزارات بإدارة شؤون وزاراتهم بإشراف رئيس الدولة .

وعلى أثر هذه الاجراءات تظاهر الطلاب من الاخوان المسلمين وحزب الشعب داخل حرم الجامعة السورية بدمشق بحجة إظهار تعاطفهم مع مصر ولكن قوات الأمن فرقتهم بحزم لأنهم أخذوا يهتفون «يسقط الاستبداد» .

أديب الشيشكلي :

كان أديب الشيشكلي من الضباط الوطنين الذين تمردوا على الفرنسيين عام ١٩٤٥ وانضموا الى القوى الوطنية وهو من أسرة عريقة في مدينة حماة ، التي اشتهرت بنضالها الوطني ضد الاحتلال الفرنسي ، وبعروبتها الأصيلة ، وكانت مهد الحركة العمالية والفلاحية في سورية ، منها تفجر النضال الشعبي ضد الاقطاع ، ولعبت دوراً أساسياً في بلورة الاتجاه العربي الاشتراكي وفي مقاومة المخططات الاستعمارية بعد الاستقلال .

استغل الشيشكلي صداقته مع السيد أكرم الحوراني ولكونهما من أبناء

مدينة حماة فساعده ذلك على تخطي مرحلة الصراع مع القوى السياسية والسلطة التشريعية وحزب الشعب بشكل خاص.

وقد اتصف الشيشكلي بالطموح والذكاء والبراعة بالمناورة . . والمهارة باستمالة الضباط الشباب، فقد كان يقضي معظم لياليه منذ الانقلاب الأول في نادي الضباط يحتسي العرق ويتناول طعامه مع العشرات منهم، ينشدون الأناشيد الوطنية الحماسية ويتناقشون بالأمور السياسية ويستعرضون أسماء السياسيين وميولهم ويتحدثون عن دور سورية العربي وتاريخها المجيد، وضرورة تحسين أحوال الفلاحين وسكان الريف بشكل خاص، الأمر الذي سهل عليه استقطاب ضباط الريف وأبناء المدن الصغرى، على الرغم من انه لم يكن يعرض لهم برنامجاً معيناً أو منهجاً اجتماعياً واضحاً. والحقيقة أنه لم يكن لدى هؤلاء الضباط فكرة واضحة عن أساليب الحكم أو أي نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي معين، كان يضرب على أوتار الوطنية والمحافظة على استقلال سورية ونظامها الجمهوري من المطامع الأجنبية والهاشمية وتخليص البلاد من الطبقة التقليدية التي ورثت السلطة عن الانتداب وأصبحت تتصرف وكأنها الممثل الوحيد للشرعية.

لقد أدرك حسني الزعيم في وقت مبكر خطورة الشيشكلي وطموحه فأصدر قراراً بتسريحه، وعندما وقع انقلاب سامي الحناوي أعيد الى الجيش بعد ان اكتسب شعبية نسبية لمساهمته في جيش الانقاذ كما استقطب عطف الكثيرين من الضباط باعتباره ضد الطاغية المجنون حسني الزعيم. وعندما أصبح نائباً لرئيس الأركان بعد انقلابه الأول ونصفيته للواء الحناوي اعتمد أساساً على الضباط الشباب وبدأ بتسليمهم مسؤوليات كبيرة تتعدى رتبهم مما أغاظ معظم الضباط القادة، وخاصة ماكان يطلق عليه اسم «كتلة العقداء».

وقد أكسبته الفترة الأول من انقلابه بين ١٩ كانون الأول ١٩٥٠ و٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١ الخبرة التي كان يحتاجها للتعرف على شؤون الدولة والاعتياد على مناورات السياسيين، كما مكنته من تنظيم القوات المسلحة بشكل يضمن له الولاء اللازم والكافي للسيطرة على السلطة.

وفي المرحلة الثانية عين بعض الضباط الشباب المعروفين بنزاهتهم وشجاعتهم ووطنيتهم في ادارات الأركان وقيادات الوحدات المدرعة والشرطة العسكرية، فاكتسب بذلك سمعة تقدمية اصلاحية ولكنها غامضة.

والواقع ان الشيشكلي كان متحالفاً بانقلابه مع زعيم الحزب الاشتراكي السيد أكرم الحوراني، المعروف بطموحه وحنكته وكان الحوراني يرمي من وراء تحالفه هذا الى استلام السلطة السياسية وحصر صلاحيات الشيشكلي بالقوات المسلحة أو الاستفادة منه لمرحلة معينة ريثما يتمكن حزبه من الاستيلاء الكامل على السلطة.

وأعتقد ان أديب الشيشكلي لم يكن يجهل أهداف الحوراني، فأخذ يراوغ لكسب الوقت لتدعيم سلطته ويستغل شعبية حليفه في أوساط الفلاحين والعمال والمثقفين وبشكل خاص في منطقة حماة بالذات. . . وخيل للبعض ان الحزب الاشتراكي العربي، إنما هو في الحقيقة حزب الجيش، وأذكر أن بعض الشباب كانون ينتسبون لهذا الحزب لاعتقادهم بأنه القاعدة الشعبية للشيشكلي.

ومرت فترة أخذ أديب الشيشكلي يركز فيها مفاتيح السلطة بيد العناصر الشابة، بل لقد حاول في البداية انشاء تنظيم سري بين ضباط الجيش يرتبط به شخصياً كما حاول في المرحلة التالية ان يقيم تنظيماً مدنياً موازياً ينافس به الأحزاب السياسية أطلق عليها اسم «حركة التحرير»، وضمت نواة التنظيم العسكرية عدداً من الضباط ومن بينهم:

حسين حدة، وعبد الحق شحادة، وأمين النفوري، حسن حدة، وعبد الحميد السراج، وأحمد عبد الكريم، جاسم علوان، أحمد حنيدي، أحمد المصري، عبد الله جسومة، حسن القاضي، وعبد الغني قنوت، مصطفى حمدون، طعمة العودة الله، ابراهيم فرهود، بكري الزبري، أسعد عمير، راشد قطيني، أحمد حمدان، عبد الغني عياش، وعبد الملك عثمان، ياسين الفرجاني، توفيق الأسود، وعدد لا أذكرهم. . ونظراً لوجود عدد من الضباط المعروفين بصلاتهم مع السيد أكرم الحوراني، فقد كان الانطباع آنذاك ان هناك

تحالفاً استراتيجياً بين الحوراني والشيشكلي، ووضع هؤلاء مشروعاً غامضاً بمثابة دستور لهذه الجمعية العسكرية السرية، يتلخص بما يلي:

١ - يجب أن تبقى سورية جمهورية عربية اشتراكية.

٢ - تطهير ادارات الدولة من العناصر الفاسدة ويعاد تنظيم أجهزة الدولة واقتصادها على أسس حديثة تتلاءم مع العصر وتضمن تجاوبها لحاجات التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

٣ - إعادة تنظيم وتسليح القوات المسلحة لتصبح قادرة على مواجهة التحدي الاسرائيلي وتطهير هذه القوات من العناصر الرجعية والشعوبية واصطفاء الضباط وضباط الصف والجنود المتطوعين على أساس ايمانهم بالعروبة والاشتراكية.

٤ - هدف سورية الأول تحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية وتحرير الوطن العربي من النفوذ الأجنبي.

الانقسام الخطير في القوات المسلحة نتيجة خلاف الشيشكلي والحوراني:

في فترة التفاهم بين الشيشكلي والحوراني سيطر على القوات المسلحة جو من الانسجام والاستقرار الظاهر، وبدأ الضباط الشباب الذين لعبوا أدواراً أساسية في تنفيذ الانقلابات السابقة دون ان يظهروا على المسرح، بدأوا يقومون بدور فعال في قيادة الجيش، وحاولوا في حدود ضيقة جداً التأثير على سياسة الشيشكلي الداخلية، والخارجية، ولكن ذلك لم يقترن بأي نتيجة عملية، وخيل اليهم ان باستطاعتهم استغلال أديب الشيشكلي وتحويل انقلابه العسكري الى «ثورة اجتماعية وسياسية واقتصادية». . ولعل سذاجتهم وضيق افقهم وضعف ثقافتهم وجهلهم بتجارب الشعوب الأخرى، قادهم الى الانزلاق في دوامة الانقلابات العسكرية، وتوهموا بأنها يمكن ان تؤدي الى اخراج البلاد من التخلف ووضعها على درب التقدم الاجتماعي والاقتصادي. . . ولم يعوا هذه الخطيئة إلا بعد ان استيقظت في نفوس معظمهم

شهوة السلطة فسقطوا، وتكرست قواعد الدكتاتورية في البلاد الى الحد الذي لم يعد باستطاعة الآخرين احتواءها وإعادة سورية الى الديمقراطية المتفتحة . .

سارت الأمور طوال عام ١٩٥٢ تقريباً بشكل يدعو للتفاؤ ل وخيم على البلاد نوع من الهدوء والاستقرار والرخاء الاقتصادي ، وصدرت بعض القوانين التنظيمية التي توحي بأن هناك نوايا صادقة لتحويل سورية الى دولة حديثة منفتحة على العصر الذي تعيش فيه .

وفجأة بدأ الزعيم أديب الشيشكلي اهمال التنظيم العسكري وأخذ يتملص من دعوته للاجتماع به ، وظهرت كثير من الدلائل التي تشير الى طموحه لتأليف حزب خاص به ، مما أدى أولاً لاختلافه مع السيد أكرم الحوراني ، وانعكس ذلك بالطبع على حركة الضباط ، لأن بعضهم من الحزبيين الموالين للحوراني ثانياً والغالبية لاتميل الى انشاء تنظيم من الانتهازيين ولاتحبذ حل الأحزاب القائمة .

وبعد فترة وجيزة انقسمت الحركة الى قسمين : قسم موالي للحزب الاشتراكي العربي ، ومن بينهم السادة مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت وعبد الغني عياش وآخرين ، وقسم آخر يرفض الحزبية داخل القوات المسلحة . . . وكان من بين عناصر هذه الكتلة أمين النفوري وأحمد عبد الكريم وطعمة العودة الله وجاد وعز الدين وأحمد حنيدي وحسين حدة وابراهيم فرهود وبكري الزيري وعبد الله جسومة وراشد قطيني وغالب شقفة ، وكان عبد الحميد السراج أميل لهذه الكتلة ويسعى بنفس الوقت لاكتساب ود الطرفين دون الالتزام بموقف صريح .

وظهر بعد ذلك ان الضباط الحزبيين يسير ون على مخطط يرسم لهم من خارج الجيش ، ويكتمون ذلك عن بقية رفاقهم . . .

وازداد الصراع بين الحوراني والشيشكلي وخاصة عندما أعلن الأخير عزمه على تأسيس «حركة التحرير» وتقييد حرية الأحزاب الأخرى أو حلها وتعديل الدستور لجعله رئاسياً واجراء انتخابات تشريعية على أساس الدستور الجديد والتمهيد لاستلامه رئاسة الجمهورية .

اتسعت هوة الخلاف بين الشيشكلي والحوراني في نهاية عام ١٩٥٢ وأوائل عام ١٩٥٣ وازداد في هذه الفترة التقارب بين الحزب الاشتراكي العربي، وحزب البعث العربي، وبدأت بعض العناصر من الطرفين تبذل الكثير من الجهود الجدية لتوحيدهما وأصبح الحزبان يناضلان لاسقاط الشيشكلي بالتعاون مع جميع القوى والأحزاب السياسية الأخرى في سورية.

وفي هذه الفترة أخذ يبرز الى الساحة في القوات المسلحة وفي الأوساط السياسية اسم أحد الضباط اللامعين وهو «المقدم الركن عدنان المالكي» . . . وكان هذا الضابط، يتمتع بسمعة وطنية ومسلكية عالية في الجيش، كما عرف عنه دوره الوطني أثناء النضال ضد الفرنسيين وبسالته في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . . . هذا بالاضافة الى انه من أسرة دمشقية عريقة ومعروفة مما جعله يستقطب معظم الضباط الدمشقيين وعدداً كبيراً من الضباط المستقلين والبعثيين وضمنت له صداقته وعلاقاته مع السيد أكرم الحوراني وحزب البعث العربي التفاف الضباط الحزبيين حوله وأصبح أديب الشيشكلي ينظر اليه على انه أخطر المنافسين في الجيش لزعامته.

توحيد حزب البعث العربي والحزب الاشتراكي العربي:

في هذه الفترة كما قلنا تحول التعاون بين حزب البعث بزعامة الاستاذين ميشيل عفلق وصلاح البيطار من جهة وبين الحزب العربي الاشتراكي بزعامة أكرم الحوراني، الى اندماج الحزبين في حزب جديد أطلق عليه اسم «حزب البعث العربي الاشتراكي» ولعل في هذه التسمية مايدل على المكانة التي تبوأها أكرم الحوراني فيه، خاصة لما يتحلى به هذا الرجل من قوة الشخصية والحيوية والمهارة بالمناورة والميل للمغامرة مما جعله مضرباً للمثل.

اعطيت الأمانة العامة للحزب الموحد للاستاذ السيد ميشيل عفلق ولكن الحوراني أصبح الممثل والقائد الفعلي لهذا التنظيم الفني الذي يضم نخبة من بين ألمع شباب الجيل الذي نشأ في فترة نهاية الانتداب وبداية عهد الاستقلال.

ولما كان النضال ضد دكتاتورية أديب الشيشكلي بمثابة الأرضية التي جمعت بين الحزبين فقد تركز محور الحزب الجديد في هذه المرحلة على هدف إسقاط نظام الشيشكلي بكل الوسائل.

وكان رد الشيشكلي على هذا التكتل الخطير اعلان تشكيل «حركة التحرير» رسمياً وتوجيه الدعوة لجميع المواطنين للانتماء اليها شريطة عدم ولائهم لأي حزب من الأحزاب، وكان يرمي الى تحويل هذه الحركة الى غطاء يخفي وراءه «حكمه الدكتاتوري المطلق».

إتهام حزب البعث بمحاولة القيام بانقلاب عسكري بقيادة المقدم عدنان المالكي:

بتاريخ ٢٤/ كانون الأول ١٩٥٢، دعا الزعيم أديب الشيشكلي عدداً من ضباط الأركان وبعض الوحدات للاجتماع في منزله. وخلال الاجتماع، أكد الشيشكلي ان المعلومات التي لديه تدل على ان حزب البعث قرر القيام بانقلاب ضده بقيادة المقدم عدنان المالكي والرئيسين عبد الغني قنوت ومصطفى حمدون وبعض الضباط المعروفين بعلاقاتهم مع السيد أكرم الحوراني وحزب البعث، ولذلك يرى ضرورة استباق الحوادث واتخاذ اجراء وقائي واعتقال قادة الحزب والضباط المشتبه بعلاقاتهم مع هذا الحزب، بالاضافة الى اعتقال سياسيين آخرين لهم صلة بحزب الشعب. وبعد نقاش حاد تقرر بالأكثرية اجراء هذه الاعتقالات الاحتياطية وقام عدد من الضباط بتنفيذها في منتصف الليل وكنت من الضباط الذين نفذوا الاعتقالات في معسكرات القابون وتمت العملية خلال ساعات قليلة ولم تقع أية حادثة كما لم يبد المعتقلون أية مقاومة وقيل آنذاك ان السبب هو المفاجأة الكاملة، وأكد الضباط المعتقلون انه لم يكن هناك أية خطة عملية للقيام بالانقلاب، وان هدف الشيشكلي الانفراد بالسلطة وجر البلاد الى المخططات الأجنبية.

وعندما عقد الاجتماع في ساعات مبكرة من صباح اليوم التالي، بعد تنفيذ

العملية، كان الجو شديد التوتر، وبدا على الشيشكلي الكثير من القلق والخوف الذي لم نلاحظه عليه في طوال السنوات السابقة، وجرت في هذه المناسبة مناقشات حادة بين الضباط المجتمعين وكان من بينهم: المقدم ابراهيم الحسيني، والمقدم أمين النفوري والرئيس حسين حدة والرئيس عبد الحق شحادة، والرئيس أحمد عبد الكريم والرئيس طعمة العودة الله والرئيس بكري الزيري والرئيس أحمد حنيدي.

واختلفت الآراء حول ضرورة هذه العملية الوقائية وصحتها... وأصر أديب الشيشكلي على موقفه السابق بضرورة هذه التدابير لأن أكرم الحوراني ينوي فتح معركة تسيل فيها الدماء الغزيرة...

وقد عارضت شخصياً هذا الاجراء لأن عملية الاعتقال قسمت القوى التقدمية في البلاد وفي الجيش لأول مرة منذ الانقلاب الأول عام ١٩٤٩ الى قسمين وفتحت ثغرة بين الجيش والجماهير الشعبية التي تثق بحزب البعث، وان ذلك في مصلحة القوى اليمينية، الممثلة بحزب الشعب والحزب الوطني واقترحت ايجاد السبل للحوار مع حزب البعث العربي الاشتراكي رغم ماارتكب بحقهم من خطأ، وأبديت استعدادي للذهاب الى بلدة قارة للاتصال بالنائب السيد عبد الحليم قدور[٨] للمباشرة فوراً بالتفاوض مع قيادة حزب البعث الذين لجأوا الى لبنان وايجاد حل وسط يرضى عنه الطرفان ويعيد وحدة القوى التقدمية، الأمر الذي يعتبر شرطاً لابد منه لضمان استقرار البلاد... لكن الجو كان متوتراً الى درجة لم يكن من الممكن الاستماع لمثل هذا الرأي الانهزامي الخيالي! كما وصفه البعض واعتبره الشيشكلي ساذجاً وغير واقعي... فقد سبق السيف العذل، ولابد من السير بالشوط الى آخره... ولذلك كلف آمر الشرطة العسكرية بالمباشرة باجراء التحقيق مع المعتقلين[٩].

وهكذا دخل انقلاب الشيشكلي مرحلته الأخيرة وأصبح الحاكم المطلق لأنه لم يعد يصغي لغير الآراء التي تبرر له سياسته وتحقق له أهدافه.

كنت في ذلك الوقت رئيساً للشعبة الأول وهي الادارة المسؤولة عن كافة أفراد القوات المسلحة من الضباط وضباط الصف والجنود... وبالرغم من أنني

تخليت عن عضويتي بحزب البعث العربي منذ بداية عام ١٩٥٠ . . . (حتى ذلك الوقت كنت أدفع الاشتراك الشهري للحزب وأشترك في صحيفته الأسبوعية) . . . لقناعتي الكاملة آنذاك بخطورة الانتماء الحزبي على وحدة وفعالية وانضباط القوات المسلحة، ومع ذلك فقد بقيت على ايماني بمثل الحزب وأهدافه الاجتماعية والقومية وثقتي بعناصره وقياداته ودوره الايجابي داخل سورية وفي الوطن العربي . لذلك شعرت بأن هذا الانشقاق بداية مشؤومة سيترتب عليها أحداث في منتهى الخطورة لن تكون في مصلحة الشعب السوري والأمة العربية .

انفراد أديب الشيشكلي بالسلطة وسعيه للرئاسة :

أصبح واضحاً في منتصف عام ١٩٥١ ان الشيشكلي أخذ يتجه اتجاهاً مغايراً لما كان يدعيه منذ انقلابه الأول، وبدأ مصمماً على حل جميع الأحزاب وانشاء حركة التحرير، وعدم الاستمرار في تشجيع التنظيم السري للضباط .

وقد فاجأنا بالفعل بتشكيل قيادة «حركة التحرير»، من بعض السياسيين المغمورين والفنيين والاقتصاديين الذين لم يسبق لهم ان عملوا في السياسة، أو على الأقل لم يكونوا في عداد الشخصيات السياسية البارزة، على الرغم مما عرف عن بعضهم من كفاءات . . . وعندما اجتمع الضباط به بعد الاعلان عن هذا القرار وطلبوا اليه شرح سياسته وأهدافه في الميدانين الداخلي والخارجي لكي يمكن على أساس هذه السياسية معرفة نوع القوى التي ينوي التعاون معها . . . حاول الشيشكلي التملص من الاجابة بصراحة واتضح بأنه لم يعد يثق بهذه الفئة من الضباط الذين اعتُبروا أعوانه وبدأ يغضب عندما يجد إلحاحاً من بعضهم للاستفسار عن الأمور السياسية ويكرر دائماً ان الضباط البعثيين خدعوه وان جماعة أكرم الحوراني أرادوا قتله، رغم معرفتهم بإخلاصه ووطنيته وماذلك إلا من أجل إزالته عن الطريق والاستئثار بالحكم من بعده . وان حزازات أحياء حماة انتقلت الى العاصمة وأصبحت تتحكم في سلوك

الحوراني والضباط الذين حوله . . . ولذلك فإنه يرى من الضروري إجراء مايلي :

١ ـ وضع دستور رئاسي
٢ ـ إصدار قانون جديد لانتخابات
٣ ـ إجراء انتخابات وإعادة الحياة الديمقراطية للبلاد على أسس جديدة
٤ ـ ترشيح نفسه للرئاسة .

وقد اعترض بعض الضباط على هذه السياسة وأصروا على عدم تخليه عن قيادة الجيش وإيجاد سبيل آخر لإعادة الديمقراطية والسعي لتشكيل جبهة ائتلافية من القوى والأحزاب القومية والتقدمية والاستغناء عن حركة التحرير لأنها لن تضم سوى الانتهازيين . فعرض الزعيم أديب الشيشكلي بهذه الآراء وكان رده عليها حاسماً إذ قال مامعناه :

«هاأنتم أيضاً تفقدون الثقة بي ، وتشككون بكل خطوة أخطوها ولكنني مع ذلك اتخذت قراري ، وعلى كل منكم ان ينصرف الى عمله العسكري ويتفرغ له وعليكم ان تعطوني الفرصة لأنظم أجهزة الدولة ، بشكل يمكن ان نرفع عن النظام تهمة «الكتاتورية العسكرية» فلابد من إيجاد سلطة تشريعية تمثل فئات الشعب وتشرف على السلطة التنفيذية ، لأن الدول العربية والأجنبية لاتقبل التعامل مع الحكم الفردي» . . !! . .

وكانت لهجة الشيشكلي في منتهى الحزم ولم يقبل ان يستمر النقاش في هذه المواضيع لأنه أصبح يعتبر السياسة من اختصاصه وحده ، أما نحن العسكريين فعلينا ان ننصرف الى أعمالنا اليومية الفنية والادارية في الجيش .

تسلسل الأحداث في عهد أديب الشيشكلي :

بتاريخ ٨ حزيران ١٩٥٢ أصدر مرسوماً بإنشاء مجلس وزراء ليساعد رئيس الدولة على ممارسة سلطاه التشريعية والتنفيذية .

وفي ٩ حزيران من نفس العام شكل الزعيم فوزي سلو حكومة فنية من السادة الآتية أسماؤهم هم:

ظافر الرفاعي للخارجية، سعيد الزعيم للمالية، منير دياب للاقتصاد، سامي طبارة للتربية، الدكتور مرشد خاطر للصحة، عبد الرحمن هنيدي للزراعة، منير غنام للعدل، توفيق هارون للمواصلات.

وبتاريخ ٢٥ آب ١٩٥٢ عندما كانت كل أنظمة الحكم في الشرق الأوسط تشعر بالخطر من مد الثورة المصرية التي قامت في ٢٣/ يوليه (تموز) افتتح الشيشكلي مكاتب «حركة التحرير» بدمشق.

وبتاريخ ١٠/١٢/١٩٥٢ جرى في دمشق أضخم عرض عسكري للقوات المسلحة السورية منذ الاستقلال وكان ذلك بمثابة استعراض لقوته وتهديد للمعارضة.

وبتاريخ ١١/١٢/١٩٥٢ قام الزعيم الشيشكلي بزيارة لمصر لمدة خمسة أيام واستقبل فيها استقبالاً حافلاً وأجرى لقاءات مع قادة الثورة والبكباشي جمال عبد الناصر وعندما عاد في ١٦/١٢ ليواجه موقفاً معادياً في الجيش على رأسه العقيد المالكي الذي قدم له بعض المطالب باسم الجيش والسياسيين منها: حل حركة التحرير، واعادة الحياة السياسية.

وفي ٢٤/١٢/١٩٥٢ أعلن الشيشكلي عن وجود مؤامرة ضده وتم القاء القبض على عدد من الضباط المعروفين بتعاطفهم أو انتمائهم لحزب البعث.

وفي مطلع عام ١٩٥٣ لجأ السادة أكرم الحوراني وميشيل عفلق وصلاح البيطار الى لبنان سراً لتجنب الاعتقال.

وفي حزيران من نفس العام غادر قادة البعث لبنان الى روما بسبب الضغوط التي مارسها الشيشكلي على الحكومة اللبنانية لابعادهم خارج البلاد.

وتجدر الاشارة بهذه المناسبة أنني غادرت دمشق في أوائل شهر حزيران من نفس العام الى باريس للدراسة في كلية الأركان وبقيت في فرنسا حتى تموز ١٩٥٤ أي بعد سقوط نظام الزعيم الشيشكلي. وفي هذه الفترة بدأ الشيشكلي يفتقد أعوانه وخاصة بين الضباط الشباب.

وفي ٤ تموز ١٩٥٣ عقدت الأحزاب مؤتمراً سرياً في حمص تم التوقيع فيه على ميثاق وطني يهدف لاسقاط نظام الشيشكلي واعادة الحياة الديمقراطية البرلمانية للبلاد، وكان بمثابة بداية النهاية لعهد الشيشكلي.

وفي أول كانون الأول ١٩٥٣ وقع اصطدام عنيف بين الطلاب والشرطة في حلب وأغلقت المتاجر تضامناً مع المتظاهرين ونزل الطلبة الى الشوارع في حمص وحماة ودمشق وجرت اعتقالات كثيرة وعلق التدريس في الجامعة.

في أواخر كانون الثاني قامت شبه انتفاضة في جبل العرب ورفعت شعار اسقاط نظام الشيشكلي الدكتاتوري وما كان من الشيشكلي إلا أن أرسل قوات من الجيش بقيادة الزعيم رسمي القدسي وتم اخمادها بمنتهى الشدة في ليلة ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٤.

وفي ليلة ٢٧ و٢٨ / كانون الثاني ١٩٥٤ اعتقل عدداً كبيراً من السياسيين السوريين كان من بينهم السادة: صبري العسلي، رشدي الكيخيا، على بوظو، شاكر العاص، فيضي وعدنان الأتاسي، أكرم الحوراني، ميشيل عفلق، وصلاح البيطار، حسن الأطرش، عبد الوهاب حومد، رزق الله انطاكي، منير العجلاني.

سقوط أديب الشيشكلي:

في صباح يوم ١٧ تشرين أول ١٩٥٣ وكنت في طريقي الى كلية الأركان بباريس، تناولت صحيفة لوموند الفرنسية كعادتي كل يوم، وقرأت فيها خبراً حول تشكيل حكومة سورية الحرة في بغداد وانالعقيد محمد صفا هو الذي ترأس هذه الحكومة.

وفي ١١ كانون الثاني نشرت نفس الصحيفة الفرنسية ان الدكتور فاضل الجمالي رئيس وزراء العراق اقترح خطة لاتحاد فيدرالي عربي يتكون على مراحل ويبدأ باتحاد سورية والعراق والأردن، كما قدم وزير الخارجية مشروعاً يتعهد العراق بموجبه بتمويل جيش عربي من عائداته البترولية، ولكن مصر والسعودية وسورية رفضت المشروع.

في صباح ٢٥ شباط ١٩٥٤ أذاع راديو حلب بياناً بصوت الرئيس مصطفى حمدون طلب من الشيشكلي التنحي عن السلطة ومغادرة البلاد وكان البيان باسم كل من الزعيم أمين أبو عساف والرئيس مصطفى حمدون والعقيد فيصل أتاسي .

وفي صباح ٢٦ غادر الشيشكلي دمشق الى بيروت بعد أن أمضى ليلة في السفارة السعودية وفي ٢٧ شباط طار للسعودية ومنها الى فرنسا .

الفصل السادس

اكتشاف أمريكا للشرق الأوسط ومحاولاتها لادخال الدول العربية في شبكة الدفاع الغربي

بعد ان اطمأنت الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية الى أحكام حزام الأمن حول الاتحاد السوفييتي في اوروبا الغربية واليونان وتركيا وايران ؛ أخذت تسعى لادخال البلدان العربية في شبكتها الدفاعية لدعم هذا الحزام وضمان أمن قنال السويس والخليج العربي ومناطق البترول ؛ فعمدت الى تجديد اتفاقية قاعدة الظهران مع السعودية في ١٨ حزيران ١٩٥١ لمدة خمس سنوات ، وبدأت بريطانيا وفرنسا وتركيا تبذل الجهود لاخراج مشروع جديد للدفاع عن الشرق الأوسط .

وفي ١٣ تشرين الأول ١٩٥١ وجهت كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة مذكرة للحكومة المصرية تطلب اليها الانضمام الى حلف للدفاع عن الشرق الأوسط كعضو مؤسس ، واشترطت المذكرة البريطانية المرفقة بأن الجلاء عن منطقة السويس مرهون بقبول مصر للمشروع ، ولكن مصر رفضت المشروع وطالبت بجلاء القوات البريطانية عن مصر جلاء تاماً .

وقد رأينا كيف أدى غضب الجماهير وطلاب الجامعات في سورية الى اسقاط حكومة حسن الحكيم ، التي جاء على لسان رئيسها بأنه يؤيد الدخول

في مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط. ولكن الغرب لم يتراجع عن المشروع رغم ردود الفعل السلبية التي قوبل بها في البلدان العربية.

في نفس الوقت كان الاتحاد السوفييتي يشدد قبضته على أوروبا الشرقية ويتابع مقاومته لمشروع مارشال الأمريكي لانعاش اقتصاديات اوروبا الغربية، ويرفض توحيد ألمانيا، ويستمر على دعم الحركة الثورية في اليونان، بالاضافة الى تعاطفه مع حكومة مصدق في ايران وتشجيع حزب تودة الشيوعي مما هدد المصالح البترولية الغربية، وأظهر عجز بريطانيا عن احتواء الحركات التحررية في منطقة شرقي قنال السويس. كان لابد إذن من ان تزج الولايات المتحدة الأمريكية طاقاتها وتدخل بنفسها ميدان المعركة لحماية هذه المنطقة الحيوية مما يسمى «بالتسلل الشيوعي» وابقائها في دائرة النفوذ الغربي، وربطها بشبكة الدفاع التي بدأت تتكون انطلاقاً من شمالي الأطلسي الى اليابان.

تميزت الفترة الواقعة بين عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥٦ بأنها فترة الاحلاف والقواعد العسكرية، وهي الفترة التي اكتشفت فيها أمريكا منطقة الشرق الأوسط الاستراتيجية، باعتبارها همزة الوصل بين حلف شمالي الأطلسي وشبكاتها الدفاعية في آسيامن الباكستانحتى اليابان مروراً بجنوب شرقي آسيا، ولأنها تحتوي في باطنها على أعظم مخزون من البترول الذي يتوقف عليه ازدهار الغرب اقتصادياً ونموقوته الدفاعية. لقد أصبح الأمريكيون قلقين من توسع السوفييت والكتلة الشيوعية في هذه المنطقة وأخذت تراودهم فكرة الحلول محل حلفائهم البريطانيين والفرنسيين بعد ماشاهدوا عجزهم عن حماية مناطق نفوذهم في آسيا والشرق الأوسط واليونان؛ لالضعف امكانياتهم فحسب بل لانهم كانوا لأكثر من قرن يستعمرون شعوب هذه البلدان وهم في نظر هذه الشعوب العدو اللدود الذي يجب مكافحته وليس الاتحاد السوفييتي.

واعتقد الأمريكيون في البداية ان المساعدات المالية والفنية كافية لخلق المعجزة، لذلك بادر الرئيس ترومان في ٢٠ كانون الثاني ١٩٥١ للاعلان عن مشروعه المسمى «بالمنطقة الرابعة» الذي تكلل بالفشل، (مراجعة الأوراق الخاصة بهذا الموضوع)، بعد ذلك قررت أمريكا التعاون مع بريطانيا وفرنسا

وتركيا لطرح فكرة منظمة الدفاع عن المنطقة، وأحدثوا القيادة العليا للحلفاء في الشرق الأوسط في ١٠/ ت٢ / ١٩٥١ كما رأينا، وعندما اقترحوا على البلدان العربية الاشتراك فيها تلقوا اجابات مختلفة ولكنها لم تقترن بأية نتيجة عملية.

وفي عام ١٩٥٣ . . بين تشرين الثاني وكانون الأول، قام بعض كبار المسؤولين الأمريكيين بسلسلة زيارات للشرق الأوسط كان آخرها زيارة وزير الخارجية جون فوستر د الاس وكانت نتائجها الوحيدة اندلاع المظاهرات والفتن في معظم العواصم العربية ضد الأحلاف. ومع ذلك فقد تميز عام ١٩٥٤ ببعض النجاحات الجزئية عندما وقعت كل من تركيا والباكستان في نيسان اتفاقية التعاون المتبادل، وقبلت الحكومة العراقية المساعدات العسكرية الأمريكية رغم معارضة الجامعة العربية، وانتهت المفاوضات البريطانية مع نظام الثورة المصرية بقيادة البكباشي جمال عبد الناصر الى توقيع اتفاقية الجلاء عن قناة السويس. غير أن هذه الظواهر الايجابية لم تكن لتخفي الآثار السيئة الناتجة عن سياسة الولايات المتحدة والدول العربية عامة تجاه الصراع العربي ـ الاسرائيلي. كان يخيل لبعض الساسة الأمريكيين ان النزاع العربي ـ الاسرائيلي يشكل جزءاً من الصراع بين الكتلة الاشتراكية والكتلة الغربية. واسترسلوا في هذه الخطيئة الجسيمة التي كانت ولازالت تجسد عجزهم عن فهم ملابسات المشكلة وتشكل أهم العقبات التي كانت ولاتزال تقف بين أمريكا والأمة العربية منذ نشوب القضية الفلسطينية في عام ١٩٤٧ حتى الآن.

ماذا كان دوري الشخصي المتواضع في هذه المرحلة؟ :

منذ عودتي من العراق تسلمت ادارة «فرع فلسطين» في الشعبة الثانية (المخابرات العسكرية) التي كان على رأسها آنذاك المقدم ابراهيم الحسيني وكانت مهمة الفرع:

١ ـ جمع المعلومات عن العدو وقواته العسكرية وامكانياته في فلسطين المحتلة،

وتنـسيقهـا وتحليلهـا وتصـنيفهـا وتقييمهـا ووضـع تقـديـر الموقف السـياسي والعسكري للقيادة العامة .

٢ ـ مكـافحـة عمـلاء العـدو ونشـاطـه التخـريبي داخـل الأراضـي السـورية بالتنسيق مع وزارة الداخلية .

٣ ـ متـابعـة نشـاط العـدو خارج فلسـطين في حدود الامكانيات بالتنسـيق مع وزارة الخارجية .

٤ ـ تزويـد وحـدات الجيش بالمعلومـات الدقيقة ماأمكن عن القوات المسلحة للعدو وتنظيمها وتسليحها ومدى استعدادها للقتال .

بدأت أعمـل على تنظيم هذا الفـرع في حدود خبرتي وتوجيهات رئيس الشعبة والامكانيات الضئيلة الموضوعة تحت تصرفي ، وفي اطار المهمة الضخمة المحددة لهذا الفرع وكانت أهم مصادر المعلومات عن العدو آنذاك هي :

أ ـ الصحف والمجـلات والكتب العـبرية والانكليزية والفرنسـية وغيرها التي تصدر في فلسطين المحتلة ودول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية .

ب ـ المعلومـات التي يجمعهـا بعض أفـراد الاسـتطـلاع الـذين يعملون داخـل الأراضي المحتلة بالاستناد الى مشاهداتهم الشخصـية أومايحصلون عليه من عرب المنطقة المحتلة .

ج ـ تقـاريـر الاسـتطـلاع التي تقـدمهـا أجهـزة الاسـتطلاع والرقابة على طول الجبهة الفلسـطينية .

د ـ المعلومـات التي تتلقـاهـا الحكـومـة السـورية من سفاراتها في الخارج ومن الجامعة العربية .

هـ ـ المعلومات التي يتلقاها الفرع من بعض الأعوان الأجانب الذين يزورون المنطقة المحتلة أو من اليهود الذين يهاجرون منها . .

هذا بالاضـافـة الى بعض المعلومـات التي نـستخلصهـا من التحقيق مع عملاء العدو الذين يقعون بين أيدي فرع الشعبة الثانية التابعة للجبهة أولبقية المناطق العسكرية .

وقد يدهش المرء الآن عندما يعلم ان فرع فلسطين في الأركان العامة لم يكن يضم سوى ضابط واحد واثنين من ضباط الصف برتبة رقيب للتحقيق وتسجيل البريد الوارد والصادر وعريف ضارب على الآلة الكاتبة وعدد قليل من المترجمين غير المتفرغين للغات الأجنبية (العبرية والانكليزية والألمانية . . .) وكانت الصحافة العالمية تشكل المصدر الأول للمخابرات العامة الشعبة الثانية .

العدو الاسرائيلي الذي صورته أجهزة الاعلام العربية قزماً ثم صيرته عملاقاً لايقهر :

لم يكن لدى القيادة العامة معلومات دقيقة عن العدو الذي أقام دولته في بداية عام ١٩٤٨ على أرض فلسطين وأصبح منذ الساعات الأولى قادراً على مجابهة جميع الدول العربية المجاورة بالاضافة للشعب الفلسطيني نفسه صاحب الأرض . . .

والواقع ان الفكرة عن هذا العدو كانت غامضة ومشوهة في أذهان المواطن العربي من خلال معايشته للأقليات اليهودية في كل قطر، ومن خلال التعامل والحوار بين اليهود والفلسطينيين فوق التراب الفلسطيني ، وأعتقد ان معظم المسؤولين العرب لم يكونوا يلمون بما فيه الكفاية بتاريخ الشعب اليهودي والحركة الصهيونية والعلاقة العضوية بين هذه الحركة بالذات وبين الاستعمار الأوروبي والامبريالية الأمريكية ، بل وبين هذه الحركة والحركات الثورية واليسار العالمي والأوروبي وبشكل خاص بينها وبين الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، ومدى نفوذ هذه المنظمة على السياسة الدولية والأوساط المالية العالمية وسياسات الدول الغربية حيال منطقة الشرق الأوسط .

أما القوات العسكرية وشبه العسكرية والمنظمات الارهابية الصهيونية التي كانت تعمل في فلسطين قبيل قيام دولة اسرائيل ، فكانت محاطة بالسرية التامة أو على الأقل لم يكن لدى العرب معلومات دقيقة عن تنظيمها وتسليحها وعدد

أفرادها، لذلك كانت الجيوش العربية في حرب عام ١٩٤٨ تخوض المعارك وكأنها تقاتل الأشباح بينما كان العدو يعرف كل شيء عن الجيوش العربية وقياداتها وتنظيمها وتسليحها بل ونوايا كل منها . .

والواقع ان الحركة الصهيونية كانت تسير على سياسة موحدة مرسومة ومنهاج علمي دقيق في سعيها لتنفيذ أهدافها التي حددها المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في بال ١٨٩٧ . . . وأصبحت اللجنة التنفيذية لهذا المؤتمر بمثابة حكومة فعلية تشرف على الهجرة الى فلسطين وجمع الأموال لنقل واستيطان المهاجرين اليهود وانشاء المستعمرات وتحصينها وتدريب وتسليح العناصر اللازمة للدفاع عن شبكة المستعمرات المذكورة واعداد الأجهزة والكوادر اللازمة للدولة المقبلة (اسرائيل) . . . كل ذلك كان يجري على مراحل محددة سلفاً وبموجب خطط دقيقة .

وفي الحرب العالمية الأولى استطاعت الصهيونية الحصول على «وعد بلفور» من الحكومة البريطانية ، وفي الفترة التي تلت هذه الحرب ، نفذ الانتداب البريطاني في فلسطين كل ماوعده للصهيونية ، فشجع على الهجرة واصدار القوانين التي سهلت انتقال ملكية الأراضي للمستوطنين اليهود ، فأقيمت المستعمرات العديدة (الكيبوتس) وتم تحصينها وتجهيزها حتى أصبحت نموذجاً انخدع به معظم الاشتراكيين واليساريين في العالم فأصبحوا يعتبرونها مثلاً كاملاً للتطبيق الاشتراكي في الميدان الزراعي .

وفي الحرب العالمية الثانية انتقل نشاط الحركة الصهيونية الى أمريكا عندما لاحظت أفول دور أوروبا الاستعماري ، واستغلت سياسة النازية في ألمانيا لاقناع يهود أوروبا بأن نجاتهم هي في الهجرة الى فلسطين «أرض الميعاد» ووافقت بريطانيا على تشكيل «لواء يهودي» للاسهام في الحرب ضد ألمانيا ، ليصبح فيما بعد نواة للجيش الاسرائيلي ، كما قامت بعض فصائل المنظمات الارهابية الصهيونية بتقديم الخدمات المختلفة لقوات الحلفاء في أوروبا الشرقية وفي الشرق الأوسط ، وحصلت بذلك على الخبرة والتدريب اللازمين لكوادر الهاغانا والمنظمات الارهابية الأخرى في حربها ضد العرب في عام ١٩٤٨ .

والحقيقة أن المعلومات التي استطاع «فرع فلسطين» ان يجمعها عن الدولة الصهيونية الجديدة لم تعط للمسؤولين في قيادة الجيش وفي الدولة الفكرة الكاملة الواضحة عن امكانياتها البشرية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، فقد أحيطت اسرائيل بما يشبه الستار الحديدي الكتيم، وبقيت الصورة التي عرفت عن اسرائيل خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨ مغروسة في أذهان القيادات في مختلف المستويات، ولم تجر أية محاولات جادة خارج نطاق القوات المسلحة للتعريف بالعدو وسياسته وعلاقاته الدولية، وتولت أجهزة الاعلام العربية مهمة القيام بهذه المهمة فصورت اسرائيل أحياناً عملاقاً يسيطر على السياسة الدولية وتسخيرها لمصلحته ويستخدم امكانيات الكتلتين الاشتراكية والغربية لتنفيذ مخططاته، وصورتها أحياناً أخرى بالدولة القزم الطفيلية التي لن تلبث ان تتهاوى لوحدها بسبب التناقضات الاجتماعية والأزمات الاقتصادية الحادة والتناقضات الدولية وتحت وطأة التضامن العربي والجيوش العربية النظامية. وتجدر الاشارة الى ان المجابهات اليومية بين الجيش السوري والقوات الاسرائيلية عبر خطوط هدنة ١٩٤٨ تركت انطباعات معينة لدى جنود وضباط هذا الجيش. وكانت الاصطدامات التي تقع في كل يوم تقريباً عبر خط الهدنة تزيد هؤلاء العسكريين ثقة بأنفسهم وبقدرتهم على مجابهة العدو المنتصر في عام ١٩٤٨ . . . وبرهنت على ذلك الاشتباكات التي وقعت بسبب قيام اسرائيل بتجفيف بحيرة الحولة وتحويل مجرى نهر الأردن بين عام ١٩٤٩ و١٩٥٢. وقد بلغت هذه الاشتباكات ذروتها في معركة «تل المطلة» شمالي غربي بحيرة طبريا (عند مصب نهر الأردن في هذه البحيرة)، عندما استطاعت بعض الوحدات الخفيفة[١٠] توجيه ضربات مؤلمة للقوات الاسرائيلية، مما اضطرها لاستخدام أفضل ألوية المشاة بالاضافة للقوات الجوية والمدفعية الثقيلة لاسترداد المرتفع الذي احتلته المفرزة السورية الصغيرة غربي نهر الأردن وراء خط الهدنة وأطلق المعلقون الاسرائيليون آنذاك على هذا الاشتباك اسم «الحرب الصغرى» وقد استشهد في هذه المعركة الملازم الأول أسعد عمير من مدينة تدمر وعدد من الجنود السوريين وتكبد العدو فيه خسائر جسيمة وأثبتت هذه المعركة ان القوات

السورية مؤهلة لتوجيه أعنف الضربات للعدو ومنعه من تنفيذ مخططاته الرامية لتحويل مجرى نهر الأردن . ويبدو أن القيادة الاسرائيلية استخلصت من هذه المعركة الدروس الهامة ونقطة الضعف في قواتها التي كانت حتى ذلك الوقت مؤلفة من العناصر شبه العسكرية التابعة لمختلف المنظمات الصهيونية والأحزاب القديمة مثل الهاغاناه، والبالماخ، وشترن، والارغون زفاي ليئومي والهستدروت والماباي والمابام.

أخذت الصدامات على الجبهة السورية طابع العمليات الروتينية، وكان العدو يحاول استخدام بعض العناصر العربية العميلة للتسلل خلف خطوطنا وجمع المعلومات عن تحركات قواتنا ونواياها كما كان يستفيد من بعض المأجورين كأدلاء لدورياته التي تقوم بغارات ليلية على مخافرنا . . . وفي هذه الفترة كشفت أجهزة مكافحة الجاسوسية السورية بعض الشبكات التي تنظمها المخابرات الاسرائيلية، وظهر لنا ان العدو يكرس امكانيات هائلة ويبذل جهوداً جبارة لجمع المعلومات عن القوات السورية المسلحة ومعظم نشاطات الدولة ويحاول تمزيق الجبهة الداخلية واضعاف الوحدة الوطنية.

وكان واضحاً ان أجهزته السرية تتبادل المعلومات مع المخابرات الغربية الفرنسية وأجهزة حلف شمالي الأطلسي بشكل خاص وبعض البلدان الاشتراكية كبولونيا ورومانيا على سبيل المثال لا الحصر، وتستفيد من دخول الأجانب الى البلدان العربية وكثيراً ماكانت ترسل اليها عملاءها من اليهود الأوروبيين وغيرهم بأشكال مختلفة . . . ولم يكن باستطاعتنا القيام بمثل هذا العمل لأسباب كثيرة منها اننا لم نكن نملك الامكانيات المالية الكافية لتطويع العملاء الأجانب، كما ان علاقاتنا مع جميع الدول الأجنبية الغربية منها والشرقية لم تكن في المستوى الذي تتمكن فيه من الاستفادة من المعلومات التي لديها عن اسرائيل، بل لعل هذه الدول كانت تعلم نقطة الضعف هذه عندنا وتستغلها الى أبعد الحدود، فتسرب لنا أحياناً معلومات مطمئنة لتستر أعمال العدو، وأحياناً أخرى معلومات مبالغ فيها لتضطرنا لاتخاذ اجراءات احتياطية

تنهك قواتنا وتستنزف امكانياتنا، كالاستنفارات الدائمة في الجيش. غير ان حصيلة هذه المرحلة كانت ايجابية اجمالاً، فقد أعيد تنظيم الجيش وتسليحه وارتفع مستوى التدريب وقويت معنويات الأفراد، واستفادت القيادة من الاشتباكات اليومية لاختبار الأسلحة الحديثة ومدى استيعاب الجنود لأسلحتهم ولإعطائهم الثقة بنفسهم وخاصة بالأسلحة الجديدة التي وضعت بين أيديهم بعد عام ١٩٥٥.

ويمكن القول بأن القوات السورية المسلحة حققت نجاحات متواضعة ملموسة خلال هذه الفترة؛ ووصلت الى مستوى لابأس به من التنظيم والتسليح فأصبح العدو يحسب لها الحساب كما بدأت تحوز على التقدير واحترام الدول العربية وتستقطب آمال الشعب.

في لجنة الهدنة المشتركة:

في بداية عام ١٩٥١ أصدرت القيادة قراراً بتسميتي عضواً في الوفد السوري للجنة الهدنة السورية ـ الاسرائيلية المشتركة بالاضافة الى عملي، وكان الوفد السوري آنذاك برئاسة المقدم غسان جديد الذي أبدى خلال مهمته كفاءة وحنكة عاليتين، كانتا موضع اعجاب وتقدير القيادة وممثلي الأمم المتحدة، كما استطاع فرض احترامه على الجانب اليهودي. وعندما انتهت مهمته وعين بدلاً عنه المقدم موفق القدسي لاحظنا الفارق الكبير بينه وبين سلفه من حيث اتقانه للغة الفرنسية وإحاطته بالانكليزية وارتفاع مستوى وعيه السياسي ومعرفته للتاريخ وخاصة الأهداف الصهيونية، والاستيعاب الدقيق لبنود اتفاقيات الهدنة وقد أدرك ذلك الجانب الاسرائيلي وشعرنا نحن أعضاء الوفد الصغار بالخسارة التي لم تعوض.

بقيت في هذه اللجنة حتى منتصف عام ١٩٥٢ حيث طلبت إعفائي لكثرة أعمالي... وكانت اللجنة تجتمع دورياً مرة أو مرتين في الشهر في بناء الجمرك في موقع العليقة داخل الأراضي السورية، وفي مستعمرة روشبينا في

المنطقة المحتلة، كان يرأس الاجتماعات ضابط أمريكي هو جنرال رايلي. . . وكان واضح الانحياز لاسرائيل، ثم عين بدلاً عنه ضابط فرنسي برتبة كولونيل من المشاة البحرية يدعى «بوسافي»، وكان شجاعاً ونزيهاً، مما أدى الى اصطدامه مراراً مع رئيس الوفد الاسرائيلي الكولونيل هاراماتي . . (المستشار القانوني في وزارة الدفاع الاسرائيلية بالشؤون السياسية والقانونية وهومن أصل بريطاني وكانت تصرفاته تدل على نوع من الارستقراطية). ولم يمض إلا بضعة أشهر حتى فوجئنا بنقل الكولونيل الفرنسي المذكور وإبداله بضابط آخر لا لون له ولا رأي، وكانت هذه خسارة ثانية للجانب السورية.

ومن الجدير بالذكر ان الجانب الاسرائيلي كان دائم الشكوى من الاعتداءات السورية على سكان المستعمرات الواقعة على الحدود، ولم يكن يمضي يوم دون تقديم شكوى رسمية للمراقبين الدوليين بهذا المعنى، وكان هؤلاء يؤكدون ان حوادث الجبهة السورية أكثر من حوادث بقية الجبهات العربية (المصرية والأردنية واللبنانية).

ومما أذكره خلال عملي في لجنة الهدنة، انه في أحد الأيام قام رف من الطائرات الاسرائيلية بالإغارة على قواتنا في الحمة أثناء اجتماعنا في روشبينا وكنا نشاهد بالعين المجردة هذه الطائرات وهي تقصف مخافرنا، وكان ذلك خرقاً واضحاً لايحتاج الى اثبات، مما أحرج المسؤولين من ضباط المراقبة الدولية وأدى برئيس لجنة الهدنة الفرنسي لتعليق الاجتماع وهاجم بعنف رئيس الوفد الاسرائيلي لهذا العمل العدواني الصريح، ولم يجد الوفد الاسرائيلي أية وسيلة لتبرير العدوان، فاتصل هاتفياً بتل أبيب وعاد ليعتذر من رئيس المراقبين، ومما علمناه أثناء المداولات غير الرسمية من الوفد الاسرائيلي ان قائد الرف الاسرائيلي المهاجم هو الضابط الطيار «عازر وايزمن» ابن أخ رئيس الدولة، وأنه كثيراً مايتجاوز تعليمات القيادة ويتصرف على هواه متحدياً أوامر موشي دايان، ومن المعروف ان عازر وايزمن هذا أصبح فيما بعد قائداً للقوات الجوية الاسرائلية ثم وزيراً للدفاع، وأخيراً أصبح من المعارضة المعتدلة التي تنادي بالتعايش الرضائي مع العرب. وفي عام ١٩٩٣ انتخب رئيساً للدولة الاسرائيلية.

أول كتاب عن العدو:

ونظراً لما كنت ألمسه من حاجة ضباط الجيش الى أخذ فكرة عامة عن عدوه «كدولة» من مختلف النواحي فقد استأذنت القيادة عام ١٩٥٠ بوضع كتاب يضم خلاصة ماتجمع لدى الفرع من معلومات عامة عن «دولة اسرائيل» يكون بمثابة بداية للتعريف بها ومحاولة إزالة الصور الغامضة المعروفة عنها والتي كانت تركزها أجهزة اعلام العدو من جهة وأجهزة الاعلام العربية من جهة ثانية.

وتمكنت بجهود حثيثة، مستفيداً بشكل خاص من التراجم والمعلومات التي لدى الفرع عن المصادر الأجنبية وبعض النشرات الرسمية الاسرائيلية، من وضع كتاب شامل تقريباً عن اسرائيل سميته «فلسطين المحتلة» وقد وافقت رئاسة الأركان على طبعه ونشره في نطاق لايتجاوز وحدات القوات المسلحة ومؤسسات الجيش المختلفة، وكتب مقدمة الكتاب القاضي السيد عبد الوهاب الأزرق مدير العدلية العسكرية آنذاك، وقررت القيادة منحي مكافأة مالية رمزية مقدارها ٩٠٠ل. س[١١] تقديراً لهذا الجهد المتواضع وتشجيعاً لي ولغيري على خوض هذا المضمار والسعي للتعرف على العدو ليتمكن أفراد قواتنا المسلحة ان يكونوا على بينه التحدي الحقيقي المتمثل بالعدو الاسرائيلي كدولة وشعب وجيش.

وتجدر الاشارة بهذه المناسبة ان هذه المحاولة المتواضعة كان لها أكبر الأثر في حياتي.. إذ نبهتني الى أهمية الدراسات والبحوث وعرفتني على النقص في ثقافتي العامة، وثقافة أبناء جيلي من الضباط الذين لاتزيد معارف معظمهم عما تلقوه على مقاعد الدرس بالمدارس الثانوية أوما قرأوه في الصحف والمجلات اليومية بلغتهم العربية، كما لمست بشكل خاص أهمية اللغات الأجنبية وبالذات اللغة الانكليزية والفرنسية ولغة العدو نفسه، واقترحت على القيادة اجراء دورات خاصة للغة العبرية للضباط وضباط الصف الذين يعملون في الأركان وقيادات الألوية.

وبهذه المناسبة لايسعني إلا أن أوجه هنا تحية تقدير خاصة للأستاذ ربحي كمال، الفلسطيني الأصل المتخصص باللغات السامية الذي كان له الفضل الأول في تدريب أول عناصر من القوات المسلحة على اللغة العبرية، كما كان

له الفضل في تأسيس فرع الترجمة العبري بل وانشاء البرنامج العربي الموجه لسكان الأرض المحتلة. وكانت ترجماته عن المصادر الاسرائيلية خير مساعدة لي لانجاز أول كتاب عن اسرائيل[١٢].

وفي هذه الفترة كلفتني القيادة بمهمة خاصة في جزيرة قبرص لايجاد وسيلة مضمونة لتأمين الصحف والمجلات والكتب التي تصدر في «فلسطين المحتلة» باللغة العبرية واللغات الأخرى.

وبتاريخ ٦/ تشرين أول ١٩٥٠ ذهبت الى بيروت ومنها ركبت الطائرة الى قبرص فوصلت الى نيكوسيا بعد أقل من ساعة. وقد استقبلني في المطار قريب أحد الموظفين الفلسطينيين الذين كانوا يعملون معي، وهو مسلم تركي وقادني الى أحد الفنادق، واستطعت بواسطته ان أتعرف على عدد محدود من الأصدقاء الذين تعهدوا بتأمين الصحف الاسرائيلية وارسالها بالبريد الى دمشق. مكثت في الجزيرة مدة سبعة أيام، زرت خلالها ميناء ليماسول، ومصيف لارنكا وسجلت بمفكرتي في هذه الزيارة الملاحظات التالية:

«.. إن قبرص جزيرة صغيرة يبلغ سكانها حوالي ٧٥٠ ألف نسمة وأغلبهم من أصل يوناني، وفيها أقلية اسلامية من أصل تركي، وقليل من الأرمن.

والجزيرة لازالت مستعمرة بريطانية، تعتبر من أهم القواعد الاستراتيجية البريطانية شرقي البحر المتوسط... واليونانيون متحمسون للوحدة مع اليونان على ان بين أفراد الطائفة اليونانية الكثير من الشيوعيين وتحلم الطائفة التركية بالانضمام الى تركيا... وهكذا يسهل على بريطانيا استغلال هذا الوضع للاستمرار باستعمار قبرص بسبب الصراع بين الطائفتين التركية واليونانية، والعاصمة نيكوسيا نظيفة جداً وهي مقسمة بين الطائفتين التركية واليونانية، والحي اليوناني تظهر عليه دلائل الثراء، وفيه الكثير من الأبنية الحديثة. وإني لأذكر بكثير من الامتنان مالاقيته من مساعدة الصديقين المذكورين من الطائفة الاسلامية التركية فبفضلهما أصبح الفرع يتلقى أسبوعياً

جميع الصحف العبرية والانكليزية الصادرة في فلسطين المحتلة . وقد استمر ذلك سنوات عديدة بعد تركي الفرع .

الانتقال من الشعبة الثانية الى رئاسة الشعبة الأولى :

في منتصف عام ١٩٥٢ صدر قرار رئاسة الأركان بنقلي من «فرع فلسطين» وتعييني رئيساً للشعبة الأولى بدلاً من الرئيس عبد الحميد السراج الذي أوفد لاتباع دورة أركان في باريس وكانت مهمة هذه الشعبة الاهتمام بكل ما له علاقة بشؤون أفراد القوات المسلحة من مجندين وجنود وضباط صف وضباط من مختلف الرتب منذ تطوعهم حتى تسريحهم أو إحالتهم الى التقاعد .

وكانت الشعبة الأولى من أهم المراكز الحساسة في الأركان العامة ويعتبر اختياري لها دليلاً مادياً على مدى الثقة التي كان يكنها لي الزعيم أديب الشيشكلي . . خاصة وانه لم يمض على ترقيتي لرتبة رئيس (نقيب) سوى أسابيع ، وان كبار الضباط يطمحون الى استلام هذا المركز الحيوي الذي تتركز عليه أنظار جميع أفراد الجيش ويتصل اتصالاً عضوياً ومباشراً بحياتهم الخاصة ، من تنقلات ومكافآت وترقيات وعقوبات . . . بل لعله المركز الذي يتصل مباشرة بالروح المعنوية لأفراد القوات المسلحة لما له من تأثير سلبي أو ايجابي عليهم وبالسياسة التي تسير عليها القيادة العامة .

لم أستغرب ثقة رئيس الأركان ، ولكنني فوجئت باختياره لي لهذا المركز واعتراني خوف شديد من ضخامة المسؤولية التي أوكلت إلي ، كما أسلفت ، لأنني ابتعدت عن عملي بفرع فلسطين عن الجو الذي عشت فيه خلال أربع سنوات تقريباً أصبحت خلالها مولعاً بتتبع كل ما له علاقة بالصهيونية والسياسة الدولية والأحداث العالمية ، لأن ذلك أمراً لابد منه للتعرف على سياسة اسرائيل والمجالات الواسعة التي تتحرك فيها وتستغلها لصالح مخططاتها التوسعية في المنطقة . . . وأعترف ان هذه الفترة من حياتي فتحت عيني على الآفاق الرحبة وجعلتني أهتم بالقراءة والمطالعة الى درجة أنني لم أعد أشعر بالسعادة إلا

اذا تتبعت الأحـداث الـدولـيـة في أدنى الحدود على الأقل واعتبر أن اليوم الذي يمر علي دون قراءة شيء جديد أو مطالعة رواية أو كتاب، هو خسارة من عمري .

أصبحت في مهمتي الجديدة كرئيس للشعبة الأولى مرتبطاً مباشرة برئيس الأركان، أقضي معه ساعة أو أكثر في بعض الأيام لمناقشة شؤون الضباط والرقباء والعساكر، وطلبات قادة وحدات الجيش واقتراحاتهم، ومشاكل المدارس والمعاهد والتنقلات والترقيات ومشاكل المجندين وغير ذلك مما له علاقة بملاكات الجيش .

وقد تعرفت من خلال هذه المهمة على جميع قادة الجيش الكبار وضباط الوحدات فكنت أناقش معهم الاقتراحات والطلبات المتنوعة المتعلقة بشؤون الأفراد وأطلع على آرائهم الشخصية بمرؤوسيهم، بل لقد أصبحت ألم بأسماء جميع ضباط الجيش وأحوالهم الشخصية الى حد كبير . . كما تعرفت بشكل خاص على آراء رئيس الأركان الزعيم الشيشكلي بضباط الجيش والقادة منهم بشكل خاص، وناقشت مع الزملاء رؤساء شعب الأركان العلاقة الأخرى وقادة الأسلحة الأسس التي يجب ان أسير عليها في اختيار الجنود المتطوعين والرتباء والطلاب الضباط، والأهداف التي يجب ان نصل اليها في تنظيم مختلف صفوف الأسلحة، من حيث ملاكات الوحدات والمدارس الخاصة بها ونوعية الأفراد .

وإن واجب الأمانة يقضي بأن أؤكد الآن وبعد أن أصبح الزعيم الشيشكلي في ذمة التاريخ انني كنت في كل مرة ألمس منه حرصه على ان تكون الصفة الأساسية للقوات المسلحة هي الايمان بالوطن ووحدة الأمة العربية وبدورها الحضاري والانساني، وان هذه القوات يجب ان تجسد الوحدة الوطنية وكل أماني وتطلعات الشعب في سورية وفي الوطن العربي من الخليج الى المحيط . . وان يكون أبناء الشعب كلهم دون تمييز هم العنصر الأساسي الذي تبنى عليه القوات المسلحة وان تكون هذه القوات مخلصة وخادمة لمجموع الشعب دون تمييز بين فئة أو طبقة أو بين المدينة والريف . على أن هذا لايعني ان

رئيس الأركان الذي أخذ يطمح منذ انقلابه الثاني عام ١٩٥١ الى تسلم كامل السلطة كان يخلو من نزعة التسلط ومن الحرص على ان يبقى الجيش في قبضته . ولهذا فإنه لم يكن يغفر لأولئك الذين يشك في ولائهم له وخاصة عندما يكون لدى بعضهم الطموح لمنافسته على السلطة . ولكني أسرع فأقول ان اديب الشيشكلي لم يكن مؤهلاً ليصبح دكتاتوراً مطلقاً، لأن طبيعته المفتوحة ومرونته ودماثة خلقه ونشأته الحموية والاجتماعية وعلاقاته بالحركة الوطنية وبالقوى السياسية المختلفة وميله للمسالمة كانت كلها تشكل عقبات لم يستطع التغلب عليها ليصبح الحاكم الفرد المطلق في سورية .

وأذكر انه كثيراً ماكان يغفل نشاطات بعض الضباط المعادية له ويحاول معالجتها عن طريق الحوار وبنفس طويل وبمرونة ويتحاشى اللجوء للعنف قدر المستطاع ولكن هذه المرونة والأناة أخذت تتضاءل مع الأيام بعد ان أصبح مسؤولاً عن شؤون الدولة وبدأ يمهد الطريق لاستلام رئاسة الجمهورية .

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة انني كثيراً ماعرضت له بعض التقارير عن سلوك أخيه صلاح الشيشكلي وعلاقاته بالمهربين عندما أصبح آمراً لحرس البادية . . . فكان يستمع إلي ولكنه يطلب إلي التمهل ليجد الوسيلة الملائمة لمعالجة مشكلة أخيه، ويرجىء بحث مصيره، ولاحظت بعد فترة أن أخاه عرف بموقفي عنه فأخذ يتعرض بأحاديثه لي ويتوعدني ولم يمنعني ذلك عن العودة الى بحث موضوعه والالحاح على رئيس الأركان بوضع حد لتصرفات أخيه، حتى اجابني في أحد الأيام قائلاً : ياأحمد . . . أليس هناك مشكلة أخرى مشكلة صلاح؟ فأجبته بأنها ذات اهمية خاصة لأنها تسيء الى سمعته وتشجع من لديهم الاستعداد للانحراف من الضباط ليسلكوا نفس الطريق، كما تجعلنا في حرج عندما ننفذ أحكام قوانين الجيش على الآخرين ونستثنيه . . . قال أعرف هذا وأؤكد لك أن صلاح يشكل مأساة كبيرة لي، لأنه سبب لي الكثير من المتاعب ويسيء الى سمعتي في الجيش وفي البلاد وكلما عزمت على التخلص منه وإبعاده عن الجيش يلجأ الى والدتي ويشكوني لها، فلا يكون منها إلا ان تأتي إلي بعد صلاة الصبح وتصب جام غضبها علي وتقول انك تتخلى عن

أخيك بعد أن أصبحت زعيماً ثم تأخذ بالبكاء والدعاء ولذلك تجدني أقبل بقاءه في حرس البادية بعيداً عن القوات النظامية، كحل وسط!!، فماذا تريدني أن أفعل؟ فاصمت وأنتقل الى موضوع آخر. . . وهكذا بقي صلاح كمسؤول عن حرس البادية وكان على الرغم من جهله وسخافته وتفاهة أعماله من بين العوامل التي عملت على تشويه سمعة الشيشكلي بل وساهمت في إسقاطه.

والواقع ان صلاح الشيشكلي لم يكن يتدخل اطلاقاً في سياسة الدولة أو إدارة الجيش ولم يكن يطمع بأكثر من البقاء في مركزه كرئيس لحرس البادية وتغاضي القيادة عن سلوكه وعلاقاته بالمهربين.

وأخيراً فإنني أستطيع ان أؤكد اليوم ان الروح والمفاهيم التي تميزت بها قيادة الشيشكلي للقوات المسلحة خلال عملي الى جانبه وفي حدود ماكانت تسمح به امكانياتي وسني وصلاحياتي هي الوطنية الصادقة والايمان العميق بالأمة العربية والشعور بالمسؤولية حيال مشكلة فلسطين والنزاهة في معالجة شؤون الأفراد وتقدير كفاءاتهم، أما الحكم عليه كدكتاتور فإنه آنذاك يتجاوز إمكانياتي، بل لقد تجاوز حدود النقد واستعصى على الحوار والتفاهم.

الايفاد الى كلية الأركان بباريس:

في مطلع أيار من عام ١٩٥٣ أصدرت القيادة العامة قراراً بإيفادي لاتباع دورة في كلية الأركان بباريس، وكنت أتوقع ذلك منذ تعييني في حزيران من عام ١٩٥٢ رئيساً للشعبة الأولى (ادارة شؤون الضباط أو العسكريين) بدلاً من النقيب عبد الحميد السراج الذي أوفد الى فرنسا آنذاك لاتباع نفس الدورة لمدة عام.

وعندما أنهيت استعداداتي للسفر في الأسبوع الأول من حزيران، مررت في الصباح الى منزل الزعيم أديب الشيشكلي قائد الجيش، الكائن في ساحة السبع بحرات ببداية شارع بغداد، لاستئذانه بالسفر ووداعه. استقبلني بترحاب وهو لايزال ملتفاً بعباءته الصوفية البنية، وتمنى لي التوفيق بالدراسة.

قلت له ياسيادة الزعيم إن التصدع الذي نشأ في الجيش بعد الخلاف مع حزب البعث يتفاقم، أفلا ترى ان هناك مجالاً للمصالحة معهم؟ وانني على استعداد للذهاب الى روما حيث يقيم قادة حزب البعث بعد مغادرتهم بيروت وأنقل لهم رسالة أو إشارة بذلك منك للعودة والحوار والمصالحة؟ . .

لم الاحظ على وجهه مايدل على الغضب . . . ولكنه أجابني بهدوء قائلاً : ياأحمد اذهب وأكمل دراستك، وانس هذا الموضوع، فقادة الحزب يرفضون المصالحة ولايريدون سوى رأسي ! قلت : هل تسمح لي ان أجرب؟ . قال : لافائدة من ذلك ولاتضيع وقتك . ثم عانقني مودعاً واتجهت فوراً الى مطار المزة القديم وأخذت الطائرة التابعة لشركة ك . ل . م التي هبطت في أثينا ثم زوريخ فستوكهولم، حيث قضيت ليلة هناك وتابعت سفري الى باريس . وفي اليوم الثاني ذهبت وزميلي في الدورة المقدم أحمد المصري الى كلية الأركان فأبلغتنا الادارة ان الدورة قد ابتدأت بالأمس وان علينا الالتحاق بالدراسة فوراً فكان ذلك . لم تمض إلا أيام قلائل في الكلية حتى شعرت بأنني انتقلت الى عالم آخر يختلف اختلافاً كلياً عن العالم الذي كنت أعيش فيه والدوامة العنيفة التي كانت تلفني وبدأت اكتشف حاجتي الماسة للعلم والمعرفة، عندما كنت استمع الى الأساتذة والمحاضرين وأتناقش في حدود ماتسمح به لغتي الفرنسية مع زملائي الفرنسيين . ومالبثت بعد أسابيع حتى أيقنت خطورة وخطأ الطريق الذي كنت أسير عليه، وانني لم أكن مؤهلاً للمركز الذي كنت أشغله في الجيش السوري اذا ماقارنت معلوماتي بمعلومات من هم في رتبتي من الزملاء الفرنسيين من دورة الأركان وان ثقافتي العامة ليست شيئاً بالنسبة لأي من زملائي الفرنسيين بالدورة، وانني كلما استمعت الى محاضرة جديدة أزداد أسفاً على الأيام التي قضيتها وأصمم على الا أعود اليها، وأخذت على نفسي ان أكرس كل مايتوفر لدي من الوقت للاستفادة من وجودي بباريس عاصمة النور لأتعلم وأثقف نفسي وأستدرك بعض مافاتني . . . وتمر الأيام فأدرك ان ادارة شؤون الدولة والعمل السياسي، وقيادة الجيوش ليست بالسهولة والبساطة التي كنا ننظر اليها بها، وان انتقاداتنا لرجال السياسة مهما كانت أوضاعهم أو

مستوياتهم لم تكن إلا تطاولاً على ميدان لم يخلق لنا وان الطريق لفهم شؤون الدولة وادارة الجيش هو في تكريس أقصى الجهود للحصول على العلم والمعرفة والخبرة اللازمة والمواظبة على المطالعة وقراءة التاريخ والتدريب. وان التطلع لهذه الأدوار دون المعرفة اللازمة والكافية إنما هو مغامرة ذات عواقب وخيمة مهما تكللت بالنجاحات الوقتية... وان الانقلابات العسكرية لايمكن ان تحل مشاكل التخلف كما لايمكن ان تتحول الى ثورات اجتماعية وسياسية ولهذا قررت ان أقطع كل صلة لي بالنظام من الناحية السياسية وان أنكب على دراستي وعاهدت نفسي ان أتجنب في المستقبل المغامرة العسكرية حتى ولو كلفني ذلك التخلي عن بعض رفاقي وأصدقائي في الجيش...

أحداث سورية بين عام ١٩٥٣ ـ والانقلاب على أديب الشيشكلي:

لاأدري ماالذي جعل الزعيم أديب الشيشكلي يفكر بالتخلي عن قيادة الجيش، ليصبح رئيساً للجمهورية بالرغم من معارضة بعض الضباط المؤيدين له.. ويذهب ظني الآن الى وجود صلة مابين أحداث مصر في النصف الثاني من عام ١٩٥٢ وبين اتجاه الشيشكلي المفاجىء الى الغاء النظام الديمقراطي القائم على التعددية الحزبية وإقامة نظام رئاسي يضع السلطات كلها بيد رئيس الجمهورية ويجرد السلطة التشريعية من صلاحياتها الفعلية بمراقبة السلطة التنفيذية ويطل دور الأحزاب السياسية، ويشكل بدلاً عنها حركة شعبية شكلية موحدة يطلق عليها اسم «حركة التحرير العربي» في ٢٥/ آب ١٩٥٢ ويصدر مرسوماً بإحداث منصب نائب لرئيس مجلس الوزراء ويشغله بنفسه مع الاحتفاظ بمهام القائد العام للجيش.

في هذا الوقت لم يكن قد مضى على ثورة ٢٣ يوليو (تموز) سوى بضعة أسابيع وأصبحت أصداؤها تطغى على العالم العربي، هذه الثورة التي كان على رأسها في البداية اللواء محمد نجيب، وماهي إلا أيام حتى أخذ يبرز اسم قائد الثورة الحقيقي البكباشي جمال عبد الناصر، الذي أصبح نائباً لرئيس

مجلس الثورة ومجلس الوزراء. وأخذ الناس في سورية يقارنون بين اللواء فوزي سلو واللواء محمد نجيب، وبين الزعيم أديب الشيشكلي والبكباشي جمال عبد الناصر. غير ان التشابه لم يقتصر على هذه النقطة، بل لقد اتجهت الثورة في مصر الى الغاء النظام الملكي واعلان النظام الجمهوري الرئاسي والغاء الأحزاب وإقامة تنظيم سياسي موحد أطلق عليه في البداية «هيئة التحرير» التي تذكرنا بحركة التحرير التي أنشأها الزعيم الشيشكلي ثم أصبحت فيما بعد تُسمى «الاتحاد القومي»...

وفي اعتقادي ان الزعيم الشيشكلي أخذ في هذه المرحلة يقضم أنامله ندماً لأنه لم يسم انقلابه «ثورة» منذ البداية ولم يبطش بالأحزاب ويشكل بدلاً عنها مجلساً للثورة... بل لعله لم يطمئن الى هؤلاء الضباط الصغار الذين حاول ان يشكل منهم «حركة سرية» فلاحظ ان نزعاتهم وولاءاتهم لاتنسجم مع مخططاته وطموحاته الشخصية؟ كما ان الانقلاب المتدرج السهل لايمكن مقارنته بحركة ٢٣ يوليه المصرية التي أطاحت بالملكية العريقة واقتلعتها من جذورها وأقامت بدلاً عنها نظاماً جمهورياً منفتحاً على الشعب المصري بجماهيره الواسعة..

لقد ذهب البعض في تفسير سلوك الشيشكلي الى وجود صلة بين انقلابه والانقلابات التي سبقته وبين المخططات الأمريكية التي أرادت التخلص من المجالس النيابية المنتخبة والأحزاب السياسية التقليدية، التي تقف عثرة أمام محاولاتها لادخال المنطقة العربية ضمن دائرة نفوذها وربطها في شبكة القواعد والأحلاف التي أخذت تنظمها أمريكا لتشكل منها حزاماً كاملاً متماسكاً يطوق الكتلة الاشتراكية... بل لقد ترددت الشائعات آنذاك ان الولايات المتحدة نصحت الشيشكلي بوضع دستور رئاسي واجراء انتخابات نيابية، وترشيح نفسه للرئاسة، لكي تتمكن من التفاوض معه على الدخول في منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط باعتباره ممثلاً شرعياً للبلاد وليس مجرد قائد انقلاب عسكري... كما كانت تتردد الشائعات أيضاً عن الدور الفعال الذي لعبته أجهزة المخابرات الأمريكية لانجاح الثورة المصرية، ومن هنا لم يعد التشابه بين سلوك أديب الشيشكلي والخط الذي بدأت تسير عليه ثورة ٢٣ يوليو مجرد صدفة

في نظر الغالبية من السياسيين في سورية . . وسهل هذا على المعارضة التي تضم جميع الأحزاب القديمة اتهام الشيشكلي بالتواطؤ مع الامبريالية الأمريكية خاصة بعد ان اشتدت اضطهاداته للحزب الشيوعي وحزب البعث وانقطاع الصلة نهائياً بينه وبين السيد أكرم الحوراني ؛ فقد أصبحت كل خطوة يخطوها تفسر على أنها جزء من مخطط حلف الأطلسي في المنطقة .

ويبدو أن الصراع على النفوذ في الشرق الأوسط بين الاستعمار القديم البريطاني ـ الفرنسي من جهة والاستعمار الأمريكي الجديد ساعد على خلق الظروف الملائمة لمقاومة الشيشكلي .

كانت بريطانيا حتى أواسط الخمسينيات لاتزال تعتقد ان من حقها الاشراف على مصالح الغرب في الشرق الأوسط ، وخاصة في المنطقة الواقعة بين ليبيا غرباً والخليج العربي شرقاً (والتي كان يسميها البريطانيون منطقة شرقي قناة السويس) ، وبالتالي فهي مسؤولة عن الدفاع عن هذه المنطقة بحكم وجود قواعد لها في ليبيا وقناة السويس وقبرص والأردن وعدن ومسقط وعمان والعراق . . . وكانت فرنسا رغم انشغالها في حرب الهند الصينية وحركات الاستقلال في المغرب العربي وتونس ، إلا انها لم تعترف بهزيمتها في المشرق العربي وهي تتحين الفرص لإعادة نفوذها الى سورية ولبنان وقد وجدت في مشاريع الدفاع عن الشرق الأوسط والانقلابات العسكرية المتتالية فرصاً ثمينة لتدخل حلبة الصراع علها تعود الى المنطقة بشكل أو بآخر . . .

غير ان أحداث ايران التي أوصلت الدكتور مصدق الى السلطة في عام ١٩٥٣ وأدت الى طرد البريطانيين وحلول خلفائهم الأمريكيين مكانهم وتأميم النفط وفشل محاولاتهم المتتالية للحلول محل الفرنسيين في سورية كما ان نجاح ثورة مصر في إجلائهم عن قنال السويس ، أكدت أفول امبراطوريتهم وتبخر أحلامهم ، ولم ينفعها التبشير بمشروع الاتحاد السوري العراقي ومشروع الدفاع عن الشرق الأوسط ومشروع حلف بغداد ؛ كما لم يجدها التشبث بالمعاهدات غير المتكافئة التي كانت تربطها ببعض البلدان العربية وخاصة بلدان الخليج العربي . وهكذا كان الاستعمار الأوروبي يتخبط في تناقضاته

وأوهامه الامبراطورية العتيقة، ووجد نفسه أمام حقائق جديدة تتمثل بالحركات التحررية وتصاعد النضال الشعبي من جهة وبصعود القوة الأمريكية والسوفييتية واحتكار هذين العملاقين للسياسة الدولية من جهة ثانية مما اضطره بالنهاية للرحيل وسارعت الولايات المتحدة الأمريكية لملء الفراغ تحت ستار المساهمة في تصفية نفوذ الاستعمار الأوروبي (البريطاني الفرنسي)، وسد الطريق أمام الزحف الشيوعي باتجاه الشرق الأوسط وافريقيا.

غير ان هدفها الحقيقي هو الحلول محله تدريجياً خاصة وقد أصبحت مسؤوليات الدفاع عن «مايسمى بالعالم الحر» تقع أساساً على عاتقها وحدها، فهي التي تتحمل مسؤولية انعاش أوروبا الغربية اقتصادياً وعسكرياً بواسطة مشروع مارشال وحلف شمال الأطلسي وهي التي تقدم المساعدات المادية والعسكرية لجميع البلدان الآسيوية والافريقية لتقف في وجه المد الشيوعي وتخوض حرباً حقيقية دامية في جنوب شرقي آسيا لايقاف الزحف السوفييتي والصيني بينما تنهار الأنظمة الاستعمارية القديمة الواحد تلو الآخر في جميع أنحاء المعمورة وتسقط معها الحواجز التي تحمي القارات الثلاث من الموجة الشيوعية التي بدأت تزحف وفي كل الاتجاهات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية... بل لقد أظهرت الأحداث عجز بريطانيا وفرنسا عن حماية نفسيهما ومصالحهما حتى فوق الأراضي الأوروبية والبحر المتوسط اذا لم تتدخل أمريكا بنفسها بقواتها العسكرية وامكانياتها المادية.

شهدت هذه الفترة آخر المحاولات البريطانية الفرنسية للدفاع عن مصالحهما الاستعمارية من الطغيان الأمريكي الذي أخذ يكنسهما من الشرق الأوسط الممتد من الرباط حتى طهران مستفيداً من حقد شعوب المنطقة على الاستعمار القديم، ومن بقايا السمعة الطيبة سمعة الثورة الأمريكية ومبادىء ولسون التي أعلنها بعد الحرب العالمية الأولى، ومن عدم وجود نفوذ حقيقي للاتحاد السوفييتي في هذه المنطقة التي لاتزال المشاعر الدينية والقومية والرغبة بالتخلص من الاستعمار العسكري المباشر هي المحرك الأساسي لشعوب المنطقة.

ومما لاشك فيه ان هذا الصراع كان يحاول استغلال الحركات الانقلابية التي ذرت قرنها في المنطقة منذ نهاية الأربعينيات وحتى نهاية الستينيات.

وعلى أساس هذه المقولة يمكن الافتراض بأن سقوط أديب الشيشكلي كان يمثل احدى صور الصراع على سورية والشرق الأوسط، دون ان يفهم من هذا التأكيد على ان الشيشكلي كان مرتبطاً بأمريكا... كما لايعني ذلك اطلاقاً ان القوى التي قامت بالانقلاب على أديب الشيشكلي كانت مرتبطة ببريطانيا أو غيرها، إلا ان الأحداث أثبتت بما لايقبل الشك وجود بعض العلاقات بين الصراع على المنطقة بين أمريكا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى وبين الصراعات على السلطة بين القوى الوطنية لأسباب تاريخية واجتماعية، والتناقضات الصريحة بين محور السعودية ومصر، من ناحية، والعراق من ناحية أخرى مضافاً الى كل ذلك الدور التخريبي المتعاظم لاسرائيل والحرب الباردة بين القوتين الأعظمين.

وأذكر بهذه المناسبة حادثة ذات دلالة شهدتها قبيل سفري الى باريس بأيام في نهاية شهر أيار ١٩٥٣ فقد دخلت الى مكتب رئيس الأركان الزعيم أديب الشيشكلي لأعرض عليه بعض المواضيع الخاصة بعملي، فوجدته غارقاً بالتفكير وتبدو عليه علائم القلق والانهاك وهو ينفث دخان سيجارة «البول مول» التي كان مغرماً بها... فلما حاولت عرض البريد عليه كالعادة قال: اجلس ودعني من بريدك اليوم فهناك ماهو أهم وأخطر... قلت ماذا هناك سيدي الزعيم؟ قال: هناك مشروع بوادر ثورة مسلحة في سورية تدبرها الأحزاب السياسية ستبدأ في جبل العرب وتمتد الى دمشق وحماة وحمص وحلب واللاذقية ودرعا ودير الزور تساندها الأنظمة الملكية في بغداد وعمان وتختفي وراءها بعض الدول الأجنبية. قلت ولكن هل هناك من يؤيد هذه الثورة في القوات المسلحة..؟ قال: لاأدري ولكني استقبلت أمس قائد المنطقة الوسطى العقيد الركن شوكت شقير بناء على طلبه فأعلمني ان بعض السياسيين طلبوا منه الانضمام اليهم وأكدوا له دون ذكر الاسماء، ان هناك بعض الضباط المؤيدين للحركة في مواقع مختلفة... وأنهى حديثه بالثناء على العقيد شقير

وامتدح صدق وطنيته وايمانه القومي وعدم انزلاقه الى طريق المغامرات . وفي نهاية الحديث طلب إلي اعداد قرار بنقل العقيد شوكت شقير من اللواء الرابع في حمص الى دمشق وتسميته معاوناً لرئيس الأركان وترقيته لرتبة زعيم وقد تم تنفيذ ذلك . ولم أعد الى مثل هذا الحديث مرة أخرى مع الزعيم الشيشكلي الى ان غادرت سورية الى باريس في حزيران من نفس العام كما سبق وذكرت وسارت الأحداث فيما بعد كما هو معروف ، حيث تم وضع دستور جديد ينص على اقامة نظام جمهوري رئاسي في ٢١ حزيران ١٩٥٣ وتم الاستفتاء على الدستور وانتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع المباشر ، وينص الدستور الجديد على ان «سورية جمهورية عربية ديمقراطية ذات سيادة . . . وانها تعمل على اقامة وحدة الأمة العربية . . وفي الموعد المحدد انتخب الزعيم أديب الشيشكلي رئيساً للجمهورية وكان المرشح الوحيد للرئاسة ، وحصل على ٩٩,٩٪ من الأصوات كما هي العادة!! . . . وأحيل اللواء فوزي سلو على التقاعد بعد ان أتم مهمته المرسومة وصدر مرسوم بتعيين الزعيم شوكت شقير رئيساً للأركان العامة . وأعتقد ان ذلك مكافأة له على موقفه من المؤامرة التي أتيت على ذكرها ولاعتقاد أديب الشيشكلي ان هذا الضابط لايفكر بالانقلاب عليه لأنه من أصل لبناني ولم يمض على قبوله في الجيش السوري سوى أربع أو خمس سنوات ولايطمح بالرئاسة لأنه من الطائفة الدرزية . . .) .

وفي ٣٠/ تموز جرت الانتخابات النيابية وتشكل المجلس الجديد من اثنين وثمانين نائباً ، فاز بالنيابة (٦٠) نائباً ينتمون لحركة التحرير أما بقية النواب فكانوا من المستقلين ومشايخ العشائر ، ولم يكن في هذا المجلس أي سياسي بارز ممن سبق له القيام بدور أساسي في السياسة السورية . وفي الرابع والعشرين من تشرين الأول اجتمع المجلس النيابي الجديد وانتخب المحامي الدكتور مأمون الكزبري رئيساً له .

وقبل ذلك بأيام كان الزعيم الشيشكلي قد أصدر عفواً عاماً عن السياسيين بمناسبة انتخابه للرئاسة ، فعاد قادة حزب البعث الى البلاد . وقد سبق هذه الأحداث عقد مؤتمر سري للسياسيين في حمص بتاريخ ٤/ تموز

١٩٥٣ اشتركت فيه جميع الأحزاب ووقع على أثره ميثاق وطني يقضي بمتابعة النضال حتى اسقاط الدكتاتور الشيشكلي.

اندلاع الفتنة في جبل العرب:

وفي العشر الأخير من كانون الثاني عام ١٩٥٤ تفجرت الاضطرابات ضد أديب الشيشكلي في جبل العرب وتحولت الى شبه ثورة مسلحة وكانت المظاهرات الطلابية والمتفجرات قد عمت المدن الكبرى منذ نهاية عام ١٩٥٣. ولكن أديب الشيشكلي لم يأبه لهذه المبادرة الخطيرة التي كان يتوقعها، لذلك سارع الى ارسال قوات عسكرية الى السويداء بقيادة الزعيم رسمي القدسي بالاضافة الى قوات حرس البادية بقيادة أخيه المقدم صلاح الشيشكلي واستطاعت هذه القوات اخماد الحركة بسرعة مذهلة، ولم تتجاوب المدن السورية الأخرى مع هذه الثورة مما اضطر قادتها للهروب الى الأردن مما يؤكد عدم خدمتها وعدم اجماع المواطنين في جبل العرب عليها وأصيبوا بصدمة كبيرة لخذلانهم من السياسيين الموقعين على ميثاق حمص.

كنت في ذلك الوقت أتابع الدراسة في باريس وفي صباح ٢٨ / ك٢ ١٩٥٤ تناولت كعادتي في طريقي الى كلية الأركان صحيفة «لوموند» فإذا بها تكرس افتتاحيتها لأحداث سورية وتضعها تحت عنوان «انتصار الشيشكلي» وتقارن بين عملية أديب الشيشكلي الخاطفة التي قضت على اضطرابات جبل العرب خلال أقل من أسبوع وبين الحملات الفرنسية المتكررة التي عجزت عن احتلال هذا الجبل الأشم خلال عامين أو أكثر من ١٩٢٥ - ١٩٢٧ وتكبدت أفدح الخسائر... وبدا لي من هذه الصحيفة أنها تؤيد نظام الشيشكلي وتعتبر انتصاره فشلاً لمخططات الدول الكبرى الأخرى الرامية للسيطرة على سورية واخضاعها للنفوذ البريطاني.

وبتاريخ ٢٨ كانون الثاني وبعد القضاء على ثورة الجبل أمر الشيشكلي باعتقال كبار السياسيين ومنهم السادة: صبري العسلي، رشدي الكيخيا، علي

بوظو، شاكر العاص، وفياض الأتاسي، أكرم الحوراني، ميشيل عفلق، صلاح البيطار، الأمير حسن الأطرش، عبد الوهاب حومد، رزق الله انطاكي، منير العجلاني، كما فرض الاقامة الجبرية على الرئيس السابق هاشم الأتاسي.
وأعلنت الأحكام العرفية وفرض نظام منع التجول وبعد أيام قليلة ألغي نظام منع التجول والأحكام العرفية، وظهر الشيشكلي بمظهر الذي انتصر على المؤامرة.

الفصـل السـادس

الانقلاب على الشيشكلي

غير ان فرحة الشيشكلي لم تدم طويلاً ففي الساعات الأولى من صباح يوم ٢٥ شباط ١٩٥٤ سمع المواطنون نداء خافتاً من اذاعة حلب تدعو الشعب والقوات المسلحة للثورة على الدكتاتور السفاح الشيشكلي وتطالبه بمغادرة البلاد فوراً تجنباً لسفك الدماء، ومع تقدم النهار تبين ان وحدات موقع حلب قد أعلنت العصيان بقيادة آمر المنطقة العقيد فيصل الأتاسي والنقيب مصطفى حمدون، وبعد قليل أعلن قائد المنطقة الشرقية العقيد أمين أبو عساف انضمامه للحركة، ولم ينته ذلك اليوم حتى أعلنت معظم حاميات المدن السورية تأييدها للحركة ومطالبتها برحيل الشيشكلي وهددت بالزحف على العاصمة اذا لم يرضخ الشيشكلي لمطالبهم.

وفي العاشرة من مساء ذلك اليوم غادر الشيشكلي دمشق سراً الى بيروت ولجأ للسفارة السعودية وفي منتصف الليل أذاع راديو دمشق نص استقالته من الرئاسة. وجاء فيها مايلي: «رغبة مني في تجنب سفك دماء الشعب الذي احبه والجيش الذي ضحيت بكل غال من أجله، والأمة العربية التي حاولت خدمتها باخلاص صادق، أتقدم باستقالتي من رئاسة الجمهورية الى الشعب السوري المحبوب...».

وهكذا حقنت الدماء بالفعل بعد ان برهنت أحداث جبل العرب ان باستطاعة الشيشكلي اذا أراد ان يخوض معركة دامية ضد الانقلابيين بالاعتماد على بعض الوحدات الموالية له في العاصمة . . وان يكسب بعض الوقت ليستفيد من الصراع الخفي بين القوى الخارجية على سورية واجراء بعض التنازلات لصالح أحد الأطراف ولكنه فضل الاستسلام وحقن الدماء والتخلي عن السلطة فسجل بذلك سابقة لم يسبقه اليها أحد من الدكتاتوريين السابقين .

والحقيقة التي يجب ان تقال بهذه المناسبة ان سورية لم ترتبط حتى تاريخ خروج الشيشكلي بأي التزام خارجي ولم يعثر حتى الآن على أية وثيقة تثبت وجود أية علاقة مادية بين الشيشكلي وأية دولة أجنبية باستثناء علاقاته الخاصة مع مصر والمملكة العربية السعودية خاصة والتي رعته بعد قراره حتى قتل ، ولكن مأساة جبل العرب كانت لطخة سوداء في عهده دفع ثمنها حياته فيما بعد .

الغاء نظام الشيشكلي والعودة للحياة الديمقراطية في سورية :

في صباح ٢٧ / شباط اجتمع البرلمان السوري وأصدر قراراً بحل نفسه وأذاع الزعيم شوكت شقير بياناً يعلن فيه حل البرلمان واعطاء الصلاحيات التنفيذية والتشريعية للدكتور مأمون الكزبري رئيس البرلمان بصفته نائباً لرئيس الدولة في حالة غيابه ، وأصدر قراراً باخلاء سبيل جميع السياسيين المستقلين .

وفي صباح الأول من آذار ١٩٥٤ قدم الرئيس هاشم الأتاسي الى دمشق يرافقه معظم السياسيين وذهب فوراً الى قصر الرئاسة حيث تسلم صلاحياته كرئيس شرعي للجمهورية وبادر بتكليف السيد صبري العسلي بتشكيل حكومة ائتلافية جديدة وتم تأليفها على الشكل التالي :

صبري العسلي للرئاسة ـ فاخر الكيالي للاقتصاد ـ محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) للصحة ـ عفيف الصلح وزير دولة «من الحزب الوطني» ـ معروف الدواليبي للدفاع ـ فيضي الأتاسي للخارجية ـ رشاد جبري للاشغال ـ علي بوظو للداخلية «من حزب الشعب» ـ الأمير حسن الأطرش للزراعة ـ عزت الصقال للعدلية ـ عبد الرحمن العظم للمالية ـ منير العجلاني للمعارف «مستقلون» .

وبتاريخ ١٥ / آذار دعا رئيس الجمهورية البرلمان السابق للاجتماع (هو البرلمان الذي انتخب عام ١٩٤٩ وحله أديب الشيشكلي في ٢ كانون الأول عام ١٩٥١).

وهكذا عادت الأمور في سورية الى نقطة البدء ، فحاولت الحركة الجديدة محو آثار عهد الشيشكلي وكأنه لم يكن ، وأعيد العمل بالدستور السابق قبل انقلابه ، واستأنفت الأحزاب السياسية والمنظمات النقابية نشاطها ، كما أطلقت حرية الصحافة كما استؤنف من جديد الصراع بين الأحزاب ومن ورائه المحاولات المحمومة لادخال سورية في مناطق النفوذ وشبكة الأحلاف ، وأنهت هذه الفترة المجيدة من تاريخ سورية الحديث بقيام الوحدة بين مصر وسورية في ٢١ / شباط ١٩٥٨ .

الأحزاب والمنظمات السياسية في سورية :

ترجع نشأة الأحزاب والمنظمات السياسية في سورية الى بداية القرن العشرين . ففي ذلك الوقت المبكر كانت التنظيمات السياسية تضطر للتستر بسبب القوانين العثمانية الجائرة التي تحرم العمل السياسي . وعندما جاء الاحتلال الفرنسي مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، لم يكن في البداية أقل جوراً من سلفه . ولهذه الأسباب كانت المنظمات السياسية تنشط تحت أسماء مستعارة متنوعة . فهي تارة جمعيات خيرية ، وتارة أخرى منظمات اجتماعية أو ندوات أدبية . وكانت الرابطة التي تجمع بين مختلف الأوساط السياسية هي النضال ضد الاحتلال الأجنبي ، والعمل على إحياء الروح القومية العربية ، وتكريس الوحدة الوطنية ، تحت شعار «الدين لله والوطن للجميع» .

وهكذا شهدت البلاد تأسيس عدد من الجمعيات مثل :

جمعية الإخاء العثماني العربي ، والجمعية القحطانية ، والجمعية اللامركزية في القاهرة ، والجمعية العربية الفتاة ، وجمعية الإصلاح ، وجمعية العهد .

ومع مرور الزمن أصبحت هذه الجمعيات البؤر والمدارس التي نمت

وترعرعت فيها المنظمات والأحزاب السياسية في سورية، وكانت بمثابة المرضعة الأولى للحياة الديمقراطية التي تميزت بها سورية عن كثير من البلدان العربية الشقيقة خاصة بعد تكريس النظام الجمهوري المأخوذ عن النظام الفرنسي.
وفيما يلي نورد لمحة سريعة عن أهم الأحزاب السياسية وبعض الشخصيات التي لعبت دوراً حاسماً في تاريخ القطر العربي السوري الحديث.

١) الكتلة الوطنية أو الحزب الوطني:

ضمت «الكتلة الوطنية» عند تأسيسها الغالبية العظمى من الشخصيات الوطنية على اختلاف نزعاتهم وطبقاتهم الاجتماعية. فكانت بذلك تجسد أماني الشعب السوري الذي يضع في مقدمة أهدافه، التحرر من الاستعمار الأجنبي وبناء دولته المستقلة التي تشكل جزءاً من الأمة العربية الكبرى. وكان من أبرز رجالات الكتلة الوطنية الشخصيات المعروفة التالية:

السادة: ابراهيم هنانو، سعد الله الجابري، هاشم الأتاسي، شكري القوتلي، فارس الخوري، لطفي الحفار، فخري البارودي، صبري العسلي، عبد الرحمن الكيالي، احسان الجابري، ميخائيل اليان، جميل مردم.. وغيرهم..

والواقع انه لم يكن لهذه الكتلة برنامج اجتماعي أو اقتصادي، والهدف الذي جمع بينهم وبين القوى الوطنية في البلاد هو «التحرر من الاستعمار الأجنبي» واقامة دولة مستقلة ذات هوية عربية.

وقد لعبت الكتلة الوطنية على هذا الأساس دوراً سياسياً حاسماً في النضال الذي خاضه الشعب السوري ضد الأنتداب الفرنسي وانتهى بالاستقلال الكامل في ١٧ نيسان عام ١٩٤٦.

ومنذ عام ١٩٤٣، وقبل جلاء المستعمر عن تراب الوطن، تسلمت الكتلة الوطنية السلطات تدريجياً وانتخب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية باعتباره ممثلاً لحزب الأكثرية. واستمرت الكتلة في تسيير شؤون

البلاد بعد جلاء المستعمر الفرنسي، وحققت الكثير من الاصلاحات التي كان يرنو اليها المواطنون، ومن أهمها وضع الدستور الأساسي للنظام الجمهوري الذي نظم الحياة الديمقراطية النيابية القائمة على الانتخاب المباشر للمثلي الشعب في المجلس النيابي، وعلى تعدد الأحزاب. ولما لم يكن لهذه الكتلة الوطنية أي برنامج واضح للاصلاح الداخلي، في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقد بدأ التفكك والخلافات الشخصية والمصلحية والعقائدية تنخر كيان هذه المنظمة وأصبح واضحاً ان الهدف الذي كان يربط بين أعضائها أيام الاستعمار الأجنبي لم يعد له وجود في العهد الاستقلالي، وكان من الطبيعي بعد هذه المرحلة أن تظهر للوجود شخصيات وأحزاب وتنظيمات جديدة تعبر عن تطلعات وأماني وتصورات مختلف فئات وطبقات الشعب، وتسير وفق برامج سياسية واقتصادية واجتماعية واضحة.

في هذه المرحلة تبين للمتنورين من أعضاء الكتلة الوطنية ضرورة تجديد شبابها، فأجمعت الغالبية على انشاء حزب جديد أطلق عليه اسم «الحزب الوطني». وأسندت رئاسة هذا الحزب لأحد شباب الكتلة الوطنية هو: الأستاذ صبري العسلي. وكان من أبرز شخصيات هذا الحزب كل من الأساتذة: ميخائيل اليان، وعبد الرحمن الكيالي، فاخر الكيالي، كما ضم عدداً كبيراً من زعماء الأحياء في المدن الكبرى، وبقية محافظات القطر، هذا بالاضافة الى انه كان يحظى بتأييد معظم رؤساء العشائر السورية.

وقد انفصل عن «الحزب الوطني» عدد كبير من أعضاء الكتلة الوطنية القديمة واختاروا العمل كمستقلين ومن بين هؤلاء السادة: هاشم الأتاسي، شكري القوتلي، وفارس الخوري، ولطفي الحفار.

٢ ـ الأحزاب العقائدية:

في الفترة التي احتدم فيها النضال ضد الاستعمار الفرنسي اخذت تتبلور في سورية تيارات سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة، وأدى ذلك تدريجياً الى

نشوء حركات وأحزاب سياسية عقائدية ظهر معظمها في السنوات الأخيرة من الانتداب، وخاصة خلال الحرب العالمية الثانية التي رافقها تراخي الاستعمار الفرنسي بسبب الهزيمة التي ألحقتها ألمانيا الهتلرية بالجيش الفرنسي. . كما ظهرت بعض الأحزاب الأخرى في ظل الاستقلال، ومن أبرز هذه المنظمات السياسية:

١ ـ الحزب الشيوعي
٢ ـ حزب البعث العربي
٣ ـ حزب الشباب (الذي سُمي فيما بعد بالحزب العربي الاشتراكي)
٤ ـ الحزب القومي الاجتماعي
٥ ـ الاخوان المسلمون (شباب محمد)
٦ ـ الاخوان المسيحيون
٧ ـ حزب الشعب
٨ ـ حركة التحرير
٩ ـ حزب القوميين العرب

وكانت معظم الأحزاب في سورية تنادي بالقومية العربية وتدعو للوحدة، باستثناء الحزب القومي السوري الذي يدعو لوحدة سورية الطبيعية والاخوان المسلمون الذين يدعون لوحدة الأمة الاسلامية، والحزب الشيوعي الذي يرفع شعار «الأممية».

آ) حزب البعث العربي:

نشأت حركة البعث العربي حوالي عام ١٩٤٣ بزعامة الأستاذين ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، وكان الشعار الأساسي الذي رفعه هذا الحزب هو: «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». وتحول الى حزب سياسي في عام ١٩٤٧ وقد استطاع هذا الحزب ان يجمع حوله أعداداً كبيرة من المثقفين

والشباب وطلاب المدارس الثانوية والجامعة، ولاقى نجاحاً واسعاً بين أبناء الريف المتعلمين، ، وساهم مساهمة واسعة في النضال ضد الاستعمار.

أما برنامج هذا الحزب فيتلخص بالمناداة بتحرير وتوحيد الأمة العربية من الخليج الى المحيط ومن جبال طوروس الى باب المندب وعُمان، كما يقترح بعض الحلول والاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية على أسس ديمقراطية ويستوحي ذلك من المبادىء الاشتراكية.

وفي عام ١٩٥٣ اندمج حزب البعث العربي مع الحزب العربي الاشتراكي بزعامة الاستاذ أكرم الحوراني وأصبح منذ ذلك الوقت يسمى «حزب البعث العربي الاشتراكي» كما أصبح أكبر حزب تقدمي معارض في البلاد، كما تبلورت اتجاهاته الاشتراكية، وكان من أبرز شخصياته اللامعة التي لعبت أدواراً أساسية في الحياة السياسية والبرلمانية السادة:

ميشيل عفلق، صلاح البيطار، أكرم الحوراني، جلال السيد، زكي الأرسوزي، مدحت البيطار، جمال الأتاسي، د. فيصل الركبي، موفق الشرع، ظافر الصواف، عبد الحليم قدور، خليل الكلاس، عبد الفتاح الزلط، مصطفى حمدون، عبد الغني قنوت، علي عدي، د. وهيب الغانم.

استطاع هذا الحزب خلال فترة وجيزة وبفضل فكرته القومية الواضحة واعتماده على المثقفين والشباب والطبقة العاملة أن يشغل المقام الأول بين الأحزاب السياسية الى معظم الأقطار العربية وخاصة العراق، والأردن وفلسطين، بل والمغرب العربي. وكان لهذا الحزب الدور الحاسم في قيام الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨.

ب) حزب الشعب:

بدأ ظهور تكتل حزب الشعب في المجلس النيابي منذ عام ١٩٤٣، وكان أعضاء هذا التكتل يشكلون المعارضة الأساسية لحكومة «الكتلة الوطنية». وكان طابع هذه المعارضة يتميز في بداية الأمر بالاقليمية، لأن الشخصيات

البارزة منها جميعها من مدينة «حلب» العاصمة الثانية وأكبر المدن السورية اطلاقاً وأهمها من الناحية الاقتصادية. وكان على رأس هذا التكتل نائبا حلب السيدان: رشدي الكيخيا، وناظم القدسي.

أخذت هذه الكتلة المعارضة بالتطور التدريجي بفضل العمل الدؤوب والمكانة الاجتماعية المرموقة التي يحتلها السيد رشدي الكيخيا في شمال سورية. وعندما جرت الانتخابات التشريعية في عام ١٩٤٧ أصبح تعداد هذا التكتل يتجاوز عشرة نواب. وقد استفادت من انحلال الكتلة الوطنية، ومن تضاؤل شعبية «الحزب الوطني» الذي احتكر السلطة وأصبح يتحمل جميع المسؤوليات عن التقصير والأخطاء التي ترتكبها أجهزة الحكم.

ونظراً للمكانة الاقتصادية التي تشغلها البرجوازية المالية والتجارية والصناعية ومالهذا الواقع من أثر على السياسة الداخلية، فقد كان طبيعياً أن تضطلع للمطالبة بدور يتناسب مع اهميتها في الحياة العامة، وأن تستفيد من احتكار الحزب الوطني للسلطة ومن الطابع الاقليمي لهذا الحزب (معظم رجالاته من العاصمة دمشق) لكي توسع نفوذها الى بقية المحافظات السورية.

وعندما وقع الانقلاب العسكري الأول عام ١٩٤٩ وذهب ضحيته معظم رجالات الحزب الوطني، بادر حزب الشعب للاستفادة من هذا الفراغ، ولاحت له الفرصة السانحة بعد الانقلاب العسكري الثاني بزعامة اللواء سامي الحناوي الذي كان يكن الاحترام والتأييد لقادة حزب الشعب لأسباب عديدة منها انه هو نفسه من سكان مدينة حلب.

وفي الانتخابات التشريعية التي جرت عام ١٩٤٩، التي قاطعها الحزب الوطني وبعض الساسة الآخرين، استطاع حزب الشعب ان يسجل أعظم انتصار في تاريخه حيث حصل على أكثر من (٤٠) مقعداً في المجلس النيابي، وأصبح منذ ذلك الوقت وحتى عام ١٩٥٨ يشكل الأكثرية البرلمانية.

غير أن هذا الحزب على الرغم من أكثريته في المجلس النيابي، لم يستطع ايجاد الوسيلة للتفاهم مع قيادة الجيش السوري الذي اخذ يلعب دوراً هاماً في السياسة الداخلية منذ بداية الانقلابات العسكرية، كما أصر قادته على

رفض مبدأ تدخل العسكريين بالسياسة، ولكن بعضهم لم يتقيد بهذا المبدأ وحاول استخدام بعض العسكريين للحصول على مكاسب معينة ولكن هذه المحاولات لم تقترن بنتائج عملية. وقد برهنت التجارب على ان المبدأ الذي تبناه مؤسسو حزب الشعب الرئيسيين كان صحيحاً من الناحية النظرية المثالية، ولكنه كان سلبياً وغير واقعي من الناحية العملية، وأدى بالنتيجة الى فشل سياسي خطير، ومن أبرز شخصيات هذا الحزب السادة:

رشدي الكيخيا، ناظم القدسي، معروف الدواليبي، أحمد قنبر، عبد الوهاب حومد، رشاد برمدا، علي بوظو، فيضي الأتاسي، عدنان الأتاسي، رشاد جبري، رزق الله انطاكي.. وغيرهم.

ج) الحزب الشيوعي:

تأسس هذا الحزب في سورية عام ١٩٢٧ وهو بذلك أقدم الأحزاب السياسية العقائدية في البلاد. وكان في ذلك الوقت يعمل في الخفاء ولم يكن له في الواقع أي تأثير في النشاط السياسي والحركة الوطنية.

وقد ظهرت أولى نشاطاته بين أوساط الأقليات والطبقة العاملة في المدن الرئيسية. وعندما أعلنت ألمانيا الهتلرية الحرب على الاتحاد السوفييتي، وانضم السوفييت الى الحلفاء، أخذت السلطات الفرنسية تتغافل عن نشاط هذا الحزب خاصة بعد دخول القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة الى سورية ولبنان عام ١٩٤١.

وفي هذه الفترة نشط الحزب الشيوعي واستطاع اكتساب أعداد من العمال والمثقفين في دمشق، وحلب وحمص، وكان على اتصال دائم بالحزب الشيوعي اللبناني. وبنهاية الحرب استمر الحزب الشيوعي يعمل بشكل خفي رغم محاربة السلطات الرسمية له، ولكنه مع ذلك حقق نجاحات لا بأس بها بين الطبقة العاملة وفئات المثقفين مستفيداً من كارثة فلسطين ومواقف الدول الاستعمارية من القضايا العربية، ومن الدعم الذي أخذ يقدمه الاتحاد

السوفييتي والبلدان الاشتراكية لحركة التحرر العربي وحركات التحرر في العالم بشكل عام. وفي انتخابات عام ١٩٥٤ استطاع الحزب أن يحصل لأول مرة في تاريخ سورية على مقعد في المجلس النيابي وأصبح زعيم الحزب السيد خالد بكداش أحد نواب مدينة دمشق عن «دائرة حي الأكراد الانتخابية».

وقد لعب هذا الحزب دوراً فعالاً في حياة سورية السياسية في فترة مقاومة «حلف بغداد» والعدوان الثلاثي، واستمر يساهم في الائتلاف الوطني التقدمي حتى قيام الوحدة بين مصر وسورية، حيث أبدى معارضته الصريحة لهذه الوحدة، الأمر الذي أدى الى محاربته وعرض قياداته للمطاردة والاضطهاد فيما بعد.

ويمكن القول ان هذا الحزب لم يستطع حتى هذا التاريخ استعادة مكانته التي حصل عليها في الخمسينيات لأسباب عديدة، من أهمها الانشقاق الخطير الذي أدى الى انقسامه وفقدانه الكثير من أنصاره ومن تعاطف الجماهير معه.

د) الحزب القومي السوري الاجتماعي:

انتعشت الفاشستية في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، وأصبحت تستهوي نفوس الكثيرين في أوروبا وبلدان البحر المتوسط وأمريكا اللاتينية وآسيا خاصة بعد وصول الحزب النازي الى السلطة في ألمانيا وتكريس النظام الفاشستي في ايطاليا. وقد تميزت هذه الحركات بتنظيماتها شبه العسكرية (القمصان الحديدية) التي تلبي رغبات الشباب بالتدريب والتنظيم والانضباط.

ومن المعروف ان ايطاليا الفاشية أخذت في الثلاثينيات تحلم باستعادة أمجاد روما القديمة في حوض البحر الأبيض المتوسط (نوستر وم) وتتطلع الى تقاسم النفوذ مع الامبراطوريات الأوروبية الاستعمارية القديمة (بريطانيا العظمى وفرنسا).

في هذا الجو ظهر الى الوجود «الحزب القومي السوري الاجتماعي»

بزعامة السيد أنطون سعادة، الذي رفع شعار «القومية السورية» في اطار سورية الطبيعية (سورية ولبنان وفلسطين والأردن وجزء من العراق)، أوما يسمى «الهلال الخصيب»، هذا الجزء الذي لعب دوراً أساسياً في تاريخ المنطقة وتاريخ العالم منذ أقدم العصور، ونادى الحزب بنفس الوقت بالنضال ضد المستعمرين الفرنسيين والبريطانيين الأمر الذي شجع العديد من الشباب للانتساب الى هذا الحزب بسبب عدائه للاستعمار الفرنسي والصهيونية التي بدأت تتطلع لاقتطاع جزء من سورية اعتماداً على اتفاقية سايكس ـ بيكو. وخاصة الانتداب البريطاني في فلسطين، ووعد بلفور المشؤوم.

وهكذا كانت الشعارات والمبادىء التي نادى بها الحزب، بمثابة تحدٍ مباشر لمعظم الأحزاب المعروفة في سورية والتي تنادي بالقومية العربية وتدعو للوحدة العربية الشاملة. وترتب على هذا التناقض العقائدي قيام عداوة عنيفة وصراع مكشوف بين هذا الحزب وبقية الأحزاب السياسية في سورية وخاصة منها حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي.

وفي عام ١٩٤٩ اتهمت الحكومة اللبنانية الحزب القومي السوري بتدبير مؤامرة للاستيلاء على السلطة، مما اضطر زعيم الحزب انطون سعادة للالتجاء الى سورية، ظناً منه بأنه سيلقى الحماية الكافية من قائد الانقلاب العسكري الزعيم حسني الزعيم. غير أن هذا الأخير خيب ظنه ولم يحترم الأعراف والتقاليد في مثل هذه الحالات إذ عمد الى تسليمه للسلطات اللبنانية التي نفذت فيه حكم الاعدام.

كان اعدام انطون سعادة ضربة قاصمة لهذا الحزب وأدت بنفس الوقت الى نمو مشاعر الحقد والثأر بين بعض أفراده، كان من نتائجها الاقدام على سلسلة من الاغتيالات من أهمها اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السيد رياض الصلح، كما اتُهمت قيادة الحزب في عام ١٩٥٥ بتدبير اغتيال المرحوم العقيد عدنان المالكي، وترتب على هذه التهم حل الحزب ومطاردة أعضائه في سورية وتشتتهم. ولم يستطع الحزب منذ ذلك الوقت القيام بأي نشاط رسمي مكشوف في سورية؛ وتركز نشاطه في لبنان، وساهم منذ السبعينيات بدور هام وايجابي

بالنضال للمحافظة على وحدة لبنان وهويته العربية ضد القوى الطائفية والعدوان الاسرائيلي.

هـ) الاخوان المسلمون:

تأسست جمعية الاخوان المسلمين في بادىء الأمر على شكل هيئة اجتماعية دينية مقتفية آثار جمعية الاخوان المسلمين في مصر بزعامة المرشد العام حسن البنا. إلا انها مالبثت ان تحولت الى منظمة سياسية نشيطة تحاول القيام بدور فعال في سياسة سورية الداخلية بالاعتماد على العلاقة العضوية التي تربط معظم أعضاء هذه الجمعية بالأوساط الشعبية وبالمساجد.

وفي الانتخابات التشريعية التي جرت في عام ١٩٤٩، استطاعت هذه الجمعية لأول مرة الحصول على أربعة مقاعد في المجلس النيابي، ثلاثة في دمشق (حصل عليها السادة محمد المبارك، والشيخ عبد الرؤوف أبو طوق والاستاذ مصطفى السباعي) ومقعد في حلب (الأستاذ مصطفى الزرقا).

ومنذ ذلك الوقت أخذت الجمعية طابع الحزب السياسي وبدأت تساهم عن طريق ممثليها في البرلمان مساهمة فعالة في المناورات السياسية داخل المجلس النيابي وخارجه، وتحالفت مع الأحزاب اليمينية.

وقد وصل نشاط هذه الجمعية ذروته بعد انتخابات عام ١٩٦٢ بعد استلام السيد عصام العطار حيث استطاعت الحصول على عشرة مقاعد في المجلس النيابي، وأصبحت تشكل احدى الكتل الرئيسية التي تسعى جميع الأحزاب لخطب ودها وتقديم التنازلات لصالحها. ويبدو أن هذا الانتصار السهل أغرى قادة الاخوان فأخذوا يتطلعون للمغامرات والاستيلاء على السلطة بكل الوسائل، الأمر الذي قادهم في السنوات الأخيرة الى اللجوء للأعمال التخريبية والاغتيالات مما لاينطبق على سلوك الأحزاب السياسية الديمقراطية ويتناقض مع طبيعة جماهير الشعب في سورية.

منظمات أخرى:

واخيراً فقد انشيء في سورية خلال ظروف خاصة معينة بعض المنظمات والأحزاب السياسية إلا أنها لم تعمر طويلاً، وزالت مع زوال هذه الظروف ومن بين هذه المنظمات:

١ - حركة التحرير: التي أنشأها الزعيم أديب الشيشكلي.

٢ - الحزب التعاوني الاشتراكي: الذي أسسه السيد فيصل العلي بالتعاون مع المحامي المعروف سيف الدين المأمون.

٣ - الكتلة الجمهورية: التي ظهرت بعد انقلاب الزعيم أديب الشيشكلي وبتشجيع منه للمحافظة على التوازن داخل البرلمان والوقوف في وجه الأكثرية التي يسيطر عليها حزب الشعب آنذاك. وكان من أبرز اعضائها النواب السادة: عبد الباقي نظام الدين، وسعيد اسحق، وحامد الخوجا.

٤ - القوميون العرب: أسس هذا الحزب مجموعة من الطلاب العرب الذين يدرسون في الجامعة الأمريكية في بداية الخمسينيات، وسرعان ماأصبح لهذا الحزب فروع في كثير من البلدان العربية (من اليمن الجنوبي حتى العراق). وقد ظهر نشاط هذا الحزب بعد قيام الوحدة السورية المصرية وأصبح يلعب دوراً هاماً على الصعيد الجماهيري ثم مالبث أن شارك في الحكم في سورية والعراق، وأسهم مساهمة فعالة بالحركات والأحداث والتغيرات السياسية التي وقعت في جنوب الجزيرة العربية ودول الخليج العربي وعلى الساحة الفلسطينية بشكل خاص.

وعلى أثر حرب حزيران ١٩٦٧ وقع انشقاق داخل الحزب، وأدخلت تعديلات جوهرية على دستوره الأساسي فإذا به ينقسم الى حركتين:

الجبهة القومية: بزعامة الدكتور جورج حبش.

الجهة الديمقراطية الشعبية: بقيادة السيد نايف حواتمة.

ومنذ ذلك الوقت تركز نشاط هاتين الحركتين على المساهمة في المقاومة الفلسطينية وتضاءلت نشاطات فروعه في السياسات الداخلية للأقطار العربية، أو انها لجأت الى العمل السري بسبب الظروف الاستثنائية التي تعيشها المنطقة.

٥ - **الاتحاد الاشتراكي العربي**: وهو عبارة عن فرع الحزب الذي أنشأه المرحوم جمال عبد الناصر أثناء الوحدة بين مصر وسورية كبديل لحركة «الاتحاد القومي». . ويتزعم هذا الحزب في سورية الدكتور جمال الأتاسي، ويضم عدداً من الوحدويين (الناصريين)، غير انه لايمارس عملياً أي نشاط ملحوظ.

٦ - **حزب الوحدويين الاشتراكيين**: وهو عبارة عن تجمع من الوحدويين الناصريين الذين انشق معظمهم عن الاتحاد الاشتراكي العربي، وعن حزب البعث العربي الاشتراكي بعد قيام الوحدة،

٧ - **الحزب الاشتراكي العربي**: وهو الوريث للحزب الاشتراكي الذي أنشأه السيد أكرم الحوراني، ويتزعمه حالياً السيد عبد الغني قنوت، ويضم عدداً قليلاً من بقايا الحزب القديم.

هذا وتجدر الاشارة الى ان تاريخ سورية الحديث شهد أدواراً حاسمة لعبها بعض الشخصيات المستقلة البارزة تركت بصماتها على السياسة العربية والداخلية والحياة الاقتصادية بشكل عام. . ومن أبرز هذه الشخصيات:

السيد خالد العظم: الذي ينحدر من أسرة عريقة، لعبت أدواراً هامة في تاريخ سورية. وكان السيد خالد العظم من السياسيين اللامعين، واسع الثقافة، هيأت له تجاربه الدبلوماسية وتحمله أعباء الحكم مرات عديدة، ليقوم بدور لايقل أهمية عن أدوار الأحزاب السياسية.

السيد سعيد الغزي: وقد ترأس الوزارة عدة مرات.

السيد حسن الحكيم: رئيس وزراء سابق، ويعتبر من خيرة الخبراء والاداريين في سورية.

السيد عبد الرحمن العظم: شغل منصب وزير المالية، وأصبح نائباً عن حماة، وهو من الشباب المثقف الذي برهن على كفاءة عالية.

السيد حسني البرازي: من زعماء اليمين في سورية، انتخب أكثر من مرة نائباً عن مدينة حماة، وشغل منصب رئيس الوزراء في عهد الانتداب وكان من أكبر خصوم الحركة الاشتراكية.

السيد رئيف الملقي: نائب حماة، ومحام لامع، وكان من أبرز أعضاء الكتلة البرلمانية المعارضة في بداية الاستقلال.

الدكتور منير العجلاني: أستاذ القانون في الجامعة السورية، ونائب عن مدينة دمشق، ومن أبرز المؤيدين لمشروع سورية الكبرى، وقد شغل منصب وزير المعارف والعدلية، وكان له دور بارز في الخمسينيات.

الصراع الدامي على السلطة ومواسم خصبة وثمار مرة

لئن جمع النضال ضد دكتاتورية الشيشكلي بين جميع الأحزاب والقوى السياسية التقليدية فقد فرق بينها الصراع على السلطة منذ الساعات الأولى التي تلت سقوط الشيشكلي والعودة الى الحياة البرلمانية الديمقراطية. ولعل في الاستعراض السريع لعدد الحكومات التي تعاقبت على سورية منذ بداية الاستقلال حتى بداية عهد الشيشكلي مايدل على ان النظام الديمقراطي لم يؤمن الشروط اللازمة للاستقرار والتنمية الاقتصادية وبسبب الصراع المستميت على النفوذ من قبل الدول الكبرى وخاصة بريطانية والولايات المتحدة وفرنسا، الأمر الذي جعل المقارنة بين فترة الاستقرار والتطور الاقتصادي في عهد الشيشكلي والفترات المضطربة التي سبقتها تميل لصالح النظام الرئاسي وتكشف عن بعض نقاط الضعف في النظام الديمقراطي البرلماني في سورية مما يشجع البعض على المغامرات. كما أن القوى السياسية والأحزاب لم تكن من القوة وصلابة التنظيم الى الحد الذي تستطيع معه الدفاع عن الحريات الديمقراطية والوقوف في وجه المغامرات التي يقوم بها العسكريون. علماً بأن

القوات المسلحة أصبحت بسبب الصراع العربي - الاسرائيلي القوة الوحيدة المتماسكة والمنضبطة التي تملك من وسائل القمع الحديثة مالاتملكه أقوى المنظمات والأحزاب . وعلى أساس هذا الواقع وحده أصبحت القوات المسلحة في بعض البلدان العربية وخاصة سورية قوة سياسية قاهرة لايمكن تجاهلها بل لايمكن كسب معركة السلطة دون ضمان حيادها والتحالف معها أو الرضوخ لها . وطبيعي ألا يخفى على الدول الكبرى التي تسعى لإدخال سورية في مناطق نفوذها وضمن شبكة أحلافها ، ولهذا أصبحت تضع الاهتمام بالقوات المسلحة وببعض القادة وميولهم السياسية بين أهم الأسبقيات ، لذلك نعتقد ان الانقلابات العسكرية في سورية وفي بعض البلدان العربية وخاصة منها بلدان المواجهة مع اسرائيل كان وراءها دائماً أياد أجنبية ، فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حاولت بريطانيا العظمى الحلول عسكرياً وسياسياً واقتصادياً مكان الانتداب الفرنسي ولكن الظروف الدولية وإصرار الشعب السوري على الاستقلال الكامل ، اضطرها للانسحاب مع فرنسا ، غير ان ذلك لم يثنها عن هدفها الأساسي ، وهو السيطرة على كامل منطقة الشرق الأوسط ، لذلك أخذت تشجع النظامين الهاشميين في عمان وبغداد لايجاد صيغة ما تضمن لها بسط نفوذها على سورية . واستمر ذلك حتى عام ١٩٥٦ أي بعد فشل حرب السويس عندما اضطرت هي وفرنسا النزوح عن المنطقة كلياً وتسليم الولايات المتحدة الأمريكية مهمة الدفاع عن مصالح الغرب في كامل المنطقة شرقي البحر الأبيض وشمال افريقيا . وفي هذه المرحلة أصبح الصراع على النفوذ بين العملاقين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وطبيعي ان تتم الأحداث في هذه المنطقة الحساسة من العالم بالمواجهة المباشرة من هاتين الدولتين من خلال القوى المحلية ، وكانت الحروب الاسرائيلية - العربية والنزاعات العربية - العربية وأخيراً لاآخراً الحروب والأزمات بين بعض البلدان العربية وجيرانها في آسيا (كإيران وتركيا) أو في افريقيا (كالحرب في تشاد) تجسيداً حياً لهذه المجابهة التي أطلق عليها الحرب الباردة ، لذلك ومهما كان دور العوامل الوطنية أو القومية أو الايديولوجية في الأحداث الخطيرة بين ١٩٤٥ و١٩٩١ ، فإن الصراع على

الشـرق الأوسـط وثرواته هو العامل الأسـاسـي ، وان العناصر التي لعبت فيه بنية حسـنـة نزيهـة أوعن علم كامـل بالخلفيـات ، فإنها كانت أدوات وليـست محركاً، وعنـدمـا كانت تحاول الخـروج عن المخطـط الاسـتراتيجي المرسـوم ، تصاب بالشـلل وتسـقـط ، وهـذه الحقيقـة أصبحت عنصراً أساسياً في السـياسـة السـورية الداخلية والعربية والدولية ، منذ عام ١٩٤٩ حتى الآن مروراً بالوحدة بين مصر وسـورية ، والانفصال وثورة ٨ آذار ١٩٦٣ في سـورية ، و١٤ تموز في العراق و٢٣ يوليه في مصر . مواسم خصبة وثمار مرة .

ولقد أدرك حزب البعث هذه الحقيقة ووعاها منذ الانقلاب الأول وأصبح يكيف سياسته بما يتلاءم مع الرأي العام في الجيش وأخذ يضع الخطط للتسلل الى هذه المؤسـسـة الـوطنيـة المسلحـة ليكـون له الحـظ الأوفـر من دعمها ، أما الأحـزاب الأخـرى ، فقـد جهلت أو عجـزت عن اسـتثمار هذه الظاهرة وعندما تنبهت الى أهميتهـا بعـد انقلاب سامي الحناوي أخذت تحاول تسـخيرها بإقامة علاقـات فرديـة مع بعض الضبـاط الكبار الذين يتعاطفون معها ، ولكن عقرب الزمن كان أسرع منها ذلك ان اتساع القوات المسلحة والخدمة الالزامية جعلتها أميـل الى الاتجاهات التقدمية والاصلاحات الاجتماعية الجذرية التي تنادي بها الأحزاب التقدميـة ، وخاصة منها حزب البعـث العربـي الاشـتراكي الذي يتميز عن بقية الأحزاب التقدمية بتمسـكه بالقومية ودعوته للوحدة العربيـة ، التي تلاقي صـدى عميقاً لدى الغالبـة العظمى من الشعب وبالتالي أفراد القوات المسلحة .

هذا بالاضافة الى ان نجاح الثورة في مصر بعد اتفاقية الجلاء وبروز عبد الناصر كزعيم لهذه الثورة وتبنيها لفكرة الوحدة العربية ودعوتها للحياد الايجابي بين الكتلتـين المتصـارعتـين ورفضهـا الدخول بالأحلاف العسـكرية ، ومناداتها بالاشـتراكية ، أصبح يلاقي صدى بين جماهير الشـعـب في سـورية وفي الوطن العربي .

بدأ نجم جمال عبد الناصر بالصعود والاشعاع خلال النضال ضد حلف بغداد في منتصف الخمسـينيات ، وأصبح «بارومتر السـياسـة» في سـورية هومدى العـلاقـة بين أيـة حكـومـة سوريـة وبين الثورة المصرية ، وكانت من نتائج هذا

التوجه تصاعد شعبية عبد الناصر في سورية، وبالتالي ارتفاع مكانة ودور سفير مصر كممثل لعبد الناصر وثورته إذ فتحت له جميع الأبواب، فأقام علاقات وثيقة مع جميع الأحزاب حتى خيل له بأنه قادر على توجيهها، الأمر الذي كان له أسوأ النتائج بعد قيام الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨ وغدا ذلك مقياساً أيضاً بنظر الشعب والجيش. ولعل عدم تقدير السفير السيد محمود رياض لهذه الناحية بالذات هو السبب في بعض الأزمات التي حصلت في سورية خلال فترة الوحدة بعد ان سمي مستشاراً للرئيس الى جانب الوزارة الاقليمية، لأنه لم يستطع فهم عقلية الشعب في سورية والدوافع التي تكمن وراء تقديره للسياسة التي أخذت تسير عليها الثورة في مصر ويُجسدها عبد الناصر بالذات، فبدأ يتصرف وكأنه قادر على توجيه السياسة السورية. وكان لهذا الوهم نتائج سلبية أضرت بالوحدة، عندما عين السيد رياض مستشاراً للرئيس عبد الناصر في سورية، وحاول التسلط على الوزارة التنفيذية فأثار حفيظة نواب الرئيس السادة صبري العسلي، وأكرم الحوراني والوزراء، ولذلك سماه البعض بالمفوض السامي مقارنة بعهد الانتداب. . .

لقد خيل لكل من الأحزاب الرئيسية في سورية «حزب الشعب والحزب الوطني وحزب البعث» ان الطريق أصبح ممهداً أمامها بعد الاطاحة بأديب الشيشكلي لكي تسيطر وحدها على السلطة، وتجر خلفها الأحزاب الأخرى، وتوهم بعضها ان الجيش لم يعد له الدور الحاسم الذي لعبه منذ الانقلاب الأول في السياسة الداخلية وبينما كان حزب الشعب يرفع مبدأ «الشرعية الدستورية والبرلمانية» معتمداً في ذلك على مؤتمر حمص وعودة المجلس النيابي المنتخب الذي كان له فيه الأغلبية، نسي هؤلاء ان شرعية عام ١٩٤٩ إنما قامت نتيجة الانتخابات التي جرت في ظل انقلاب اللواء سامي الحناوي ونال بموجبها حزب الشعب الأكثرية البرلمانية. أما الحزب الوطني فكان في موقف دقيق جداً فهو الى جانب الشرعية، ولكنه يريد استغلال «حكومة صبري العسلي» لكي يعيد تنظيم صفوفه ويستعيد مكانته التي يحن اليها قبل انقلاب حسني الزعيم والتي انتزعها منه حليفه حزب الشعب في ظل انقلاب الحناوي. . أما بالنسبة

للسياسة العربية فهو لايستطيع المزاودة على حزب الشعب بالنسبة للاتحاد مع العراق، ولايمكن ان يجاري حزب البعث بالدعوة للوحدة العربية وخاصة مع مصر وليس له نصيب كبير في الرأي العام داخل الجيش لأنه في نظر الغالبية يمثل الرجعية التقليدية . . . لهذا أخذ يتأرجح ويناور من اليسار الى اليمين، بل لقد فكرت قيادته بالتعاون مع بعض الضباط الكبار المعروفين ليكون له حصة من دعم الجيش. وكان رئيسه السيد صبري العسلي أشبه بالبهلوان الذي يحاول اللعب على الحبال ففقد مصداقيته وخسر عدداً من كبار شخصيات الحزب الذين فضلوا التحالف مع حزب الشعب والمناداة بالاتحاد مع العراق ومن بين أبرز هؤلاء السادة ميخائيل ليان نائب حلب ولطفي الحفار نائب دمشق.

أما «حزب البعث» فكان يركز جل اهتمامه على القوات المسلحة وأصبح يعتمد كلياً عليها، خاصة وان مساهمته الفعلية، بواسطة الضباط الحزبيين ومن بينهم مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت، بإسقاط الشيشكلي بالاضافة لعلاقته الوثيقة بالمرحوم العقيد الركن عدنان المالكي، هيأت له الفرصة المؤاتية لاستلام الضباط المؤيدين له بعض المراكز الحساسة في الأركان العامة (العقيد عدنان المالكي، رئاسة الشعبة الثالثة - العمليات - مصطفى حمدون، الشعبة الأولى، بشير صادق، الشعبة الثالثة) والاعتماد على اللواء شوكت شقير الذي أصبح رئيساً للأركان وصديقاً لحزب البعث، وفي الوحدات البرية عدد كبير من الضباط الشباب مثل (عبد الغني قنوت، وأمين الحافظ، ومحمد عمران وعبد الغني غباش . . الخ) وفي القوى الجوية (النقيب حافظ الاسد) وفي المدفعية والمشاة (صلاح جديد وأحمد سويداني) وكان بعض هؤلاء من أصدقاء السيد أكرم الحوراني شخصياً رغم انتمائهم للبعث والبعض الآخر من قدامى حزب البعث بزعامة الاستاذ ميشيل عفلق وصلاح البيطار.

الصراع للسيطرة على القوات المسلحة:

بعد ان اطمأن الضباط البعثيون لسيطرتهم على رئاسة الأركان وبعض الوحدات المدرعة بدأوا بتنفيذ مخططهم للسيطرة الكلية على القوات المسلحة بكاملها واعتقدوا ان الجو أصبح ملائماً لكي يطهروا هذه القوات من كل العناصر التي لا توافق على «تحويل الجيش الى مؤسسة حزبية». ويظهر انهم أخطأوا في تقدير قواتهم الحقيقية ولم يأخذوا بعين الاعتبار التناقض الذي يفصل بينهم وبين القوى السياسية التي تعاونوا معها لاسقاط الشيشكلي والتي لا تقل عنهم رغبة بالسيطرة على الجيش... خاصة وقد كانت تسيطر في الحكومة على اهم المركز الحساسة في الدولة وتشكل الأكثرية في البرلمان، مما لا يمكن تجاهله في الخطوات العملية التي تهدف الى تطهير الجيش، فرئاسة الجمهورية ووزارة الدفاع والأكثرية البرلمانية هي من حزب الشعب، ورئاسة الحكومة بيد الحزب الوطني، وان تسريح أي ضابط من الجيش لا بد وان يحظى بموافقة وتوقيع هؤلاء.

وعلى أساس هذا الحساب المشرع قرر حزب البعث أو على الأقل الضباط الذين يمثلونه في الجيش، البدء أولاً بتصفية الضباط الذين اعتبروهم من «أنصار الشيشكلي» لاعتقادهم بأن هذه الخطوة تحظى بموافقة اجماع حكومة الائتلاف، لذلك وضعوا لائحة أسماء بعض الضباط الذين يجب تصفيتهم وأعدت رئاسة الأركان مشروع مرسوم بتسريح دفعة أولى رفعت الى وزير الدفاع وكان من بين الضباط الذي وردت أسماؤهم في قرار التسريح الأشخاص التالية:

المقدم أمين النفوري - المقدم أحمد المصري - الرئيس حسين حدة - الرئيس أحمد عبد الكريم - الرئيس عبد الحميد السراج - الرئيس غالب الشقفة - الرئيس بكري الكزبري - الرئيس عبد الحق شحادة - الرئيس أدهم

عدي - الرئيس برهان أدهم - الرئيس حسين القاضي - الرئيس طعمة العودة الله - والرئيس أحمد حنيدي - والرئيس عبد الحق شحادة.

ولما كنت وأمين النفوري وأحمد المصري في باريس فقد استدعينا ببرقية عاجلة للعودة الى دمشق في ٢٠ حزيران ١٩٥٤ وكانت دورة الأركان قد انتهت ولم يبق أمامنا سوى احتفالات التخرج . . . تلقينا أمر الاستدعاء عن طريق الملحق العسكري الذي قام باتخاذ الترتيبات الفورية لعودتنا.

وعندما وصلنا دمشق أبلغنا رئيس الشعبة الثانية آنذاك الرئيس مصطفى رام حمداني، بأن نلتزم منازلنا ريثما يبت بأمرنا، وفرضت علينا الرقابة . . .

غير ان هذه الرقابة لم تكن من الشدة بحيث تمنعنا من الاتصال بعضنا وببعض أصدقائنا من الضباط الذين لازالوا في الجيش على رأس وحداتهم . . . كما لم تمنع القوى المتصارعة في الميدان السياسي لأن تتنبه لخطة حزب البعث وتحاول الاتصال معنا. فقد اتصل بنا الرئيس مصطفى الدواليبي شقيق الدكتور معروف الدواليبي وأعلمنا بالمرسوم الذي أعدته رئاسة الأركان ووقعه الزعيم شوكت شقير لتسريحنا كدفعة أولى، وقال لنا بأن شقيقه وزير الدفاع رفض توقيع هذا المرسوم واقترح علينا التعاون معه للحيلولة دون هيمنة الضباط البعثيين على الجيش؛ ولكننا رفضنا هذا الاقتراح وأكدنا له بأننا لانقبل الاشتراك بأية عملية مهما كانت ولن نتدخل بالسياسة والصراع بين الأحزاب ولو كان ذلك ثمناً لتسريحنا.

وبعد أيام علمنا ان وزير الدفاع وقع مرسوم التسريح ورفعه الى رئيس الوزراء، وهنا جاء دور السيد صبري العسلي رئيس الحكومة الذي أرسل لنا «العقيد زهير الصلح» من جهة وبعض نواب الحزب الوطني من جهة ثانية، وعرضوا علينا التعاون مع الحزب الوطني للوقوف في وجه ضباط حزب البعث ولكننا كررنا رفضنا لهذه المساومات وأكدنا اصرارنا على البقاء بعيدين عن هذه النزاعات . . . وكانت النتيجة ان وقع السيد صبري العسلي رئيس الوزراء مرسوم التسريح ورفعه لرئاسة الجمهورية، وهنا أيضاً أتانا بعض الرسل من قبل وزير الدولة السيد عدنان الأتاسي يعرض علينا التعاون مع حزب الشعب من

أجل تصفية بعض الضباط البعثيين الذين يسخرون الجيش لصالح حزبهم . . . ولكننا رفضنا للمرة الثالثة . . . وقد تأكد لنا بعد ذلك ان الرئيس هاشم الأتاسي رحمه الله رفض توقيع أي مرسوم بتسريح الضباط مهما كانت الأسباب وأعاد المرسوم لوزارة الدفاع دون توقيع .

وفي هذا الوقت بالذات ، اتصل بنا الضابط «برهان أدهم» وأبلغنا ان العقيد محمد صفا اتصل به وطلب اليه ان ينقل لي ولأمين النفوري رغبته بالتعاون مع كتلة الضباط المسماة بأنصار الشيشكلي ليقوم بانقلاب عسكري على ان نتقاسم معه المراكز الهامة في الجيش وان نترقى لرتب أعلى . . . وان نخلص البلاد من الضباط البعثيين ، فأكدنا للمرة الرابعة اننا نرفض المساهمة بأي عمل انقلابي أو سياسي مهما كان هدفه .

الاتصال بالعقيد الركن عدنان المالكي :

الحقيقة أننا فوجئنا بشدة الصراع الذي يمزق عناصر الائتلاف التي أطاحت بالشيشكلي ومحاولة كل طرف الكيد والتآمر على الطرف الآخر ، وكنا نستغرب أيضاً موقف الضباط البعثيين المسيطرين على الأركان العامة ، وأصبحنا نعتقد ان الحقد الشخصي يسيطر على بعضهم لدرجة تعميهم عما يدور حولهم من مؤامرات ومايحيق بسورية من مخاطر خارجية . وزادت دهشتنا عندما أرسل الي الزعيم شوكت شقير ، رئيس الشعبة الثانية السيد مصطفى رام حمداني يبلغني فيه وجوب مغادرة دمشق والذهاب الى قريتي في حوران ، وكان ردي الفوري ان بلدي هو دمشق ، أما بلد شقير بهو «أصيون» في لبنان وانه اذا كان لابد لي من الخروج من منزلي فليكن ذلك الى سجن المزة فقط وهذا مايستطيع ان يفعله . وقد علمت بنفس اليوم من زملائي الآخرين انهم تلقوا مثل هذا الانذار ، وكان جوابهم كجوابي دون أي اتفاق مسبق .

بعد ان وصلت الأمور الى هذا الحد قررت مع العقيد أمين النفوري الاتصال بالعقيد عدنان المالكي رئيس الشعبة الثالثة للتشاور معه ووضعه

بالصورة باعتباره أقدم الضباط المسؤولين في الجيش بعد رئيس الأركان لثقتنا بوطنيته وترفعه عن المصالح الأنانية، هتف النفوري للعقيد المالكي، فوافق فوراً على استقبالنا في نادي ضباط حامية دمشق القديم، رحب بنا أجمل ترحيب عندما التقينا به بعد دقائق وأكدنا له ان الدافع الذي حدا بنا للاتصال به ليس الخوف من التسريح أو النفي أو السجن، كما لانبغي تزويده بالمعلومات عن القوى التي تتآمر عليه وعلى رفاقه لأننا لانقبل ان نقوم بهذا الدور ولكننا أصبحنا نعتقد ان هناك قوى خارجية تريد خلق فتنة في القوات المسلحة والقيام بانقلاب عسكري لصالحها وتمزيق وحدة الجيش والوحدة الوطنية، ولما كانت البلاد ليست ملكاً لأحد ولاعتقادنا ان ضرب حزب البعث وتصفية الضباط الموالين له في القوات المسلحة لن يكون في صالح سلامة سورية والأمة العربية فقد جئنا لننبه الى وجود مؤامرات تسعى ليل نهار لقلب الوضع وقد حاولت بعض الجهات من الحكومة وخارجها اغراءنا بالتواطؤ معها مقابل عدم تسريحنا بل وترقيتنا الى رتب أعلى وتريد ان تعلم القيادة اننا لن نساهم في أي عمل من هذا النوع مهما كان موقفها منا وحتى لو سرحنا من الجيش، وان نضعها أمام مسؤولياتها.

بدأ التأثر على وجه المرحوم العقيد المالكي . . . وقال: انا على علم بهذه المؤامرات واني شخصياً أقدر فيكم وبرفاقكم هذا الموقف الوطني ورفضكم الاصغاء لكل المغريات رغم معرفتكم بأننا نريد التخلص منكم . . وأضاف بأنه سيعلم رفاقه الضباط برأيه ويخيرهم بين المصالحة معنا أو تخليه هو عن مسؤولياته في الجيش. وانتهت مقابلتنا له بعد ان طلب إلينا زيارته في صباح اليوم الثاني في مكتبه برئاسة الأركان. وعندما ذهبنا اليه في اليوم الثاني رحب بنا ثم استدعى معاونيه في قيادة الجيش آنذاك وهم النقيب مصطفى حمدون والمقدم بشير صادق والنقيب أكرم الديري وشرح لهم الوضع العام وأعلمهم بما كان بيننا وبينه في الأمس وخلص للقول بأن المصلحة العامة تقضي بالتعاون بين جميع القوى الوطنية التقدمية في الجيش وخارجه ثم قام ووضع يده على

مصحف كان على مكتبه وقال لهم: إني أقسم بهذا القرآن اذا لم تتصالحوا مع إخوانكم فسأترك الجيش وأذهب الى بيتي . . .

وفي هذا الجو المؤثر تمت المصالحة والعناق . . . وعدنا الى منازلنا ننتظر النتيجة .

وفي الأيام التالية علمنا ان رئاسة الأركان ألغت مشروع التسريح . . . وصدرت القرارات بتعيين العقيد أمين النفوري ملحقاً عسكرياً في بغداد ، وتعييني في قيادة اللواء الثاني في حلب ، وتعيين الرئيس طعمة العودة الله ملحقاً عسكرياً في باريس وتوزيع بقية رفاقنا الضباط على الوحدات

مرحلة الوئام بين العناصر التقدمية في القوات المسلحة بين ١٩٥٤ واغتيال المرحوم العقيد عدنان المالكي :

أصبح واضحاً في عام ١٩٥٤ ان البلاد أصبحت منقسمة الى قسمين ويظهر ذلك جلياً في الأوساط السياسية من حكومة وبرلمان وأحزاب وهيئات ونقابات وزاد في توتر الوضع الداخلي النشاط المحموم الذي أخذت تبديه السفارات العربية وخاصة منها السفارات العراقية والسعودية والمصرية ، تحاول كل منها التقرب من أعضاء المجلس النيابي وتنقل المنافسة إليهم داخل البرلمان . وكان يقف وراء هذا الصراع دولتان كبيرتان هما بريطانيا التي تتشبث بفرض وجودها في الشرق الأوسط وبسط نفوذها على سورية من خلال النفوذ العراقي والولايات المتحدة التي تسعى لتصفية نفوذ أوروبا في المنطقة واملاء الفراغ لسد الطريق أمام التسلل الشيوعي كما أسلفنا ، كما أصبح واضحاً أيضاً ان كلا الدولتين رغم تناقض سياستهما تحاولان الوقوف في وجه العملاق السوفييتي الذي يمارس نفوذه من خلال الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، ويستفيد من انحياز الغرب لاسرائيل . وهكذا أصبحت سورية ميداناً لمعارك طاحنة اشتد رحاها عند طرح مشروع «حلف بغداد» وتبني الحكومة العراقية مهمة فرض هذا الحلف على البلدان العربية . ويبدو ان الولايات المتحدة لم

تكن ترحب كلياً بهذا الحلف الذي أقيم بمبادهة حكومة صاحب الجلالة البريطانية إلا انها لاتعارض بأن يكون مكملاً لحلف الأطلسي ومرتبطاً بقيادتها. ولم ترض المملكة السعورية عن الحلف لخوفها من هيمنة العائلة الهاشمية على الهلال الخصيب. ولم تقبل مصر الانزلاق لهذا الحلف لأسباب تتعلق بزعامة البلدان العربية ولأن الثورة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر أخذت تتجه الى «الحياد» بين المعسكرين وتبنى «سياسة عدم الانحياز» التي ارتفعت رايتها فيها بعد على أثر المؤتمر الافريقي الأسيوي في باندونغ عام ١٩٥٥. والواقع ان سورية كانت أول من رفض هذا الحلف واقترحت بدلاً عنه، توقيع معاهدة دفاع مشترك بين الدول العربية لمواجهة التحدي الاسرائيلي المباشر. وعدم التورط في الصراع بين الكتلتين الأمريكية والسوفيتية.

في هذه الظروف المعقدة اضطرت حكومة السيد صبري العسلي للاستقالة في ١١ حزيران ولم يمض على تشكيلها سوى مائة يوم. وكان العامل الأساسي في اسقاط هذه الحكومة هو فقدان الثقة بين رئاسة الأركان ووزير الدفاع الدكتور معروف الدواليبي ورئيس الوزارة الذي أخذت الشائعات تتهمه بالعداء للجيش وحزب البعث.

كلف رئيس الجمهورية الاستاذ سعيد الغزي بتشكيل الحكومة الجديدة، فألف حكومته من عناصر معروفة بحيادها واحتفظ لنفسه بالرئاسة والدفاع والخارجية. ونالت هذه الوزارة ثقة الجيش وبدأت تعد العدة للانتخابات النيابية وحددت لها موعداً في ٢٠ آب. وبعد قليل تم اعتقال العقيد المسرح محمد صفا وبعض أعوانه نظراً لنشاطاته وتحركاته المشبوهة لصالح حلف بغداد.

وفي نهاية شهر تموز قرر حزبا الشعب والوطني مقاطعة الانتخابات وأبلغا قرارهما لرئيس الوزراء وطلبا تأجيل الانتخابات الى موعد آخر بحجة ان الجيش عاد من جديد للتدخل بالسياسة ثم اتفقت جميع الأحزاب والكتل البرلمانية على تحديد تاريخ ٢٤ أيلول ١٩٥٤ كموعد للانتخابات على ان تشترك فيها جميع الأحزاب.

الانتخابات البرلمانية وعودة الرئيس السابق شكري القوتلي الى سورية :

وفي بداية شهر آب عاد الرئيس السابق شكري القوتلي الى سورية بعد غياب استمر حوالي ست سنوات الأمر الذي أدى الى رفع معنويات الحزب الوطني. وكان الجيش قد وافق على هذه العودة وأبلغ ذلك للرئيس القوتلي شخصياً للتأكيد على حياده ولفتح صفحة جديدة من الديمقراطية، تَجُبُّ كل ماقبلها خاصة وان المرشحين الآخرين لرئاسة الجمهورية آنذاك كانوا من الميالين للتعاون مع النظام الملكي في العراق وهم : السادة ناظم القدسي، ولطفي الحفار، وصبري العسلي، وصعوبة المراهنة على نجاح السيد خالد العظم الذي ينال عطف الأحزاب التقدمية وقيادة الجيش.

جرت الانتخابات النيابية على جولتين : الأولى في ١٤ و١٥ أيلول والثانية في ٤ و٥ تشرين الأول عام ١٩٥٤ وكانت النتائج كمايلي :

٦٠ مقعداً للمستقلين ـ ٣٠ مقعداً لحزب الشعب ـ ٢٢ مقعداً لحزب البعث ـ ١٩ مقعداً للحزب الوطني ـ ٣ مقاعد للاخوان المسلمين ـ مقعدان للحزب القومي السوري ـ مقعدان للحزب الاشتراكي التعاوني ـ مقعدان لحركة التحرير العربي ـ ومقعد واحد للحزب الشيوعي.

وكان أبرز مافي هذه الانتخابات هو تناقص مقاعد حزب الشعب وازدياد مقاعد حزب البعث وفوز أول نائب شيوعي بالنيابة هو السيد خالد بكداش، وكانت أهم معارك الحملة الانتخابية في مدينة حماة. . . إذ فازت قائمة السيد أكرم الحوراني بكاملها وعددها خمسة نواب، وخسرت قائمة السيد عبد الرحمن العظم على الرغم مما يتمتع به هذا الشخص من مزايا وكفاءات عالية، وقد أعطى هذا الفوز الساحق للسيد الحوراني مركزاً مميزاً ليس في حزب البعث الذي أخذ يهيمن عليه، بل وفي البرلمان باعتباره ممثلاً لكتلة تقدمية تضم ٢٧ نائباً، بالاضافة الى مؤيديه بين الضباط في القوات المسلحة. . وحقق السيد خالد

العظم فوزاً ساحقاً في دمشق وكان على رأس قائمة مستقلة بمواجهة قائمة الحزب الوطني والكتلة والاسلامية وأصبح بذلك في نظر الكثيرين في عداد القوى اليسارية بل لقد ذهبت بعض الصحف الغربية الى حد اتهامه بالشيوعية وتلقبه «بالمليونير الأحمر» . . .

أما انتخاب خالد بكداش ففسرته الصحف الأمريكية على انه برهان على تحول سورية بكاملها الى الشيوعية . ولعبت هذه الفكرة الخاطئة دوراً حاسماً في سياسة أمريكا تجاه سورية في السنوات التالية ، إذ أخذت تتصرف وكأن سورية اصبحت معرضة للانزلاق الى الكتلة السوفيتية ، ولابد من اتخاذ جميع التدابير لانقاذها بكل الوسائل .

الفصل السابع

الوضع العام في العالم العربي ومسألة حلف بغداد

بعد ان تم توقيع اتفاقية الجلاء عن قناة السويس من الجانبين المصري ـ البريطاني في تشرين الأول ١٩٥٤ ، اعتقدت بريطانيا انها أصبحت في وضع يمكنها مع استعادة ثقة العرب وأخذ المبادهة وفرض نفسها ممثلة لمصالح الغرب في المنطقة ، وزادها أملاً ذلك المشروع الذي قدمه السيد نوري السعيد رئيس وزراء العراق للجامعة العربية والذي يقضي بربط دول هذه المنظمة بتركيا وقبول المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة لأن هذا المشروع يعطي العراق دوراً أساسياً كهمزة وصل بين الجامعة العربية والكتلة الغربية مما يهيىء لبريطانيا الدول الأول في المنطقة العربية نيابة عن الغرب وحلف الأطلسي .

وبتاريخ ٢٤ / شباط ١٩٥٥ بادرت العراق بتوقيع الميثاق التركي ـ العراقي أو الحلف المركزي الذي عرف فيا بعد باسم «حلف بغداد» .

على الأثر قامت قيامة العالم العربي ، وهبت الجماهير في معظم الأقطار العربية لتعرب عن غضبها واستنكارها لسياسة الحكومة العراقية ، ورفضها لحلف بغداد الاستعماري ، الذي يهدف الى تخليد الوجود البريطاني على

التراب العربي، واعطائه طابعاً عربياً، وبالتالي وضع اسرائيل والعرب في سلة واحدة، وقبولها نهائياً كحقيقة ثابتة في قلب الوطن العربي.

الصراع العربي حول حلف بغداد:

كانت الثورة المصرية حتى نهاية عام ١٩٥٤ تعيد النظر في سياستها الخارجية على النطاقين العربي والعالمي. وبدا جلياً، بعد ان قبل العراق المعونات العسكرية الأمريكية واتجه جدياً للانضمام إلى حلف بغداد، ان معارضة مصر للأحلاف أخذت تشتد. ومما قاله الرئيس عبد الناصر في هذا الصدد متسائلاً: «إن الغرب سيعطي العراق امدادات عسكرية ولكن لأي غرض؟ هل لتقوية العراق كي يستطيع تصفية اسرائيل ربيبة الاستعمار والعدو الأول للعرب؟ كلا بل ليقودها الى الموت في الخطوط الأمامية للحرب العالمية الثالثة، ويخلد الاستعمار الغربي».

في هذه الفترة بدأ الصاغ صلاح سالم ممثل الرئيس عبد الناصر سلسلة من الزيارات الى دمشق وبغداد والرياض وبيروت وكان يدعو الى اقامة علاقات جديدة بين الدول العربية تبنى على مواقف موحدة تجاه القضايا الدولية الرئيسية، وبالرفض الصريح لكل الأحلاف العسكرية الأجنبية.

وفي العيد الثالث للثورة المصرية في ٢٣ يوليه (تموز) ١٩٥٤ ألقى الرئيس عبد الناصر خطاباً بهذه المناسبة شرح فيه سياسة مصر وجاء فيه مايلي: «لقد بدأت مصر مع العرب عهداً جديداً قوامه الأخوة الصادقة الصريحة تواجه به المشاكل وتفكر فيها وتعمل على حلها. إن هدف حكومة الثورة ان يكون العرب أمة واحدة، يتعاون جميع أبناؤ ها على الخير المشترك... وان الثورة لتؤ من ان عبء الدفاع عن البلاد العربية يقع أول مايقع على العرب وهم جديرون بالقيام به». وهكذا أصبح واضحاً ان مصر الثورة رسمت لنفسها سياسة جديدة تقوم على التمسك بالاستقلال والعمل على اقامة تكتل عربي فعال انطلاقاً من ميثاق الجامعة العربية واتفاقية الأمن الجماعي العربي.

وفي أواخر آب من العام نفسه حدث أول لقاء بين الثورة المصرية والنظام

الملكي في العراق في مصيف «سرسنك» حضره الصاغ صلاح سالم والسيد محمود رياض من جانب الثورة المصرية، والملك فيصل والوصي عبد الإله والسيد نوري السعيد رئيس الوزراء عن العراق.

وفي هذا الاجتماع كانت وجهة نظر العراق الى جانب الانضمام لحلف بغداد للحصول على السلاح لمجابهة الخطر الشيوعي والتوسع الصهيوني ومقاومة المطامح التركية الاقليمية في العراق وسورية.. وأكد صلاح سالم تصميم مصر الثورة على تبني سياسة متحررة من الالتزامات الأجنبية على الأقل في المرحلة الانتقالية تتميز عن مواقف الغرب وبريطانيا بشكل خاص لكي نرى مدى احترام الغرب لاستقلال مصر وسيادتها، واقترح اقامة منظمة دفاعية عربية بقيادة موحدة واستراتيجية واحدة.

وكان هذا المؤتمر بداية سوء التفاهم بين مصر والعراق. فقد أدعى نوري السعيد انه أقنع صلاح سالم بإعادة النظر بميثاق الأمن الجماعي العربي لتقويته وتحويله الى أداة فعالة تمكن البلدان العربية من التصدي لأي خطر يتهددها... ومن ثم التشاور مع الولايات المتحدة وبريطانيا بقصد الوصول الى اتفاق شامل معهما... كما ادعى انه أقنعه بضرورة الاتحاد بين العراق وسورية لاقامة جبهة شرقية متماسكة ضد اسرائيل.. أما الصاغ صلاح سالم فقد نفى هذا التفاهم وقال بأن المباحثات لم تتعد حدود تبادل وجهات النظر فقط.

وكان من نتيجة هذا الاختلاف بالتفسير ان بدأت الشكوك تساور المسؤولين في سورية حول حقيقة السياسة المصرية ولم يرضهم ان يُبحث مصيرهم دون مشاركتهم، كما غضب المسؤولون السعوديون من هذا اللقاء وأبدوا امتعاضهم للتصريحات المتناقضة التي صدرت عن صلاح سالم ونوري السعيد مما يحمل على الاعتقاد ان هناك مخططاً يتم تنفيذه من وراء ظهرهم...

ويبدو ان الرئيس عبد الناصر لم يرتح لنتائج مباحثات الصاغ صلاح السالم، فبادر بالايعاز لاصدار بيان يكذب تأييد مصر للاتحاد بين سورية والعراق، وأوضح للسفير العراقي في القاهرة انه يعارض التشاور مع الولايات المتحدة وبريطانيا لأن ذلك لايتفق مع سياسة مصر المستقلة. وترددت اثر ذلك

الشائعات عن وجود خلاف في مجلس الثورة المصري، وان الرئيس لم يعد يثق بصلاح سالم..

وفي الخامس عشر من أيلول قام السيد نوري السعيد بزيارة مصر واجتمع مع الرئيس عبد الناصر وكانت النتيجة كما هو معروف اصرار نوري السعيد على التحالف مع الغرب لأنه الوسيلة الوحيدة لحماية العراق والمحافظة على وحدة ترابه واستقلاله ولقناعته ان الاعتماد على الجيوش العربية للدفاع عن المنطقة وهم وحماقة... وأكد عبد الناصر من جديد على رفض فكرة التحالف مع الغرب والاصرار على سياسة عدم الانحياز، وان ميثاق الأمن الجماعي العربي هو الأساس الوحيد لتنظيم الدفاع عن البلاد العربية...

انتهى هذا الاجتماع التاريخي الى القطيعة بين مصر والعراق، فقد اتجه نوري السعيد على أثره مباشرة الى لندن حيث وقع مع رئيس الوزراء البريطاني «السير انطوني أيدن» اللمسات الأخيرة في مشروع «الحلف المركزي»، ثم ذهب الى «أنقرة» فعرض على الحكومة التركية مشروعه الذي يقضي بصرف النظر عن توقيع تركيا للحلف التركي الباكستاني والمبادرة الى عقد اتفاقيات ثنائية مع الدول العربية منفردة بدءاً بالعراق...

وشعرت مصر بخطورة عملية الالتفاف التي قام بها نوري السعيد فحاولت التقرب من تركيا واغراءها بالصداقة المصرية بدلاً من التورط في مخططات نوري السعيد، ولكن محاولاتها لم تكلل بالنجاح ذلك ان تركيا كانت قد سبقت العراق للارتباط مع الغرب بسلسلة من الاتفاقيات الدفاعية، وقبلت المساعدات العسكرية الأمريكية منذ عام ١٩٤٧ بموجب «عقيدة ترومان»، بالاضافة الى ان حكومتها أخذت تنظر بالحذر الشديد الى ثورة الضباط الأحرار في مصر، وتخشى قيام دولة حديثة وقوية في مصر بدلاً من النظام الملكي الهش. كما يبدو ان اتجاه عبد الناصر الوطني والعربي أخذ يعيد الى أذهان المسؤولين الأتراك ذكريات محمد علي باشا الذي هددت جيوشه السلطنة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ولم ينقذها من هذا الخطر سوى أساطيل الغرب (الفرنسية والبريطانية والنمساوية والروسية عام ١٨٣٩).

ومع بداية عام ١٩٥٥ فتحت صفحة جديدة في تاريخ العرب عندما وقع النظام الملكي في العراق وثيقة «معاهدة حلف بغداد»، ومنذ ذلك الوقت تسلمت الثورة المصرية بقيادة الرئيس عبد الناصر، راية قيادة الحركة العربية التحررية، وأخذت تخط في تاريخ مصر والوطن العربي من الخليج الى المحيط أروع السطور التي كتبت في تاريخ المنطقة الحديثة، وفتحت صفحة جديدة رائعة من التعاون والتفاهم بين مصر وسورية، أدت في مطلع عام ١٩٥٨ لقيام الوحدة.

موقف سورية من حلف بغداد:

إن لم يكن لسورية ثروة العراق، وقوة مصر البشرية، إلا انها بسبب تاريخها ونظامها الجمهوري البرلماني القائم على التعددية الديمقراطية واستقلالها المبكر والدور الذي لعبته في الثورة العربية ضد الحكم العثماني، ولمساهمتها المجيدة في بناء الدولة الأموية أعظم دولة عربية في التاريخ، ولموقعها الجغرافي والاستراتيجي الذي يشغل مكان الصدر من الوطن العربي، ولما عرف عن شعبها من حيوية وميل فطري للاستقلال وايمان بالوحدة العربية الشاملة. . . لهذه الأسباب وغيرها كان الصوت الذي يصدر من دمشق عاصمة سورية، تتجاوب أصداؤه في أركان الوطن العربي من الاسكندرون الى عدن ومن بغداد الى الرباط. . . وأصبحت منذ بداية هذا القرن المنارة التي تهتدي بها حركات التحرر والمناضلين في معظم الأقطار العربية. . .

أما بعد أن نالت الاستقلال، فقد أضحت احدى القوى الرئيسية في العالم العربي التي ترسم الطريق القويم لكل المناضلين العرب، وأصبحت سياسة سورية المؤشر والمقياس الذي يشير الى الاتجاه العام الصحيح الذي تتجه اليه الحركات التحررية في الوطن العربي، ويقاس عليه مدى سلامة الخط الذي تسير عليه هذه الحركات. . . وعندما تفجرت الأزمة الفلسطينية وقام

الصـراع العـربي الصهيـوني، أصبـح موقف سـوريـة هو المحك والـدليل لكل السـيـاسـات العربية حيال القضيـة الفلـسـطيـنية. . . ولايزال كذلك. . . .

كانت سـوريـة منـذ اسـتقلالها عام ١٩٤٦ ترفض كل مامن شأنه المسـاس بسـيـادتهـا، حتى لقـد أصبحت توصف «بـالحصـان الشمـوس» في المنطقـة، ووصلت حسـاسيـة شعبهـا الى الحـد الـذي أخـذ يؤثـر على مفهـومه للوحدة العـربيـة، ذلـك انـه لم يتقبـل المشـاريـع التي يـتشم من ورائهـا تسـرب النفوذ الأجنبي وعودته الى أراضيها من النافذة، بعد ان قذفت به من الباب الواسـع. وعلى هذا الأسـاس رفضت غالبيـة الشعب مشـروع «سورية الكبرى» بزعامة المرحـوم الملك عبـد الله ومشـروع «الهلال الخصيب» بزعـامـة الأسـرة الملكية الهاشمية في العراق. . . كما رفضت قبول أي ارتباط خارجي ينتقص من سيادة سوريـة، كمشـروع «النقطـة الرابعة الأمريكية» أويشكل بداية تنازل لحقوق الشعب الفلـسطيني «كمشـروع اسكـان الـلاجئين». ولم تقبل حكومات سورية المتعـاقبـة البحث في أي مشـروع دفـاعي أجنبي كمشـروع الدفاع عن الشرق الأوسط عام ١٩٥٠، وحلف بغداد عام ١٩٥٥، ومبدأ ايزنهاور[١٣] في بداية عام ١٩٥٧ بل ذهبت في سيـاستهـا الـراديكـاليـة الى حد رفض الـتراخيص لشركة الكوكاكولا الأمريكية في سورية. وكانت سـورية أول الدول العربية التي فكرت بسيـاسـة الحيـاد الايجـابي بين الكتلـتين المتصارعتين ودعت الى الانفتاح على جميع الدول التي تتفهـم القضـايـا العـربية بصدق، بصرف النظر عن أنظمتها الاجتـماعيـة. (وكان ذلك على لسـان أبرز القادة السـياسيين في سـورية من جميع الأحزاب لافرق بين يمين أو يسـار أو وسط)[١٤].

وقـد لقيت بسـبب هذه السـياسـة الاستـقلاليـة الكثير من المصـاعب، ودفعت ثمنـاً باهظـاً مقـابـل تأييـدها للحركات التحررية داخل الوطن العربي وخارجه. انعكس على استقرارها ونموها الاقتصادي. . . وتحملت في الواقع أعباء أثقلت كاهلها. . . ومع ذلك ظلت ولاتزال صامدة. . . لاتأبه بالمصاعب ولاتيأس من العقـوق أوسوء الفهم أو التخـاذل ولم ترضـخ للضغـوط والمغريات

وعندما وقع النظام العراقي اتفاقية «حلف بغداد» مع تركيا في شباط ١٩٥٥ ، خيل للكثيرين ان سورية لن تلبث ان تسقط في فك الكماشة التي أحكمت حولها من تركيا والعراق ولبنان والأردن واسرائيل . ولن تجد حولها من يمد لها يد العون ، فليس بامكانها الاعتماد على لبنان الدولة الصغيرة الضعيفة ، كما ليس لها أي طريق للعالم الخارجي سوى البحر المتوسط الذي يرابط فيه الأسطول الأمريكي والقاعدة البريطانية في قبرص اللذان أصبحا بمثابة «الدركي» الذي يحمي المنطقة ، ويقفان على استعداد لضرب أية محاولة للخروج من هذا الطوق . . .

برزت في هذه المرحلة أصالة ووعي الشعب في سورية ، وقدرته على التصدي للمخاطر والتحديات ، لذلك أعلن بدون تردد أو لبس ، أنه لا يرفض حلف بغداد فحسب بل يأخذ على عاتقه اسقاط هذا الحلف المؤامرة معتمداً على دعم الجماهير العربية الصادق له في جميع الأقطار وبشكل خاص الجماهير العراقية التي كانت تقف دائماً في الصف الأول من كفاح الأمة العربية في سبيل التحرر والوحدة .

والحقيقة ان حلف بغداد أبرز أهمية موقع سورية ، وكشف بشكل صريح ان مصير هذا الحلف يتوقف على قبول أو رفض الشعب السوري له . . . وتركزت أنظار العرب في كل مكان ، بل أنظار العالم على دمشق بانتظار قرار الحكومة الرسمي . . . كانت سورية كما ذكرنا قد ودعت عهد الشيشكلي في مطلع عام ١٩٥٤ وأعادت النظام الذي أقيم بعد الانتداب الفرنسي وتدعمت أركانه بعد انتخابات تشريعية سليمة وانتخاب رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي في عام ١٩٤٣ . وساعد الجو المحموم الذي هيمن على المنطقة في نهاية عام ١٩٥٤ على تعبئة الرأي العام ، فإذا به يخوض المعركة الانتخابية ويدفع الى المجلس النيابي لأول مرة أكثرية من النواب المتمسكين بالاستقلال الوطني والتعاون العربي وعدم الانحياز في السياسة الدولية . ومالبث ان تشكلت في المجلس الجديد كتلة نيابية قوامها حوالي ٦٠ نائباً تنادي بهذه الشعارات وتخوض معركة ديمقراطية حامية

لتكريسها كأساس لسياسة سورية في عهدها الديمقراطي الجديد وترتب على قيام «الكتلة الديمقراطية» فترة من الصراع بينها وبين الحزب الوطني وحزب الشعب، أدت الى تشكيل وزارة برئاسة خالد العظم بتاريخ ١٤ تشرين الأول ١٩٥٤، خلفاً لوزارة السيد سعيد الغزي التي انتهت مهمتها بانتهاء عملية الانتخاب. ولكن وزارة العظم اضطرت للاستقالة بعد عشرة أيام من تشكيلها بسبب معارضة حزب الشعب لها، وكلف الاستاذ فارس الخوري بتشكيل الوزارة، فألفها على الشكل التالي في ٢٩ تشرين أول من نفس العام:

السيد فارس الخوري للرئاسة (مستقل) - فيضي الأتاسي للخارجية - أحمد قنبر للداخلية - رشاد برمدا للدفاع - علي بوظو للعدلية - رزق الله انطاكي للمالية (حزب الشعب) - مجد الدين الجابري للأشغال والمواصلات - بدوي الجبل للصحة - فاخر الكيالي للاقتصاد (الحزب الوطني) - منير العجلاني للتربية (مستقل) - عبد الصمد الفتيح للزراعة (كتلة العشائر).

وبالرغم من البيان الذي أصدره السيد فارس الخوري في مستهل عمل وزارته وأكد فيه رفض حكومته لأية مساعدة مشروطة أو حلف عسكري أو اتفاقية غير متكافئة مع أية دولة أجنبية؛ إلا ان ذلك لم يقنع المعارضة اليسارية بقيادة الائتلاف الثلاثي المكون من: حزب البعث العربي الاشتراكي والكتلة الديمقراطية برئاسة السيد خالد العظم والحزب الشيوعي بزعامة خالد بكداش. كما استقبلت هذه الوزارة بالوجوم والحذر من جماهير الشعب وطلاب الجامعات بشكل خاص.

وفي ٢٢ كانون أول ١٩٥٤، عقد في القاهرة مؤتمر لرؤساء الحكومات العربية بدعوة من مصر لمناقشة السياسة العراقية وعزمها على توقيع حلف دفاعي مع تركيا، وشهد هذا المؤتمر أعنف صراع بين العراق ومصر على زعامة الدول العربية، وكان الرئيس جمال عبد الناصر هو الذي مثل مصر في هذا المؤتمر، واعتذر نوري السعيد في البداية عن الاشتراك في المؤتمر ولكنه عاد فارسل بدلاً عنه السيد فاضل الجمالي، وحضره عن الجانب السوري الرئيس

فارس الخوري ووزير الخارجية السيد فيضي الأتاسي والأمير فيصل آل سعود ممثلاً عن المملكة العربية السعودية . .

ولم ترض المعارضة في سورية عن موقف رئيس الوزارة السيد فارس الخوري المتردد في هذا المؤتمر لأنه لم يعلن بصراحة إدانته لسياسة نوري السعيد وتورطه في حلف بغداد .

وبدا كأن المؤتمر يسير بسرعة الى فشل ذريع عندما تحولت المناقشات الى مشادات أدت الى انفضاضه وعودة الوفود الى بلدانها دون ان يتزحزح كل من الوفد العراقي والوفد المصري عن مواقفهما . وظهر ان المملكة السعودية تقف بصراحة ضد حلف بغداد . ولم يبد من الأردن مايؤيده ، بل كان أميل الى تأييد موقف مصر . . . لذلك قرر المجتمعون اجراء محاولة لانقاذه فأرسلوا وفداً الى بغداد للاجتماع بنوري السعيد . . غير ان هذه المحاولة اليائسة باءت بالفشل أيضاً ، وكان آخر ماقاله نوري السعيد لصلاح سالم أمام بقية أعضاء الوفد العربي : «انني لست جندياً في جيش عبد الناصر . وأرجوان تخبره بأنني لن أطيع أوامره» . وكان ذلك بمثابة التحدي للمؤتمر بكامله ودعوة لعبد الناصر للمبارزة . . .

انفض المؤتمر في ٦ شباط ١٩٥٥ دون ان يصل الى نتيجة ودون ان يصدر عنه أي بلاغ . . . وفي اليوم الثاني لعودة الوفد السوري الى دمشق ، اضطر الرئيس فارس الخوري لتقديم استقالة حكومته نتيجة للحملة التي شنتها عليه المعارضة متهمة إياه بعدم التقيد بقرار لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الذي ينص صراحة على «رفض الأحلاف» ولتخلي معظم نواب الحزب الوطني عن التحالف مع حزب الشعب وانضمامهم الى الأكثرية البرلمانية التي تنادي بمعارضة الأحلاف .

وأدى هذا التحول في العلاقات العربية الى تشكيل حكومة جديدة في سورية تتحمل مسؤولية السياسة الحيادية ورفض الأحلاف وقد تألفت من : الكتلة الديمقراطية والحزب الوطني وحزب البعث العربي الاشتراكي برئاسة الأستاذ سعيد الغزي وتسلم السيد خالد العظم وزارة الخارجية والدفاع في هذه

الحكومة. ويمكن القول ان تشكيل هذه الحكومة يعتبر البداية الملموسة لرجحان كفة القوى التقدمية في سورية، وسقوط آخر المحاولات لجر سورية الى الارتباط بالأحلاف بالطرق الديمقراطية. . .

لقد بدأت في هذا التاريخ أنصع فترة في تاريخ سورية الديمقراطية، بل وفي تاريخ الأمة العربية خاصة بعد اللقاء الذي أخذ يتبلور بينها وبين مصر الثورة بزعامة عبد الناصر وقيام المحور الثلاثي بين دمشق والقاهرة والرياض... وظهر لخبراء السياسة في الشرق العربي ان قوة جديدة فتية، أخذت تلعب دوراً فعالاً في السياسة الدولية على المستوى الاقليمي والعالمي، وانها تدير ظهرها للماضي وتتصدى بحزم لبناء الحاضر والمستقبل وتزج نفسها في خضم الأحداث، تتفاعل معها وتنفعل بها، بعد ان كانت لفترة طويلة تحاول تجنب الصدام وتتلقى الأحداث منفعلة لا فاعلة طبقاً لمبدأ «شعرة معاوية»، بعقلانية راضية بالسير الوئيد في قافلة التطور.. وهكذا أصبحت الحركة العربية التي تبرز في مقدمتها «سورية ومصر» في طليعة حركة التحرر في القارات الثلاث أو ما يسمى بلدان العالم الثالث تشد ازر هذه الحركات وتساهم معها برسم الطريق....

واصبحت لسورية في العالم مكانة خاصة مميزة لم يخفها ظل عبد الناصر العملاق لأنها أعطت للعالم الثالث مثلاً يكاد يكون وحيداً وفريداً يبرهن عملياً على «فعالية النضال في النظام البرلماني الديمقراطي وقدرة هذا النظام على مقاومة الضغوط الخارجية، وقيادة معركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية على أحسن وجه، بالاستناد الى أوسع مشاركة وتأييد شعبي. .

وفي ٢٢ شباط تقدمت الحكومة الجديدة ببرنامجها للمجلس النيابي، فأكدت فيه رسمياً شجبها لحلف بغداد ورفضها القاطع لجميع الأحلاف والمواثيق العسكرية الأجنبية وتبنيها لسياسة عدم الانحياز وايمانها بالوحدة العربية ودعوتها لاقامة اتفاقية دفاعية بين الدول العربية التي ترفض الأحلاف للتصدي لمجابهة العدو الحقيقي المباشر وهو اسرائيل المؤيد من الاستعمار. . .

ونالت حكومة العسلي الثقة بأكثرية ٦٦ صوتاً مقابل ٥٣ صوتاً وامتناع عضوين

عن التصويت... وفي ٢٦ شباط وصل الصاغ صلاح سالم الى دمشق لتهنئة الحكومة الجديدة وحمل معه اقتراحاً باقامة اتحاد فيدرالي وقيادة عسكرية مشتركة وسياسة خارجية واقتصادية وثقافية موحدة بين سورية ومصر تُدعى لها الدول العربية عدا العراق... ولكن اقتراحه لم يحمل على محمل الجد... خاصة وقد وقع خلال هذه الزيارة اعتداء اسرائيلي على قطاع غزة تكبدت فيه القوات المصرية والمدنيين الفلسطينيين خسائر فادحة جداً، مما عرض سمعة مصر وجيشها للشكوك... غير ان الرأي العام لم ينخدع بهذه العملية وأدرك بحسه الذي صقلته الأحداث انها جزء من حملة الضغط على مصر وسورية وبرهان على خوف الغرب واسرائيل من السياسة التي بدأ يسير عليها البلدان...

وهنا لابد من الاشارة الى ان قيادة الجيش السوري لعبت دوراً حاسماً عندما أكدت على لسان رئيس الأركان اللواء شوكت شقير ونائبه العقيد الركن عدنان المالكي ان القوات المسلحة في سورية تقف وراء الحكومة في سياستها الرامية لانشاء اتفاقية دفاع مشترك بين مصر وسورية ومن يرغب من الدول العربية الأخرى والسعي لتحقيق أقصى مايمكن من التعاون مع مصر في الميادين الأخرى..

وفي هذه المرحلة انعقدت بين قيادة الجيش وبين السيد خالد العظم صلات حسنة مبنية على الثقة وأصبح السيد العظم بفضل هذه الثقة وعلاقته مع الكتلة الديمقراطية وقيادة حزب البعث وخاصة أكرم الحوراني، الرجل الأقوى بين السياسيين.

تم الاتفاق بين الحكومة السورية والمصرية على اجراء مشاورات مع البلدان العربية حول مشروع «قيادة عسكرية مشتركة» وضعت مسودتها في رئاسة الأركان العامة السورية... وقام السيد خالد العظم والصاغ صلاح سالم بزيارة مشتركة في أوائل آذار من عام ١٩٥٥ الى الرياض، وبيروت وعمان. وكان من نتيجة هذه الجولة توقيع الاتفاقية العسكرية الثلاثية بين مصر وسورية والسعودية فجسدت رسمياً قيام هذا التكتل العربي الذي أشرنا اليه لاحتواء سياسة التبعية والأحلاف التي رفع لواءها النظام الملكي في العراق آنذاك.

وفي ٤ نيسان ١٩٥٥ أعلنت بريطانيا انضمامها لحلف بغداد، واعتقدت انها استبدلت المعاهدة البريطانية العراقية القديمة التي على وشك الانتهاء بمعاهدة جديدة ستستمر مادام هناك صراع بين الغرب والشرق وبذلك تكون بريطانيا قد تجاوزت خط العودة في صراعها المميت مع الحركة العربية الجديدة، وفي صراعها اليائس مع أمريكا للمحافظة على وجودها في المنطقة؛ وأخذت تخطو خطوات عملية لمواجهة الاحتمالات دون ان تفطن الى انها زجت نفسها في مغامرة شديدة الخطورة غير مدركة طبيعة التغيير الجذري الذي طرأ على العالم بعد الحرب العالمية الثانية عندما تحركت شعوب العالم الثالث تطالب بالحرية والاستقلال وأصبحت القوة الفعلية بين أيدي القوتين الأعظم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . . .

توهمت بريطانيا بعد انضمامها لحلف بغداد انها أخذت المبادهة من يد أمريكا التي كانت تفضل اكمال الحزام الشمالي بتوقيع اتفاقية الباكستان وايران وتركيا وارغام الدول العربية للسير وراء مخططات نوري السعيد والوصي على عرش العراق الرامية لجر البلدان العربية تدريجياً للانضمام لهذا الحلف، وأدى ذلك الى اصطدامها من جديد بمصر رغم انه لم يمض على توقيع معاهدة الجلاء أقل من عام واحد، كما فقدت صداقتها مع السعودية فأخذت تنازعها على واحة البريمي باسم امارة أبي ظبي، وزادها حرجاً انها لم تستطع كسب فرنسا الى جانب الحلف لأن هذه الأخيرة ترى ان لها أفضلية بالنفوذ على سورية ولبنان.

كسر احتكار السلاح واتجاه سورية ومصر لشراء الأسلحة من الكتلة الاشتراكية:

رأينا في أكثر من مكان عند استعراضنا للأحداث في سورية كيف ان الكثير من القادة السياسيين في سورية أخذوا يفقدون ثقتهم بصداقة الغرب ويخشون من نواياه بعد ان زرع «اسرائيل» في قلب الوطن العربي وأخذ يغدق

عليها المال والسلاح والفنيين والعلماء والمتطوعين لكي يكرس هذا الوجود، ويجعل منه قلعة لحراسة مصالح الغرب واعاقة الحركة العربية وتدميرها إن أمكن. وكانت سياسة بلدان اوروبا الغربية وأمريكا الشمالية تبرهن سنة بعد سنة على انها تعتبر اسرائيل امتداداً لها، واعتبرتها غالبية الجماهير العربية والاسلامية عودة الى «الحروب الصليبية» بأسلوب آخر. ولهذا لم يكن من المستغرب أن يكون أول السياسيين الذين نادوا بالاتجاه نحو الاتحاد السوفيتي كانوا من الكتلة الاسلامية (الدكتور معروف الدواليبي والأستاذ مصطفى السباعي، رئيس الاخوان المسلمين) وعندما حاولت سورية تسليح قواتها بشكل تستطيع معه الرد على الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة رفضت الدول الغربية تلبية طلباتها وامتنعت فرنسا عن الاستمرار بتزويدها ببعض الأسلحة بعد ان أخذت سورية تجاهر بدعم ثورة الجزائر، الخوف من تسرب هذه الأسلحة للثوار...

وكانت النتيجة ان عقدت سورية أول صفقة لشراء الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٤ وهي عبارة عن احدى عشرة دبابة من صنع ألمانيا وكسرت بذلك احتكار السلاح لأول مرة في تاريخ البلدان العربية بل وبلدان العالم الثالث.

وفي عام ١٩٥٥ عقدت سورية صفقة ثانية لتشتري بموجبها كميات من الأسلحة الفردية والذخائر ومدفعية الميدان والمدافع المضادة للدروع والطائرات والدبابات الروسية طراز ت ـ ٣٤ وعدد من طائرات الميغ ـ ١٧ ... واستقبلت الجماهير السورية أنباء الصفقة بالهتافات والابتهاج غير ان عزم سورية على انتهاج سياستها المستقلة التحررية واعلان الاتفاقية العسكرية بين مصر وسورية والسعودية لم يرق لحكومتي العراق وتركيا، فحشدتا القوات على الحدود السورية في ٢١ آذار ووجهتا اليها مذكرتين شديدتي اللهجة تشيران الى تعريض المنطقة للخطر الشيوعي، فسارع الاتحاد السوفيتي في ٢٣ آذار الى اعلام الحكومة السورية رسمياً بانه يؤيد موقف سورية ويرغب في تقديم جميع أنواع المساعدات اليها بهدف حماية استقلالها وسيادتها.

أما بالنسبة لمصر فقد بادر الرئيس عبد الناصر ببحث امكانية التسليح من الدول الاشتراكية مع السيد شو ان لاي رئيس الحكومة الصينية الشعبية أثناء لقائهما في المؤتمر الأسيوي - الافريقي الذي انعقد في باندونغ بالفترة الواقعة مابين ١٨ و٢٦ نيسان ١٩٥٥.

ويروي الصاغ صلاح سالم الحادثة كما يلي: «اجتمعنا بشوان لاي.. فسألنا عن الموقف في الشرق الأوسط... فشرحنا له الوضع كما رأينا وذكرنا له التهديد الاسرائيلي والنقص الهائل في تسليحنا... وان الغرب يستخدم اسرائيل كتحد دائم لقيادتنا لاعتقاده انه اذا ماواجهنا بالخيار بين الهزيمة أمام اسرائيل وبين الرضوخ له فسوف نختار الرضوخ له.. وسأل عبد الناصر شوان لاي فيما اذا كان مستعداً لأن يبيعنا السلاح... فأجاب شوان لاي انه من الصعب عليه ان يمدنا بالأسلحة لأن الصين الشعبية نفسها تعتمد على الاتحاد السوفييتي في استيرادها للأسلحة.. ثم قابلته بعد يومين فسألني هل نرضى أخذ الأسلحة من الاتحاد السوفييتي مباشرة فأجبته انني سأستشير عبد الناصر.. وقال ان الاجابة ستصلنا عن طريق السفارة السوفييتية في القاهرة..

وفي ٦ أيار ١٩٥٥ أبلغ سفير الاتحاد السوفييتي في القاهرة الحكومة المصرية ان الاتحاد السوفييتي على استعداد لتزويد مصر بأي نوع من الأسلحة التي تطلبها، وانه مستعد لتقديم المساعدات لتنفيذ مشاريع التنمية بما فيها السد العالي في أسوان.

غير ان الرئيس عبد الناصر لم يرغب في اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة قبل ان يستنفذ آخر أمل له لدى الغرب، فاستدعى سفيري أمريكا وبريطانيا في حزيران ١٩٥٥ وأعلمهما بحاجة مصر الماسة للأسلحة بسبب تكرار الاعتداءات الاسرائيلية وانه اذا لم يحصل عليها هذه المرة فسيطلبها من السوفييت.

وفي احتفالات الثورة في ذلك العام قدم شبيلوف رئيس تحرير صحيفة البرافدا الى القاهرة بدعوة رسمية... وبحث معه الرئيس عبد الناصر موضوع الأسلحة... ولم يمض إلا أسابيع حتى بدأت الطائرات والدبابات السوفييتية

تصـل الى مصـر ، وعنـدمـا أعلن عبـد النـاصـر هذا الخبر على العالم في أيلول ١٩٥٥ ، علت أصـوات الجـماهـير بالهتاف له والترحيب بهذه الخطوة التي تعتبر من بين أعظم انتصـارات الثورة المصرية بالاضـافة الى كونها حدثاً تاريخياً عظيم الأهميـة ، وكـانت هذه الخطـوة كما دلت الأحـداث أول تحد للولايـات المتحـدة وبداية مرحلة جديدة في تاريخ مصر والمنطقة العربية بشـكل عام .

الفصـل الثامـن

عودة الى القوات المسلحة السورية

جاءت رئاسة الأركان العامة على «صينية من الفضة» هدية للزعيم شوكت شقير، اذ لم يكن بمضي على وجوده في الجيش السوري أكثر من خمس سنوات، أو الحد الأدنى لحصوله على الجنسية السورية (حسب القانون)، ذلك انه بحكم جنسيته اللبنانية كان حتى بداية حرب فلسطين ضابطاً برتبة مقدم في الجيش اللبناني، ثم تطوع في جيش الانقاذ ليصبح مسؤولاً عن الشؤون الادارية وبعد انسحاب جيش الانقاذ من الأراضي الفلسطينية وكان قد أصبح عقيداً رفضت الحكومة اللبنانية عودته للجيش اللبناني مما اضطره للاقامة في دمشق لتصفية الشؤون الادارية والمالية لجيش الانقاذ، ومع قيام أول انقلاب قُبل شقير في الجيش السوري بنفس رتبته على أساس ان سورية منذ استقلالها لاتقيم أية اهمية للجنسية مادام الشخص عربياً، فهناك العديد من الضباط في الجيش السوري من أصل عراقي . . . وجزائري، وتونسي، ومغربي، ولبناني، وفلسطيني وأردني . . . الخ . . والجميع يتمتعون بنفس الحقوق والواجبات التي يتمتع بها أي سوري بالولادة والاقامة . .

والحقيقـة ان العقيـد الركن شقير كان من أكفأ الضبـاط القادة، وأكثرهم ثقافة، الى جانب مايتحلى به من صفات المرونة، قوي الحجة، لامع الذكاء، ينقصـه الحـزم الـذي يحتـاج اليـه كل قائد كبير، ولكن معرفته لما يريد تمكنه من الـوصـول الى هدفـه بأسلوب المناورة الذكية. شغل مركز قيادة المنطقة الوسطى وقيادة اللواء الرابع في حمص، فأظهر كفاءة عالية وأصبح لواؤه نموذجاً من حيث مستوى تدريبه واستعداديته لادارة العمليات... ونال اعجاب ضباطه وضباط الصف وجنود المنطقة، وقد قربه الزعيم الشيشكلي وكافأه على ولائه كما سبق وذكرنا بتعيينه نائباً لرئيس الأركان وكان قبل ذلك قد عمل فترة طويلة رئيساً للشؤون الادارية والمالية في الجيش (أو مايسمى بالشعبة الرابعة).

وعندما أطيح بالشيشكلي حاول في الساعات الأولى تشجيع الدكتور مأمون الكزبري على تسلم صلاحيات الرئاسة، تمشياً مع رغبة بعض الضباط المؤيدين للشيشكلي وخاصة النقيب حسين حدة والنقيب عبد الحق شحادة، ولكنه مالبث ان غير موقفه بسرعة وأخذ يرحب بقادة الانقلاب الجديد ويتقرب من قادة الأحزاب دون استثناء.

والغريب انه استطاع ان يحظى بتأييد جميع هذه الأحزاب، حتى لقد كان يظن كل حزب ان الزعيم شقير أقرب اليه من بقية الأحزاب الأخرى، واعتقد الجميع انه "لا يطمح اطلاقاً للاستيلاء على السلطة وانه أبعد الضباط عن الرغبة بالتدخل في السياسة لكونه من أصل لبناني ولذلك اطمأنوا اليه. ولكن هذه الثقة تحولت بعد قليل الى شكوك وأصبح الجميع يعتقدون انه يناور لكي يبقى في مركزه الحساس ويبدو ان سعي الجميع لكسبه الى جانبهم أدخل على نفسه بعض الغرور، خاصة وقد اعتاد بعض السياسيين السوريين ـ مع الأسف ـ المبالغة بالتملق للعسكريين ويشكون بنفس الوقت من تسلط الجيش والضباط على السياسة وتدخلهم بها لم يخلقوا من أجله، ثم سرعان ماينسون انتقاداتهم هذه عندما يحتكون بالعسكريين، فيظنون خطأ انهم بهذه الطريقة يمكن ان يسيروهم أويؤثروا عليهم، غير ان الأحداث المتعاقبة التي مرت بها سورية برهنت على العكس، ونسوا المثل العربي الذي يقول: «ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده، تصيده الضرغام فيما تصيدا»...

كان الزعيم شقير يبدو وكأنه من الناحية السياسية أقرب مايكون لحزب البعث العربي الاشتراكي، يعطي الانطباع بأنه على صلة وثيقة بالعقيد عدنان المالكي . . . ولكنه في الواقع كان يقف على المسافة نفسها من جميع الأحزاب . . . ويحاول ان يقنع حزب الشعب والحزب الوطني بأنه هو الذي يكبل نفوذ العقيد المالكي وأعوانه من الضباط البعثيين ويحول دون هيمنة حزب البعث على الجيش ويقاوم أنصار الشيشكلي ويقاوم تسلط وزير الدفاع الدكتور معروف الدواليبي على الجيش ويقلم أظافر أخيه المقدم مصطفى الدواليبي.

وقد استغل هذه الظروف بذكاء وأصبح يتكلم باسم القوات المسلحة مع جميع القوى بل وينطق باسمها مع البعثات الدبلوماسية الأجنبية والعربية في دمشق. وفي الوقت الذي كان فيه العقيد عدنان المالكي يكرس وقته لتنظيم وتدريب وتسليح القوات واعدادها اعداداً كافياً للقتال ولتكون في المستوى الذي يمكنها من التصدي لتحديات اسرائيل اليومية استطاع اللواء شقير من خلال المركز الهام والسلطات التي يتمتع بها كقائد فعلي للقوات المسلحة ان يلف عدداً كبيراً من الضباط الذين يتخوفون من تسلط حزب البعث على الجيش والناقمين على عهد الشيشكلي وأخذ يعتمد تدريجياً على بعض الضباط القادة بشكل خاص.

وأذكر بهذه المناسبة ان العقيد الطبيب توفيق عز الدين اقترح علي وعلى أمين النفوري مرة في منزله التعاون مع اللواء شوكت شقير لتقليص نفوذ البعثيين في القوات المسلحة وليكون له الدور الذي يستحقه، وكان ردنا ان البلد والجيش لايتقبل زعامة شقير لأنه لبناني ولم يمض على حصوله على الجنسية السورية أكثر من خمس سنوات، واننا نرفض العودة للتكتلات في الجيش. ومنذ ذلك الوقت حصل بيننا وبين العقيد عز الدين نوع من الجفوة، وشعرنا بأن الزعيم شقير أخذ يحذرنا ويبتعد عنا.

دور العقيد الركن عدنان المالكي الوطني في تدعيم وحدة القوات المسلحة:

في هذه الفترة الحاسمة اخذت تمتن علاقاتنا بالضباط البعثيين، ويزداد

تعاونـا معهم، وكان الفضل في ذلك بالحقيقة للعقيد المالكي الذي أصبح رمزاً لوحدة القوى الوطنية والتقدمية والوحدوية في الجيش.

كان العقيد عدنان المالكي مثالياً في وطنيته وايمانه بالشعب وبالأمة العربية، بالاضافة الى كونه من الضباط القادة القلائل الذين حازوا على أرفع مستويات الثقافة العسكرية، فقد أتم دراسة كلية الأركان ومدرسة الحرب العليا في فرنسا، واصبح محط الأنظار بالنسبة للغالبية العظمى من الضباط الشباب. فهم يرون فيه مثلاً أعلى للضباط القادة كما يجسد مثلهم الوطنية والقومية من الناحية السياسية لأنه يقف بصراحة ووضوح في وجه كل المناورات والمخططات الرامية لجر سورية الى مناطق النفوذ الأجنبي، ويميل الى القوى القومية التقدمية دون تطرف أو تبعية. وهكذا لم يلبث المالكي حتى أصبح العامل الأول في تكريس الوحدة الوطنية في الجيش وباجماع الضباط على احترامه ومحبته واستطاع ان يسوي جميع الخلافات التي خلفتها الانقلابات العسكرية المتتالية في صفوف القوات المسلحة منذ عام ١٩٤٩ حتى سقوط الزعيم أديب الشيشكلي.

والحقيقة ان أول عمل قام به المالكي هو تعزيز الوحدة الوطنية في الجيش وتكريس جميع الجهود لمقاومة المؤامرات والالتفاف حول النظام البرلماني الديمقراطي وسياسته المستقلة.. وفي اعتقادي ان هذا العمل يمكن اعتباره «معجزة المالكي» وحده، ولم يكن في الجيش آنذاك من كان باستطاعته ان يحوز على ثقة الفئات المتناحرة ويزيل كل آثار سوء التفاهم الذي علق بأذهان كل منها خلال الانقلابات الأربعة التي وقعت في سورية بين ١٩٤٩ و١٩٥٤ وهزت معها قناعات الناس وولاءاتهم...

وتحت اشراف المالكي اتفق الضباط البارزون من مختلف الفئات على التشاور المستمر فيما بينهم لبحث شؤون الجيش والقضايا الهامة التي تواجهها البلاد وتشكل فيما بينهم مايشبه النواة لمجلس قيادة جماعية دون ان يخطر ببال أي منهم الانفراد، وكان هدفهم لايتعدى دعم النظام البرلماني وجميع القوى الوطنية ومساندتها للوقوف في وجه «حلف بغداد»، ورفض أي نوع من الارتباط بالدول الأجنبية.

أصبح العقيد المالكي المنافس الوحيد لرئيس الأركان شوكت شقير، والممثل لأكبر قوة حقيقية في الجيش وطبيعي بعد ذلك ان يصبح الهدف الأول لكل من يسعى لتمزيق وحدة الجيش وضرب القوى الوطنية والوحدوية، وبذر الفتن لكي يسهل تنفيذ المخططات التي كانت تنسجها الأيدي القذرة الخفية في دوائر الحلف المركزي وحلف الأطلسي والصهيونية بالاعتماد أساساً على بعض الأنظمة العميلة في المنطقة وبعض العناصر المأجورة في سورية . . .

ان الذين كانوا يراقبون النشاط المعادي المحموم للسيطرة على سورية والذين يستعرضون أحداث المنطقة في تلك المرحلة، لايستغربون كيف اختارت القوى المتآمرة على سورية «العقيد المالكي» بالذات ليكون هدف جريمتها البشعة، لقد أرادوا اغتيال وحدة الجيش الوطني، وتحطيم طليعة الحركة التقدمية الوحدوية في سورية وكسر شوكة القوى الديمقراطية التي أخذت تتعاظم وتزداد تجربة ووعياً منذ ان تغلبت على مؤامرة الحناوي والعودة الى النظام الديمقراطي، ثم اسقاط دكتاتورية الزعيم أديب الشيشكلي واجراء الانتخابات الحرة والعودة الى النظام الديمقراطي البرلماني القائم على التعددية الحزبية.

في هذه الظروف الخطيرة تم التلاحم بين القوى الوطنية والقوات المسلحة وجماهير الشعب الواسعة وأصبحت سورية قلعة منيعة معزولة وليس بينها وبين البلدان العربية المؤيدة لهاكمصر و الجزائر والمملكة السعودية أية صلة جغرافية مباشرة مما يغري الطامعين بمهاجمتها، والبدء بكسر شوكة الجيش الذي يشكل العمود الفقري لهذه القلعة.

اغتيال العقيد الركن عدنان مالكي وآثاره على الجيش:

كان يوم ٢٢ نيسان ١٩٥٥ يبدو هادئاً كغيره من تلك الأيام التي أعقبت فضح سلسلة من المؤامرات اشترك فيها بعض الضباط القدامى المسرحين مثل العقيد محمد صفا والمقدم غسان جديد وتم اعتقال أوتسريح عدد قليل من الضباط الذين كانوا على صلة بهذه المؤامرات، وخيل لقيادة الجيش والقوى السياسية ان الأمور أخذت تسير بشكل طبيعي في الجيش ولم يعد هناك أي خطر

يهدد البـلاد بانقـلاب عـسكـري على غرار الانقـلابـات الـسـابقـة ، ذلـك ان الـوحـدات الأسـاسـية والمراكز الحساسة في القوات المسلحة أصبحت بالفعل في أيـد أمينـة . . ولم تكن تعتقـد ان هناك من يفكر بالاغتيالات الفردية التي يدينها الشعب في سوريـة لأنهـا تتـناقض مع عقليتـه وتقاليده ومع ذلك اتخذت أجهزة الأمن الأسـاسـيـة الشعـبـة الثـانيـة برئاسة المقدم عبد الحميد الـسراج ، والشرطة العسكـريـة برئاسة المقدم أكرم الديري ، كعادتها التدابير والحيطة بما يحول دون وقـوع مثـل هذه الاحتـمالات . . كما اتخـذت الاحتيـاطـات اللازمة في وحدات الجيش لضمان الاستقرار والولاء للسلطة الشرعية الممثلة بالحكومة والمجلس النيابي .

كان يوم ٢٢ نيـسـان ١٩٥٥ كما قلت كبقيـة الأيـام ولكنه تحول فجأة الى مأتم وطني عندما أطلق أحد ضـباط الصف الرصاص على عنق المرحوم المالكي من الخلف وهو يتابع مباراة لكرة القدم في الملعب البلدي ، فقتله فوراً ثم أطلق النار على نفسـه فانتحر . . . وأصيـب من في الملعب بالذهول . . ثم عم الذهول العـاصمـة وماهي إلا ساعات حتى اهتزت البلاد من أقصاها الى أدناها وكأنها تعـرضـت لزلـزال عنيف وكـان مركـز هذا الزلزال مدينة دمشق والقوات المسلحة والأحزاب التقدمية . .

بادرت أجهـزة الأمن والشعـبـة الثانية بالتحقيق فتكونت لديها القناعة ان هنـاك علاقـة بين بعض قادة الحـزب الـسوري القومي الاجتماعي وبين القاتل ، وعندما أشيع الخبر هجمت الجماهير على مركز هذا الحزب وأشعلت فيه النيران . . .

وعقـد اجتـماع هام في قيـادة الجيش لدراسـة الـوضـع واستنفرت القوات المسلحـة واتخـذت الاحتيـاطـات الـدقيقـة الكـافيـة للحيلولـة دون أي تحرك مشبـوه . . . وشكلت على الفـور محكمـة استثنـائيـة للنظر في هذه القضـية التي أصبحت أعظم قضية اغتيال في تاريخ سورية الحديث بعد اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أيام الانتداب الفرنسـي . وكان واضحاً ان الغاية الأساسيـة من هذا الاغتيـال هي ضرب وحـدة القـوات المسلحـة والاتجاه التحرري في سورية

الممثلة بالعقيد المالكي ومن ثم السيطرة على الجيش الذي أصبح العامل الحاسم في حماية النظام الديمقراطي وتكريس الاستقلال الوطني وتدعيم السياسة العربية والدولية المستقلة.

وبالرغم من كثرة الانتقادات التي وجهت لطريقة التحقيق في الاغتيال، ولقرار المحكمة الاستثنائية، وبالرغم من الاشاعات التي حاول البعض زرعها في أذهان الرأي العام لاثارة الشكوك حول بعض الضباط البارزين في أجهزة الأمن وخاصة الشعبة الثانية والشرطة العسكرية واستغلال حادث الاغتيال كقميص عثمان لضرب الاتجاه الوطني التقدمي في الجيش والسلطة السياسية، لازلت شخصياً على يقين من ان هذه التهم باطلة وان المحرضين على الاغتيال كانوا من المسؤولين عن قيادة حلف بغداد وان الأيدي المنفذة كانت من عملاء هذا الحلف والدوائر الأجنبية المؤيدة له. واذا كانت بعض هذه الأيدي القذرة لم يصل اليها التحقيق ولم يطلها قرار المحكمة الخاصة بهذه القضية، فإن هذه الأيدي ليس لها صلة مباشرة بالضباط المقربين من المرحوم المالكي ممن ساهموا بعد استشهاده بالمحافظة على وحدة الجيش وصيانة النظام الديمقراطي البرلماني، وحطموا سلسلة جديدة من المؤامرات وترفعوا عن الانزلاق الى دوامة الانقلابات ووقفوا الى جانب مصر عندما تعرضت للعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، وصمدوا للحشود التركية عام ١٩٥٧ وساهموا بتعبئة الجماهير الشعبية ودربوا وسلحوا عشرات الآلاف من الرجال والنساء، حتى غدت سورية في ذلك العام بنضالها وصلابة موقفها محط أنظار العالم بأسره؛ وفي بداية عام ١٩٥٨ واكبوا تيار الشعب الوحدوي العارم ومهدوا بذلك لأول وحدة عربية حقيقية في تاريخ الأمة العربية منذ القرن الثالث عشر وانهيار الدولة العباسية..

لمحة سريعة عن تاريخ القوات المسلحة السورية:

فقد الجيش السوري باغتيال العقيد الركن عدنان المالكي الضابط الوحيد بين كبار القادة الذي كان يجمع عليه كل الجيل الجديد من الضباط

الذين تطوعوا في القوات المسلحة منذ بدء الاستقلال والذين أصبحوا يشكلون العمود الفقري للجيش والأكثرية من حيث العدد. وقد تميز هذا الجيل عن العسكريين السابقين بأنه جيل مثقف نسبياً ومسيّس عاش فترة النضال ضد الانتداب وشارك مشاركة فعالة فيه الى جانب جماهير الشعب فكان في مقدمتها أغلب الأحيان.

والحقيقة ان تاريخ الجيش السوري يشبه تقريباً تاريخ بعض الجيوش العربية وجيوش العالم الثالث التقليدية. كان الفرنسيون قد أنشأوا في سورية ولبنان بعد احتلالهم لسورية ولبنان قوة مسلحة، أطلقوا عليها اسم «جيش الشرق» وأخذوا يختارون الجنود وعدد من ضباط الصف والضباط من بين أبناء الأقليات القومية في سورية كالأرمن والأكراد والشراكسة والأشوريين والاقليات الطائفية الأخرى. ثم عمدوا في مرحلة تالية الى انتقاء بعض أبناء الأسر الموالية لهم ليكونوا ضباطاً بصرف النظر عن توفر الشروط الثقافية فيهم. أما الكوادر الأساسية والمراكز الحساسة فكانت بيد الضباط وضباط الصف الفرنسيين. وكانت قيادات المواقع والمناطق وضباط الأركان وضباط حرس البادية على الأخص من الفرنسيين أيضاً.

وهكذا أنشىء في هذا الجيش وحدات عرقية أو طائفية فكانت هناك، وحدات شركسية ووحدات كردية ووحدات علوية ووحدات درزية.. الخ... وكان ذلك منطبقاً على المخطط الاستعماري الذي وضعوه لتقسيم سورية الى دويلات وتكريس التفرقة الطائفية ليسهل عليهم ادامة سيطرتهم استناداً لمبدأ «فرق تسد». ولكن مخططاتهم ومشاريعهم الخبيثة مالبثت ان تحطمت على صخرة الوحدة الوطنية، وهب الشعب السوري بكامله لمقاومتها فاشتعلت الثورات المسلحة في جبل العرب وجبل العلويين وجبل سمعان وغوطة دمشق وحمص وحماة واللاذقية وحوران، وبادية الشام ودير الزور. فاضطروا للتخلي عن مشروع التقسيم واعترفوا بوحدة سورية لكنهم أصروا على سلخ جبل لبنان وتأسيس دولة ذات نظام طائفي فيه، ثم ضموا اليه منطقتي البقاع وطرابلس ليصبح قادراً على الحياة والاكتفاء...

وفي أواخر الثلاثينيات عندما بدأت تظهر في الأفق دلائل اقتراب نشوب الحرب العالمية الثانية اضطرت فرنسا لتعزيز وحدات جيش الشرق ليسهم بالدفاع عن منطقة الشرق الأوسط فأنشأوا كلية حربية في حمص وتخفيض شروط الانتساب للمواطنين السوريين واللبنانيين، الأمر الذي أفسح المجال لدخول العناصر الوطنية لهذه الكلية وهكذا لم تنته الحرب حتى ضم جيش الشرق عشرات الضباط السوريين برتب مختلفة ولكن معظمهم كانوا من الضباط الأعوان. ولم يسمح الفرنسيون إلا لعدد ضئيل من السوريين لايتجاوز أصابع اليد الوصول الى الرتب العالية (الضباط القادة).

وعند نشوب ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق لجأ بعض الضباط السوريين للفرار من جيش الشرق والتحقوا بهذه الثورة لاعتقادهم انها بداية لثورة عربية تحرر العراق وسورية من الاحتلال الفرنسي والبريطاني.

وعندما هب الشعب السوري في عام ١٩٤٥ للمطالبة بجلاء الفرنسيين والاستقلال الكامل وتفجرت الاضطرابات المسلحة في معظم المدن السورية، انضم عدد كبير من الضباط وضباط الصف والجنود السوريين الى القوى الوطنية وقاتلوا الى جانب الثوار ضد القوات الفرنسية. في هذه اللحظة ولد الجيش السوري الوطني وبدأت تتكون نواته الأولى من العناصر الثائرة على الاحتلال الفرنسي والتي قادها الشعور الوطني للانضمام الى الشعب ومتابعة الكفاح معه حتى انتصرت الحركة الوطنية، وفور اعلان الاستقلال أصدرت الحكومة الوطنية القرارات اللازمة لاحداث «كلية حربية وطنية» مهمتها تخريج الضباط الذين تحتاج اليهم القوات المسلحة، واستناداً الى هذه القرارات تحولت «الكلية الحربية» التي أنشأها الفرنسيون في حمص الى «كلية وطنية». وسمي العقيد الركن فوزي سلو مديراً لها، وأجريت المسابقات لانتقاء أول دفعة من التلاميذ الضباط في المعهد الوطني، واستقبلت هذه الكلية أول «دورة» في عهد الاستقلال بتاريخ اليوم الأول من عام ١٩٤٦، وأطلق على هذه الدورة عند تخرجها في عام ١٩٤٨ اسم «دورة خالد بن الوليد». وكان لي شرف الانتساب لهذه الدورة التي كانت بمثابة النواة الأساسية للجيش الوطني.

وأصبحت الكلية الحربية منذ عام ١٩٤٦ تستقبل في كل عام أعداداً متزايدة من التلاميذ الضباط، ولازالت المفصل الأول الذي يتخرج منه ضباط القوات البرية في الجيش السوري . . وأخيراً وتحت ضغط الثورة الشعبية العارمة وانحلال جيش الشرق اضطرت فرنسا للجلاء عن الأراضي السورية في ١٧ نيسان ١٩٤٦ وخيّرت من بقي معها من شراذم جيش الشرق من السوريين بين البقاء في البلاد أو الرحيل مع القوات الأجنبية الى فرنسا، فاختار البعض القليل الرحيل مع المحتل متخلين عن جنسيتهم وبلدهم، وفضلت الغالبية البقاء في الوطن ووضعت نفسها تحت تصرف الحكومة الوطنية . . .

وفي الوقت الذي جلا فيه آخر جندي أجنبي عن الأرض السورية بدأ تنظيم الجيش السوري الوطني الفني استناداً الى العناصر الوطنية التي انضمت للحركة الوطنية . . . فأنشأت الأركان العامة، وحلت الوحدات الطائفية والعنصرية، وحل محلها وحدات تجسد الوحدة الوطنية التي تعمدت في الثورات والنضال، وأنشأت المدارس والكليات العسكرية لجميع الرتباء، لمختلف صفوف الأسلحة، وفتحت الكلية العسكرية الوطنية في حمص مع نهاية عام ١٩٤٥، واستقبلت أول دفعة من الضباط في كانون الأول من نفس العام (هذه الدفعة التي تخرجت في مطلع عام ١٩٤٨ . . ثم تلاها دورات أخرى متتالية وأصبحت الكلية منذ عام ١٩٤٨ تخرج سنوياً حوالي مائة ضابط . . . كما بدأت مدارس الرتباء في قطنا وحمص وحلب واللاذقية تخرج المئات من ضباط الصف في جميع الاختصاصات . . .

ووضعت الأسس والشروط الجديدة لانتقاء الضباط وضباط الصف والجنود، وهي تعكس السياسة الوطنية التي سارت عليها سورية منذ نيل استقلالها وهي الوحدة الوطنية الخالصة في الداخل لأنها هي الأداة الفعالة التي أدت الى التحرر الكامل من الاحتلال، والايمان بأن سورية جزء من الوطن العربي الممتد من الخليج الى المحيط وان الشعب السوري بجميع فئاته وطبقاته جزء لايتجزأ من الأمة العربية العريقة وان الهدف الأسمى بعد الاستقلال هو

تحرير الوطن العربي من الاحتلال الأجنبي والعمل على تحقيق الوحدة العربية الشاملة أو الاتحاد . . .

والحقيقة التي تجدر الاشارة اليها ان الحكومة الوطنية وقيادة الجيش لم تضع أية عقبة أمام أبناء الشعب السوري على اختلاف معتقداتهم الدينية وطبقاتهم الاجتماعية أو انتماءاتهم السياسية ولم تفرق بين طائفة وأخرى أو بين المدن والريف للدخول في مدارس الجيش (وكان ذلك ينطبق أيضاً على الجامعات ووظائف الدولة) . . . لذلك كان التكوين الاجتماعي لضباط الجيش وصف ضباطه وجنوده المتطوعين يعكس بصدق تكوين المجتمع السوري، ويحمل في طياته جميع مشاكله السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتطلعات الشعب وآماله وطموحاته بل وتناقضاته . . وفي اعتقادي ان الوحدة الوطنية المتينة كانت من أهم النتائج الايجابية للقوى الوطنية التي تحملت مسؤولية الحكم في الفترة الواقعة بين ١٩٤٣ و١٩٤٩ ومن الأمانة الاعتراف لها بهذه الفضيلة التي ساعدت على الاستقلال وكرست مبادىء الوطنية في نفوس الأجيال المتعاقبة، الأمر الذي امتازت به الجمهورية العربية السورية، وعندما صدر قانون خدمة العلم أصبح الجيش السوري جيشاً وطنياً بكل مالهذه الكلمة من معنى، ولما كان النظام في سورية برلمانياً منذ أوائل العشرينيات، فلم تكن هناك طبقة محدودة من النبلاء تحتكر المراكز الأساسية في الجيش والسلطة المدنية كما هي الحالة في بعض البلدان العربية ذات الأنظمة الملكية بل كانت جميع الرتب والوظائف في الدولة والجيش مفتوحة لأصحاب الكفاءات والمؤهلات . وكان الانتقاء يتم في أقصى حد من النزاهة وتكافؤ الفرص، لذلك كان الكثير من الطلاب الذين يقبلون للكلية الحربية وكلية الطيران ومدارس الجيش الأخرى من مختلف الطبقات في المدن والريف . ومع الزمن أصبحت غالبية عناصر القوات المسلحة من أبناء الريف وسبب ذلك ان الريف آنذاك يشكل ٨٠٪ من مجموع السكان أو يزيد وعدم إقبال أبناء المدن للانتماء للجيش، وكان لهذه الظاهرة نتائج هامة على الأحداث التي مرت على سورية منذ ذلك

الوقت حتى الآن، خاصة وان أبناء الطبقة الموسرة في المدينة لم يكونوا يرغبون في الخدمة العسكرية . . .

وعندما بدأ الصراع السياسي في نهاية الأربعينيات والخمسينيات بين الأحزاب اليسارية والأحزاب اليمينية التي تتكون أساساً من الحزب الوطني وحزب الشعب، كان غالبية أفراد القوات المسلحة بمجموعها تميل الى القوى اليسارية، وخاصة حزب البعث، لأنها تعبر عن تطلعها للعدالة الاجتماعية والاقتصادية . . . على الرغم من عدم وجود أي انتماء حزبي للغالبية العظمى من أفراد هذه القوات .

على ان واجب الأمانة للحقيقة يقضي بأن نؤكد ان الحكومة الوطنية لم تضع أي قيود تحول دون انتساب العناصر الحزبية للقوات المسلحة أو لوظائف الدولة، وهذه فضيلة يجب ان تذكر للنظام البرلماني الديمقراطي الذي كان يقوم أساساً على أكثرية من الكتلة الوطنية بزعامة الرئيس شكري القوتلي بينما نجد اليوم ان نظام الحزب الواحد يصنف المواطنين الى درجات حسب ولائهم للحزب . . . ويصر على مبدأ الجيش العقائدي . .

كان اغتيال المالكي في عام ١٩٥٥ ولم يمض على تكوين الجيش سوى عشر سنوات صدمة عنيفة كادت تؤدي الى كارثة وطنية بسبب الظروف المعقدة الصعبة التي كانت تحيط بسورية والمنطقة العربية بكاملها، يمكن ان تؤدي الى تدمير السياسة التحررية التي سارت عليها البلاد وآمن بها وتحمس لها المرحوم المالكي قبل اغتياله وتخريب الأسس التي وضعت تحت اشرافه لتكريس الوحدة الوطنية الكاملة في القوات المسلحة والتي تبلورت وأصبحت من القوة بحيث استطاعت الصمود لهذه الهزة . فقد زاد في صلابتها وتماسكها شعور الجماهير والقوات المسلحة بأن الغاية الأساسية من الاغتيال هي تمزيق وحدة الجيش والوطن واخضاعه للمشاريع الاستعمارية .

الاتجاه الى اقامة مجلس قيادة :

وبفضل وعي الجماهير عامة وأفراد القوات المسلحة خاصة تحولت الكارثة

الى بداية مرحلة نضال عنيفة دامت أربع سنوات انتهت بقيام الوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨ . ونظراً لعدم وجود قائد كبير آنذاك يستقطب تأييد جميع الفئات ويجسد التوجه نحو الوحدة العربية ومقاومة المشاريع الأجنبية وسياسة عدم الانحياز التي تبلورت في سورية فقد تقرر احداث نوع من القيادة الجماعية في الجيش يطلق عليها اسم «مجلس القيادة» ويتألف من ثلاثة وعشرين ضابطاً من مختلف صنوف أسلحة الجيش وهم: العقيد عفيف البزرة - العقيد أمين النفوري - المقدم عبد الحميد السراج - المقدم مصطفى حمدون - المقدم طعمة العودة الله - المقدم أحمد عبد الكريم - المقدم بشير صادق - المقدم أكرم ديري - المقدم جاد وعز الدين - - المقدم ابراهيم فرهود - المقدم أحمد حنيدي - المقدم أمين الحافظ - المقدم عبد الغني قنوت - المقدم لؤي الشطي - المقدم زهير عقيل - المقدم ياسين فرجاني - المقدم جاسم علوان - المقدم عبد الله جسومة - المقدم حسين حدة - المقدم غالب الشقفة - المقدم بكري الكزبري - المقدم جمال الصوفي - المقدم مصطفى رام حمداني.

وفيما بعد وفي عام ١٩٥٧ كلف هذا المجلس الضباط التالين بحكم عملهم في رئاسة الأركان لتمثيل الجيش والتعبير عن وجهة نظره في القضايا السياسية الهامة الى جانب الحكومة وهم: اللواء عفيف البزرة، رئيس الأركان - العميد أمين النفوري، معاون رئيس الأركان - المقدم عبد الحميد السراج، رئيس الشعبة الثانية - المقدم أحمد عبد الكريم، رئيس الشعبة الثالثة العمليات وهيئة التدريب - المقدم مصطفى حمدون، رئيس الشعبة الأولى.

وأصبح هؤلاء الضباط يحضرون بعض اجتماعات مجلس الوزراء التي تعقد برئاسة السيد رئيس الجمهورية شكري القوتلي، منذ عام ١٩٥٧ وحتى قيام الوحدة وكانوا يشاركون في مناقشة القضايا الداخلية والخارجية الهامة واتخاذ القرارات بشأنها.

أصبح الجيش في هذه المرحلة حارساً للنظام الديمقراطي، وأقسم أعضاء مجلس القيادة على الولاء التام لهذا النظام وحماية الاتجاه التقدمي في البلاد، وأصبحت بعض الصحف الأجنبية تطلق على هذا التكتل العسكري الكثير

من الصفات، فتارة يقال عنه انه «أداة في يد حزب البعث العربي الاشتراكي» وبيد أكرم الحوراني بالذات، وتارة يقال بأنه «أداة بيد الحزب الشيوعي» كما قيل بأن هذا التنظيم صورة عن «التيتوية» في يوغسلافيا والحقيقة ان الطابع الأساسي لهذه المجموعة كان الاتجاه الوطني الوحدوي المعادي للاستعمار والأحلاف . . . والمؤيد للسياسة التحررية التي تبنتها الأكثرية في المجلس النيابي . . . ولم يكن لدى هذه المجموعة أي مخطط أومنهاج معين، وانما تتخذ مواقفها من الأحداث الدولية والعربية والداخلية على ضوء السياسة الاستراتيجية العريضة التي رسمتها حكومة الائتلاف الوطني . لذلك كان رد فعلها على حادث اغتيال المالكي المزيد من العداء لمخططات الكتلة الغربية والاستفادة من صداقة الكتلة الاشتراكية لمقاومة هذه المخططات واحباطها دون التفريط بحرية وسيادة واستقلال سورية ودون ان تتجاوز هذه الصداقة حدوداً معينة، لأن الاتجاه المهيمن على هذه المجموعة هو «الفكر القومي» والتحدي الذي تتركز أنظارهم عليه هو «التحدي الصهيوني» والخطر الاسرائيلي ولولم تكن سياسة الغرب في تلك الفترة مفرطة في عدائها للعرب الى حد الوقاحة وصريحة في مساندتها لاسرائيل الى حد التحالف لما كانت هذه المجموعة معادية له، ولكن تكالب بريطانيا وتشبثها بنفوذها الاستعماري في المنطقة الذي وصل الى حد الهوس، وحقد فرنسا على الحركة التحريرية العربية بسبب عجزها عن اخماد الثورة الجزائرية فذهبت الى آخر الشوط في تحالفها وتواطؤ ها مع اسرائيل، وأخيراً غباء السياسة الأمريكية التي توهمت انها تستطيع الجمع بين بسط نفوذها وابتزازها للثروات وصداقتها للعرب وتبنيها للمخطط الصهيوني التوسعي . . .

والحقيقة ان هذه السياسة الغربية الفظة أعادت الى أذهان الشعب العربي «الحروب الصليبية» وأصبح أكثر الناس عداء للاتحاد السوفييتي وكرهاً للشيوعية يفضلون الصداقة السوفييتية على الرضوخ لهذا المخطط الغربي الذي يهدف الى فرض هيمنته على المنطقة من خلال «اسرائيل» والأحلاف العسكرية ولا أدل على ذلك من موقف العناصر البرجوازية مثل السادة خالد العظم، وهاني السباعي ومعروف الدواليبي ، وفاخر الكيالي، وسعيد الغزي

ومصطفى السباعي ، الذين يمثلون اليمين والتيار الديني . . وبهذا بدأ النفوذ السوفييتي يقوى ويتدعم بفضل سياسة الغرب والتوسع الاسرائيلي . . . . تماماً كما كان الأمر بالنسبة لتعاطف العرب مع «المحور» أيام الحرب العالمية الثانية ، لا حُباً «بهتلر» والنظام النازي في ألمانيا ، بل رغبة بالتحرر من الاستعمار الفرنسي البريطاني ، ولو كان ذلك التحالف مع الشيطان . . ولو أمعن مؤرخو الغرب النظر بالحقائق التاريخية لوجدوا ان اتجاه عواطف العرب نحو المحور آنذاك لم تكن لصدهم عن النظام الديمقراطي المعروف بما يسمى «بالعالم الحر» ولكن لايمانهم الفعلي «بالحرية» ولأدركوا ان المقولة «الصهيونية» حول عداء العرب للسامية ليست إلا «كذبة» انطلت على الأوروبيين والأمريكيين عن جهل أو تجاهل ذلك ان العرب هم الشجرة الأساسية للعرق السامي ، وليس يهود الشرق سوى أحد فروعها الثانوية . . . وان حقد العرب وعداءهم انما هو للصهيونية التوسعية أداة الاستعمار القديم والحديث . وليس للموسويين اليهود الذين تمتعوا بحماية العرب والاسلام في أكثر من مناسبة في التاريخ .

وهكذا كانت نتائج اغتيال المالكي على عكس ماتوخى المتآمرون ، فقد قوت جذور النضال وأصبح المالكي رمزاً للحرية ليس في سورية وحدها بل وفي الوطن العربي ، وأصبح الذين يتحيزون للغرب في هذه المنطقة يتسترون بشتى الأساليب لكيلا تشير اليهم أصابع الجماهير متهمة اياهم بالمساهمة في اغتيال هذا البطل الذي خدم أمته العربية في استشهاده كما خدمها طول حياته القصيرة . . . وأصبحت الجماهير في سورية معبأة شديدة الحساسية ، ونصب كل مواطن أو جندي نفسه «خفيراً وحارساً للوطن» لذلك لم تنجح كل المؤامرات الخبيثة التي تعرضت لها سورية في هذه المرحلة بل أدت الى تساقط بقايا القوى التي كانت لاتزال تعلق بعض الأمال على حسن نوايا الكتلة الغربية ولم تستطع الولايات المتحدة ان تسترد بعض سمعتها إلا عندما حاولت تميز موقفها عن مواقف الاستعمار الأوروبي الفرنسي ـ البريطاني ، أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ . غير انها مالبثت ان تبنت سياستهم الاستعمارية بأسلوب حديث فظ .

أحداث سورية الداخلية اثر اغتيال المالكي عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ :

أصبحت سورية في منتصف عام ١٩٥٥ رائدة السياسة التحررية والحياد في العالم العربي ، فقد يئست من صداقة الغرب واتجهت بحزم للتعاون الاقتصادي والسياسي مع الكتلة الاشتراكية وعقدت مع الاتحاد السوفييتي عدة اتفاقيات لشراء الأسلحة ، وبدأت حكومة العسلي بالتفاوض معه حول تنفيذ مشاريع واسعة للتنمية ومن بينها بناء سد على الفرات واقامة شبكة من الخطوط الحديدية ، كما أعلنت عن عزمها لانشاء مصفاة للبترول في حمص ، ودار حول هذا المشروع صراع عنيف أشد هولاً من الصراع على استيراد الأسلحة ، فقد حاولت الدول الغربية وشركات البترول طوال أكثر من عامين عرقلة تنفيذ هذا المشروع ، أومنع الدول الاشتراكية من المساهمة في تنفيذه . . . ولكن الحكومة السورية والمجلس النيابي أحبطا جميع هذه المؤامرات وتغلبا على جميع العقبات الفنية والمالية والتكنولوجية ، وتم التعاقد مع شركة تكنواكسبورت التشيكية لانشاء هذه المصفاة في شهر آذار من عام ١٩٥٧ ، وكان ذلك انتصاراً كبيراً أكد استقلال سورية الوطني وتحررها من النفوذ الاستعماري .

وهكذا كانت سورية في طليعة البلدان النامية التي بدأت بالتعاون الفعلي مع الدول الاشتراكية لتنفيذ مشاريع صناعية وقدمت بذلك مثالاً ملموساً على جدوى التعاون النزيه(*)، وحطمت أسطورة احتكار صناعة البترول من قبل الشركات الغربية . . . وبرهنت على امكانية استثمار الثروات البترولية دون اللجوء الى الشركات الاحتكارية الأوروبية والأمريكية .

والحقيقة ان معركة حلف بغداد وصفقات الأسلحة ومعركة استثمار البترول والتعاون مع الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية وبلدان عدم الانحياز في مجال التنمية الاقتصادية أعطى لسورية أبعاداً ووزناً يتجاوز حجمها الجغرافي والبشري ، وأصبحت منذ ذلك الوقت تلعب دوراً أساسياً في السياسة العربية وفي الميدان الدولي . . . وأخذ صوتها يلاقي صدى واستحساناً في كافة

أنحـاء العـالم، وظن الكثـير ون انهـا أكبر حجماً وأكثر عدداً مما هي عليه، حتى أصبـح الـسؤ ال الـذي يطرح دائماً على ممثل سورية في المحافل الدولية . . ماهو عددكم؟ وكم مـسـاحـة بلدكم؟ . . الـخ . . وعـنـدمـا يـسمعـون الحقيقـة تتـسع أحداقهم وتكتـسي وجوههم بعلائم الاستغراب والدهـشـة . . .

انتخاب الرئيس شكري القوتلي لرئاسة الجمهورية :

في هذا العام شغر كرسي الرئاسة في سـورية بعد ان أنهى الرئيـس الجليل هاشم الأتـاسي مدة رئـاسته وبـدأت في البـلاد معركة حامية الوطيس للرئاسة تتصارع فيها جميع القوى الداخلية، وتراقبها باهتمام جميع القوى العربية خاصة مصـر والـسعـودية والعراق والأجنبية وخاصـة الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد الســوفييتي التي تهتم بمنطقـة الشـرق الأوسـط وأصبحت هذه المعـركـة مرحلة لامتحان توازن القوى بعد اغتيال المالكي

مع القبائل العربية البدوية في سورية :

سبق وذكرت انني عينـت في أركان اللواء الثاني في حلب في تموز من عالم ١٩٥٤، وفي بداية كانون الأول من العام نفسه تلقيت برقية عاجلة من القيادة العامة بدمشق للالتحاق فوراً بموقع الحسكة لتسلم سرية البادية، ويبدو ان قائـد المنطقـة لم يرض عن علاقـاتي بالـزمـلاء الضباط رغم ابتعادي عن أي نشـاط سيـاسي وكـرست وقتي للمحاضـرات والتدريب. وهكذا وجدت نفسي فجأة (ضـابـط عشـائـر) لاصلة لعمـلي اطـلاقاً بالحياة العسـكرية واختصاصي الجـديـد كضـابـط ركن ولن يكون أمامي أية فرصـة للاستفادة مما تعلمته في كلية الأركـان ببـاريس، وعـلي ان أنسى مالـه علاقـة بالأنظمـة والقـوانـين المـدنيـة والعسـكـريـة، وأحـاول الاعتـماد ماأمكن على المنطق وتوخي العدالة والحزم في حل الخلافات والمشاكل الادارية بين قبائل البدو الأمر الذي يؤكد الدور الذي

يقوم به ضابط العشائر، والسلطة التي يمارسها والتي لايحددها سوى ضميره ووطنيته والدعم الذي يلقاه من قيادة الجيش، وبالتالي سمعته التي يكتسبها بين القبائل والمشايخ والأفراد نتيجة للطريقة التي يمارس بها هذه الصلاحيات ومدى نزاهتها وعدالتها وعدم تناقضها مع العادات والأعراف العربية الأصيلة.

بدأت عملي الجديد دون حماس لاعتقادي ان الدافع الحقيقي لنقلي لم يكن سوى ابعادي عن مدينة حلب التي تضم أكبر تجمع للضباط بعد الجبهة ودمشق.

وفسرت هذا النقل في البداية على انه دليل على عدم ثقة القيادة بسلوكي وان رواسب الماضي لم تنته. وماهي إلا أسابيع حتى لمست مدى حساسية المهمة الملقاة على عاتقي من الناحيتين الوطنية والسياسية وأدركت ان اختياري لهذه المهمة الجديدة أساسه ثقة القيادة بي وبامكانياتي الادارية والأخلاقية، ذلك ان عملية توطين القبائل العربية البدوية في هذه المنطقة يتوقف على استملاكها للأرض وقناعتها بأفضلية الزراعة على تربية المواشي وان توزيع الأراضي على هذه القبائل يمكن ان يكون وسيلة لاستمالة رؤسائها أو التأثير عليهم وربط أفراد هذه القبائل الرحالة بالوطن واستقرارهم ولذلك سرعان ماتعلقت بعملي الجديد وبدأت أكرس كل جهودي، بل وأجد فيه الكثير من المتعة والسعادة خاصة عندما كنت أعالج مشكلة أو خلاف على أرض أو مرعى أو دم وخاصة عندما كنت أنجح في توزيع بعض أراضي أملاك الدولة على احدى القبائل. وكانت علاقاتي مع شيوخ العشائر والمخاتير والوجهاء والقضاة التقليديين تزيدني حباً بعملي وتكشف لي طبيعة هذا المجتمع الذي لم أكن أعرف عنه إلا النذر اليسير. ومن خلال هذه التجربة تعرفت على الكثير من مزايا ومساوىء الحياة البدوية التي مر بها المجتمع العربي في سورية ومعظم البلدان العربية، ولم يتحرر من مساوئها التي أبرزها الفردية والأنانية والاهتمام بالمظهر دون الجوهر رغم استقراره في القرى والمدن، كما احتفظ ببعض مزاياها كالكرم والتمسك بالكرامة والفروسية والميل للحرية والشعر والبلاغة.

ونظراً لما لقيته من نجاح في عملي بفضل الدعم الذي لقيته من القيادة

العامة وخاصة العقيد الركن عدنان المالكي (وساعدني فيه إلمامي بالعادات والأعراف العشائرية بسبب منشأي الريفي)، فقد كافأتني القيادة بتسميتي قائداً لحرس البادية في بداية عام ١٩٥٥، وأصبح مقر عملي في دمشق، وشملت صلاحياتي الجديدة كافة القبائل البدوية الرحالة ونصف الحضرية في سورية والمنتشرة على الحدود التركية والعراقية والأردنية، وأصبحت علاقات رؤساء هذه العشائر والنواب بينهم بشكل خاص منوطة بي بصفتي همزة الوصل بين أفراد قبائلهم وبين دوائر الدولة عامة وقيادة الجيش خاصة.

ولما كان نواب العشائر آنذاك يشكلون كتلة هامة ومرجحة في المجلس النيابي فقد أصبح من واجبي عقد صلات جيدة بين هؤلاء وبين المعارضة التي تدعمها قيادة الجيش، وقد استطعت القيام بدور لابأس به في هذا المجال وأقمت صداقات حقيقية مع العديد من شيوخ البدو لاأزال أعتز بها حتى الآن.

كانت مناطق عمل حرس البادية تمتد على طول الحدود العراقية والأردنية والجزء الواقع شمال شرقي نهر الفرات على الحدود التركية بين المالكية وجرابلس.

وهكذا أصبحت مهمتي رعاية شؤون البدو والاشراف على الأمن في بادية الشام والجزيرة واقامة علاقات مباشرة ويومية مع جميع القبائل البدوية والنصف حضرية التي تستوطن أو تتنقل في هذه المنطقة الواسعة.

ومن الجدير بالذكر ان العادات والتقاليد البدوية يختص بها خبراء وقضاة معروفون يعتمدون على الذاكرة وروايات السلف منذ أيام الجاهلية، ويقوم هؤلاء بالفصل في جميع الخلافات التي تقع بين الأفراد بمساعدة واشراف زعماء القبائل وضباط حرس البادية الممثلين للحكومة، ويكون لأحكامهم قوة القانون (وحبذا لو كرست كلية الحقوق بدمشق بعض الجهود لتأريخ وتسجيل هذه القوانين وكلفت بعض المختصين باجراء مقارنة بينها وبين القوانين القديمة (الرومانية وغيرها) والحديثة.

كانت مهمتي من الناحية الادارية والأمنية مراقبة الحدود الممتدة من مدينة (المالكية ديريك سابقاً) نقطة التقاء الحدود السورية والتركية والعراقية في

الشـمال، والى الحـدود الأردنيـة جنـوبـاً، والاشراف على الأمن في بادية الشام والجزيرة والعمل على حل النزاعات بين القبائل البدوية، وبين هذه القبائل من جهـة والقبـائـل نصف البـدويـة، وسكـان الـريف أومايـسمى بالحضـر، من جهة ثانيـة، وذلـك بالتنسيق بين قوانـين الـدولـة، والأعـراف والتقـاليـد والقـوانين العشـائـريـة السـارية المفعول عند البدو. ونظراً للنهضة الزراعية التي امتازت بها منطقـة الجـزيـرة منـذ نهاية الحرب العالمية الثانية أي دور الاستقلال، فقد اشتد اهتمام البدو الرحل ونصف الرحل، وشيوخهم بشكل خاص بالأرض الزراعية، لذا كانت أهم المنـازعـات في هذه الفـترة تدور حول ملكيـة الأرض. وتعتمـد القبـائـل والأفـراد البـدو في دعـواهـا لحيـازة الأرض على أمـاكن حلها وترحالها والمراعي والآبار التي كانت مجالاً لرعي مواشـيها وسقايتها خلال فترات طويلة، مع العلم ان التقـاليـد والأعراف كانت تضـمن لكل قبـيلة أو فخذ من قبيلة، حقوق الاقامة والرعي في بعض المواقع التي تضـم عدداً من الآبار، ولكن ذلك لم يكن يعني وجود حدود واضحة المعالم تفصـل بين قبـيلة وأخرى، أو بين فخذ وآخر من قبيلة واحـدة، على ان الشيء المعترف به من الجميـع ان المـراعي والآبار التي تؤمها سنوياً قبيلة معينة تصبح ملكاً لهذه القبيلة وليس لأية جهة أخرى أي حقاً عليها حتى ولو كانت هذه الجهة الدولة ذاتها.

وينتج عن هذا ان البدو والعشائر أو نصف الحضرية لاتعترف بما يسمى «أمـلاك الـدولـة» وتنظر لهذا الموضوع على انه عدوان من السلطة على حقوقها الشـرعيـة والتـاريخية، وعندما كنا نحاول الرجوع الى قانون أملاك الدولة كان رؤسـاء العشـائـر والأفراد ينظرون إلينا بشيء من الاستغراب. ويقول بعضهم مامعنـاه. . . «وبين كانت الـدولـة من مئـات السـنين يوم كان أجـدادنا وأجداد أجـدادنـا ينصبـون خيـامهم ويرعون مواشيهم في هذا الأراضي ويدافعون عنها بدمائهم ويدفنون فيها موتاهم، ويحفرون فيها (نقراتهم أو مواقد نيرانهم؟)».

والحقيقـة انني أصبحت أميـل الى وجهـة نظـرهم وكـذلك كان معظمم ضبـاط العشـائـر لرغبتنـا باستقـرارهم وتحضـرهم واسكانهم على طول الحدود التركية - السـورية، والعراقية السـورية في الجزيرة، لقناعتي ان هذه المنطقة هي

مناطق تجوالهم منذ أيام الجاهلية قبل الاسلام . كانت الخلافات بين القبائل تحل اعتماداً على مثل هذه الحجج بعد اثباتها، ولكن الخلاف بين هذه القبائل والدولة لايمكن معالجتها استناداً للقوانين النافذة.

والحقيقة ان ضباط العشائر بموجب الصلاحيات غير المكتوبة التي كان يتمتع بها في أغلب الأحيان المرجع لجميع البدو المقيمين والمتجولين في المنطقة الممتدة شرقي الخط الواصل بين حلب ودرعا وتضم مايزيد عن (٣٠٠) ألف مواطن يمثلهم في المجلس النيابي حوالي عشرين نائباً ويشكلون مايسمى «بكتلة العشائر» التي أصبحت في الخمسينيات تمثل القوة المرجحة بين الكتلتين القويتين المتصارعتين في المجلس النيابي وهما كتلة حزب الشعب، والكتلة الديمقراطية التي تضم معظم المستقلين وحزب البعث العربي الاشتراكي . . وكان اكتساب هؤلاء النواب أومعظمهم الى جانب احدى الكتل معناه الحصول على الأكثرية النيابية وبالتالي امكانية تشكيل حكومة تساندها الغالبية من النواب .

معركة رئاسة الجمهورية :

كانت مهمتي حتى الآن في هذه المرحلة الدقيقة بالاضافة الى حماية الحدود والمحافظة على النظام والأمن في البادية هي العمل على كسب صداقة معظم نواب العشائر الى جانب الكتلة الديمقراطية وتأييدهم للسياسة التي تساندها قيادة الجيش.

لم تكن هذه المهمة بالسهلة لأسباب عديدة بعضها يتعلق بتمسك شيوخ العشائر بالتقاليد العربية الاسلامية وارتباط معظم القبائل البدوية في سورية بالقبائل الأخرى المقيمة في العراق والأردن والمملكة العربية السعودية، بل ان قسماً كبيراً من هذه القبائل (وخاصة منها القبائل الرحل) لايزال يتنقل بين هذه البلدان العربية الثلاثة آنفة الذكر تماماً كما كان الأمر منذ مئات السنين بل منذ أقدم عصور التاريخ يمارسون رحلة الشتاء والصيف بين الجزيرة العربية والهلال

الخصيب، كما ان الكثير من هذه القبائل منقسمة الى فروع وأفخاذ يقيم كل منها في بلد من هذه البلدان العربية ولكنها شديدة الولاء لشيخ القبيلة ومن هنا لابد وان تتأثر بالسياسات المحلية والعربية ـ ويحاول شيوخ هذه القبائل بكل ذكاء وفطنة ان يكونوا على علاقات طيبة مع جميع هذه الحكومات لكي يستطيعوا المحافظة على مصالح قبائلهم وزعاماتهم.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد اعتاد هؤلاء المشايخ (النواب) على ان يكونوا الممثلين الوحيدين لقبائلهم أمام السلطات وبعضهم لايرضى عن سريان القوانين العامة على أفراد القبائل، كما لايرضى باتصال هؤلاء الأفراد بالسلطات وحل مشاكلهم بأنفسهم، وهم ينظرون بحذر شديد لقانون الخدمة الالزامية في الجيش والتعليم الالزامي . . . ويرون في سياسة الدولة وخاصة الأحزاب اليسارية مايهدد زعامتهم والنظام القبلي من أساسه، كما انهم غالباً مايُقيِّمون رجال السياسة على أساس مدى تمسك هؤلاء بالقيم الروحية والأخلاقية والعشائرية التقليدية، ويربطون بين الاخلاص للوطن والتمسك بالتعاليم الدينية والتقاليد العربية الاسلامية . . على الرغم من ان بعضهم لايقيم أي وزن لهذه الأمور في حياته الخاصة.

عندما بدأت معركة الرئاسة كان حزب الشعب يفضل ترشيح السيد رشدي الكيخيا ويدعمه في ذلك معظم نواب العشائر في محافظات الحسكة والرقة وحلب وعدد من النواب المستقلين نظراً لما للسيد كيخيا من شعبية واسعة في مدينة حلب ومايمتاز به من صفات وأخلاق عالية بالاضافة لكونه رئيساً لأكبر حزب في البلاد ولكنه رفض هذا المنصب ورشح الدكتور ناظم القدسي الرجل الثاني في الحزب بدلاً عنه، كما وعد السيد لطفي الحفار، (وهو من الكتلة الوطنية سابقاً ثم أصبح مؤيداً للاتحاد مع العراق) بالدعم اذا لم يحصل الدكتور القدسي على الأصوات اللازمة من أعضاء البرلمان. أما القوى التقدمية، وأقصد بها حزب البعث العربي الاشتراكي، والكتلة الديمقراطية والحزب الشيوعي وبعض المستقلين من أمثال نائب حمص هاني السباعي، فكان مرشحها المفضل

هو الســيد خالد العظم وزير الخارجية والدفاع في الائتلاف والرجل الذي أصبح يمثل التيار المعادي للأحلاف العسكرية .

وباقتراب موعد الاقتراع في البرلمان أخذت تظهر تدريجياً مواقف النواب واتضح بنتيجة التحليل استحالة فوز السيد خالد العظم لأن عدداً من نواب الكتلة الديمقراطية نفسها ونواب الحزب الوطني وعلى رأسهم السيد صبري العسلي وكذلك جميع نواب العشائر لايرضون عن انتخابه لرئاسة الجمهورية لأن نواب الحزب الوطني يعتبرونه خصماً تاريخياً لهم ، ويعتقدون ان رئاسة البلاد هي من حق السيد شكري القوتلي لأنه كان الرئيس الشرعي عندما وقع أول انقلاب عسكري عام ١٩٤٩ واذا كانت القوات المسلحة لاتزال تعترض على اعادة انتخابه للرئاسة ، فإن الحزب يفضل ترشيح السيد صبري العسلي نفسه ، خاصة وان السيد العسلي كان قد مهد لهذا الترشيح بالتودد للعراقيين خلال فترة حكم الزعيم الشيشكلي ، وفي الفترة التي تسلم فيها رئاسة الوزارة انضم الى التيار المعادي لحلف بغداد واختصم مع بعض نواب الحزب الوطني الذين أصبحوا من المهاجرين بتأييد من الحلف ومن أبرزهم السيد ميخائيل اليان نائب حلب المعروف . أما نواب العشائر وبعض المستقلين فلا يرون ان السيد خالد العظم اهل للرئاسة بسبب حياته الخاصة وسلوك زوجته التي لم تكن تتمتع بالصفات اللازمة والكافية لتصبح السيدة الأولى . هذا بالاضافة الى ان السيد خالد العظم لم يكن يتودد للنواب ويلبي طلباتهم ، فهو في نظرهم ارستقراطي يتعالى على زملائه النواب ويعتمد أساساً في سياسته الداخلية على التمسك بالدستور والقوانين ويستند الى تأييد الفعاليات الاقتصادية ودعم الجيش واذا ماوصل للرئاسة فلن يعترف لهم بفضل . يضاف الى كل ذلك ان نواب حزب الشعب والكتلة الاسلامية يرون فيه الخصم الأول الذي يجب اسقاطه بأي ثمن ، بعد ان تحالف مع حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي وأصبح ينادي بحماس بالتعاون مع الاتحاد السوفييتي (ونال بذلك لقب المليونير الأحمر) .

في هذه الظروف بدأت الأنظار تتجه الى السيد شكري القوتلي كحل

وسط ولأن غالبية النواب تفضله على غيره من المرشحين بل وترى فيه رمزاً لتأكيد النظام الجمهوري الديمقراطي البرلماني ويعتقد البعض ان انتخابه للرئاسة هو الوسيلة الوحيدة لرد اعتباره، بالاضافة الى انه سيدعم العلاقات السورية - المصرية - السعودية. وهنا أخذ الناس يتساءلون عن موقف قيادة الجيش من هذا الترشيح، ويبدو ان السيد القوتلي نفسه لم يكن يفضل خوض المعركة اذا كان الجيش يعترض على ترشيحه.

نوري السعيد يعود للتآمر على النظام البرلماني والحيلولة دون انتخاب القوتلي للرئاسة:

وفي خضم هذا التطاحن الذي شحن الجو السياسي في سورية بالتوتر، أعلمني العميد أمين النفوري ان السيد عبد الكريم الدندشي (وهو نائب سابق في برلمان الشيشكلي وصديق للسيد مأمون الكزبري) طلب الاجتماع به لأمر هام وعاجل، وأبلغه ان سفير العراق بدمشق السيد عبد الجليل الراوي استدعاه الى منزله وطلب اليه ان ينقل رسالة شفوية لضباط الأركان وخلاصتها ان نوري السعيد رئيس حكومة العراق آنذاك يريد التفاهم مع قيادة الجيش السوري، وهو مستعد للاجتماع بممثلين لهذه القيادة ليقدم لهم الضمانات الكافية واللازمة لاستقلال سورية وبقائها على الحياد والمهم بالنسبة لهم ان تبقى سورية بعيدة عن مصر وألا توقع معها أي اتفاق عسكري وألا يوافق الجيش على انتخاب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية ولامانع ان يُنتخب أي شخص من المرشحين الآخرين، باستثناء خالد العظم طبعاً، كما لامانع لديه بأن تتسلم قيادة الجيش السلطة. . وهو أخيراً على استعداد لتقديم عشرة ملايين دينار للضباط الذين يضمنون له تنفيذ هذه الشروط.

وعندما أعلمني بهذا الحديث قررت وإياه اعلام رفاقنا في رئاسة الأركان بالأمر ودعوناهم للاجتماع وتم ذلك بنفس الليلة في منزل اللواء شقير رئيس الأركان حضره رؤساء شعب الأركان السادة: عفيف الرزة، أمين النفوري،

عبد الحميد السراج، مصطفى حمدون، أحمد عبد الكريم، بالاضافة الى عدد من أعضاء مجلس القيادة وتدارس الحاضرون الوضع في البلاد واستمعوا للحديث الذي نقله الينا أمين النفوري عن طريق عبد الكريم الدندشي وبدت الدهشة على وجه اللواء شقير وغضب السراج لأن الدندشي لم ينقل اليه شخصياً هذه المعلومات، فاقترح المبادرة باعتقاله أو طرده من البلاد واعترضنا على ذلك لأن الرجل نقل الينا هذه المعلومات لثقته بنا وان اعتقاله يسيء الينا كما انه لايجوز ان يكافأ على هذا العمل بالعقاب، ووافق الجميع على ذلك ولكن السراج لم يرض عن القرار وحقد على أمين النفوري وعلى الدندشي لذلك أراد ان يستغل هذه الحادثة فيما بعد ضد أمين النفوري بالذات بعد قيام الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨.

القيادة تقرر عدم معارضة انتخاب السيد شكري القوتلي:

في تلك الليلة تم استعراض أسماء المرشحين للرئاسة واتجاهات كل منهم بالنسبة للظروف الراهنة ومواقف النواب والكتل النيابية وموقف حلف بغداد على ضوء تدخل سفير العراق، فظهر لهم ان السيد شكري القوتلي تتوفر فيه شروط كثيرة بالاضافة الى ان انتخابه يجسد الحرص على النظام الديمقراطي البرلماني ويدعم العلاقات الودية بين سورية ومصر والمملكة العربية السعودية نظراً لتعلقه باستقلال سورية ونظامها الجمهورية وعداوته التقليدية للأسرة الهاشمية ورفضه للأحلاف. هذا بالاضافة الى ان انتخابه يزيد في مناعة الوحدة الوطنية التي لابد منها لمجابه الأخطار المحيطة بالبلاد كما يزيل آثار الجفوة بين القوى الوطنية والقوات المسلحة التي نتجت عن الانقلاب الأول عام ١٩٤٩. وتقرر في هذا الاجتماع ان يكلف اللواء شقير بنقل هذا الرأي للسيد القوتلي باسم القوات المسلحة وان يبلغ كذلك السيد خالد العظم نفسه، وشرح مبرراته بشكل يخفف وقعه عليه ماأمكن... وكانت غالبية الكتلة الديمقراطية قد وصلت الى نفس القرار باعتباره الموقف الأكثر حكمة...

وهكذا أصبح الطريق ممهداً تماماً أمام السيد القوتلي ورجحت كفته على بقية المرشحين. وعندما أعلمت في اليوم التالي السادة نواب العشائر موقف القيادة العامة رحبوا به لأنه يتجاوب تماماً مع رغباتهم.

وبتاريخ ١٨ آب ١٩٥٥ انتخب المجلس النيابي السيد شكري القوتلي بأكثرية ٩١ صوتاً ونال السيد خالد العظم ٤١ صوتاً وبذلك أصبح القوتلي رئيساً للجمهورية للمرة الثالثة.

بعد أيام من انتهاء معركة الانتخابات وفوز الرئيس شكري القوتلي زارني في مكتبي بقيادة حرس البادية المرحوم الأمير فواز الشعلان رئيس عشائر الرولا في سورية، وطلب إلي ان أعطيه بعض الوقت للحديث معي على انفراد فرحبت بطلبه وعندما أصبحنا بمفردنا أخرج من تحت عباءته حقيبة وثائق سوداء من نوع «السامسونايت» ووضعها أمامي ثم فتحها فإذا بها مليئة بالأوراق المالية من فئة المائة ليرة سورية، وبادرني قائلاً:

إن هذه هدية من جلالة الملك سعود لك لتشتري لأولادك بيتاً، لانه يقدر مواقفك من مقاومة المشاريع العراقية وبالأخص تأييد السيد شكري القوتلي خلال معركة رئاسة الجمهورية. وكان ذلك مفاجأة مذهلة لي وأحسست بالحرج في هذا الموقف المحرج الذي لم أوضع فيه طوال حياتي.. لقد جوبهت بمساومات ومغريات كثيرة خلال عملي في الحسكة كآمر سرية البادية، وكقائد لحرس البادية بدمشق عام ١٩٥٥ خاصة عند فض النزاعات على الأراضي في الجزيرة لصالح بعض الأفراد والفئات ولكن ذلك لم يكن يتعدى جس النبض والاستعداد للرشوة حتى اذا وجدوا أنه لا مجال لهذا الأسلوب عدلوا عنه وتظاهروا بالمزاح. أما الآن أجدني وجهاً لوجه أمام مشكلة معقدة ذات أبعاد أخرى تتجاوز حدود الرشوة العادية الى قبض أموال من دولة أجنبية، وهذه اموال مكدسة أمامي تصفعني بوجهي كالسياط، صمت قليلاً وقلت للأمير ياأبا متعب انني أشكر جلالة الملك لهذه الهدية واللفتة السامية ولكنني لست بحاجة للمال، فراتبي والحمد لله يكفيني وان مواقفي من مؤامرات العراق ومن

انتخابات الرئاسة هي من واجباتي الوطنية والمسلكية وتنفيذاً لقرار قيادة الجيش.

قال: ولكن لقد لمسنا تعاطفك مع ترشيح القوتلي في الانتخابات مما شجع نواب العشائر على انتخابه وأشكرك شخصياً لان دخلي سيمكنني من امتلاك بيت لأولادي وأنا لازلت شاباً في مستهل حياتي العملية. وهنا بدأ الغضب على وجه الأمير وتغيرت لهجته.. وقال مالك ألا تدري ان هدايا الملوك لاترد؟ وكيف تجرؤ أنت على ردها وتضعني شخصياً في هذا الموقف المخزي؟ وفكرت لحظة ثم قلت هون عليك ياأبا متعب فأنت أولاً صديق عزيز أكدنا لك كل مودة... أما هدية جلالة الملك فإنني أقبلها شاكراً بكل احترام وأمنحها لأي شخص تختاره أنت على أن يكون بحاجة اليها... ويتحول حديث الأمير الى مايشبه التهديد... ولكني قابلت ذلك بكل هدوء ولطف مع الاصرار على ان يقوم هو بتقديم هذه الهدية لأي شخص يختاره.. باسمي... ذلك انني أقبلها ولاأردها.. ولكني أتنازل عنها لغيري...

وبعد جدال... قبل اقتراحي فأقفل الحقيبة... وأعادها الى مكانها تحت عباءته الفضفاضة السوداء... وقرعت الجرس وطلبت تقديم القهوة المرة والشاي كالعادة، فاحتسى فنجانه دليل الرضا. وعندما ودعني معانقاً قال لي: لو تعلم أين كنت قبل مجيئي الى مكتبك... لما رددت هذه الهدية... قلت له لاأريد ان أعرف ولكل شخص أسلوبه في الحياة، ولكنه قال: كلهم أكبر وأهم منك! قلت له: مبارك عليهم فقال: والله ياحوراني ستبقى بقية عمرك تركض وراء الرغيف والرغيف خيال... وضحكت وقلت: ليسامحهم الله بهذا الرغيف.. بعد حوالي شهر زارني الأمير فواز في مكتبي بمناسبة عودته من زيارة لباريس وكان في المكتب عدد من نواب العشائر، وعندما سلم علي معانقاً، قدم لي راديو صغير وقداحة (ولاعة) رونسون مذهبة وقال: والآن ألا تريد ان تقبل هذه الهدية؟ قلت: أنت رجل كريم ويشرفني قبول هديتك، فضحك وضحكت ثم جلس الى جانب زملائه ولاأدري اذا كان قد أسر لبعضهم بما سبق وجرى بيني وبينه.. كان هذا الحدث بداية لصداقة عميقة بيني وبين هذا

الأمير النبيل استمرت حتى وفاته /رحمه الله/ وقد مشيت في جنازته عندما ووري التراب عام ١٩٦٢، ودمعت عيناي وأنا أذكر قوله . . . وأحمد الله الذي كفاني الاستجداء.

وظهرت بعد قليل ان الانسجام بين شكري القوتلي وبين القوى الجديدة وعلى رأسها حزب البعث لم يتحقق تماماً وان رواسب الماضي لازالت تعيق التفاهم الصميمي بينه وبين قادة هذا الحزب. . ويبدو انه لم يكن يستوعب جميع التغييرات الداخلية وتطور البنية الاجتماعية والسياسية، وان البلاد قطعت شوطاً بعيداً وابتعدت عن النقطة التي كانت فيها عند رحيله عام ١٩٤٩ الى منفاه في مصر وان هناك معطيات وعوامل جديدة معقدة أصبحت تؤثر على السياسة السورية الداخلية والخارجية وان العهد الذي كان يتمتع فيه الرئيس القوتلي بنفوذ حاسم على الحكومة معتمداً على مكانته في الكتلة الوطنية وماضيه النضالي ضد الفرنسيين قد انتهى وبدأ عهد جديد مختلف تمام الاختلاف، فتركيب المجلس النيابي أصبح مغايراً تماماً لما كان عليه في عام ١٩٤٨، بعد ان أصبحت تتقاسمه قوتان رئيسيتان هما: حزب الشعب الذي أصبح يتمتع بالأكثرية النيابية وحزب البعث الذي يتمتع بتأييد الشارع وكلاهما مناهضان للكتلة الوطنية التي أصبحت أقل التجمعات البرلمانية نفوذاً، كما ان دور القوات المسلحة أصبح واقعاً لايمكن تجاهله بعد سلسلة الانقلابات التي وقعت منذ عام ١٩٤٩ وخاصة الظروف التي تلت قيام حلف بغداد وتصاعد قوة اسرائيل جعلت مسألة أمن البلاد في طليعة المسائل الوطنية وهي المهمة التي تقع أساساً على القوات المسلحة. . . وأجهزة الأمن. . .

الرئيس القوتلي يتسلم سلطاته الدستورية:

وفي الخامس من أيلول تسلم الرئيس القوتلي سلطاته الدستورية رسمياً. وفي اليوم الثاني قدم له السيد صبري العسلي استقالة حكومته، وبعد التشاور مع الكتل البرلمانية، كلف الرئيس الجديد السيد سعيد الغزي - المستقل - بتشكيل الحكومة، فجاءت على الشكل التالي:

السيد سعيد الغزي، للرئاسة والخارجية - السيد عبد الحسيب رسلان، للداخلية (مستقل) - الأمير حسن الأطرش، وزيراً للدولة (مستقل) - السيد اسعد هارون، للأوقاف (حزب وطني) - السيد مأمون الكزبري، للتربية (مستقل) - السيد علي بوظو، للاقتصاد (حزب الشعب) - السيد رشاد برمدا، للدفاع (حزب الشعب) - السيد رزق الله انطاكي، للمالية (حزب الشعب) - السيد عبد الوهاب حومد، للزراعة (حزب الشعب) - السيد بدوي الجبل، للاعلام (الكتلة الدستورية) - السيد عبد الباقي نظام الدين، للاشغال (الكتلة الديمقراطية) - السيد بدري عبود، للصحة (الكتلة الديمقراطية).

هوامش الجزء الثالث

(١): تردد الشائعات في بداية العهد الاستقلالي أن عدداً من السياسيين السوريين كانوا يرون الاكتفاء بقوات الأمن الداخلي ومن بينهم المرحوم خالد العظم وأذكر شخصياً أنه عندما كان رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع في الخمسينيات، أصبح من أكبر المدافعين عن تأسيس قوات مسلحة وطنية حديثة التنظيم والتسليح، كما كان ينادي بتدعيم التعاون العسكري بين الدول العربية وخاصة جمهورية مصر العربية بما يضمن الوقوف في وجه التوسع الاسرائيلي.

(٢): الفضيحة التي أطلق عليها اسم «فضيحة السمنة» والتي اتهم فيها أحد الضباط القادة المسؤول عن التموين بسرقة إعاشة الجيش.

(٣): بقيت بعض القطع البحرية ترسو في ميناء البانيا الى ان وقع الخلاف بين الصين والاتحاد السوفييت بعد عام ١٩٦٠، وانضمت البانيا للصين متهمة السوفييت بالتحريضية. وطلبت منهم سحب غواصاتهم وسفنهم من مينائها وبذلك أغلق البحر المتوسط في وجه السوفييت.

(٤): مبدأ ترومان: Dactrin Truman: يشكل مبدأ ترومان انعطافاً تاريخياً هاماً في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، فمن أجل وقف تقدم الشيوعية في اوروبا الشرقية استجاب ترومان بالموافقة للنداء الذي وجهته حكومتا اليونان وتركيا بتاريخ ٣/آذار/١٩٤٧، وطلب من الكونغرس الموافقة على تخصيص مساعدات اقتصادية وعسكرية بحدود (٤٠٠) مليون

دولار، ومنذ ذلك التاريخ أصبح التصدي للتسلل الشيوعي في كل القارات من المبادىء الأساسية للسياسة الخارجية الأمريكية.

(٥): يؤكد الدكتور وليد صلاح وزير الخارجية الأردنية في مذكراته ان الملك فاروق كان وراء مؤامرة اغتيال الملك عبد الله لازاحته عن طريقه، لأنه كان يطمح لأن يكون خليفة للمسلمين.

(٦): النقطة الرابعة Le Point Quatre: تعتبر النقطة الرابعة بداية جهود واسعة لبلورة مبدأ العون الذي أعلنه الرئيس ترومان في حزيران ١٩٥٠ ببرنامج للتعاون الاقتصادي والأمن المتبادل بين الولايات المتحدة وبلدان العالم الثالث التي توافق على هذا المبدأ.

(٧): وهذا يؤكد ان سورية منذ أول الخمسينيات كانت ترفض الأحلاف وتنادي بعدم الانحياز، أي قبل مؤتمر باندونغ بخمس سنوات.

(٨): ربطتني صلة شخصية حميمة بالاستاذ عبد الحليم قدور عندما كان رئيساً للشؤون القضائية في وزارة الدفاع، ونظراً لكونه من شخصيات حزب البعث البارزين ولخلقي العميقة بخلقه ووطنيته اقترحت الاتصال به لعل بالامكان تلافي الأزمة.

(٩): ادعى الاستاذ رياض المالكي انني كنت بين أعضاء لجنة التحقيق مع الضباط المعتقلين من حزب البعث وأعتقد ان معلوماته ليست دقيقة لأنني لم اشترك في أي لجنة تحقيق اطلاقاً ولم يكن ذلك ضمن اختصاصي، وقد أوكل الأمر للشعبة الثانية والشرطة العسكرية.

(١٠): كانت هذه القوة بقيادة المقدم الركن تيه الصباغ، وهو من أجدر ضباط المشاة.

(١١): كان هذا المبلغ أضخم مبلغ تسلمته بيدي حتى ذلك التاريخ، وقد شجعني على اتمام تكاليف زواجي.

(١٢): طبع هذا الكتاب في مطبعة الجيش، بعنوان «فلسطين المحتلة» ورسم غلافه الفنان السيد محمود الأبرش، بعد التشاور معي، وكان يمثل صورة أخطبوط رأسه في الأراضي المحتلة وأذرعه تحاول الالتفاف على أجزاء هامة من الوطن العربي من النيل والفرات.

(١٣): مبدأ ايزنهاور: أو ماسمي «مبدأ الفراغ»، في رسالة وجهها الرئيس دوايت ايزنهاور الى الكونغرس، اقترح فيها الموافقة على التدخل الأمريكي عسكرياً في الشرق الأوسط، بهدف المحافظة على سلامة واستقلال جميع الشعوب في هذه المنطقة اذا طلبت من أمريكا المساعدة الاقتصادية والعسكرية، وهكذا قررت الولايات المتحدة إملاء الفراغ الذي حصل في المنطقة بعد حرب السويس نتيجة رحيل بريطانيا وفرنسا وفشل مؤامراتها وتواطؤهما مع اسرائيل عام ١٩٥٦، واستناداً لهذا المبدأ، تدخل الأسطول الأمريكي السادس في لبنان في حزيران ١٩٥٨.

«المصـدر كتـاب ٢٥ سنة من التاريخ العالمي ـ ١٩٤٥ ـ ١٩٧٠ ، تأليف : ميشيل مور «دار النشر الجامعية ـ باريس» .

(١٤) : سبق ان أشرنـا الى تصـريـح الـدكتور معروف الدواليبي وزير الخارجية السـورية في مؤتمر القاهرة عام ١٩٥٤ فالرجاء الرجوع اليه في مكانه من البحث .

(١٥) : سبق لسـورية أن تعاقدت مع يوغوسـلافيا لبناء ميناء اللاذقية في مطلع الخمسـينيات .



الجزء الرابع

الفصل الأول

التوقيع على اتفاقية القيادة المشتركة بين سورية ومصر وانشاء هذه القيادة

وفي ٢٠ أيلول ألقى السيد سعيد الغزي بيان وزارته فأكد معارضة سورية لحلف بغداد، وعزمها على المضي في تحقيق الاتفاق العسكري للدفاع المشترك مع مصر والسعودية. وبتاريخ ٢٠ تشرين الأول، قام السيد سعيد الغزي بزيارة رسمية للقاهرة على رأس وفد رسمي مؤلف من: السيد سعيد الغزي رئيساً للوفد، السيد رشاد برمدا، العميد جمال فيصل، المقدم الطيار راشد كيلاني، الرائد أحمد عبد الكريم، الرائد مصطفى رام حمداني /أعضاء/. وكانت مهمة الوفد التوقيع على اتفاقية القيادة العربية المشتركة وتبادل الوثائق الرسمية مع الحكومة المصرية.

كان في استقبال الوفد السوري في المطار السيد محمود فوزي وزير الخارجية والمشير عبد الحكيم عامر وزير الحربية والقائد العام للجيش والقوات المسلحة. حل الوفد في قصر القاهرة الأنيق.

كانت هذه أول مرة أزور فيها مصر. وقد دهشت ورفاقي أعضاء الوفد لأبهة القصر والمفروشات والطنافس الفاخرة التي تزينه، وأخذنا نقارن بين احدى القصور الملكية في مصر والقصر الجمهوري في سورية . . . وضحكنا كثيراً عندما أصبحنا لوحدنا وتبين لنا مدى تواضع رؤساء الجمهورية والوزراء في سورية والبساطة التي يعيشون فيها والفارق الكبير بين النظامين الملكي والجمهوري، بل والفارق بين تقاليد السلطة في مصر وفي سورية . . وفي المساء عند أول اجتماع للوفدين المصري والسوري في قصر القبة كان أول لقاء لنا مع الرئيس عبد الناصر الذي استقبلنا بقامته الفارعة وابتسامته العريضة الساحرة . . . والى جانبه القائمقام جمال سالم والمشير عامر والقائمقام عبد اللطيف البغدادي وزكريا محي الدين وكمال الدين حسين وعلي صبري ومحمود فوزي وكانت تبدو على الرئيس عبد الناصر السعادة والبشاشة وتلمع عيناه ببريق غريب هو مزيج من الذكاء وفرحة النصر والثقة بالنفس .

وبعد تبادل كلمات الترحيب ألقى الرئيس عبد الناصر كلمة قصيرة أكد فيها: «ان الاتفاقية الدفاعية تفتح أمام البلدين والعرب جميعهم مستقبلاً جديداً، وأشار الى ان اللقاء بين سورية ومصر كان دائماً مقدمة لانتصار العرب على أعدائهم منذ أيام الصليبيين والمغول . . . كما تمكن البلدان من حماية العالم الاسلامي . . . وهما اليوم سيحميان العرب من الغزول الصهيوني . . .» .

وكان لكلمة الرئيس عبد الناصر وقع عميق في نفوسنا، بل لقد أثرت في نفسي شخصياً تأثيراً خاصاً لأنني شعرت بأنه يتكلم بصدق وان نبرات صوته كانت تؤكد ايمانه بما يقول . . . ولاحظت انه حاول خلال هذا اللقاء والعشاء الذي تلاه ان يوزع اهتمامه لكل عضو من أعضاء الوفد حتى لقد ظن كل منا انه على معرفة به منذ زمن طويل وان له مكانة خاصة لديه، أو على الأقل هذا ماكنت أشعر به شخصياً.

وفي صباح اليوم التالي عاد السيد سعيد الغزي ووزير الدفاع الى دمشق. أما بقية أعضاء الوفد فقد صدر القرار بتعيينهم ممثلين عن القوات السورية في القيادة المشتركة وكنت من بينهم .

وفيما يلي نص المرسوم تبين الضباط السوريين في القيادة المشتركة :

مادة ١ ـ يعين كل من الضباط الآتية أسماؤهم معاونين للملحق العسكري لدى السفارة السورية في القاهرة اعتباراً من ١٠/١١/١٩٥٥ .

- ـ العقيد الركن المجاز جمال فيصل .
- ـ المقدم الركن الطيار راشد كيلاني .
- ـ المقدم المعتمد أحمد قصيباتي .
- ـ الرئيس الأول الركن أحمد عبد الكريم .
- ـ الرئيس الأول الركن مصطفى رام حمداني .
- ـ الملازم الأول حسين القاضي .

مادة ٢ ـ يتقاضى المذكورون تعويضات الانتقال وبدل الاغتراب وبدل الاغتراب المخصص للملحقين العسكريين بموجب التعليمات المطبقة في وزارة الدفاع الوطني وتقع نفقات سفرهم ونقل أثاث بيوتهم ذهاباً واياباً على عاتق وزارة الدفاع الوطني .

مادة ٣ ـ ينشر هذا المرسوم ويبلغ لمن يلزم لتنفيذ أحكامه .

دمشق في ١٧/٤/١٣٧٥ الموافق ٣/١١/١٩٥٥ .

وزير الخارجية	وزير الدفاع الوطني
سعيد الغزي	رشاد برمدا

شكري القوتلي
صدر عن رئيس الجمهورية
رئيس مجلس الوزراء
سعيد الغزي

وأصدر الرئيس عبد الناصر قراراً بتسمية المشير عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للقوات المشتركة استناداً للاتفاقية، وعين اللواء أركان حرب سيف اليزل رئيساً لأركان هذه القيادة وأصدر القائد العام قراراً بتعيين العميد جمال فيصل والعميد محسن ادريس من الجيش المصري نائبين لرئيس الأركان، وعينت شخصياً في شعبة العمليات مع المقدم يسري قنصوه والمقدم توفيق عبد الفتاح الذي أصبح فيما بعد وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية في مصر بعد قيام الوحدة.

الفصل الثاني

القيادة العربية المشتركة ـ حرب السويس ١٩٥٦

القيادة العربية المشتركة والعدوان الثلاثي على مصر:

أصبحت عضواً في القيادة العربية المشتركة، وكان ذلك بقرار من زملائي في مجلس القيادة، وقد كلفت من قبلهم بأن أقيم إن أمكن علاقات طيبة مع أعضاء مجلس الثورة في مصر لكي أتمكن من اعطاء فكرة دقيقة وواضحة ماأمكن عن حقيقة الثورة المصرية، وأهدافها الاجتماعية والسياسية، وموقفها من الوحدة ومن اسرائيل بالذات.

لم يكن هناك برنامج أو خطة عمل لهذه القيادة ولم يكن لها مقر تعمل فيه... لذلك كنا نجتمع في بادىء الأمر في مقر قيادة الجيش المصري بالعباسية... ثم قيل لنا بأن نستفيد من هذه الفرصة لننقل أسرنا الى القاهرة وننظم حياتنا الخاصة ريثما يتم اعداد مقر رسمي للقيادة. وكان ذلك... حيث استأجرت شقة في مصر الجديدة ـ شارع سيزوستريس، واحضرت عائلتي من دمشق.. وبعد أسابيع خصص مبنى «معهد البحوث الصحراوية» في مصر

الجديدة كمقر للقيادة وأعد لهذه الغاية، وكان هذا البناء غاية بالجمال. وتتوفر فيه كل وسائل الراحة والقاعات الضرورية للعمل. بدأت اجتماعاتنا مع ضباط هيئة العمليات في القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية حيث عقدنا أول مؤتمر مع الميرالاي أ. ح علي جمال معاون مدير هيئة العمليات والبكباشي يسري قنصوه.. شرح لنا الميرالاي الوضع على الجبهة المصرية الفلسطينية بما في ذلك قطاع غزة كما ذكر لمحة موجزة عن طبيعة الأرض وحيث تقسم هذه الجبهة الى:

- **قطاع جنوبي**: جبلي صعب المسالك وتبلغ إحدى ذراه حوالي ٢٦٣٧م وتسمى جبل كاترينا.

القطاع الأوسط: وهو صحراوي تتخلله بعض التضاريس والوديان والهضاب وتجتازه عدة مسالك طولانية تؤدي الى السويس والاسماعيلية. يمكن أن تسلكها القوات المهاجمة باتجاه القناة.

القطاع الشمالي: وتكثر فيه السهول والكثبان الرملية، ويعتبر بحق مفتاح مصر، ويحتوي على عدة محاور هامة متوازية تقريباً شرق غرب، منها ماهو محاذ لساحل البحر الأبيض المتوسط، وبعضها داخلي يصل بين بئر السبع، العوجة، أبو عجيلة - الاسماعيلية... وقد استعمل الأتراك في الحرب العالمية الأولى الطريق الساحلي وسلك اليهود في حرب عام ١٩٤٨ المحور فلوجة - العوجة - بئر الحفان، وكانوا يتوخون شطر القوات المصرية الى قسمين والوصول الى مدينة العريش، لقطع طريق الانسحاب على القوات الموجودة في قطاع غزة ورفح...

وأهم المشاكل التي تواجهها القوات المصرية في صحراء سيناء هي فقدان المياه وتعتبر نقطة «القسيمة» من أهم مصادر المياه في الجبهة...

وبين المواقع الستراتيجية الهامة في سيناء: مضيق جزيرتي «تيران» و«سانافير» اللتين تُعتبران مفتاحاً لخليج العقبة، وطريق ميناء ايلات الاسرائيلي الى البحر الأحمر، ويستطيع الجيش المصري المتمركز في هاتين الجزيرتين و« شرم

الشيخ» ان يقطع الاتصال بين اسرائيل والبحر الأحمر باتجاه شرقي القارة الافريقية وجنوب شرقي آسيا.

أما توزيع القوات المصرية وتنظيمها فهو كمايلي:

ـ قيادة الجبهة ـ مقرها العريش (مؤقتاً)

ـ وآمر الجبهة ـ اللواء علي عامر

يعاونه:

ـ أميرالاي: صلاح بسيوني

ـ القائمقام: محمد طلعت

ـ الصاغ: محمد بيومي

وتتألف القوات من:

ـ فرقة المشاة الثالثة (في العريش) لواء فلسطين + لواء من الحرس الوطني.

ـ فرقة المشاة الثانية (في أبو عجيلة) وكتيبة حرس وطني وبعض عناصر من حرس الحدود.

ـ الاي حرس وطني ـ في القطاع الجنوبي.

ـ مجموعة مدرعة تحت تصرف القيادة في الاسماعيلية بالاضافة الى اللواء الرابع المشاة (قيد الاعداد).

ـ لواء دبابات ستوريون ويشكل احتياط الجبهة غربي العريش.

وتعتمد قوات الجبهة على قاعدتين للتموين احداهما في الراقم /٣٨/ والثانية جنوب بئر الحفيان. وتقوم القيادة بانشاء طريق عرضاني يصل محور الاسماعيلية أبو عجيلة ـ بمحور القنطرة العريش، خلف حدود الفرقة.

ـ لكل لواء غرفة عمليات محصنة، ومجهزة بوسائل الاتصال السلكية واللاسلكية بقيادات الفرق وقيادة الجبهة.

وكانت الانطباعات الأولية التي خرجت بها مع العقيد جمال فيصل رئيس البعثة السورية جيدة ومشجعة.

ردود الفعل الاسرائيلية على تشكيل القيادة العربية المشتركة :

وفي ١٢ كانون الأول ١٩٥٥ قامت قوة اسرائيلية بغارة ليلية واسعة على المخافر السورية الأمامية شرقي وشمالي بحيرة طبريا فدمرت مخافر «الحاصل» و«الدوكا»، و«الكرسي» و«باب النيرب» وانسحبت قبل طلوع الفجر ونتج عن هذا الهجوم مقتل حوالي ٤١ عسكرياً سورياً وأسر ٢٨ . . وكان هذا الحادث أضخم صدام على الحدود السورية بعد معركة المطلة عام ١٩٥٢ . وبدا وكأنه تحد مقصود ورد على الاتفاقية السورية ـ المصرية . وبعد يومين استدعى المشير عامر العقيد جمال فيصل وأبلغه ضرورة اعادة النظر بالترتيبات الدفاعية على الحدود السورية الفلسطينية وأنه قرر ارسال اللواء أ . ح سيف اليزل رئيس أركان القيادة المشتركة الى دمشق لبحث الموضوع مع قيادة الجيش السوري على ان أرافقه شخصياً بهذه المهمة .

وفي ١٢/١٣ صدر قرار من قيادة الجيش بتعيين القائمقام محسن ادريس رئيساً للعمليات في القيادة المشتركة والبكباشي يسري قنصوه في هيئة العمليات والبكباشي أحمد زكي . وقيل لنا ان القائمقام محسن ادريس من خيرة الضباط المصريين .

ردود الفعل في الأردن :

وفي ١٢/١٧ أذاعت محطة القاهرة خبراً عن وقوع مظاهرات عنيفة في المدن الأردنية وقع خلالها عدد من القتلى والجرحى . احتجاجاً على زيارة الجنرال البريطاني تامبلر الذي قيل بأنه قدم انذاراً للأردن لحملها على دخول حلف بغداد .

وقد استقالت وزارة السيد سعيد المفتي وشكل الوزارة الجديدة السيد هزاع المجالي المعروف بميوله البريطانية ولم يطل عمر وزارته غير أيام محدودة

بسبب المظاهرات الشعبية فاضطر للاستقالة، وحل الملك حسين مجلس الأعيان وشكلت وزارة جديدة وعدت ببيانها عدم انضمام الأردن للحلف. وقامت مصر وسورية والسعودية بعرض مساعداتها المالية للأردن تشجيعها على الغاء اتفاقيات المساعدة مع بريطانيا.

وبتاريخ ١٢/٢٣ رافقت اللواء سيف اليزل الى دمشق. وفي صباح اليوم التالي قمنا بزيارة للزعيم شوكت شقير رئيس الأركان وعقد اجتماع حضره كل من المقدم رياض الكيلاني والمقدم أمين النفوري والمقدم عبد الحميد السراج ولخص الزعيم شقير الوضع على الجبهة والغارة الاسرائيلية. وأطلع اللواء سيف اليزل على التدابير التي اتخذتها القيادة السورية على أثر هذا العدوان وزوده بنسخة من التعليمات. وفي المساء عدنا الى القاهرة.

السبت في ٧ كانون الثاني ١٩٥٦. منذ تعيين القائمقام أ.ح محسن ادريس دب النشاط بالقيادة، ووعد بتنظيم الاتصال المباشر بين القيادة المشتركة من جهة وإرسال هيئات الأركان في كل من مصر وسورية، والسعي لاقامة التنسيق بينهم عن طريق هذه القيادة والاتجاه نحو وضع خطة استراتيجية مشتركة في المستقبل.

وقد قابلت في هذا اليوم القائمقام أ.ح محمد عبد الكريم مدير المخابرات العسكرية بحضور البكباشي أ.ح محرز المسؤول عن قسم فلسطين، وأكد لي مدير المخابرات انه يرسل المعلومات التي تتوفر لديه عن اسرائيل الى الشعبة الثانية السورية عن طريق الملحق العسكري المصري بدمشق واستغربت ذلك لأن القيادة السورية كلفتني ببحث تنظيم التعاون بين الادارتين مباشرة والتنسيق مع المقدم عبد الحميد السراج رئيس المخابرات العسكرية السورية (الشعبة الثانية)، وتنظيم لقاءات دورية بين المسؤولين عن فرع فلسطين لتبادل المعلومات عن العدو.

في مساء يوم ١٩٥٦/١/٨ التقيت مساء هذا اليوم في منزل الملحق العسكري العقيد بديع بشور بالسيد زهير الكزبري الموظف في هيئة الأمم المتحدة وكان عائداً من نيويورك وقد أعلمني بمايلي:

١ ـ ارتفع إنتاج اسرائيل خلال عام ١٩٥٥ بنسبة ١٥٪ .

٢ ـ أصبح الجيش الاسرائيلي من أحسن جيوش بلدان الشرق الأوسط من حيث التنظيم والتسليح التدريب والدقة بدعوة الاحتياط .

٣ ـ ان اسرائيل اذا لم تستطع فرض الصلح على العرب في عام ١٩٥٦ فإنها ستضطر لقبول شروط العرب وتكتفي بدولة رمزية لليهود على قطعة من فلسطين .

٤ ـ ان الصراع العربي ـ الاسرائيلي ومشكلة فلسطين أصبحت بعد عقد صفقات الأسلحة مع الاتحاد السوفييتي من جملة الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي .

٥ ـ وأخيراً فإن اسرائيل اذا استطاعت ان تصمد عسكرياً فإنها تستطيع الاعتماد على الصناعة المتطورة لدعم اقتصادها .

وفي ١٩٥٦/١/١١ أرسلت تقريراً للقيادة السورية حول اجتماعي بمدير المخابرات المصرية واقتراحه حول تنظيم اتصال مباشر ودوري بين الادارتين ووضع أسلوب في تبادل المعلومات الهامة بالسرعة القصوى .

وفي ١٩٥٦/١/١٢ نظم ضباط القيادة المشتركة زيارة خاصة لمديرية التحرير التي تعتبرها الثورة المصرية من بين أهم مشاريعها وهي عبارة عن منطقة صحراوية على طريق الاسكندرية جرت اليها مياه النيل بقناة خاصة ، وبنيت فيها المنازل النموذجية للفلاحين وأقيمت فيها بعض الصناعات اليدوية والحرف لزيادة انتاجية هؤلاء الفلاحين وتحسين ظروفهم المعاشية . . وقد اعتبرنا هذه الزيارة نوعاً من الدعاية ومحاولة اشغال وقتنا بأمور لاعلاقة للقيادة المشتركة بها/ .

الـرئيـس عبـد النـاصر يعلن الدستور الجديد الذي ينص على أن مصر جزء من الأمة العربية:

الاثنـين ١٦ كانـون الثاني ١٩٥٦ جرى الاحتفال بعيد الدستـور المصـري الجديد، وقد دُعينا للمشاركة في هذا الاحتفال الذي أقيم على ضفاف نهر النيل أمام مبنى الجامعة العربية، بحضور عشرات الألوف من الجماهير المصرية.

وألقى الرئيس عبد الناصر كلمة أكد فيها عزم الثورة على متابعة النضال الشعبي حتى يتم القضاء على مخلفات العهود السابقة وتحرير الشعب المصري من الأفكار التي باعدت بينه وبين الشعوب العربية في الأقطار الشقيقة، وأكد ايمان مصر برسالة العروبة، وحقه بالانتفاض والثورة ضد كل من يحاول خداعه وتسخيره.

كما أكد ان مشكلة فلسطين لاتحل إلا بالقضاء على الصهيونية ربيبة الاستعمار؛ وبالوحدة العربية الصحيحة التي لايفصلها أية قاعدة استعمارية من الأطلسي الى الخليج.

وشرح الرئيس الأسس الجديدة التي تقوم عليها الجمهورية المصرية التي تؤمن بحقوق الفرد، وحريته وتحدد واجباته وتعطي للمرأة حقها بالانتخاب.

وفي اليوم الثاني زار ضباط القيادة المشتركة القائد العام وهنأوه باعلان الدستور ثم ذهبوا الى مجلس الوزراء للغاية نفسها وقد كلفت من قبلهم بتسجيل كلمة في سجل التشريفات فكتبت مايلي:

«طليعة الجيش العربي من ضباط القيادة المشتركة المصرية السورية المشتركة يشاركون الشعب المصري والأمة العربية المثلة فيكم أفراحه بمناسبة اعلان دستور الجمهورية المصرية الذي يعتبر نقطة تحول بالنسبة للأمة العربية وامتداداً لثورتكم الشعبية من أجل بناء الوطن العربي الأكبر وبعث الرسالة

العربية الاسلامية وهم ينذرون أنفسهم لحماية هذا الدستور ويضرعون لله ان يوفقكم لما فيه خير مصر والأمة العربية» . .

وقد استقبلنا الرئيس عبد الناصر وأجاب على تهنئتنا بهايلي : انه يعتبر سورية ودمشق قلب العروبة وكان يبدو نشيطاً ومتواضعاً يكاد من يستمع اليه لايشعر بعظمته لبعد تصرفاته عن الكلفة .

بتاريخ ١/٣٠ وصلت زوجتي وأولادي الى مطار القاهرة، وأعلمتني ان الاخوان طعمة العودة الله وأحمد جنيدي وجاد وعز الدين ودعوها في مطار دمشق وأكدوا لها تقدير القيادة لجهودي في علاقاتي مع القيادة المصرية، وقد بدأت أشعر بالاستقرار لأول مرة منذ عودتي من فرنسا لأنني لم أقض أكثر من عدة أشهر في المهام التي كلفت بها إذ تنقلت بين حلب والحسكة ودمشق، ثم القاهرة خلال عام ونصف تقريباً .

بعثة برلمانية سورية تزور مصر :

في مطلع عام ١٩٥٦ قامت بعثة من المجلس النيابي السوري بزيارة رسمية للقاهرة بدعوة من مجلس الأمة المصري، أذكر من بينهم السادة الآتية أسماءهم : أكرم الحوراني ـ عدنان الأتاسي ـ فاخر الكيالي ـ خالد بكداش ـ معروف الدواليبي ـ فرزت المملوك ـ عبد الرؤوف أبو طوق ـ صلاح البيطار. وقد زار أعضاء البعثة المشير عبد الحكيم عامر، الذي رافقهم بزيارة خاصة لسلاح المدرعات والقوات الجوية، اطلعوا خلالها على الدبابات السوفيتية «ت ٣٤» والمدفعية الثقيلة وطائرات الميغ ١٥ والقاذفات اليوشين ـ ٢٨ ـ والمدفعية المضادة للطائرات. . . وقد سمعت تعليقاتهم التي تعبرٍ عن الفرح والاعجاب . .

وكان السادة أكرم الحوراني وخالد بكداش وصلاح البيطار شديدي الحماس ويلقون بعض النكات على مسامع زملائهم من حزب الشعب تعريضاً لمواقفهم من مصر وميلوهم للوحدة مع العراق .

سألني السيد فرزت المملوك والشيخ عبد الرؤوف أبو طوق عما اذا كان لدى الجيش السوري مثل هذه الأسلحة فأكدت لهم ذلك ووجهوا اللوم لقيادة الجيش السوري لأنها لاتنظم مثل هذه الزيارات لأعضاء المجلس النيابي في سورية. وبهذه المناسبة دار حديث بيني وبين الاستاذ صلاح البيطار فأبدى سروره واعجابه بما رأى وسمع وما لمسه من اخلاص لدى رجال الثورة المصرية خلال مقابلاتهم للوفد السوري إلا انه أشار الى ضرورة سد الثغرة التي تفصل الثورة عن الشعب، وكان يعني ضرورة افساح المجال أمام الفئات الواعية من الشعب للاشتراك في الحياة السياسية . . . وأصر على ضرورة ايجاد حياة أكثر ديمقراطية في مصر.

اسرائيل والدول الغربية تبدي قلقها من التعاون العسكري بين مصر وسورية:

الخميس ١٦/١/١٩٥٦ صدرت بعض التصريحات التي تدل على القلق الذي أخذ يبديه المسؤولون في واشنطن ولندن فقد طالب بعض أعضاء مجلس العموم البريطاني بتسليح اسرائيل وضمان حدودها وارغام العرب على مصالحتها واقترح انطوني أيدن رئيس الوزراء البريطاني على أمريكا وضع قوة جوية من حاملات الطائرات شرقي البحر المتوسط للتدخل في حالة نشوب الحرب بين العرب واسرائيل.

واعتقادي ان اتجاه مصر وسورية للتعاون الاقتصادي مع البلدان الاشتراكية وكسر احتكار السلاح كان الشعرة التي قصمت ظهر البعير، فقد اعتبر الغرب ان اقدام مصر وسورية على محاولة الخروج من دائرة النفوذ الغربي الذي فرض على المنطقة منذ بداية القرن التاسع عشر يعتبر عملاً في منتهى الخطورة وسابقة قد تؤدي الى تشجيع بلدان عربية وغير عربية للسير في هذا الاتجاه، وتعريض المصالح الغربية للخطر، وخيل لبريطانيا وفرنسا ان هذه الظروف تسمح لهما بتحقيق عدة أهداف بضربة واحدة: اسقاط عبد الناصر،

واخضـاع سوريـة المتمردة، وتدمير الثورة الجزائرية، والعودة للسيطرة على قناة السويس، واعطاء مكاسب جديـدة لاسرائيـل، والتأكيد للحليفة الكبرى الولايات المتحدة بأنها لاتستطيع الاستغناء عنها في حماية الشرق الأوسط ومنابع البترول من الخطر السوفييتي وحركة التحرر العربية. ومن هذه اللحظة بدأت بريطانيا وفرنسا تعدان مع اسرائيل مخططات حرب السويس.

هذا الواقع الجديد سيؤدي الى تمتين وتعزيز الدعم الأمريكي والبريطاني لاسرائيل.

الزعيم شوكت شقير يحاول إبعادي عن القيادة المشتركة:

السبت ٧ نيسان أعلمني العقيد جمال فيصل ان الزعيم شقير غاضب علي لأنه يعتقد أنني أتجاوز حدود عملي العسكري وأقوم بنشاط سياسي يتعدى حدود عملي وأحاول اقامة علاقات مع بعض أعضاء مجلس الثورة وذلك بتشجيع من كتلة معينة من ضباط الجيش. . . وقد حاول انهاء مهمتي في القيادة المشتركة، ولكنه لم يستطع ذلك.

بعد أسبوع ذهبت الى دمشق وقابلت رئيس الأركان الزعيم شقير وشرحت له بالتفصيل المراحل التي قطعتها القيادة المشتركة فلاحظت انه لم يكن في حالة نفسية طبيعية، مما أعاد الى ذاكرتي الحديث القديم الذي تم بيننا وبين العقيد الطبيب توفيق عز الدين، وقد سبق لي الاشارة اليه في مكان سابق، فادركت انه يحاول الانتقام، وذلك ببذر الشقاق بين ضباط القيادة لكي يدعم مركزه، غير أنه لم يلبث ان غير موقفه وتراجع عن قراره بعد ان تأكد من عدم جدوى محاولته، وأيقن ان طريقه لتسخير الجيش لتحقيق مطامع سياسية غامضة مغلق تماماً.

وقد اعترف فيما بعد بخطأ الطريقة التي اتبعها في هذه المشكلة ووعد بألا يتعدى حدود مهمته كرئيس لأركان الجيش وعدم التشجيع على خلق مراكز للقوى في هذه الأونة.

بعـد هذا الحـادث عدت الى القـاهرة وتابعـت مهمتي في القيادة المشـتركة مدعوماً من رئيـس الأركان نفسـه ومن بقية هيئة الأركان العامة .

زيارة الجبهة المصرية في مطلع أيار ١٩٥٦ :

نظمت القيـادة المشـتركـة زيـارة استطلاعيـة للجبهة المصـرية في صـحراء سينـاء واطلعنـا على مواقـع وتحصينـات الجيش المصـري ، وحضـرنا عدداً من المنـاورات والـرمـايـات كما قمنـا بزيـارة معظم المعاهد العسـكرية المصـرية برفقة أعضـاء القيـادة . . . كما دعي ضبـاط القيـادة المشتركة لحضور الجلسـة الختامية لمؤتمـر القمـة الثلاثي الذي عقد في القاهرة بين الرؤسـاء القوتلي وناصـر ، والملك سـعود وقـد تقـرر فيـه توسيـع وتطـوير القيادة المشـتركة واشـتراك المملكة العربية السـعودية والمملكة الأردنية بهذه القيادة .

أول مذكرة تقدمها القيادة المشتركة :

وفي ٣ أيـار اشـتركت مع القائمقام محسـن ادريس والبكباشي توفيق عبد الفتـاح والبكبـاشي يسـري قنصوه بوضع مذكرة حول العمليات من وجهة نظر القيـادة المشـتركـة بعـد انضـمام المملكـة السـعودية والمملكة الأردنيـة وأبرزنا فيها النواحي التاليـة :

١ ـ أهمية الأردن كقاعدة للتعرض انطلاقاً من الضفة الغربيـة .
٢ ـ خطورة مدينة القدس على الجبهة الأردنيـة .
٣ ـ صعوبة التعرض انطلاقاً من الجبهة السـورية .
٤ ـ عدم تأثـير التعـرض المحـدود انطـلاقاً من الجبهة المصرية نظراً لبعد التجمعـات السـكـانيـة والمرافق الأسـاسيـة والمـواقع الاستراتيجية عن الحدود المصرية ـ الفلسـطينيـة .
٥ ـ فعالية الأعمال الفدائية والمقاومة الداخلية وضرورة الاهتمام بها وتنشيطها .

٦ ـ أهمية القوات الجوية وتأثيرها على المناطق الاستراتيجية والحيوية.

تعيين اللواء مصطفى يوسف رئيساً للقيادة المشتركة:

في ٥ أيار عقد أول اجتماع لأعضاء القيادة مع اللواء أ. ح مصطفى يوسف رئيس هيئة عمليات القيادة المشتركة الجديد الذي عين بدلاً من اللواء سيف اليزل وقد سمي الأخير سفيراً لمصر في الخرطوم.
لخص لنا اللواء مصطفى يوسف الاتفاقية العسكرية الموقعة بين مصر والأردن على الشكل التالي:
- تشكيل مجلس حربي من رؤساء الأركان في الدولتين المصرية والأردنية.
- تشكيل مجلس وكلاء دائمين لوضع وتنسيق الخطط على الجبهتين.
- تعين ضباط ارتباط على الجبهات.
- تعاون الجيشين المصري والأردني في صد أي عدوان يقع على أي من الدولتين.

ومن الملاحظ في هذه الاتفاقية عدم وجود أي ارتباط أو تعاون بين سورية والأردن رغم الاتصال البري بين الجبهتين.

الثلاثاء في ٨ أيار سجلت في مفكرتي الملاحظة التالية: بدأت أشعر ان القيادة المشتركة تمر في مرحلة دقيقة لفتت انتباه الكثير من الضباط في هيئة الأركان المصرية الذين لم يكونوا يعيرونها أي اهتمام، وبدا على الكثير منهم الرغبة بالتعاون معها، عندما شعروا باهتمام القائد العام بها، وبالآفاق الواسعة التي بدأت تتفتح أمام هذه القيادة وخاصة عندما لاحظوا كثرة الرحلات الاستطلاعية التي يقوم بها ضباط القيادة، ولعل هذه الناحية فقط هي التي أخذت تغريهم بالعمل فيها للقيام بالرحلات والاستفادة من التعويضات. . . وان موقف بعض الذين يضعون العقبات في وجهها ناتج عن رغبتهم بأن يكونوا على راسها وقد يكون ذلك لأسباب أبعد لاأعرفها. . ؟؟. .

وفي ٣٠ أيار سجلت مايلي : بعد تعيين اللواء مصطفى يوسف في القيادة المشتركة أخذ يهتم باملاء وقت الضباط ببعض المحاضرات الثقافية، فدعا الدكتور زكي نجيب محمود الفيلسوف المعروف لالقاء سلسلة من المحاضرات واعتقد انه شعر مثلنا بالملل الذي أخذ يعتري أعضاء القيادة من الانتظار وعدم القيام بعمل جدي ملموس يبلور صلاحيات القيادة خلال العمليات الحربية المحتملة . . والدور الفعلي الذي ستقوم به هذه القيادة .

التشاور حول موقف المملكة الأردنية من القيادة المشتركة :

٢٥ حزيران حضر الى القاهرة المقدم عبد الحميد السراج رئيس الشعبة الثانية (المخابرات العامة) واتصل بالمشير عامر ليطلعه على نتائج الاتفاقية التي عقدتها الأردن مع العراق . وتأثيرها على الاتفاقية العسكرية الأردنية ـ المصرية خاصة بعد ان وافقت الأردن على اعطاء القيادة للعراق الأمر الذي لايوافق كلا البلدين ولايتفق مع المصلحة العامة المشتركة لأن النظام العراقي بوضعه الراهن وكونه عضواً في حلف بغداد ليس مؤهلاً لقيادة العمليات ضد اسرائيل . وعندما كنا نبحث الوضع العسكري العام بالنسبة لدول المواجهة كنا نتساءل حول نوايا الأردن الحقيقية بعد طرد كلوب باشا، وتسليم قيادة الجيش للواء علي أبو نوار وتشكيل حكومة ائتلاف وطني تضم خيرة العناصر السياسية المعارضة لحلف بغداد . . وأصبحنا نميل الى التفاؤل ونأمل بالوصول الى حد من التفاهم بين البلدان المحيطة باسرائيل ليسمح بالتنسيق بين هيئات الأركان في هذه الدول وتبادل المعلومات فيما بينها .

وما هي إلا أيام حتى ذهب القائد العام المشير عبد الحكيم عامر للأردن وسورية للاجتماع باللواء علي أبو نوار وبالزعيم شوكت شقير للبحث حول دخول الأردن بالقيادة المشتركة والتخلي عن الاتفاق مع العراق اذا ماقبلت الحكومة الأردنية ذلك .

وقد أعلمنا المشير بعد عودته ان حكومة الأردن طلبت اليه الوساطة مع

سورية، ولكنه لم يقبلها، وطلب معرفة رأي سورية بهذا الأمر أولاً واذا كانت موافقة يُستحسن ان تتبلور وجهة نظرها.

قرارات مؤتمر الرياض:

الثلاثاء في ١١ أيلول ١٩٥٦ في اجتماع القيادة صباح هذا اليوم عرض البكباشي أ. ح أحمد زكي أحد أعضاء قيادة الجيش المصري نتائج مؤتمر الرياض الذي ضم رؤساء مصر والسعودية والأردن، والقرارات التي اتخذت فيه وأهمها:

١ - تقوم مصر وسورية والسعودية بتسليح الحرس الوطني في الضفة الغربية بأسلحة غير شرقية وتعلم الحكومتين اللبنانية والعراقية بتكاليف هذه العملية ويترك لهما الحرية بالمساهمة فيها وفي حالة موافقتهما توزع التكاليف على دول المواجهة كما يلي:

- مصر ٢٥٪ - المملكة السعودية ٢٥٪ - المملكة العراقية ٢٥٪ - سورية ١٠٪ - لبنان ٧,٥٪ - الأردن ٧,٥٪.

٢ - تخصيص مبلغ ٤,٧ مليون جنيه سنوياً لتمويل الحرس الوطني في الضفة الغربية لتأمين احتياجاته الأخرى كالألبسة والعتاد والاعاشة ووسائط النقل وأجهزة الاتصال.. الخ... وقد دفعت السعودية للأردن خلال المؤتمر مبلغ ٢٥٠ ألف جنيه سلمت للواء علي أبو نوار رئيس أركان الجيش الأردني.

٣ - تقوم لجنة مصرية أردنية بدراسة الحاجة من الأسلحة وعلى أساس تقديرات هذه اللجنة تباشر مصر فوراً بارسال الأسلحة للأردن.

٤ - يوضع مشروع الاتفاقية العسكرية المصرية - الأردنية موضع التنفيذ بعد التشاور مع الحكومة السورية.. في الاسبوع القادم.

٥ - ظهر خلال المؤتمر ان الحكومة العراقية غير مرتاحة لاستلام اللواء علي أبو نوار قيادة الجيش الأردني.

تعديل الاتفاقية الثنائية المصرية - الأردنية :

الأربعاء ١٩ أيلول : عقد اجتماع في مكتب القائد العام المشير عبد الحكيم عامر عرض فيه مشروع الاتفاقية الأردنية - المصرية بعد ادخال التعديلات التالية :

١ - وضع جميع القوات التي ستعمل في الأردن تحت قيادة الأركان الأردنية .

٢ - عدم ادخال قوات عراقية الى الأردن إلا عند التأكد من احتمال نشوب حرب شاملة مع اسرائيل، وفي هذه الحالة يجب ان توضع هذه القوات تحت قيادة رئاسة الأركان الأردنية .

٣ - في حالة اشتراك ضباط عراقيين في هيئة الأركان الأردنية يجب ألا يطلعوا على خطط عمليات الجيشين السوري والمصري . (كذا . . .) . .

ولخص القائد العام في هذا الاجتماع الوضع العام من وجهة نظره كمايلي :

أ - ان الغارات الاسرائيلية الأخيرة على الجبهة الأردنية غايتها الضغط على الأردن لتحويلها عن السياسة الجديدة التي أخذت تسير عليها للتعاون مع مصر وسورية .

ب - يجب الاحتفاظ بالهدوء وضبط الأعصاب وعدم التورط في عمليات واسعة ضد اسرائيل في المرحلة الراهنة لأن الدول الاستعمارية تتحين الفرص لضرب جبهة الدول العربية المتحررة وهي تستخدم اسرائيل كمخلب قط .

ج - يجب مراقبة خطوط الهدنة وعدم السماح للمتسللين الفوضويين بدخول الأراضي المحتلة بقصد النهب والسلب واذا كان لابد من إرسال بعض الفدائيين فيجب ان يتم ذلك بموجب خطة موضوعة مسبقاً ولأهداف محددة موافق عليها من قيادات الجيوش في البلدان المتعاقدة .

د - يعتقد ان اسرائيل لن تشن حرباً واسعة في الوقت الحاضر ضد أية دولة عربية . (كذا . .) .

الموقف العسكري كما تراه القيادة المشتركة بعد أزمة السويس :

الأربعاء ٢٥ أيلول بدأت القيادة المشتركة بإعداد مشروع اختصاصات وصلاحيات الهيئة العليا للعمليات الموحدة وتحديد وسائل الارتباط والاتصالات بين قيادات الجيوش العربية ومشروع توجيهات القائد العام وذلك بمناسبة الزيارة التي سيقوم بها القائد العام المشير عامر لكل من سورية والأردن، من أجل توقيع الاتفاقية مع الأردن والاطلاع على الوضع في الجبهة السورية. وعند مناقشة الوضع العام والاحتمالات المتوقعة للعدوان على ضوء الأزمة الناشئة مع فرنسا وبريطانيا نتيجة تأميم قناة السويس توصلنا الى تحديد النقاط التالية حول الاحتمالات المتوقعة للعدوان كمايلي :

الفرضية الأولى : توجيه ضربة مفاجئة لسورية لفصلها عن سياسة مصر وإجبارها وإجبار الأردن على التعاون مع الغرب والاعتراف باسرائيل وتكون أداة العدوان اسرائيل مع دعم مباشر من بريطانيا وفرنسا .

الفرضية الثانية : الهجوم المباشر على مصر وتدمير قواتها وفرض الشروط الفرنسية البريطانية عليها وإجبارها على تبديل سياستها التحررية ومن ثم إخضاع بقية الدول العربية للنفوذ الغربي وفرض الصلح مع اسرائيل .

ولمجابهة هذه الاحتمالات تقترح القيادة المشتركة على القيادة العامة التفكير بالمبادىء التالية :

١ ـ توزيع القوات المسلحة المصرية بشكل يضمن عدم تلقيها ضربة قاضية من بداية الحرب .

٢ ـ تنظيم الدفاع الاقليمي بشكل يشمل كافة أراضي مصر .

٣ ـ توسيع ميدان الحرب بحيث يشمل سورية والأردن ولبنان ـ وإثارة المقاومة ضد المصالح الغربية في الدول العربية الأخرى وخاصة العراق .

٤ ـ الاحتفاظ ماأمكن بتماسك القوات المسلحة المصرية وإطالة أمد الحرب الى أقصى زمن ممكن!!! .

معلومات عن خطة العدوان الثلاثي المتوقع :

الخميس ٢٦ أيلول : في اجتماع القيادة المشتركة الصباحي أعلمنا الميرالاي حافظ اسماعيل رئيس هيئة أركان القيادة المشتركة انه وصلت الى القيادة المصرية معلومات عن وجود خطة بريطانية ـ فرنسية ـ اسرائيلية لشن حرب ضد البلدان العربية ، تبدأها اسرائيل بالتحرش ضد إحدى الدول العربية لجرها الى الحرب ، لتبرير تدخل القوات البريطانية والفرنسية . . . ويرجح ان تحاول اسرائيل في المرحلة الأولى احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة . . ؟ .

وتقول هذه المعلومات ان هناك حوالي مائة طيار بريطاني وفرنسي قدموا الى فلسطين للخدمة في القوات الجوية الاسرائيلية .

القيادة المشتركة في قطاع غزة :

الثلاثاء ١٦ تشرين الأول : نظمت القيادة المشتركة زيارة خاصة لقطاع غزة تمكنا خلالها من الاجتماع ببعض المواطنين الفلسطينيين وعندما عرفوا أننا سوريين أخذوا يشونا شكواهم من معاملة الضباط والموظفين المصريين المسؤولين عن ادارة القطاع ويترحمون على أيام الانتداب البريطاني . . .

وبعد عودتي الى القاهرة . . . تحدثت مع زميلي البكباشي يسري قنصوة بما سمعته وقلت له ان معنويات الشعب الفلسطيني في القطاع في الحضيض وانه يجب الاهتمام بهذه الناحية لكي يكونوا على استعداد للوقوف الى جانب الجيش المصري في حالة قيام عدوان اسرائيلي على القطاع ، ولكني شعرت ان هذا الضابط لايتجرأ على طرح هذا الموضوع وان همه الوحيد هو البقاء في قيادة الجيش . . . بل لقد قال لي بالحرف الواحد : «ياعزيزي أحمد . . . أنا مالي ومال الحاجات دي ، أنا حمار شغل وبس . . . بحضر المواضيع اللي بيطلبوها مني . . . وبعد الدوام بروح بيتي . وبس . . !! . . .» .

القيادة المشتركة تبحث مبدأ احداث المقاومة الفلسطينية ومنظمة التحرير:

الثلاثاء ١٦ تشرين الأول ١٩٥٦ : في اجتماع القيادة المشتركة هذا الصباح برئاسة الميرالاي أ.ج حافظ اسماعيل وحضور القائمقام أ.ج عبد المحسن أبو النور والبكباشي أ.ج توفيق عبد الفتاح، جرى البحث حول ضرورة الاهتمام بتنظيم المقاومة المسلحة داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة والاعتماد على الحرب غير النظامية في نضالنا ضد اسرائيل لتشجيع وتنظيم أبناء فلسطين في الأراضي المحتلة والضفة الغربية وقطاع غزة ومخيمات اللاجئين في سورية ولبنان لكي يكونوا رأس الحربة في تحرير بلادهم من الاحتلال الصهيوني على ان تقف الجيوش العربية النظامية مساندة لهم في هذه الحرب التحريرية.

ولقد استطعت أن أحقق في هذا الاجتماع حلماً طالما راودني ورفاقي في القيادة العامة بدمشق وذلك عندما لاحظت ان الميرالاي حافظ اسماعيل قد اقتنع بوجهة نظرنا ووعد بأن يشرحها بمذكرة ترفع للقائد العام.

هذا مع العلم انني كنت قد أثرت هذا الموضوع خلال الزيارة التاريخية التي سبق أن قام بها الرئيس عبد الناصر والأمير البدر الرئيس اليمني للقيادة المشتركة بعد انضمام اليمن لاتفاقية الدفاع المشترك، وبهذه المناسبة عرض الموضوع في غرفة عمليات القيادة، وأشرت إلى تنظيم المقاومة الفلسطينية واعطائها كياناً عربياً ودولياً يعطي الصراع العربي الاسرائيلي طابع حرب التحرير، ويكون العنصر الأساسي فيه الشعب الفلسطيني. ولكني لم أسمع أي تعليق آنذاك من الرئيس رغم اصغائه واهتمامه بالموضوع.

الأربعاء ١٧ تشرين الأول: انتهيت اليوم من مطالعة كتاب «عبقرية الامام» لعباس محمود العقاد وسجلت في مفكرتي الملاحظات التالية:

- لقد تهاون طلحة والزبير في حماية الخليفة عثمان عندما قتل. ثم انقلبا على علي وقاتلاه في معركة الجمل الى جانب عائشة، وقتلا.

أما معاوية فقد ساير التيار الذي يسيطر على الغالبية التي تريد التمتع بملذات الدنيا والاستفادة من خيرات وثروات البلاد المفتوحة والاقبال على الحياة الحضرية والرفاه.

وقاتل الخوارج علياً كما قاتلوا معاوية وتطوع ثلاثة منهم لتخليص المسلمين من علي ومعاوية وعمرو بن العاص وقتل علي ونجا معاوية وابن العاص، وفاز معاوية بالخلافة معتمداً على طبقة الأثرياء ودعم قريش التي تحقد على بني هاشم..

لقد كان علي فارساً شجاعاً ومؤمناً وثائراً لاتأخذه بالحق لومة لائم، ذكياً يتقن الخداع ويأبى استخدامه ويكره الرياء ويهوى الصراحة ويشجع الحق، وقد انفض من حوله أقرب الناس اليه بسبب هذه الخصال وأخذوا يؤيدون معاوية.. ففشل سياسياً ولم يعترف الناس بفضائله إلا بعد وفاته وكفر أتباعه عن خطيئاتهم التي ارتكبوها بحقه وتخليهم عنه في صراعه مع معاوية، فاذا بهم يقدسونه بعد وفاته ويتجاوزون في ذلك الحدود المألوفة ويمعنون بالتشيع له لدرجة الخروج عن خط الاسلام الحنيف. لقد فشل في تبوء الخلافة ودفع حياته ثمناً لها، وفاز بها خصمه معاوية... إلا ان آثار مأساته لاتزال حية في نفوس العرب والمسلمين تتجدد في كل عصر، وتنعكس على سياسة العالم العربي والاسلامي حتى يومنا هذا...

المملكة الأردنية توقع اتفاقية القيادة المشتركة ومعلومات المخابرات السورية تتوقع عدواناً ثلاثياً والمشير عامر غير مقتنع بغزو بريطانيا وفرنسا لمصر:

السبت ٢٧ تشرين الأول ١٩٥٦: رافقت القائد العام المشير عامر والمير الاي حافظ اسماعيل رئيس أركان القيادة المشتركة وعدداً آخر من الضباط المصريين الى دمشق، للاتصال بالقيادة السورية ومناقشة الوضع العام على

الجبهة السورية، وتابع المشير عامر رحلته بنفس اليوم الى الأردن لابرام الاتفاقية العسكرية مع الحكومة الأردنية . . .

وفي مساء يوم ٢٨ تشرين الأول عاد المشير من عمان الى دمشق فرحاً بسبب إبرام الاتفاقية وعندما تم الاجتماع بهيئة أركان الجيش السوري في مكتب رئيس الأركان اللواء شوكت شقير كان الجو قاتماً، لقد تبين ان القيادة السورية لديها معلومات تؤكد قيام عدوان ثلاثي على سورية والأردن وان لديها معلومات تؤكد بأن فرنسا وبريطانيا أتمتا حشد قواتهما في قبرص وقدمتا الأسلحة والخبراء لاسرائيل بشكل يجعل قواتها المسلحة قادرة على المبادرة بالعدوان . . . ولايستبعد ان تحاول فرنسا وبريطانيا استعادة نفوذهما في المنطقة بموجب هذا المخطط . غير ان المشير عامر لم يكن يعتقد ان بريطانيا وفرنسا تقدمان فعلاً على غزو مصر أو سورية وان الغاية من الحشود هي الضغط على مصر لقبول شروط بريطانيا وفرنسا لحل مشكلة قناة السويس، وإبطال قرار التأميم الذي أصدره الرئيس عبد الناصر، ولكنه لايستبعد قيام اسرائيل بعمليات خاطفة وعنيفة باتجاه قطاع غزة والضفة الغربية وتوجيه ضربة عنيفة للقوات المصرية بقصد الاساءة لسمعة الثورة والبرهنة على عجز مصر عن حماية القطاع وعدم فائدة الاتفاقية العسكرية في الدفاع عن الضفة الغربية ، وضرب سمعة سياسة الحياد والتأكيد على ان الوسيلة الوحيدة لحماية العرب من التوسع الاسرائيلي هي الدخول في حلف بغداد، ومن هذه الناحية فإنه يستبعد ان تحاول حكومة العراق التآمر على النظام في سورية وإسقاطه من الداخل في هذا الجو المتوتر . . .

الفصل الثالث

العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦

الاثنين ٢٩/١٠/١٩٥٦ : بدأ العدوان الثلاثي مساء هذا اليوم في ٢٩ ـ ٣٠ تشرين الأول بعد ان انتهت المباحثات مع القيادة السورية وتقرر عودتنا الى القاهرة . . . وعندما وصلنا الى مطار المزة مساء ذلك اليوم . . . طلب المشير عامر من الميرالاي حافظ اسماعيل ان يبقى في دمشق كما طلب مني البقاء معه لكي نزور الجبهة السورية في صباح الغد ونطلع على ترتيباتها الدفاعية والاستماع الى قائد الجبهة وتصوراته للعمليات المحتملة ، ونناقش ذلك مع هيئة العمليات السورية ومدى احتياجاتها ونضع معها تقديراً للموقف والاحتمالات المتوقعة . .

فما كان منا إلا ان أنزلنا حقائبنا من الطائرة وعدنا الى دمشق ، وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ٣٠/١٠/١٩٥٦ ذهبت مع الميرالاي حافظ اسماعيل الى القنيطرة ووصلناها في الساعة السابعة وبينما كنا في موقع واسط طلبت القيادة بدمشق هاتفياً قائد الجبهة وأبلغته ضرورة عودته الى مقر قيادته في القنيطرة وإبلاغ الميرالاي حافظ اسماعيل بأن يعود فوراً الى دمشق ، لأن القوات الاسرائيلية بدأت هجوماً واسعاً على الجبهة المصرية وأنزلت قوات

مظلية في ممر متلا في سيناء. وان الوضع خطير وغامض. فالحرب قد نشبت فعلاً ضد مصر وسوف تلف المنطقة بكاملها كما يبدو. دُهشنا لهذه المعلومات الخطيرة خاصة وأننا لم نلاحظ أي شيء غير عادي في الجبهة السورية وعدت مع حافظ اسماعيل وقائد الجبهة الى القنيطرة، وما أن بلغنا مقر القيادة حتى فوجئنا بتحليق طائرة قاذفة اسرائيلية على ارتفاع منخفض فوق مدينة القنيطرة وفتحت نيران رشاشاتها على مكاتب قيادة الجبهة.

ودعنا قائد الجبهة الذي أسرع الى مقره التعبوي وتابعنا نحن العودة الى دمشق. وهناك وجدنا القيادة في حالة من التوتر تحاول عبثاً الاتصال بالقيادة العامة في مصر عن طريق الهاتف اللاسلكي... لتتعرف على حقيقة الوضع. وحوالي الساعة ١١,٠٠ تقريباً علمنا من رئاسة الأركان ان إحدى الطائرتين التي كانت تنقل بعض أعضاء الوفد العسكري المرافق للمشير عامر أسقطتها القوات البريطانية بالقرب من قبرص وان طائرة المشير وصلت الى القاهرة صباح يوم ٣٠ بعد ان غيرت طريق عودتها واستطاعت الافلات من الكمين الجوي بأعجوبة..!!..

وفي هذه اللحظة التقت عيناي بعيني الميرالاي حافظ اسماعيل وحمدنا الله على السلامة لأننا كنا من عداد الضباط الذين سيعودون الى القاهرة في الطائرة التي أسقطت...

سورية تعلن الحرب وتنسف أنابيب البترول وترسل مجموعة للأردن:

بعد سلسلة من الاجتماعات في مكتب رئيس الأركان اللواء توفيق نظام الدين والاتصال بوزير الدفاع ورئاسة الجمهورية ورئيس الحكومة تبين ان هناك اجماعاً على دخول سورية الحرب الى جانب مصر، وحوالي الساعة الثانية عشرة ذهبت مع العقيد أمين النفوري والمقدم عبد الحميد السراج الى السفارة المصرية وكان قد سبقنا اليها الميرالاي حافظ اسماعيل... فاستقبلنا السفير

محمود رياض والميرالاي حافظ اسماعيل وكانا في وضع متوتر جداً بل لقد كانت عيون حافظ اسماعيل مليئة بالدموع ويقول بصوت متشنج : «سيعود الانكليز الى احتلال مصر . . . لقد طار الاستقلال» . . وقد أبلغنا السفير محمود رياض قرار القيادة السورية وان القوات المسلحة السورية ستخوض الحرب الى جانب مصر وانها لن تقتصد بأي جهد وانها ستزج بكل ماتملكه من قوات عسكرية ومادية ولن يخيفها الغزو . وان القيادة تنتظر قرار الحكومة لتباشر التحرك ، كما أعلمناه بأن القيادة السورية قررت نسف أنابيب البترول التي تنقل النفط التابع للـ (I.P.C) من الموصل الى ميناء طرابلس وانها سترسل مجموعة من القوات الى الأردن للاشتراك مع القوات الأردنية بالهجوم من الضفة الغربية . وقد باشرت بتنظيمها وتتخذ الاستعداد على طول الجبهة السورية للاشتباك مع القوات الاسرائيلية .

عدنا الى الأركان العامة بعد هذه الزيارة وتم بالفعل تشكيل مفرزة من سلاح الهندسة وطلب إليها تنفيذ عملية نسف أنابيب شركة آي . بي . سي (IPC) وقد اجتمعت الحكومة السورية برئاسة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية وقررت الدخول بالحرب الى جانب مصر .

كانت شوارع دمشق تعج بالجماهير التي تنادي باعلان الحرب على اسرائيل وتطالب بالتطوع وتهتف بحياة عبد الناصر وتصب جام غضبها على الاستعمار وعلى بريطانيا وفرنسا .

وعقدت اجتماعات شعبية في كل المدن السورية ووزعت عشرات الألاف من الأسلحة الخفيفة على المقاومة الشعبية التي بدأت بتحصين القرى والمدن وبعض المواقع الهامة على الساحة والحدود التركية . ومنذ ذلك اليوم أصبحت سورية بمجموعها كخلية نحل عامل ، متحفزة للقتال في أية لحظة وفي أي مكان . . . وأصبح عبد الناصر بنظر جماهير الشعب رمزاً للصمود والكرامة وان الحرب التي يشنها الاستعمار على مصر، انما هي حرب موجهة ضد الحركة العربية التحررية من الجزائر الى دمشق وان واجب الشعب العربي كله الوقوف

في وجه هذا الغزو الصليبي الجديد وإلا فإننا سنعود الى الوضع الذي كنا فيه في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

زيارة الرئيس شكري القوتلي الى موسكو:

عندما تبلورت أبعاد المؤامرة وبدأ الهجوم الفرنسي البريطاني على مصر، تقرر قيام رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي بزيارة فورية الى الاتحاد السوفييتي على رأس وفد رسمي للتباحث مع المسؤولين السوفييت حول الوضع الخطير والاحتمالات المتوقعة والتعرف على وجهة نظرهم وحقيقة موقفهم من العدوان، وما يمكن ان يقدموه من مساعدات لمصر وسورية للصمود وتحطيم هذه المؤامرة... وكانت الزيارة بمبادهة من السيد القوتلي رئيس الجمهورية شخصياً.

عاد الرئيس القوتلي من هذه الزيارة مطمئناً بعد مقابلته للرئيس السوفييتي بولغانين وكبار القادة السوفييت وحصل منهم على تأكيدات من القيادة السوفييتية بأن الاتحاد السوفييتي سيقدم للبلدان العربية المعتدى عليها الدعم العسكري والسياسي، وبالفعل فقد بدأت الأسلحة تتدفق فور انتهاء الزيارة على سورية ومصر. ولم يلبث الاتحاد السوفييتي بعد أيام من الزيارة أثناء ذروة الهجوم على السويس، أن أصدر إنذاره المعروف مهدداً فرنسا وانكلترا واسرائيل بالضرب بالصواريخ اذا لم يوقفوا هجومهم على مصر...

إرسال مجموعة القوات السورية الى الأردن:

أصدرت القيادة السورية صباح ١٩٥٦/١٠/٣٠ الأوامر باستنفار القوات المسلحة السورية، وباشرت فوراً بتشكيل مجموعة خاصة مؤلفة من لواء مشاة ولواء مدرعات ولواء مدفعية وعناصر من سلاح الهندسة والمدفعية م. ط للتحرك الى الأردن وسمي العقيد الركن سهيل العشي قائداً لهذه المجموعة. وعينت شخصياً رئيساً لأركان هذه المجموعة...

وفي صباح ١٠/٣١/ صدر الانذار البريطاني الفرنسي المعروف والموجه الى مصر واسرائيل لسحب قواتهما الى مسافة عشرة كيلومترات من قناة السويس . . . وإلا فإنهما ستضطران للتدخل لحماية هذا الممر الدولي . . . وتكشفت عندئذ حقيقة المؤامرة وأصبح واضحاً ان الهجوم الفرنسي البريطاني سيكون أولاً باتجاه قناة السويس .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة من يوم ١٠/٣١ تحركت المجموعة السورية المذكورة بقيادة العقيد الركن سهيل العشي باتجاه الأردن على محور دمشق ـ درعا ـ عمان وقد تبلغت صباح هذا اليوم أمر القيادة بتعييني رئيساً لأركان المجموعة فبادرت الى توديع الأهل لأن زوجتي وبعض أبنائي كانوا في القاهرة ، والتحقت بالمجموعة وعندما عبر الرتل الحدود الأردنية حوالي الساعة السادسة عشرة بدأت الطائرات البريطانية الموجودة في قاعدة المفرق تحلق على ارتفاع منخفض فوقنا . . . واستمرت ترافقنا بقية النهار وطوال الليل حتى وصلنا الى معسكر «خو» الواقع شرقي عمان حيث طلبت الينا القيادة الأردنية الانتظار في هذا المعسكر ريثما يصار الى تعيين مهمة المجموعة ومكان تمركزها .

وفي صباح ١٩٥٦/١١/١ رافقت قائد المجموعة الى القيادة الأردنية حيث اجتمعنا باللواء الركن علي أبو نوار واللواء الركن صادق الشرع رئيس العمليات . . . وتلقينا التعليمات بالتحرك مساء الى موقع «صويلح» الواقع غربي عمان على طريق القدس حيث سيكون المقر المؤقت لقيادة المجموعة ، بانتظار تحديد المحور الذي ستعمل عليه خاصة وان القيادة الأردنية لم تتلق حتى تلك الساعة أية تعليمات من القيادة العامة في القاهرة . وهي تنتظر اتصال الرئيس جمال عبد الناصر بالملك حسين لاطلاعه على الموقف ، وإعطائه التوجيهات حول دور القوات الأردنية والسورية في الحرب .

وفي هذا المساء أيضاً حلقت الطائرات البريطانية فوق معسكر «خو» وفوق مدينة عمان نفسها وقال لنا اللواء صادق الشرع ان جلالة الملك حسين اتصل بقيادة القوات الجوية البريطانية المتمركزة في قاعدة المفرق وطلب إليها ايقاف التحليق . . . وبالفعل لم نعد نشاهد هذه الطائرات منذ ذلك اليوم .

وفي المساء تحركت المجموعة الى صويلح وتم توزيعها وانتشارها في هذه المنطقة بشكل تستطيع معه الدفاع عن نفسها ضد الغارات الجوية، وتكون جاهزة للتحرك عند أول إشارة من قيادة الجيش الأردني باتجاه الضفة الغربية.

ولكن الأوامر لم تصدر إلينا بالحركة باتجاه الجبهة، وفي صباح ١١/٢ .. أعلمتنا القيادة الأردنية أنها تلقت أمراً من القائد العام المشير عامر ومن الرئيس عبد الناصر بالذات بألا تزج قواتها بالقتال لأن الحرب أخذت أبعاداً جديدة... بتدخل الطيران الفرنسي والبريطاني... وضرب مطارات القناة والقاهرة وبلبيس... وتدمير القوى الجوية المصرية على الأرض.. وتدخل الأسطول البريطاني ووحدات المظليين الفرنسية في منطقة القناة والنزول في مدينة بور سعيد..

وطُلب الى قائد المجموعة بأن يحرك كتيبتين من لواء المشاة لحماية جسر اللنبي وجسر الشيخ حسين... كما أعلمتنا القيادة الأردنية ان فرقة من الجيش العراقي دخلت الأردن وسوف تتمركز في منطقة الزرقاء على المحور بين الرمثا والزرقاء بانتظار التعليمات.

وتم في الليلة نفسها تنفيذ الأمر بتحريك كتيبتي المشاة الى الأمكنة التي حددتها القيادة الأردنية لها ودعمنا ببعض العناصر المضادة للطائرات.

دراسة الموقف الجديد بعد وصول القوة العراقية للمفرق:

بعد ذلك بحثت الوضع الجديد مع قائد المجموعة على ضوء وصول القوات العراقية، والأوامر الصادرة عن القيادة العامة بعدم الاشتباك وكان تمركز القوات العراقية على عقدة الرمثا درعا مبعث تساؤل لدينا بسبب سياسة النظام العراقي آنذاك خاصة ونحن نخشى ان يكون حضورها للأردن جزءاً من الخطة البريطانية وحلف بغداد وبالتالي فإن تمركزها على الطريق الذي يصلنا بقواعدنا الرئيسية في سورية أمر يدعو للقلق. لذلك قررنا الذهاب الى القيادة الأردنية لنلفت نظرها الى هذا الموضوع ونقترح عليها تغيير مكان تمركزنا، لنكون على

اتصال مباشر بقاعدتنا اللوجستيكية في درعا وتقصير خط تموينا وان أنسب مكان تتوفر فيه هذه الشروط هو القطاع الشمالي من الأردن بين الرمثا واربد، بشكل يمكن ان تسيطر المجموعة على عقدة الرمثا فتؤمن بذلك اتصالها مع قاعدتها في سورية ـ على طريق الرمثا ـ درعا، وان يكون مقر المجموعة مدينة اربد. وأكدنا للقيادة الأردنية ان هذا التمركز لايتعارض مع أية مهمة هجومية أو دفاعية يمكن ان تعطى للمجموعة، لأنها تستطيع التحرك باتجاه الغور والضفة الغربية باستخدام محور اربد جسر الشيخ حسين ـ الضفة الغربية ـ. وان ميزة هذا التمركز الأساسية هي الاتصال المباشر بالقوات السورية الموجودة في القطاع الجنوبي للجبهة السورية وبالوحدات المتمركزة في درعا، عن طريق اربد ـ الرمثا ـ درعا. هذا ويمكن عند الحاجة زج القوات العراقية على محور عمان ـ صويلح ـ السلط. جسر اللنبي أي أن تعطى لها نفس المهمة التي كانت نظرياً ستلقى في النهاية على عاتق المجموعة السورية، وبذلك تزول كل المحاذير والشكوك، وتقوم القيادة الأردنية بمهمة التنسيق بين جميع القوات الموجودة فوق أراضيها. ذهبنا أولاً إلى مقر رئاسة الوزارة الأردنية حيث التقينا كلاً من السادة الوزراء عبد الله الريماوي وشفيق رشيدات ولفتنا نظرهم لمخاوفنا من تمركز القوات العراقية بالقرب من الحدود السورية على محور درعا ـ عمان.. بينما تمركز المجموعة السورية في صويلح بعيداً عن قاعدة تموينها وأخبرناهما بأننا سنقترح على اللواء علي أبو نوار أن يسمح لنا بالانتقال الى اربد... فأبديا كل تفهم لرأينا ووعدا بأن يقوما من جهتهما ببذل مايستطيعان من جهد لاقناع اللواء أبو نوار باقتراحنا.

والحقيقة أننا لم نجد أية صعوبة في إقناع اللواء أبو نوار ورئيس أركانه اللواء صادق الشرع خاصة بعد ان تلقى الملك حسين برقية من الرئيس عبد الناصر يطلب اليه التريث في زج القوات الأردنية والسورية في عملية هجومية داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة. وفي ليلة ٣ ـ ٤ / ١١ تم نقل المجموعة الى مكان تمركزها الجديد وانتشرت في المثلث الواقع بين الرمثا ـ المفرق ـ اربد. ووضعنا احدى كتائب المشاة على المرتفعات الكائنة غربي اربد بحيث تشرف

على وادي الأردن، وأصبح محور الرمثا ـ درعا تحت تصرف المجموعة السورية، كما تم الاتصال المباشر بين قيادة المجموعة والكتيبة المتمركزة على جسر الشيخ حسين، أما مقر المجموعة فأصبح في مدينة أربد. . .

كانت الحرب على أشدها في سيناء وكنا نحن نتابعها عن طريق الراديو لأننا لم نكن نتلقى أية معلومات عن تطور العمليات على جبهة السويس ولم يقع على الجبهة الأردنية أي اشتباك مع القوات الاسرائيلية، كما لم نسمع عن أي اشتباك على الجبهة السورية. وكانت وحداتنا تتحرق للمساهمة بالعمليات ونحن نتساءل عن طبيعة هذه الحرب، وعن جدية القيادة المشتركة ودورها الفعلي. . . وكنا نخشى ان يعيد التاريخ نفسه، عندما كانت القوات الاسرائيلية في عام ١٩٤٨ تضرب كل جيش على انفراد حتى اذا انتهت من إحدى الجبهات التفتت الى الجبهة الأخرى. علماً بأنها في هذه المرة في تحالف فعلي مع دولتين عظميين هما بريطانيا وفرنسا. . وهكذا يمكن لقوات العدوان الثلاثي ان تتجه الى سورية والأردن بعد ان تنتهي مهمتها ضد الجيش المصري، والذي تدل الأخبار بأنه انسحب من سيناء وان القوات البريطانية الفرنسية، احتلت مدينة بور سعيد وبور توفيق وبدأت الزحف نحو الاسماعيلية، والقوات الاسرائيلية تنتشر على طول قناة السويس من جهة سيناء. .

أول اتصال مع القوات العراقية:

في هذه الآونة كلفت رئاسة الأركان السورية المقدم المتقاعد مفلح بن علي بمهمة سرية خاصة وهي الاتصال مع قيادة الفرقة العراقية للتعرف على عناصرها القيادية (والمقدم مفلح بن علي هو ضابط متقاعد من أصل عراقي لجأ الى سورية بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني وقد عين مدرساً للتاريخ العسكري في الكلية الحربية في حمص). . جاء الى الأردن والتقى بقائد القوات العراقية الزعيم عبد الكريم قاسم ورئيس أركانه العقيد عبد السلام عارف وتحدث معهما وعاد فأعلم رئيس الأركان اللواء توفيق نظام الدين والعميد أمين

النفوري رئيس شعبة العمليات والمقدم عبد الحميد السراج بأن هذين الضابطين من خيرة الضباط الوطنيين في الجيش العراقي، وانهما على استعداد للقاء مع بعض قادة الجيش السوري للبحث معهم بأمور هامة . . .

وافقت القيادة السورية على اقتراح المقدم مفلح وكلفت كلاً من العقيد عفيف البزرة والمقدم طعمة العودة الله والمقدم أحمد حنيدي (وكان هؤلاء يعملون في اللواء المدرع التابع للمجموعة وينتشر خلف مدينة اربد . . . على محور في المثلث الرمثا ـ اربد ـ المفرق).

جاء الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عارف الى المكان المحدد لوحدهما وكان العقيد عبد السلام عارف يقود سيارة الجيب التي يمتطيانها، وكان اللقاء مع الضباط السوريين ودياً. وأكد الزعيم قاسم والعقيد عارف للضباط السوريين بأن الوحدات العراقية التي قدمت للأردن ليست موالية للنظام العراقي، وانهما يضعان الخطة للقيام بانقلاب عسكري للاستيلاء على السلطة واسقاط النظام الملكي في العراق، اذا ماانتهت هذه الأزمة وعادت فرقتهم الى بغداد . . . وطلبا ان يحاط هذا الأمر بأقصى مايمكن من الكتمان. وأكدا بأن لدى حكومة نوري السعيد مخططاً لتقوم القوات العراقية بدعم مؤامرة ضد سورية يجري تحضيرها الآن وتنقل الأسلحة للمتآمرين بواسطة وحدات التموين التابعة للفرقة وتسلم من قبل بعض ضباط المخابرات الملحقين بالفرقة الى العناصر المتآمرة في سورية . . . . بعد نقل هذه المعلومات الخطيرة لقيادة الجيش في دمشق.

أعطيت التعليمات للواء المدرع السوري بأن ينظم بعض الدوريات بموازاة للحدود السورية الأردنية ليكون قادراً على التصرف، عند وقوع أي احتمال وليستطيع بالوقت نفسه نفيذ أية أوامر أخرى من قيادة الجيش السوري في حالة وقوع حوادث داخلية أو تحرك مشبوه للقوات العراقية وفي الوقت نفسه أكدت المعلومات التي لدى المقدم السراج رئيس الشعبة الثانية بأن هناك مؤامرة تدبرها الحكومة العراقية بالاتفاق مع بعض العناصر في سورية الموالية لها ، وانها تعمل لخلق فتنة مسلحة في بعض المدن السورية لاسقاط النظام في الوقت

الذي يتم فيه اسقاط نظام الرئيس عبد الناصر من قبل القوات البريطانية ـ الفرنسية .

غير ان الأمور لم تجر بالشكل الذي توقعته بريطانيا وحكومة نوري السعيد آنذاك فقد انفضحت المؤامرة قبل البدء بالتنفيذ . بفضل وعي الشعب وتغطية أجهزة المخابرات السورية ، ولانسى الدور الذي لعبه كل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف في تحذير السلطات السورية كما أسلفنا ، وامكن اتخاذ التدابير لافشالها وصودرت الأسلحة قبل ان تصل الى المراجع المرسلة اليها وظهر لقوى العدوان الثلاثي ان الشعب السوري لايمكن ان يَطعَن جيشه من الخلف في الوقت الذي يتأهب هذا الجيش لخوض المعركة ضد قوى الغزو البريطانية ـ الفرنسية ـ الاسرائيلية التي أخذت تدنس الأراضي العربية المصرية . وتقصف مدن مصر وقراها بوحشية وحقد . . . كما ظهر من موقف ضباط الجيش العراقي الذين كانوا على رأس القوات التي عبرت الأردن ان ضباط وعساكر هذا الجيش العربي النبيل لايمكن ان يسيروا وراء السلطة المتآمرة المتربعة على الحكم في بغداد وقد برهنوا على ذلك عملياً عندما فضحوا المؤامرة ثم قاموا بثورتهم التاريخية الفاصلة في ١٤ تموز ١٩٥٨ وأطاحوا بالنظام الملكي وبقايا عملاء الاستعمار البريطاني وأقاموا الجمهورية العراقية وحطموا جميع المعادلات التي رتبها الاستعمار منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . . . وفتحوا لأول مرة في التاريخ منذ انهيار الدولة العباسية التعاون مع أشقائهم في سورية ومصر وبقية الأقطار العربية صفحة جديدة في تاريخ الأمة العربية لتسطير وقائع هامة في سير العرب نحو الوحدة والتحرر من التخلف والقيام بدور حقيقي في توجيه الأحداث الدولية .

تشكيل محكمة عسكرية برئاسة العقيد عفيف بزرة لمحاكمة المتآمرين :

وفي أواخر كانون الأول ١٩٥٦ شكلت محكمة خاصة برئاسة العقيد عفيف البزرة للنظر في هذه المؤامرة وفي ٢٢ من هذا الشهر نفسه نشرت قائمة

الاتهـام بحق حوالي ٤٧ شخصـاً . . معظمهم من أعضـاء المجلس النيـابي وصدرت الأحكام ضدهم في ٢٧ شباط من عام ١٩٥٧ كما هو معروف.

واتضـح في هذه الفترة ان العدوان الثلاثي على مصر قد آل الى الفشل الـذريـع واضطرت بريطانيـا وفرنسا الى سحب قواتها المعتدية من السويس جارتين وراءهما ذيول الخيبة والعار.

وذهبت أحلام الحكومة البريطانية برئاسة «انطوني ايدن» باسقاط نظام عبد الناصر، أدراج الرياح، كما أخفقت محاولات حكومة «غي موليه» الاشتراكية في فرنسا للقضاء على ثورة الجزائر بالالتفاف عليها من السويس . . . وأكد هذا العدوان الأخير ان الامبراطوريتين الفرنسية والبريطانية أصبحتا في ذمة التاريخ، وان زعامة العالم الغربي انتقلت نهائياً من أوروبا الغربية الى الولايات المتحدة، ومع انسحاب قوات هاتين الدولتين من بور سعيد بدأت مرحلة جديدة نوعياً في تاريخ العالم عامة وتاريخ القارات الثلاث افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية حيث أصبح انحسار النفود الأوروبي من هذه القارات حتمياً، في الوقت الذي بدأ يتكرس فيها نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية . . وتبلور انقسام العالم فعلياً بين دولتين عملاقتين هما أمريكا، والاتحاد السوفييتي أو ما يسمى بالاستقطاب الثنائي.

كما ظهر بشكل لم يعد يقبل الجدل ان حركات التحرر وبلدان العالم الثالث اجمالاً أصبحت تلعب دوراً أساسياً في السياسة الدولية بعد زوال الاستعمار الأوروبي عنها، ووجدت نفسها أمام العملاقين اللذين جعلا أراضي هذه البلدان ميداناً لحربهما الباردة . . وان نضالهم من أجل التحرر الكامل (الاجتماعي والاقتصادي) أصبح يتأثر رغم ارادتهم بهذا الصراع الرهيب بين العملاقين. وهكذا وبانتهاء عدوان السويس وفشل المؤامرة على سورية، انتصرت ثورة مصر وأصبحت في نظر الشعوب النامية في طليعة حركات التحرر في القارات الثلاث كما تدعم النظام الديمقراطي التقدمي في سورية غير ان محاكمة هذا العدد الكبير من السياسيين والنواب السوريين، أحدث شرخاً بالوحدة الوطنية سيكون له آثار خطيرة وسلبية فيما بعد لأن طريقة معالجة

المؤامرة وضعت سدوداً بين القوى السياسية في سورية وحالت دون أي حوار مجد بينها أدت بالنتيجة الى انها لم تعد تثق ببعضها وفضلت الارتماء بدون أي شرط في أحضان الرئيس عبد الناصر على أمل ان تنتقم كل منها من الأخرى بواسطة التقرب من الرئيس عبد الناصر على حساب غيرها. وهكذا كان بالفعل بعد قيام الوحدة الاندماجية عام ١٩٥٨.

ومع بداية عام ١٩٥٧ أصبحت كل من مصر وسورية تسيران نحو الوحدة بشكل متسارع ويزيد في عنفه وشدته تيار الجماهير الواسعة في سورية خاصة وفي جميع الأقطار العربية الأخرى. كما تلقى النظام الملكي في العراق أعظم ضربة زعزعت أركانه وأضحى منذ ذلك التاريخ يقف على بركان هائج قد يتفجر بين لحظة وأخرى ليرفد التيار الشعبي في مصر وسورية.

مؤتمر القمة الرباعي في القاهرة في ٢٦ شباط ١٩٥٧ :

عقد في القاهرة مؤتمر قمة للدول العربية الأربع سورية ومصر الأردن والسعودية وحضره كل من الرئيس جمال عبد الناصر والملك سعود آل سعود والملك حسين والرئيس شكري القوتلي. وقد ذهبت مع العقيد جمال فيصل لزيارة الرئيس القوتلي في دار الضيافة في قصر القبة، فاستقبلنا في الساعة الثامنة والنصف صباحاً. ومما جاء في حديثه خلال هذه الزيارة:

١ ـ إن الوضع العام في البلدان العربيَة سليم في هذه المرحلة بعد فشل العدوان الثلاثي وان الروابط بين الدول المتحررة ويعني بها مصر وسورية والسعودية والأردن تزداد بعد هذا المؤتمر.

٢ ـ إن نتائج زيارته للاتحاد السوفييتي كانت عظيمة لأنها جاءت في اللحظة المناسبة وعلى الرغم من انها لم تدم سوى ثلاثة أيام، ولكنها عادت بالخير على العالم العربي وعجلت بالمساعدة السوفيتية لمصر وسورية وساهمت باصدار الانذار السوفييتي للدول المعتدية... فقد اجتمع بالقادة السوفييت

بولغـاتـين، وفـورشـيلوف، وشـيلوف، وجـوكـوف وأكـد لهم ان اسـتقـلال مصـر وسـورية معرض للخطـر واذا لم يتـدخلوا بسـرعـة لكبح المعتدين فإن الفرصة ستضيـع عليهم وعلى العرب الى أمد بعيد.

٣ ـ أشـار الى ضـرورة التعاون بين مصر وسـورية والسـعودية والأردن لدرء أخطـار حلف بغـداد واسـرائيل ومنع الاستعمار من الوصول الى أهدافه كما يرى ضرورة وجود قيادة مصرية ـ سـورية ـ أردنية موحدة.

٤ ـ يرى أنه من الضـروري ارسال قوات مصـرية الى الأردن وسـورية.

٥ ـ لم يتعرض الرؤ سـاء لمشروع ايزنهاور المسـمى بـ «مبدأ الفراغ».

٦ ـ إن موقف الملك سـعود شـريف جداً، فقد أعلم الرؤ سـاء في المؤ تمر انه أكـد للرئيس ايـزنهـاور خلال زيـارتـه الأخـيرة لواشـنطن، ان المملكة السـعودية لايمكن ان تتخـذ أي موقف خارج اجتـماع الدول العربية المتحررة ويعني مصر وسـورية والأردن.

وأبلغـه ايـزنهاور ان أهم ماتريده أمريكا: هو تخفيف الحملة عليها وعلى الغـرب عامـة، وألا تقـع البلدان العـربيـة فريـسـة سهلة بيد الشـيوعية. كما لمح ايـزنهـاور للملك سـعود ان الأسلحـة السـوفييتيـة لم تجد نفعـاً في الحـرب ضـد اسـرائيل، وقد تم تدميرها بكاملها تقريباً دون الوصـول الى أية نـتيجة

الوضـع العام في المنطقة بعد فشـل العدوان الثلاثي على مصر:

كانـت من نتيجة هذا العدوان ان انحسـر النفوذ الأوروبي عن مصر وبقية الـوطن العـربي شـرقي البحـر المتـوسـط والجزيرة العربية، وتعززت ثورة الجزائر وفشلت خطة المتطرفين الفرنسـيين للالتفاف عليها لاعتقادهم االواهم ان ضـرب الحـركـة التحـررية في مصـر وسـورية سـيؤ دي الى انهيـارها، ولكنهم أصـبحوا بعد هذه المـرحلة أشـد عزلة أمام العالم والتاريخ ولابد لهم ان يتلقوا الهزيمة الصريحة على أيـدي الثـورة الجـزائـريـة ويتحملوا نـتيجـة خطأ فهمهم للتاريخ... كما أكـدت ذلـك حركـة الجنـرال ديغـول عام ١٩٥٨... واضـطرارهـم للاعتراف

باستقلال الجزائر عام ١٩٦٢ ، ورحيل المستوطنين الفرنسيين وسقوط أسطورة الجزائر الفرنسية التي حاولوا تكريسها عبثاً خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . . .

أصبح واضحاً بعد هذه الأحداث ان حلف بغداد لم يعد له أي حظ بالاستمرار كما ان منطق الأحداث جعل من الصعب اذا لم يكن من المستحيل ادخال الدول العربية في شبكة الأحلاف الغربية بزعامة الولايات المتحدة بعد ان تعززت سياسة عدم الانحياز وأصبحت بمثابة السياسة الوحيدة المقبولة من الشعوب في الأقطار العربية . وظهر أيضاً ان مسؤولية العالم الغربي بأكمله في المنطقة وقعت على كاهل الولايات المتحدة الأمريكية وان ذلك لم يكن بغير علمها ورغبتها ولكنها مع ذلك أصبحت وحيدة في المنطقة تقف وجهاً لوجه مع حركة التحرر العربي ، وعلى تماس مباشر مع الكتلة السوفييتية ، ولم يبق لها من حلفاء حقيقيين سوى تركيا من جهة واسرائيل من جهة ثانية بالاضافة الى نظام الشاه في ايران وهيلاسلاسي في اثيوبيا .

وبدا ان الأنظمة الهزيلة في هذه المنطقة لم تعد تقوى على الصمود في وجه المد الجماهيري ، لذلك كان لابد من الدعم الأمريكي لها لكي تتجنب الكارثة ، وماكادت تمضي أسابيع على انتهاء حرب السويس حتى بدأت الولايات المتحدة تشن هجوماً معاكساً على الحركة العربية انطلاقاً من تركيا واسرائيل . كما لوحظ ان الأحداث في الأردن ولبنان تسير باتجاه معاكس للسياسة المتحررة في مصر وسورية .

لم تتردد أمريكا طويلاً بل بادرت فوراً الى اعلان ماأطلق عليه اسم «مبدأ ايزنهاور» أو «مبدأ الفراغ» على أساس فشل العدوان الثلاثي في السويس وانسحاب فرنسا وبريطانيا قد خلق «فراغاً في النفوذ» وأنه لابد من املاء هذه الفراغ بشكل ما من قبل أمريكا بالذات للحيلولة دون تغلغل النفوذ السوفييتي في المنطقة .

وقد عبر عن هذا الموقف وزير الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس» آنذاك في كلمة أمام مجلس الشيوخ الأمريكي بتاريخ ٤ حزيران ١٩٥٧ بقوله :

«أستطيع أن أؤكد لكم ان زعماء الشيوعية الدولية سوف يخوضون كل المخاطر للفوز في الشرق الأوسط» .

أعلن الرئيس ايزنهاور رسمياً هذا المبدأ بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٩٥٧ عندما طلب من الكونغرس منحه التخويل اللازم لاستخدام القوات المسلحة الأمريكية لحماية أية دولة شرق أوسطية تطلب المساعدة للوقوف ضد العدوان المسلح من قبل أية دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية . وكان هذا التلميح موجهاً أساساً للجمهورية العربية السورية ومصر .

وقد وافق مجلسا الشيوخ والنواب على اقتراحات ايزنهاور في ٩ آذار ١٩٥٧ . . . وبعد أيام قررت الولايات المتحدة الانضمام الى اللجنة العسكرية لحلف بغداد لكي تصبح المسؤولة المباشرة عن هذا الحلف . ويبدو ان وزير الخارجية الأمريكية كان يعتقد ان جميع القوى الوطنية والقومية في البلدان العربية هي قوى عميلة للاتحاد السوفييتي ، وأخذ يتعامل معها على هذا الأساس ولذلك اتجهت أمريكا في هذه المرحلة لشن حرب مكشوفة في البلاد العربية ضد القوى الوطنية باعتبارها فصيلة من فصائل الشيوعية أو حليفة تابعة لها . . . وكان من الطبيعي ان تجد في اسرائيل الأداة الفعالة الجاهزة للمساهمة في أية حملة عدوانية مهما كان نوعها لضرب الحركة القومية العربية كعدو أساسي مشترك بينها وبين الاستعمار ومن مصلحتها ان تَجُرَّ أمريكا الى نفس مخططاتها فتُصور لها حركة التحرر العربية على أنها «حركة معادية للغرب وأمريكا بالذات وهدفها تدمير كل أثر للنفوذ الغربي في الوطن العربي» ، وقد انطلت هذه اللعبة على أمريكا . . وهذا مايفسر السياسة الأمريكية الغبية منذ حرب السويس عام ١٩٥٦ لغاية أزمة الخليج عام ١٩٩١ ومروراً بحرب تشرين عام ١٩٧٣ .

ويبدو أن السياسة الأمريكية آنذاك اعتبرت ان أكثر البلدان العربية تعرُّضاً للسقوط في أيدي الشيوعية هي «سورية» وبذلك بدأت بالعمل لعزلها والتمهيد لضرب النظام الديمقراطي التقدمي فيها . . فباشرت أمريكا بالضغط على الأردن للخروج من القيادة العسكرية المشتركة والتخلص من حكومة

النابلسي الوطنية، وابعاد المجموعة السورية المتمركزة في الأردن لكيلا تصبح قاعدة للتآمر على النظام ومشجعاً للقوى الوطنية.

وفي شهر شباط طلب الملك حسين رسمياً رحيل المجموعة السورية، بعد ان طرد قائد الجيش اللواء علي أبونوار، وأقال حكومة النابلسي في شهر نيسان وكلف السيد هزاع المجالي بتشكيل حكومة جديدة وأعلنت الحكومة قبولها «بمبدأ ايزنهاور» والمساعدات الأمريكية.

كما قبلت الحكومة اللبنانية في ١٦ آذار من نفس العام هذا المبدأ، وأخذ رئيس الجمهورية اللبنانية كميل شمعون ووزير خارجيته شارل مالك يساهمان بالحملة الاعلامية على سورية والتآمر عليها وارتدَت معركة رئاسة الجمهورية في لبنان طابعاً خاصاً إذ اعتبر كميل شمعون تجديد رئاسته بمثابة استفتاء ليس على مبدأ ايزنهاور وعلى نفوذ الغرب وأمريكا بالذات في لبنان فحسب بل وفي المنطقة لأن لبنان يعتبر في نظر الغرب مرصد مراقبة وبارومتر المنطقة السياسي ورأس جسر للنفوذ الغربي في المشرق.

مؤامرة المخابرات الأمريكية لقلب النظام الديمقراطي في سورية:

كانت سورية أول بلد عربي رفض «مبدأ الفراغ» واعتبرته مقدمة لتدخل الولايات المتحدة في الشؤون الداخلية للبلدان العربية وأعلنت ان الخطر الأول والمباشر على هذه البلدان هي اسرائيل وحلفاؤها... وعندما اتضح للحكومة السورية مدى تدخل أمريكا في الأردن ولبنان ونجاحها بضرب الحكم الوطني في عمان وتورطها في تشجيع العناصر المغامرة والمتآمرة في لبنان، أخذت تفضح المخطط الأمريكي وتعبىء الجماهير السورية للصمود في وجهه، كما اتجهت جدياً نحو تعزيز علاقاتها الأخوية مع مصر، والانفتاح نحو الكتلة الاشتراكية توقياً من الهجمة الامبريالية؛ فوقعت مع تشيكوسلوفاكيا اتفاقية انشاء مصفاة للبترول في حمص رغم المعارضة العنيفة من القوى اليمينية في البرلمان في ١٥ آذار ١٩٥٧، كما وقعت على اتفاقية التنمية الاقتصادية مع الاتحاد

السوفييتي في ٦ أيلول من نفس العام، مما جعل أمريكا تتميز غضباً وحقداً على النظام في سورية وتسعى بكل امكانياتها لتحطيمه بالتواطؤ مع بلدان حلف بغداد (العراق وتركيا).

في هذه الفترة كشفت المخابرات السورية عن المؤامرة التي قام بها عميل المخابرات الأمريكية «ستون» وقررت الحكومة السورية إبعاد ثلاثة من الدبلوماسيين الأمريكيين لتورطهم في هذه المؤامرة في ١٣ أيلول من العام نفسه

وقد عرف الرأي العام العربي الكثير من تفاصيل هذه المؤامرة وغيرها من المؤامرات التي حيكت في الدوائر التابعة لحلف بغداد ضد سورية منذ قيامه حتى قيام الوحدة بين مصر وسورية في بداية عام ١٩٥٨، كما عرف العالم كيف استطاع هذا البلد الصغير الذي لايتجاوز عدد سكانه الخمسة ملايين ان يصمد في وجه الضغوط والمغريات البريطانية والأمريكية واستطاع ان يصون استقلاله ومبادئه ويرفض الرضوخ والتواطؤ على القضايا العربية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية ويتحمل في سبيل ذلك أضخم التضحيات.

بعض الملاحظات حول العدوان الثلاثي:

في نهاية كانون الثاني ١٩٥٧ عدت الى مقر عملي في القيادة المشتركة في القاهرة، ومنذ وصولي بدأت بقراءة التقارير التي لدى هذه القيادة حول سير العمليات في سيناء وتراجع القوات المصرية بعد اتضاح أبعاد المؤامرة واشتراك القوات الفرنسية والبريطانية وقيامها بالدور الأساسي في الحرب.

وكان من بين ماوقع بين يدي آنذاك خلاصات لدراسات نشرتها الصحف الاسرائيلية حول الدروس التي استخلصها العدو الاسرائيلي من الحرب، وفيما يلي أهم ماورد فيها:

١ - إن العوامل الرئيسية في نجاح المعركة الاسرائيلية هي:

أ - المبادرة والمفاجأة.

ب ـ التواطؤ مع بريطانيا وفرنسا .
ج ـ التفوق الجوي والبري .
د ـ المناورات العميقة والخاطفة بالوحدات المدرعة .

٢ ـ الاستنتاجات :

أ ـ يجب الاستمرار بتدعيم القوات الجوية والمدرعات لأنها سيكونان دائماً العامل الحاسم في أي حرب في صحراء سيناء .

ب ـ جعل وحدات المشاة أكثر قابلية على الحركة والقدرة على العمل مستقلة لانجاز بعض المهمات دون الحاجة للدعم اللوجيستيكي أو أي دعم آخر .

ج ـ تدعيم وحدات الجيش النظامي الدائم ، ليكون القوة الضاربة الأساسية في الحروب القادمة .

تعليق بن غوريون على حرب السويس :

١ ـ يرى بن غوريون ان المبادرة هي سبب نجاح عمليات سيناء ويخشى ان تكون المبادرة في المستقبل للعرب ، وعندئذ سيكون خطراً على اسرائيل خاصة لسهولة شطرها الى جزئين انطلاقاً من الضفة الغربية وفصل صحراء النقب وإيلات عن جسم الدولة انطلاقاً من سيناء .

٢ ـ ستتعرض اسرائيل في المستقبل لعدة هجمات كما لن تتمكن من الاحتفاظ الدائم بالسيطرة الجوية ولايتوقع ان تكون المعنويات في اسرائيل كما كانت في حرب السويس بسبب صعوبة ايجاد الحلفاء المستعدين للاشتراك العلني بالحرب كما فعل الانكليز والفرنسيون ، وتوقع ارتفاع الخسائر في المستقبل .

٣ ـ الحرب المقبلة ستكون في أراض غير صحراوية ومليئة بالسكان المعادين

٤ ـ كانت خطة اسرائيل دفاعية ثم انقلبت الى هجومية بعد التواطؤ مع فرنسا وبريطانيا .

٥ ـ يخشى من التدهور الاقتصادي اذا استمر سباق التسلح مع الدول العربية مدة طويلة .

الخلاصة التي توصل اليها الاسرائيليون من دراسة المعركة :

أ ـ ان الحرب في سيناء لم تحقق هدفها الرئيسي وهو تدمير القوات المصرية بكاملها وفرض صلح منفرد معها .

ب ـ من الضروري العمل في المستقبل على عزل مصر عن العرب ، وعدم تمكينها من الاشتراك في عمليات حربية مع قطر عربي آخر . [ماأضعف ذاكرة العرب!!!] .

ج ـ يجب السعي للتحالف مع أكبر عدد من بلدان منطقة الشرق الأوسط والمناطق الأخرى المعادية للعرب

د ـ يجب المحافظة على النفوذ الغربي في البلدان العربية ، لأنه يشكل الدعم الرئيسي لاسرائيل .

هـ ـ إن شروط الأمن في غزة وسيناء وشرم الشيخ تزيد في صعوبة الهجوم على اسرائيل ولكنها لن تمنع الحرب ضدها .

و ـ السلام مع العرب يتوقف على عوامل ثلاثة :

١ ـ التطور الداخلي في البلدان العربية .

٢ ـ سياسة الدول الكبرى .

٣ ـ مقدرة اسرائيل في التأثير على هذين العاملين واستغلالهما وتوجيههما .

الدروس النهائية :

١ ـ ان الحرب لاتصلح لتمهيد الطريق من أجل السلام مع العرب .

٢ ـ من المحتمل ان يقوم العرب بالهجوم على اسرائيل في مدة قريبة رغم حرب السويس .

٣ ـ لم تؤد معركة سيناء الى تخفيف الاستعداد العسكري أو تخفيض النفقات الحربية في مصر والبلدان العربية الأخرى بل على العكس ساهمت في زيادتها.

٤ ـ ان عمليات الفدائيين العرب تزرع الرعب والفوضى في اسرائيل وتحطيم الأعصاب وتهدم الأمن الداخلي.

٥ ـ ان اتجاه الدول العربية للاتحاد وتدعيم قواتها وخططها العسكرية يهدد اسرائيل بمستقبل مظلم.

٦ ـ أصبح من المسلم به في العالم ان من حق العالم العربي ان ينظم نفسه وان يحقق آمال شعوبه بالوحدة وأصبح ذلك ملموساً.

٧ ـ ان من يشرف على قنال السويس يتحكم بتموين أوروبا الغربية بالبترول[1] ويملك سلاحاً للضغط والمساومة على هذه البلدان.

شائعات في مصر حول وجود عناصر في الجيش تعارض سياسة عبد الناصر العربية:

بعد وقف اطلاق النار وانتهاء العمليات في القتال أعيدت أسرتي من مصر مع عدد من الضباط السوريين وأسرهم على إحدى البواخر اليونانية فاستقبلتها في ميناء بيروت، وكان ذلك مفاجأة سارة لها، ذلك أنها كانت تعتقد بأنني من بين الضباط المفقودين في الطائرة المصرية، ولم تستطع خلال فترة الحرب الحصول على معلومات من القيادة المشتركة تؤكد أو تنفي الخبر، وظلت في حالة محزنة الى ان وجدتني أمامها عند هبوطها من الباخرة.

بقيت في دمشق مع أسرتي فترة قصيرة ثم تلقيت التعليمات من رئاسة الأركان للعودة الى القيادة المشتركة في القاهرة.

ومنذ وصولي الى مقر القيادة، بدأت بدراسة بعض التقارير حول سير العمليات في سيناء، ضد القوات الاسرائيلية، وكيفية تنفيذ القوات المصرية لأوامر الانسحاب، كما اطلعت على تقارير حول نزول القوات البريطانية

والفرنسية في بورسعيد، ومحاولتها الزحف جنوباً للاستيلاء على قنال السويس، وتصدي القوات الشعبية المسلحة للمظليين، وحماس الجماهير في مصر لتأميم القناة وموقف الجاليات الأوروبية (المؤلفة من الطليان واليونانيين والفرنسيين والبريطانيين واليهود) من العدوان، الأمر الذي دعا السلطات المصرية لحجزهم وابعادهم عن البلاد.

وقد استخلصت من مجمل التقارير ان الوحدات المصرية في سيناء لم تنفذ عملية الانسحاب بالشكل الذي أراده عبد الناصر، وأن القوات الجوية، لم تقم بأية مهمة فعالة، ولم تقدم للقوات المنسحبة أي دعم، وان الكثير من الانتقادات توجه لقائد سلاح الطيران ولبعض قادة الفرق.

لم تكد مصر تضمد جراحها الثخينة التي ألحقها بها العدوان الثلاثي حتى كثرت الشائعات حول احتمال وقوع انقلاب عسكري ضد عبد الناصر، وان هناك عدداً من كبار ضباط الجيش والسياسيين يعارضون النظام وأذكر من بين هؤلاء قائد القوات الجوية محمود صدقي.

وهكذا أخذنا نشعر وكأننا غير مرغوب في بقائنا بل وباستمرار عمل القيادة وخيل إلينا ان مصر تستعد لاجراء تغييرات جذرية في سياستها الداخلية والعربية والدولية.

الفصل الرابع

الرئيس عبد الناصر يحلل أسباب العدوان ويحدد سياسة واستراتيجية جمهورية مصر

وبتاريخ ٤ شباط ١٩٥٧ طلب الرئيس عبد الناصر عقد مؤتمر لهيئة اركان القوات المسلحة المصرية ولكبار الضباط لمناقشة الدروس المستفادة من الحرب . . . ودعي ضباط القيادة المشتركة لحضور هذا المؤتمر.

تليت بعض التقارير التي وضعتها هيئة الأركان عن الحرب ثم ألقى الرئيس جمال عبد الناصر كلمة في نهاية المؤتمر كانت مفاجأة لنا . وأظن ان الكثير ين من الضباط المصريين فوجئوا بها لأنها تضمنت الرد القاطع على جميع الأقاويل التي كانت تتردد في القاهرة وحتى الأوساط العسكرية وبسبب اصرار الرئيس على متابعة سياسته العربية . ونظراً لأهمية هذه الكلمة فقد حاولت تلخيصها في تقرير أرسلته لقيادة الجيش السوري وفيما يلي أورد نص هذا التقرير بكامله :

تقرير المقدم الركن احمد عبد الكريم عضو القيادة المشتركة عن الكلمة التي ألقاها فخامة رئيس الجمهورية المصرية جمال عبد الناصر بتاريخ

١٩٥٧/٢/٤، في صالة التحرير أثناء مناقشة الدروس المستفادة من العمليات الحربية أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر.

- بتاريخ ١٩٥٧/٢/٤ وأثناء المناقشات التي كانت تجري في صالة التحرير التابعة لهيئة تدريب القوات المصرية حضر فخامة رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر وبرفقته القائد العام، وبعد سماع المحاضرة التي ألقاها أحد الضباط القادة عن «كيفية انتقاء القادة وأهم ميزات القيادة» نهض الرئيس جمال عبد الناصر وألقى كلمة تعرض فيها للاعتداء الأخير والدروس التي يجب استخلاصها من العمليات وذكر بعض الخطوات الرئيسية التي سماها «بالاستراتيجية المصرية».

ونظراً لما لهذه الكلمة من أهمية بالنسبة لمستقبل العلاقات السياسية العسكرية بين سورية ومصر وبين مصر والعالم العربي وللعلاقة الوثيقة بين هذه السياسة العسكرية ومهمة القيادة المشتركة، حاولت تسجيل أهم ماورد في هذه الكلمة مراعياً الدقة والنص الحقيقي بقدر الامكان. وفيما يلي نص التقرير الذي أرسلته الى رئاسة الأركان العامة بدمشق عن هذا المؤتمر:

- ابتدأ الرئيس كلمته قائلاً: «أود في حديثي هذا ان استعرض المواقف التي قابلناها والمواقف التي يحتمل ان نقابلها في المستقبل القريب أو البعيد وان أسجل بعض الملاحظات على هذه المواقف.

أولاً:

إن المهمة التي تلقى الآن على كاهل القوات المسلحة المصرية أصبحت أساسية وحيوية في بناء هذا الوطن. ذلك لأننا نتحرر لأول مرة منذ أكثر من ٥٠٠ الى ٦٠٠ عام من النفوذ الأجنبي، وهذا يعني ان واجب الدفاع عن وطننا أصبح ملقى على عاتق جيش الوطن.

فمنذ الحملة الصليبية التي أتت الى مصر حوالي عام ١٢٥٠م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وحتى نهاية الاحتلال البريطاني لم تكن مصر مستقلة

استقلالاً تاماً ولم يكن لديها قوات مسلحة بالمعنى الصحيح . ففي أيام محمد علي كانت مصر جزءاً من الامبراطورية العثمانية وكانت القوات المسلحة المصرية تعمل لصالح الاستعمار العثماني ، وبالرغم من ذلك فقد تآمر الغرب على قوات مصر عندما بدأ يشعر بخطورتها على مصالحه ، فعقد مؤتمراً استعمارياً في لندن عام ١٨٤٠ وتقرر فيه تدمير القوات المصرية . وقد تم ذلك بالفعل ، وأتى على أثره الاحتلال البريطاني الذي استمر حتى عام ١٩٥٤ ومنذ ذلك الوقت ولأول مرة أخذنا نمارس سيادتنا وسلطتنا وقد أصبح لزاماً علينا ان نضع سياسة واضحة لنتمكن من بناء وطننا .

ثانياً : الاستراتيجية المصرية :

ولكي نبني وطننا لابد لنا ان نضع «استراتيجية عسكرية» تتلاءم مع سياستنا أي يجب ان يكون لنا استراتيجية دفاع واضحة .

لقد كانت مصر منذ أيام الفراعنة والهكسوس محطاً لأنظار الطامعين وفي كل مرة كانت مصر فيها مفككة ، كانت تقع لقمة سائغة في يد الغزاة ، وعندما تكون متماسكة ومتعاونة مع دول المنطقة التي تقع فيها ، كانت تقف في وجه الغزاة وتطردهم .

ـ ففي أيام الصليبين كان هؤلاء يعملون جهدهم لبذر روح الشقاق بين دول المنطقة فيتغلبوا عليها واحدة بعد الأخرى ولكن عندما اتحدت كلمتهم استطاعوا ان يدحروا الجيوش الصليبية وان يحرروا المنطقة كلها من الاستعمار بما في ذلك مصر .

ـ وفي أيام التتار وعندما وقفت مصر في وجههم مع دول المنطقة استطاعت ان تهزمهم بعد ان اكتسحوا معظم آسيا وأوروبا .

ـ وفي أيام الاعتداء الأخير على مصر استطاعت مصر ان تدحر قوات العدو الثلاثي ، بفضل تعاونها مع شقيقاتها الدول العربية المتحررة بالرغم ان هذا التعاون وهذه الروابط كانت في مرحلتها الابتدائية .

إذن فإن الاستراتيجية المصرية يجب ان تبنى على الأسس التالية :

١ ـ عدم الانعزال، والاتحاد والتماسك مع الدول العربية، وليس هذا الكلام مبنياً على العواطف بل أؤكد انه مبني على المصلحة المصرية والمصلحة العربية المتبادلة. وعلى هذا الأساس يجب ان تبنى الاستراتيجية المصرية والاستراتيجية العربية. ويجب ان نفهم بأننا اذا انعزلنا داخل حدودنا سنفشل في بناء وطننا وذلك صحيح بالنسبة لبقية الدول العربية.

٢ ـ ان هدف الدول الاستعمارية هو القضاء على قواتنا المسلحة ويجب ان يكون هدفنا بناء هذه القوات والمحافظة عليها. وهيه حقيقة يجب ألا ننساها ذلك لأن المستعمرين حاولوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر كما حاولوا بالأمس منعنا من بناء قوة مسلحة. وفي هذا يقول المستر «أنطوني ايدن» إبان الاعتداء على مصر: «إن من جملة أهداف الحملة المشتركة على مصر هو القضاء على القوة المسلحة المصرية قبل ان تصبح خطراً على مصالحنا في الشرق الأوسط».

لقد استطعنا منذ مدة ان نقضي على التحكم والسيطرة الاستعمارية وبدأنا فعلاً ببناء قواتنا فهيأنا لها السلاح، والتقدم العلمي، والامكانيات.

ثالثاً: الغرض من بناء القوات المسلحة «أو هدف الاستراتيجية المصرية»:

قلت فيما سبق اننا كنا عرضة للغزو والسلب والتحكم من قبل الاستعمار الذي كان يحاول ان يبقينا على أسوأ حال من الفقر والجهل وان يمنعنا من التقدم والتحسن.

إذن فيجب ان تتكاتف جهود الدول العربية للعمل والبناء والانتاج ولهذا لابد لنا من وجود قوات مسلحة قوية تحمي هذه الجهود.

ففي عصر البخار والبترول كنا لانزال متأخرين عن العالم، وقد بدأ عصر الذرة ونحن لانزال متأخرين أيضاً، فهل سيستمر تأخرنا أم اننا يجب ان

نتـلافى هذا التقصـير وهذا العجز، وانني أعتقد انه لكي نتمكن من ذلك «لابد لنا من تأمين السلام والحماية لبلادنا».

ولابــد إذن من اســتراتيجيــة عربيـة تحمي المنطقـة العـربيـة، وهـذه الاســتراتيجيـة يجب ان تقـدر الأخطـار وان تقـدر الـوسـائل الضـرورية اللازمة لمواجهة هذه الأخطار.

ولابـد أيضـاً من خلق «قيمـة دوليـة» لهذه المنطقة وهذه القيمة تأتي عن «نسبة القوة» في المجال الدولي، وأنا أقول ان هذه القوة يجب ألا تكون عدوانية، بل قوة بناء هدفها المحافظة على مواردنا وثرواتنا وإتاحة الفرصة لنا لنتلافى نواقصنا.

ليست هذه العملية سهلة، بل على العكس إنها تحتاج الى وقت وجهد كبيرين، وان القوة المسلحة من أهم عوامل نجاحنا في بناء وطننا.

رابعاً: الاعتداء الثلاثي:

لقـد فاجأتنـا حوادث الاعتـداء الثـلاثي قبـل ان نهضم تسليحنـا الجـديد، وكـان يلزمنـا لنهضـم هذه الأسـلحـة سنـة كاملة على الأقـل كما أعتقـد. وكـان أعـداؤ نـا يحسبـون هذا الحسـاب عندما بادرونا بالعدوان فكانوا يقولون: إننا لو تركنـا قوة مصـر تنمـو وتتكـامـل فإنهـا ستشكـل عقبـة كأداء في وجـه مصـالحنا الاستعمارية ولذا يجب ان ندمرها قبل ان تبلغ هذه المرحلة.

إلا انني أعتقـد اننـا ربحنـا المعـركة وانه الآن سيكون لدينا الوقت الكافي لاكمال بناء قوتنا، ولكي نعوض مافاتنا.

كان هدف الاعتداء الثلاثي هو السيطرة علينا ولكن العدو فشل في تحقيق هذا الهدف.

إن الحرب التي واجهناها خلال تسعة أو عشرة أيام ليست حرباً عسكرية بالمعنى الصحيح بل هي حرب عسكرية وسياسية والسياسة والحرب صنوان في هذه الأيام، وان السياسة والاستراتيجية أصبحتا تتماشيان مع بعضهما وتؤثران

تمام التأثير على بعضها، ولذلك علينا ان نستفيد من الدروس التي مرت علينا في هذه الحرب القصيرة.

- إنني على يقين من انه لايوجد حرب وقعت فعلاً كما رسمت خططها، كما لاتوجد حروب بدون خسائر، وأنا أعتبر أن العشرة أيام التي قاتلنا خلالها يجب ان تكون من جملة العوامل التي يبنى عليها أساس جيشنا، ولذا علينا ان نراعي دروسها وان نطبقها عند بناء جيشنا من جديد.

- إنني لاأعتبر ان معركتنا كانت عادية، لأن الوسائل كانت غير متكافئة، ولكن يجب ان نستفيد تماماً من نتائج هذه المعركة.

وأنا لاأعتقد ان القوات المصرية يمكنها ان تحارب عسكرياً جيوش فرنسا وبريطانيا واسرائيل مجتمعة وان تنتصر عليها، كما انني لاأصدق ان الحروب مهما كانت صغيرة ليس لها ارتباط بالوضع السياسي الدولي، ولهذا أقرر بأن العوامل السياسية في مثل معركتنا وفي كل حرب صغيرة ذات أهمية كبرى. ومع كل هذا فإنني أعتبر ان الحرب كانت معركة فاشلة بالنسبة لأعدائنا لأنهم لم يستطيعوا تحقيق أي هدف من أهدافهم التي كانوا يرمون اليها.

خامساً: الدروس العسكرية التي يجب ان نستفيد منها:

عندما نتكلم عن هذه الحرب القصيرة ونباشر بدراسة أخطائنا ونستخلص الدروس منها، يجب ان نلاحظ ناحية هامة ألا وهي وانا جميعاً ماهرون بالمحاضرات والمعلومات النظرية ولكن تلزمنا القدرة على التنفيذ، كما أحب ان ألفت نظر الجميع الى النواحي الآتية:

أ - ان الوقت الحاضر يختلف عن أيام الاحتلال ويجب على كل واحد منكم ان يشعر بهذا الوضع وان يعتبر نفسه عاملاً أساسياً في بناء هذا الوطن وأنه عنصر أساسي أيضاً في تحقيق الرسالة التي نعمل جميعاً لتحقيقها، وهذا الشعور يجب ان تشعر به جميع الرتب من القاعدة الى القمة.

ب - واني أعتقد أيضاً اننا سائرون بشكل لابأس به بالنسبة للمشاريع

وللتدريب والتسليح، ولكن هل برهنت حربنا الأخيرة على اننا كنا نسير في الطريق الصحيح. وأنا أعتقد إنه لايزال ينقصنا الكثير ويجب ان نعمل على تلافيه، وهناك كلام كثير يمكن أن يقال في هذا المجال ومعظمه موجود في الكتب ولكن المهم هو تطبيقه.

ج - أما أهم النقاط التي أريد ان أنبه الأنظار اليها هي:

١. - **العمل الجماعي**: وهو باعتقادي الأساس في الجيش لابل انه أهم عندي من الكفاءة الفردية لأن الكفاءة الفردية لاتكفي عندما يفقد التضامن.

٢ - **الثقة بين الرئيس والمرؤوس**: وأنا أقول هنا ان جنودنا طيبون «مش وحشين» وهم مستعدون ليضحوا ويموتوا وأن يفدوا رؤساءهم فيجب ان نثق بهم، وأعود فأقول ان هاتين النقطتين من أهم العوامل لبناء قواتنا المسلحة لكي تكون مجموعة متماسكة ومنسجمة يتكاتف فيها الضباط مع من دونهم ومع من هم أعلى رتبة منهم.

كما أقول بهذه المناسبة ان العدو كان يحاول ان يروج الشائعات عن قواتنا المصرية فيقول ان جنودنا لا يثقون بضباطهم كما لا يثقون بأنفسهم وبأهدافهم، ويجب أن نكافح هذه الشائعات وأن نبرهن بسلوكنا العملي على كذبها، لأن الحقيقة أظهرت لنا كثيراً من البطولات التي تفوق الوصف.

٣. - **الأمانة والدقة في نقل المعلومات**: لقد سمعت ان لوائين تحركا باتجاه معين قيل ان جنوداً مظليين هبطوا فيه وان الضابط الذي نقل هذه المعلومات أكد انه تراجع تحت ضغط العدو. وظهر فيما بعد انه لاصحة للخبر مطلقاً وان مصدره شخص مدني، وتناقله الجنود والضباط الى ان وصل الى القيادة. وهنا لابد لي ان أقول انني لاحظت خلال العمليات ان هناك تهويلاً ومبالغة في نقل المعلومات وأحذركم من هذه الناحية لأنها تؤثر على قرارات القيادة وبالتالي على نتيجة المعركة النهائية.

٤. - المبادهة: لقد لاحظت خلال العمليات ان الأسئلة التي تتوارد على القيادة كثيرة جداً ومعظمها بسيط لايحتاج الى اشغال القيادة به، وهذا يدل على ان القيادات التابعة كانت تحاول ان تسأل القيادة العامة في كل صغيرة

وكبيرة وهذا خطأ كبير يجب ألا نعود اليه بل يجب على كل قائد ان يستعمل بقدر الامكان بداهته ويتخذ القرارات المناسبة للموقف دون إضاعة الوقت.

٥ـ عدم معرفة العدو على حقيقته: وقد لاحظنا ان هناك صوراً مبالغ فيها عن قوة العدو وعن تدريب جنوده وأسلحتهم، ويجب أن لاننسى ان العسكري المصري لايقل كفاءة عن أي عسكري آخر في أحسن الجيوش.

وأعتقد ان من أهم واجباتكم هي القضاء على الصورة الضخمة عن العدو ومحوها من نفوس الجنود والضباط.

٦ـ التعاون بين الأسلحة المختلفة: يجب ان نعترف بأنه لابد من وجود أخطاء، ولكن يجب ألا نبالغ في هذه الأخطاء وان نحاول دفع المسؤولية عنا ونضعها على عاتق غيرنا، لأن ذلك دليل على عدم التضامن بين مختلف الأسلحة.

٧ـ الضبط والربط: وهما من أهم العوامل في القوة المسلحة، وأنا أذكر على سبيل المثال، انه خلال ذهابي الى الاسماعيلية أثناء العمليات الحربية، لاحظت عدداً من العربات المحترقة على جانبي الطريق ولم أستغرب ذلك لأنه أمر طبيعي نتيجة القصف الجوي الشديد، ولكن الذي استغربته هو وجود عدد كبير من العربات المتدهورة على جوانب الطريق، وأعتقد ان ذلك سببه ضعف الانضباط. يجب ان تعملوا على تقويته بين مختلف الرتب.

وفي النهاية فإنني أعتقد أن مهمتنا الأساسية هي خلق روح جماعية عالية في القوات المسلحة، وان نعود على الثقة بأنفسنا وبقادتنا وبجنودنا وبأسلحتنا وان نسعى لاستخدام هذه الأسلحة استخداماً سليماً وان نعرف عدونا دون مبالغة أو احتقار وان نُعَرِّف جنودنا على حقيقة هذا العدو، كما يجب ان نبين لجنودنا خطر هذا العدو عليهم وعلى عائلاتهم ووطنهم وعلى أجيالنا القادمة بهذا يمكننا خلق القوة التي تساعدنا على بناء مصر والوصول الى أهدافنا.

وأنا أعتبر اننا الآن أشبه «بالبولدوزر» الذي يستخدم في تمهيد الطريق، لأن الظروف قد وضعتنا لنتحمل الصدمات والعقبات الأولى، فنحن نمهد الطريق للأجيال القادمة.

أما انـا سنفشل وسنموت أثناء قيامنا بواجبنا فأعتقد ان هذه القضية بيد الله وحده والقدر، وكل انسان مرهون بمشيئته.

وختاماً أرجو ان نستفيد من تجارب هذه الحرب مهما كانت قصيرة وان نعمل متكاتفين ومتحدين لنبني قواتنا.

القاهرة في ١٩٥٧/٢/٤

العودة الى سورية وتعييني مديراً لهيئة التدريب في القيادة العامة:

في أوائل شهر آذار ١٩٥٧ أنهت القيادة العامة مهمتي في القيادة المشتركة بالقاهرة وعدت الى دمشق لأتسلم ادارة هيئة التدريب في الأركان العامة.

وكانت هذه الهيئة تختص بوضع الخطط والبرامج الفصلية والسنوية لتدريب مختلف صنوف الأسلحة وإصدار النشرات والكتب وافتتاح الدورات التدريبية للمجندين والجنود وضباط الصف والضباط وتشرف على التدريب في المدارس والكليات العسكرية.

ومما يذكر بهذه المناسبة ان الحكومة السورية تعاقدت في بداية عام ١٩٥٧ مع الحكومة السوفييتية على إرسال بعثة من الخبراء لتقديم العون للقوات المسلحة السورية للتدريب على الأسلحة الحديثة والمساهمة في تدريب الضباط السوريين من مختلف الرتب على الأسلحة السوفييتية وأساليب القتال حسب العقيدة العسكرية السوفييتية. واستناداً لهذه الاتفاقية أصبح الى جانب ادارة هيئة تدريب الجيش عدد من الخبراء السوفييت من مختلف صنوف الأسلحة يقدمون المشورة حول برامج التدريب الفنية والتعبوية للأفراد والوحدات والقيادات. وترتب على هذا التطور الجديد ضرورة اعداد المترجمين من اللغة الروسية للعربية وبالعكس، مع العلم انه لم يكن في سورية قبل هذا الوقت إلا عدد ضئيل لايتجاوز أصابع اليد من الأشخاص الذين يلمون باللغة الروسية

إلماماً سطحياً، الأمر الذي يزيد في صعوبة التعاون والتفاهم مع الخبراء ويبطىء حركة التدريب ولهذا، قمت بتنظيم عدة دورات لتعليم اللغة الروسية للضباط وضباط الصف، على ان يتفرغوا لمهمة الترجمة بالتعاون مع عدد من المستعربين السوفييت. فكان ذلك بداية لانتشار اللغة الروسية بين العسكريين في مختلف صنوف الأسلحة، ولم يمض عام ١٩٥٧ حتى تخرج عدد من دورات المترجمين السوريين وأمكن حل مشكلة التفاهم في حدود معقولة نوعاً ما، إلا ان هذه المشكلة ظلت عثرة هامة في وجه ترجمة الكتب والنشرات الفنية والتكنولوجية الكثيرة لمدة طويلة رغم الجهود التي بذلت من الجانب السوفييتي والسوري.

والحقيقة ان مهمتي الجديدة كانت تستأثر بكل طاقتي دون ان أتمكن من إيفائها حقها. ذلك اننا وجدنا أنفسنا فجأة في الجيش السوري أمام تحول شامل من التعامل مع الغرب في مجال التسليح والتدريب والعقيدة القتالية. الى التعامل مع الاتحاد السوفييتي فلم يكن لدينا أي مرجع باللغة العربية يمكن الاستفادة منه لحل هذه المشكلة الجوهرية المعقدة. وكانت تتكدس عندنا أكوام من الكتب والنشرات العلمية والفنية، مئات وآلاف من الصفحات المطبوعة مما تعجز أجهزتنا عن تعريبه ووضعه بين أيدي العناصر ذات العلاقة في مختلف الوحدات والصنوف. وفي هذه نشرت كتاباً عن «العقيدة العسكرية السوفييتية» وعن حرب الانصار».

الفصل الخامس

الوضع العام في البلاد العربية في مطلع عام ١٩٥٧

غير ان الجو العام الذي كان سائداً في سورية بعد العدوان الثلاثي على مصر وفشل المؤامرات التي حاكها حلف بغداد على سورية، أشاع في الجيش والشعب روحاً عالية طوال عام ١٩٥٧ جعلتنا نستهين بكل الصعوبات وشحنت الضباط وضباط الصف والأفراد في القوات المسلحة بمشاعر من الحماس والوطنية والعزم، سهلت على القيادة مهمتها، وأستطيع ان أؤكد اليوم ان مما أنجز في تلك الفترة الدقيقة الحاسمة من تاريخ سورية، وتاريخ القوات المسلحة بشكل خاص يمكن اعتباره في عداد الأيام الخالدة من تاريخ سورية الحديث.

وفي هذه الفترة بالذات كشفت المؤامرة التي أطلق عليها اسم مؤامرة «ستون» والتي سبق ان تعرضنا لها في مكان سابق. وعاشت القوات المسلحة طوال هذا العام في جو متوتر مرهق خاصة بعد الحشد التركي، والاجتماعات التآمرية التي عقدت في استانبول وبغداد باشراف مساعد وزير الخارجية الأمريكية «لوي هندرسون» وزاد في خطورة الوضع الانقلاب الذي وقع في

الأردن مع بداية عام ١٩٥٧ وإقالة حكومة سعيد النابلسي الوطنية وإبعاد اللواء علي أبو نوار وعدد من ضباط الجيش الأردني ولجوؤهم الى سورية، وقبول دولة لبنان برئاسة كميل شمعون المعونات الأمريكية على أساس «مبدأ ايزنهاور» أو مايسمى بـ «مبدأ الفراغ»، والمباشرة بتدريب بعض العناصر المخربة وإرسالهم الى سورية للإخلال بالأمن.

أهم أحداث سورية في عام ١٩٥٧ كما لخصتها بشكل سريع في مفكرتي الخاصة:

كانون الثاني:

- زار الرئيس شكري القوتلي المملكة العربية السعودية والهند وباكستان زيارات رسمية قوبل فيها بالترحيب الشديد نظراً لما للشعب السوري من مكانة عظمى لدى هذه الشعوب.
- وافقت سورية على تقديم المعونة المالية للأردن.
- قامت المظاهرات والدعوة لجمع التبرعات تأييداً للشعب الجزائري البطل وكفاحه المستميت في سبيل التحرر والاستقلال وتأكيد هويته الاسلامية العربية.

في شباط:

- اشترك الرئيس القوتلي في مؤتمر أقطاب الدول العربية المتحررة بالقاهرة.

في آذار:

- وافقت الحكومة السورية على التعاقد مع شركة تكنو اكسبورت التشيكية لانشاء المصفاة البترولية بعد العديد من المحاولات الاستعمارية لعرقلة المشروع الهام.
- وافق المجلس النيابي السوري بالاجماع على اتفاقية التضامن العربي بين سورية ومصر.

في نيـــان :

ـ طغت أنبـاء الانقـلاب الأمـريكي في الأردن على سـائـر الأنبـاء، وكان الشـعب الســوري يتـابـع باهتـمام كـبير تطـورات الأحـداث ويراقب عن كثب المؤامـرة على الشـعب الأردني المنـاضـل. وقد احتفل الشـعب الســوري بصـمت بذكـرى اغتيـال البطـل الـوطني العقيـد عدنان المالكي ونقل جثمانه الطاهر الى ضريحـه الـدائم باحتفـال مهيـب وكـان ذلـك بمثـابة تظاهرة جماهيرية عبّر فيها الشـعب عن تصـميمه على مقاومة الضغوط والمؤامرات الامبريالية الصـهيونية.

في أيار :

ـ تكـاثـرت الاعتداءات اليهودية على الحدود الســورية لتغطية الانقلاب الأمـريكي في الأردن وطلبت سـوريـة عقـد جلســة فوريـة لمجلس الأمن لبحث موضـوع التحرشـات الاسـرائيلية.

ـ تبادلت الحكومة الســورية مع حكومة الصين الشـعبـية وثائق إبرام اتفاقية التعاون الثقافي الموقعة بين البلدين.

ـ طلبت حكومة الأردن الجديدة سـحب المجموعة الســورية العسـكرية من الأردن.

ـ أوضـح ناطق عســكـري سـوري ملابســات سـحب القوات الســورية من الأردن بعد مضـايقات الحكومة الأردنية لها.

في حزيران :

ـ نظمـت الجـماهـير اللبنـانيـة مظـاهـرات واسعـة لإدانـة مبـدأ ايـزنهاور واسـتنكـرت قرار الحكـومـة اللبـنانية بقبول الانضـمام إليه وموافقتها على اسـتيراد شـحنات تافهة من الأسـلحة الى لبنان.

ـ وقعت اتفاقية ثقافية بين سـورية وتشـيكوسلوفاكيا.

في تموز:

- كان أهم أحداث الشهر هو عقد مؤتمر المحامين العرب في دمشق والذي انبثقت عنه مقررات في غاية من الأهمية تتعلق بإدانة المؤامرات على سورية.

- ألغيت الادارة العرفية في سورية باستثناء قضائي القنيطرة والزاوية (منطقة الجبهة السورية الاسرائيلية).

في آب:

- اكتشفت السلطات العسكرية السورية مؤامرة أمريكية لقلب نظام الحكم الديمقراطي في سورية كان على رأسها الزعيم أديب الشيشكلي والعقيد ابراهيم الحسيني واغتيال الشخصيات الوطنية والعسكرية تمهيداً لتغيير اتجاه السياسة السورية التحررية.

- أبعدت الحكومة السورية ثلاثة موظفين أمريكيين اشتركوا في إعداد المؤامرة المذكورة لقلب نظام الحكم.

- وافق الاتحاد السوفييتي على إسداء المعونة الاقتصادية لسورية واستقبل خالد العظم رئيس وفد المفاوضات لدى عودته من موسكو استقبالاً رائعاً.

- طلبت أمريكا سحب السفير السوري من واشنطن مع أحد كبار الموظفين رداً على طرد الدبلوماسيين الأمريكيين المشتركين بالمؤامرة.

- عين اللواء عفيف البزري رئيساً للأركان العامة بعد إعفاء اللواء نظام الدين من هذا المنصب.

- كما أعيد تنظيم رئاسة الأركان على الشكل التالي:

اللواء عفيف البزرة رئيساً للأركان العامة وقائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة.

اللواء الركن أمين النفوري معاون رئيس الأركان العامة.

المقدم الركن عبد الحميد السراج رئيساً للشعبة الثانية المخابرات العامة.

المقدم الركن مصطفى حمدون رئيساً للشعبة الأولى.

المقدم الركن أحمد عبد الكريم رئيساً للشعبة الثالثة ـ العمليات.

ـ كما قرر مجلس القيادة تكليف هؤلاء الضباط تمثيل القوات المسلحة في الاجتماعات الرسمية التي يدعو اليها السيد رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء آنذاك، فيما يتعلق بالأمور الخاصة بالأمن والدفاع عن البلاد.

ـ رفض الملحق العسكري في روما ابراهيم الحسيني العودة الى دمشق إثر طلبه من قبل وزارة الدفاع للتحقيق معه حول اشتراكه في المؤامرة الأمريكية، مع أديب الشيشكلي، والتجأ الى ايطاليا ثم الى تركيا.

في أيلول:

ـ أعلن الشعب السوري غضبته على أعمال البريطانيين الوحشية في عمان وعلى الغارات الجوية البربرية للطائرات على الآمنين.

ـ أذيع بلاغ مشترك في دمشق وموسكو عن الاتفاقية السورية السوفيتية للمعونة الاقتصادية لسورية.

ـ طاف لوي هندرسون مبعوث أمريكا للشرق الأوسط البلدان المرتبطة بحلف بغداد وعقد مؤتمراً في استنبول للتآمر على سورية بعد اكتشاف المؤامرة الأمريكية وعاد ليبحث مع المسؤولين في واشنطن نتائج تنقلاته وأبحاثه (يرجى الرجوع للوثيقة الخاصة بهذه المؤامرة)

ـ قام اللواء عفيف البزري بزيارة الى القاهرة بتكليف من الحكومة السورية وبحث مع المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقيادة المشتركة ثم الرئيس عبد الناصر الوضع على الحدود السورية التركية والحشود والتهديدات وامكانيات التعاون بين مصر وسورية في حالة أي اعتداء محتمل.

ـ حذر المارشال بولغانين تركيا من مغبة الاعتداء على سورية واتهم أمريكا بالتواطؤ مع تركيا وتشجيعها على العدوان كما حذر شو آن لاي رئيس وزراء الصين الشعبية أمريكا من مغبة سياستها العدوانية وأعلن تأييد الصين الشعبية لسورية.

ـ وصل دمشق وفد اقتصادي سوفييتي لبحث تفاصيل المعونة السوفيتية والاطلاع على المشاريع السورية الانهائية المنوي القيام بها.

ـ قام جلالة الملك سعود بزيارة غير رسمية لسورية وأبدى استعداد المملكة للوقوف الى جانب سورية ضد أي عدوان أجنبي.

في تشرين الأول:

ـ قدمت سورية شكواها ضد تركيا[1] بسبب التهديدات العدوانية التي صدرت عن السلطات الرسمية العليا والقوات العسكرية الضخمة التي حشدتها على الحدود السورية مباشرة للأمم المتحدة وسافر الاستاذ صلاح البيطار وزير الخارجية السورية الى نيويورك لمتابعة هذه الشكوى والتحذير من النوايا العدوانية التركية ضد سورية.

ـ وجه نيكيتاخروشوف رئيس الاتحاد السوفييتي تحذيراً للغرب من التدخل في شؤون سورية الداخلية وحذر تركيا من مغبة التورط بالعدوان على سورية.

ـ وصلت وحدات مصرية رمزية مضادة للطائرات إلى سورية وأخذت مواقعها المعينة الى جانب القوات السورية.

ـ انتخب الأستاذ أكرم الحوراني لرئاسة مجلس النواب السوري.

ـ قرر مجلس الجامعة العربية بالاجماع تأييد سورية والوقوف الى جانبها في حالة العدوان عليها.

في تشرين الثاني:

ـ افتتح أسبوع تحصين العاصمة دمشق بمظاهر الحماسة البالغة، وتم مثل هذا النشاط في سائر المدن السورية بهدف تعبئة الجماهير لمواجهة كل الاحتمالات وقد وزعت على المواطنين في أنحاء سورية عشرات الألاف من الأسلحة الفردية.

ـ وعقد في دمشق مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين وصدرت عنه مقررات هامة لدعم سورية.

- عدلت اتفاقيتا التجارة والدفاع بين سورية ومصر بشكل يشجع على زيادة التبادل بين البلدين .

- وصل الى دمشق وفد مجلس الأمة المصري بزيارة رسمية برئاسة أنور السادات وعقد اجتماع مشترك بين المجلسين السوري والمصري أوصى فيه بالشروع في مباحثات للوحدة بين القطرين وقد استقبل الوفد استقبالات حماسية رائعة في جميع المحافظات السورية عبّرت فيها الجماهير عن رغبتها في اقامة الوحدة بين مصر وسورية فكانت الزيارة مناسبة أظهرت إيمان الجماهير في سورية بالوحدة العربية .

في كانون الأول :

- احتفلت سورية مع مصر الشقيقة بمناسبة عيد النصر في ٢٣ من هذا الشهر .

- شكل الوفد السوري لمؤتمر التضامن الآسيوي الافريقي من مختلف الأحزاب والهيئات البرلمانية .

هوامش الجزء الرابع

(١): في حديث مع السيد الكسندر سنغيناتي من الحزب الديغولي، وسكرتير دولة سابق لوزارة الدفاع الفرنسية، قال لي تعليقاً على الحروب العربية الاسرائيلية، أن امريكا كانت تغلق قنال السويس وتعطي مفتاحها لاسرائيل للضغط على اوربا، التي اضطرت للتموين بالبترول عن طريق رأس الرجال الصالح.

الجزء الخامس

الوحدة بين سورية ومصر

الفصل الأول

الوضع العام في المنطقة ١٩٥٧

كان عام ١٩٥٧ عام الحساب بالنسبة لسورية، وأصبحت كل الدلائل تشير الى انها على عتبة منعطف حاسم في تاريخها منذ الاستقلال.

كانت سورية أول دولة عربية ترفض مشاريع الاستيطان للاجئين منذ عام ١٩٤٨ وجرت وراءها بعض الدول العربية كما رفضت مشروعي «كلاب»، و«جونسون» لتقاسم مياه نهر الأردن بين العرب واسرائيل واستمرت على مقاومة المشروع الاسرائيلي لتحويل مياه النهر حتى قيام الوحدة عام ١٩٥٨.

ورفضت سورية منذ الاستقلال مشروع سورية الكبرى ومشروع الهلال الخصيب وكل المحاولات المباشرة وغير المباشرة لاحلال النفوذ البريطاني بدل النفوذ الفرنسي متستراً بالوحدة مع العرش الهاشمي في الأردن والعراق، ورفضت مشروع العون الاقتصادي الأمريكي أومايسمى «بالنقطة الرابعة» كما رفضت مشاريع الأحلاف التي أرادت بريطانيا والولات المتحدة فرضها على

العرب منذ بداية الخمسينات كمشروع الدفاع عن الشرق الأوسط وميثاق حلف بغداد، والحلف الاسلامي وأخيراً لاآخراً مبدأ ايزنهاور (أوما يسمى بمبدأ إملاء الفراغ) الذي أطلقته الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب السويس وانسحاب بريطانيا من منطقة شرقي السويس.

كانت سورية منذ بداية الاستقلال تقاوم كل هذه المحاولات الرامية لاحتوائها وإخضاعها للهيمنة الاستعمارية ولم تجد جميع الضغوط بل والانقلابات العسكرية المتكررة لجرها أو زحلقتها الى هذا الموقع، وكلفها ذلك الكثير من المتاعب والنزف الاقتصادي وتعرض نظامها الديمقراطي الى زلازل متتالية من جراء الانقلابات العسكرية والمؤامرات ولكن وعي الشعب ومتانة الوحدة الوطنية كانتا الملاذ والصخرة التي تحطمت عليها كل هذه الهجمات.

وكان الغرب في تشبثه بفرض نفوذه على المنطقة وسعيه لتطويق الكتلة الاشتراكية والحد من توسع النفوذ السوفييتي يرى في حرص الشعب السوري على استقلاله وعلى نظامه الجمهوري الديمقراطي واستقلاله الوطني، انحيازاً للكتلة الاشتراكية ولم تجد كل الوسائل الشريفة التي سلكتها جميع الحكومات والأحزاب لاقناع الغرب وخاصة أمريكا بأن الشعب السوري لايكن العداء ولايقبل استبدال نفوذ أوروبا الغربية وأمريكا بنفوذ الاتحاد السوفييتي، أو غيره وان هدفه من سياسته الخارجية الوقوف على مسافة متساوية من الكتلتين المتصارعتين والسعي لاقامة علاقات ودية ونافعة مع جميع دول العالم وان يعيش بسلام وينصرف لحل مشاكله الداخلية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تراكمت خلال قرون من الاحتلال الأجنبي والتخلف.

وأظهرت الأيام كما برهنت الأحداث المحلية والعربية والدولية، ان هذه السياسة لاتخلو من السذاجة، فالاستعمار لايقنع بالمنطق السليم ولايقيم وزناً للمشاعر الوطنية والنوايا النزيهة، ولايهتم إلاّ بمصالحه الاقتصادية والاستراتيجية ويقيس كل ذلك بمقاييس هذه المصالح الدقيقة، ومن جانب واحد، فاذا لم تتطابق مع خططه وأهدافه اعتبرها خطراً وتهديداً له، والمبدأ الذي يتعامل على أساسه مع بلدان ماسمي بالعالم الثالث هو «من ليس تابعاً أميناً لنا فهو عدو

لنا . . ومن لايقبل رأينا ووجهات نظرنا في شؤونه الداخلية والخارجية دون نقاش فهو يصغي لأراء خصومنا . . . ومن لايقبل حلولنا للمشاكل المحلية والدولية فإنه يفضل حلول الآخرين أما من يرفض نفوذنا ومعاداة من يعادينا ولا يضع مصالحنا فوق مصالح بلاده فإنه يقف في خندق عدونا ويعامل من قبلنا على هذا الأساس» .

إن جوهر سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط ، كانت ولاتزال تقوم على الانحياز الكلي لاسرائيل وتتجاهل تاريخ ومصالح شعوب المنطقة ، ولاتهتم اطلاقاً بتطلعاتها ورغبتها بإقامة علاقات مبنية على الاحترام والمنفعة المتبادلة تمكنهم من حل مشاكلهم وتحسين مستوى معيشتهم التي عانوا منها خلال قرون الظلام والاحتلال الأجنبي .

الفصل الثاني

تسارع الاتجاه نحو الوحدة مع مصر

والحقيقة التي لابد من الاعتراف بها هي ان افتقار القوى السياسية في سورية للتجربة في العلاقات الاقليمية والدولية وعدم استيعابها للصراعات الدولية ولطبيعة العلاقات في هذا العصر، بالاضافة الى إهمالها لصيانة وتمتين الوحدة الوطنية والحرص الدائم على الحوار فيما بينها، بصرف النظر عن الاختلاف بالرأي وعدم الاجماع بين الأحزاب على الحدود الدنيا من الأسس المتبعة في السياسة الداخلية والعلاقات العربية . . كل ذلك سهل مهمة الامبريالية وآلتها الأساسية في المنطقة اسرائيل. وأدى كما رأينا الى المزاودة والدخول في صراعات مميتة مع السلطة ذهب ضحيتها الكثيرين من العناصر الوطنية الشريفة وبالتالي الى فقدان الثقة بين الأحزاب وانعكس ذلك أكثر من مرة على القوات المسلحة والى زجها في الصراع بين الأحزاب والمزاودات الرخيصة . .

لقد خيل للغالبية العظمى من القوى السياسية والرأي العام في سورية ان هزيمة حلف بغداد واحباط المؤامرات الداخلية، وأخيراً فشل العدوان

الثلاثي على مصر، كانت انتصاراً نهائياً على الاستعمار القديم والحديث وان الطريق أصبحت معبدة للانتقال الى مرحلة نوعية متقدمة طالما دغدغت أحلام الشعب العربي عامة والشعب في سورية بشكل خاص، الا وهي الوحدة العربية، خاصة وقد هيأت الظروف في مصر الى تطابق في سياسة الثورة بزعامة عبد الناصر مع سياسة النظام الديمقراطي البرلماني في سورية.

لذلك وعندما أبدت مصر الثورة بزعامة عبد الناصر رغبتها بتطوير علاقاتها وتعاونها مع سورية الى نوع من الاتحاد أو الوحدة، هللت الغالبية العظمى من الشعب السوري لهذه الرغبة، وأخذت معظم الأحزاب والنقابات والقوى السياسية توجه سياستها لتحقيق هذه الأمنية، وطبيعي ألا تشذ القوات المسلحة عن السير في هذا التيار الجارف.

في هذا الجو الطافح بالآمال والمشاعر الجياشة التي سيطرت على الجماهير لدرجة الهذيان خاصة بعد اشتداد الحصار على سورية عربياً ودولياً أصبح تيار الوحدة مع مصر من القوة بحيث لم يعد بمقدور أية قوة احتواءه وتوجيهه من أجل بناء وحدة مدروسة قابلة للحياة والتطور. . .

في هذه الفترة وفي جو الخوف من مجابهة مسلحة جديدة مع اسرائيل وبلدان حلف بغداد وخاصة تركيا بالاضافة الى الوضع الذي نشأ بعد انقلاب الأردن وإقالة وزارتها الوطنية الائتلافية وتحويل لبنان الى بؤرة للتآمر والتحرش بسورية بقيادة الرئيس كميل شمعون، في هذا الجو اضطرت سورية لاتخاذ سلسلة من التدابير الأمنية عشية الكشف عن المؤامرات لمواجهة كل الاحتمالات واعداد الرأي العام لحرب شعبية لاخيار لها فيها.

ومنذ ذلك الوقت ساد البلاد موجة من التوتر النفسي لم تشهدها منذ معركة الاستقلال عام ١٩٤٥ وأخذت تسير الأمور بسرعة نحو الوحدة مع مصر كرد طبيعي في مستوى الأحداث والتحديات. وتسابقت معظم الأحزاب لتؤكد للرئيس عبد الناصر بأنها أكثر من غيرها حماساً للوحدة مع مصر ظناً منها بأنها ستنال المكافأة على مواقفها على حساب بقية الأطراف.

وبالرغم من هذا الجو الجماهيري العاطفي أبدى عدد من السياسيين

بعض التحفظات على فكرة الوحدة الاندماجية مع مصر، وحذروا من التفريط بالديمقراطية وبدور سورية التاريخي. كما تدارس مجلس القيادة في القوات المسلحة هذه القضية القومية الدقيقة أكثر من مرة واقترح تشكيل لجنة غير رسمية من بعض رجال السياسة والفكر لدراسة موضوع الوحدة ووضع مشروع يعرض على الرأي العام والمنظمات السياسية. . .

في غمار هذه الأحداث المتلاحقة، وفي خضم التهديدات الأجنبية، اشتدت المزاودات على الوحدة، وأصبح الشارع في حالة أقرب ماتكون الى الهياج، ولم يعد الجو ملائماً للنقاش الموضوعي الهادىء، فكل من يتجرأ على التفكير بشروط الوحدة يمكن ان يعرض نفسه للاتهام بمعاداتها لصالح القوى الأجنبية. وعندما بحثنا الموضوع في رئاسة الأركان توصلنا الى تشكيل لجنة من بعض الشخصيات السياسية والجامعية المعروفة بإيمانها بالوحدة لوضع الخطوط العريضة التي يمكن الاسترشاد بها عند بحثها في اطار الجهات العليا في سورية ليكون هناك أفكار واضحة للنقاش وبالفعل تم تشكيل اللجنة على الشكل التالي على ان تجتمع في رئاسة الأركان في شعبة العمليات:

الدكتور جمال الأتاسي ـ الأستاذ عبد الكريم زهور ـ الدكتور عبد الله عبد الدايم ـ الأستاذ رياض المالكي ـ الأستاذ نخلة كلاس ـ الدكتور عياد ـ المقدم الركن أحمد عبد الكريم.

عقدت اللجنة اجتماعها الأول في رئاسة الأركان ـ شعبة العمليات. وفي الربع الأخير من عام ١٩٥٧، ولكنها انفرطت فجأة ولم يعد أعضاؤها يلبون الدعوة للاجتماع ذلك ان التطورات أخذت تسير بسرعة مذهلة وان الجماهير في الشارع أصبحت تنادي بالوحدة الفورية مع مصر وأخذت الأحزاب والمنظمات السياسية تتنافس بالدعوة للوحدة بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر دون قيد أو شرط.

في هذا الوقت كانت سورية تستعد لاجراء الانتخابات البلدية في الربع الأول من عام ١٩٥٨ واجراء انتخابات تشريعية في بحر ذلك العام نظراً لانتهاء مدة المجلس النيابي الحالي، ونظراً لفقدان الحوار بين الأحزاب الرئيسية وخاصة حزب الشعب، والحزب الوطني وحزب البعث العربي الاشتراكي، والخوف من ان

الانتخابات ـ البلدية والتشريعية ـ لن تحقق مايرجوه كل حزب منها، فحزب الشعب رغم قناعته بأنه سيحصل على الأكثرية إلا انه لن يستفيد منها بسبب انحياز القوات المسلحة لحزب البعث، والحزب الوطني بسبب انقساماته الداخلية، وحزب البعث الذي رغم كل مايحظى به من دعم عسكري إلا انه لايمكن ان يغير التوازن في مجالس البلديات والبرلمان المقبل لصالحه، ولن يؤثر على أصوات الناخبين في دمشق وحلب ومعظم عواصم المحافظات.. هذا بالاضافة الى ان اعتقال ومحاكمة عدد من نواب حزبي الشعب والوطني والمستقلين واتهامهم بالتآمر، أحدث شرخاً هائلاً بين القوى الوطنية، وسيطر على الأحزاب المعتدلة اليأس من العودة لحياة ديمقراطية معقولة والتخلص من هيمنة الجيش وحزب البعث على الحياة السياسية، مما يخلق الظروف الملائمة للحزب الشيوعي والاستفادة من دعم الاتحاد السوفيتي لسورية. ولهذا وجدت الغالبية من رجال السياسة ان الوحدة يمكن ان تكون سبيلاً للنجاة وبشكل خاص التخلص دفعة واحدة من العسكريين ومن تسلط حزب البعث والشيوعيين حتى ولو كانوا بين ضحاياها.. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى تتعلق بإيمان الشعب بالوحدة والسعي لتعديل التوازن بين العرب واسرائيل والوقوف بوجه التهديدات التركية.. أخذت الأمور مساراً جديداً وأصبح هدف المنظمات السياسية هو انجاز الوحدة مع مصر بأسرع مايمكن خاصة وأن أياً منها لم يعد يضمن الحصول على الأكثرية في الانتخابات البلدية أو البرلمانية.

الخلاصة

لقد تلقى الحزب الوطني وحزب الشعب وبعض النواب المستقلين ضربة قاسية بسبب الاعتقالات والمحاكمات التي جرت بحق عدد من السياسيين البارزين هدفها التخلص من هيمنة حزب البعث وتدخل العسكريين بالسياسة الداخلية والخارجية، أما حزب البعث العربي الاشتراكي فلم يكن مطمئناً للانتخابات البلدية ومنافسة الأحزاب الأخرى في الانتخابات التشريعية المقبلة بنفس العام بما في ذلك الحزب الشيوعي. ولهذا أصبحت الغالبية من أعضاء البرلمان تجد بالوحدة تحرراً من مسؤولياتها في ظروف خطيرة بلغ الصراع على

سورية ذروته بين العملاقين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة ولم يعد هناك مجال للتفكير في أي مشروع داخلي، وانحصر نشاط الحكومة والبرلمان والأحزاب والنقابات والجيش في الاعداد لهذا الحدث التاريخي.

كان أشد القوى السياسية حماساً لفكرة الوحدة غير المشروطة مع مصر هو «حزب البعث العربي الاشتراكي» وانعكس ذلك على موقف أعضاء مجلس القيادة من الضباط الحزبيين. وقد تجلى ذلك بوضوح ملموس عندما ناقش المجلس فكرة المذكرة التي تقرر إرسالها للحكومة السورية وللرئيس عبد الناصر لابداء وجهة نظر القوات المسلحة بشكل الوحدة المطلوبة.

وعلى أثر اعلان خبر المذكرة وذهاب الوفد العسكري للقاهرة قامت الدنيا في سورية ومصر والعالم العربي ولم تقعد الى ان أعلن عن قيام «الجمهورية العربية المتحدة» في ٢١ شباط ١٩٥٨. فهللت الجماهير العربية لهذا الحدث العظيم ورحبت بهذه الوحدة وبزعامة الرئيس عبد الناصر واعتبرتها بداية لمرحلة تاريخية هامة بالنسبة للأمة العربية كلها من الخليج الى المحيط.

كانت الوحدة بالفعل حدثاً يشبه الزلزال الذي قلب الموازين في المنطقة وفجر القوى المكبوتة في الجماهير العربية، فسقط على اثرها النظام الملكي في العراق، وتحركت الجماهير في لبنان تؤيد وتصدع النظام في الأردن حتى كاد يسقط... واضطرت أمريكا وبريطانيا لانزال قواتها في لبنان والأردن لاحتواء هذه الفورة الجماهيرية... وخشي الكثير من الأنظمة العربية من مصير النظام العراقي فوقفت موقف العداء من الجمهورية العربية المتحدة... وأصبحت أسطورة الرئيس عبد الناصر بمثابة «البعبع» المخيف... لهذه الأنظمة، غير ان الوحدة.. بعد قيامها أخذت طريقاً آخر غير الطريق الذي كان منتظراً، على الأقل عند الرأي العام في سورية والقوى التقدمية الوحدوية، فلم يمض إلا شهر على قيامها حتى بدىء بتصفية الضباط الوحدويين والتقدميين من القوات المسلحة وتسريحهم وتشريدهم واضطهاد القوى اليسارية.

ولم ينته أول عام من الوحدة حتى تم تسريح معظم ضباط حزب البعث من الجيش وتم الاجهاز على العناصر القيادية لهذا الحزب فلاقى مصير الحزب

الشيوعي . . . وصفيت بقية الأحزاب الأخرى باعتبارها أحزاباً يمينية غير مخلصة للوحدة ولم يفق الناس من سكرة الوحدة حتى ظهر وكان المقصود أساساً من الوحدة هو تطهير سورية من «مرض اليسار» والنفوذ السوفييتي وان الغاية من امتداد النفوذ المصري الى سورية تحت شعار الوحدة ليس سوى «املاء الفراغ» الذي أعلنه ايزنهاور ورفضته سورية صراحة وناورت حوله الحكومة المصرية.

بدأ العام الثاني للوحدة بعزل جميع القيادات السورية التاريخية وتنظيف البلد من الأحزاب والمنظمات النقابية، وأقيم بدلاً عنها «الاتحاد القومي» والمنظمات النقابية الرسمية التي أفرغت من محتواها المهني والاجتماعي والسياسي.

وسيطر على الرأي العام في سورية نوع من خيبة الأمل وحلت الشكوك محل الايمان المطلق بقيادة الجمهورية العربية المتحدة والرئيس عبد الناصر. . . وعندما كان الناس يناقشون فكرة التوازن الاستراتيجي والعسكري مع اسرائيل، بعد قيام هذه الوحدة، لم يكن يظهر لهم بشكل ملموس ميل هذا التوازن لصالح العرب. وظهرت الكثير من المؤشرات التي تدل على ان حكومة الجمهورية تسير نحو. . . الاعتراف بالأمر الواقع . . . وقبول التسوية السياسية مع اسرائيل . . . أو هكذا كان الانطباع لدى الرأي العام والأوساط السياسية في سورية . .

كل ذلك ساعد على خلق الجو الذي مهد لنجاح انقلاب ٢٨ / أيلول ١٩٦١ وقيام ماسمي بنظام الانفصال.

ومن المؤسف حقاً بهذه المناسبة انه لم يجر حتى الآن تحليل العوامل الموضوعية التي أدت الى قيام الوحدة بين مصر وسورية بالسرعة التي أتينا على ذكرها. وبالظروف العربية والدولية المعروفة، كما لم تجر أية مناقشة صريحة ومفتوحة للعوامل التي أدت الى سقوط هذه الوحدة على يد ماسمي «بقوى الانفصال» رغم هزال هذه القوى.

وفي اعتقادي شخصياً وأرجو ان أكون مخطئاً، أن كل ماكتب أوقيل حتى الآن في الصحافة العربية وأجهزة الاعلام بل وفي بعض الأوساط السياسية لم

يعط للجماهير الواعية التحليل الموضوعي والمبررات النزيهة المبرأة عن الأعراض الرخيصة والجواب الصحيح على أسباب قيام الوحدة وأسباب سقوطها وأسارع للاعتراف بأنني رغم قناعتي بذلك، فإنني أعجز عن وضع مثل هذا التحليل ولكني أطالب مع الكثيرين من المواطنين في سورية ومصر، وفي جميع الأقطار العربية ونشرها الى الرأي العام في البلدان العربية للاطلاع عليها وإبداء الرأي بها والاستفادة من هذه التجربة التاريخية الهامة لإقامة أسس ثابتة للتضامن والتكامل بين الأقطار العربية على أساس الثقة المخلصة والمصالح المشتركة والتوجه بخطى وئيدة وثابتة نحو صيغة عقلانية مقبولة من الاتحاد الفيدرالي الكونفيدرالي الذي ترضى عنه غالبية الشعب ولاتقف في وجهه الأنظمة المختلفة أو لأنه السبيل الى تطور وتقدم بل وبقاء هذه المجموعة العربية ومواجهاتها تحديات الحاضر والمستقبل، ولكي تبقى «فكرة الوحدة العربية» منزهة عن المناورات والمزايدات بين الأحزاب والأنظمة، وبعيدة عن المخططات الأجنبية ووسيلة لالهاء الشعوب وتبرير بعض المشاريع التي لاتخدم المصالح القومية العليا. ان. العالم يتجه بسرعة منذ أحداث أوروبا الشرقية في نهاية عام ١٩٨٩ وحرب الخليج التي أريد منها قيام نظام عالمي جديد يُعيد النظر بجميع العلاقات الدولية القائمة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ويتجاهل كل ماحققته الحركات التحررية في العالم خلال القرن العشرين ويمنع بالقوة أي دور ايجابي للأمة العربية في نهاية هذا القرن ومَطْلع القرن القادم الذي نقف الآن على عتبته، وإعادتها الى السيطرة الأجنبية المباشرة، بالاشتراك هذه المرة مع اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية.

وسوف أروي فيما يلي قصة اجتماع مجلس القيادة في رئاسة الأركان الذي نتج عنه صياغة المذكرة التاريخية المشهورة التي قدمت للرئيس عبد الناصر وشكري القوتلي حول الوحدة بين القطرين:

عاد الى دمشق الأستاذ صلاح الدين البيطار، وزير الخارجية، من نيويورك عن طريق القاهرة، بعد تقديم شكوى سورية، للأمم المتحدة حول التهديد التركي والحشود على الحدود التركية ـ السورية.

وفي عصر ذلك اليوم اتصل بي هاتفياً إلى رئاسة الأركان وطلب مني مقابلته في مكتبه بوزارة الخارجية الواقع الى جانب قصر الضيافة ـ شارع أبو رمانة، وقال لي انه التقى بالرئيس جمال عبد الناصر أثناء مروره من القاهرة وبحث معه الأجواء في الأمم المتحدة، وقضية الوحدة السورية ـ المصرية، فأبلغه الرئيس عبد الناصر ان جميع الأحزاب والمنظمات في سورية أكدت له رغبتها بالوحدة مباشرة أو عن طريق السفير محمود رياض في دمشق، ولكنه لم يتلق شيئاً رسمياً عن موقف القوات المسلحة السورية، وان لديه معلومات تقول بأن هناك فئة من ضباط الجيش السوري تعارض الوحدة، لذلك لايمكنه ان يقبل باجماع البرلمان والمنظمات على قيام الوحدة إلا إذا ضمن موقف الجيش السوري الصريح من هذه الوحدة. .

وختم السيد البيطار حديثه لي بقوله: لقد أصبح موضوع الوحدة متوقفاً، عليكم في قيادة الجيش وعليكم ان تبدوا رأيكم بهذا الموضوع التاريخي الذي أجمع عليه الشعب في سورية.

عدت الى رئاسة الأركان بعد هذه المقابلة الهامة، وأبلغت رئيس الأركان اللواء عفيف البزرة ومعاونه اللواء أمين النفوري ورئيس شعبة المخابرات العقيد عبد الحميد السراج، ورئيس الشعبة الأولى المقدم مصطفى حمدون، فتقرر دعوة لجنة مجلس القيادة للاجتماع في مكتب رئيس الأركان في الساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه.

عقد الاجتماع في الموعد المحدد بحضور كامل أعضائه باستثناء المقدم ابراهيم فرهود الذي كان بمهمة في الاتحاد السوفييتي لاستلام بعض الأسلحة وأبلغت اليه الرسالة التي نقلها السيد صلاح البيطار من الرئيس جمال عبد الناصر.

وبعد النقاش الطويل تم الاجماع عن أن الغاية من هذه الرسالة يمكن ان تكون:

١ ـ رغبة عبد الناصر بالفعل بمعرفة حقيقة موقف الجيش السوري بعملية الوحدة ومدى دعمه لها.

٢ ـ واما ان يكون بعض السياسيين وخاصة قيادة حزب البعث تريد التأكد من اجماع القوات المسلحة على الوحدة حسب الشروط التي يصر عليها الرئيس عبد الناصر.

٣ ـ في كلنا الحالتين اذا كانت قيادة الجيش موافقة على الوحدة دون قيد أو شرط، يمكن ان تلقى المسؤولية في المستقبل عليها، واذا تحفظت وترتب على ذلك تأخير أو إعاقة الوحدة، يمكن في هذه الحالة أيضاً إلقاء المسؤولية تاريخياً وأمام الرأي العام على الجيش.

ولهذا أصرت الغالبية على وضع مذكرة تؤكد موافقة المجلس على الوحدة والاندماج دون قيد أو شرط (بلد واحد، رئيس واحد «هو عبد الناصر»، علم واحد، جيش واحد، وبدون أحزاب . . »، وعندما قلت شخصياً ان الموضوع خطير وليس عبارة عن حل كتيبتين من المشاة وتشكيل لواء، وانما القضية توحيد بلدين وشعبين لهما ظروف موضوعية مختلفة والنظامان القائمان في كل منهما مختلفان، نهض المقدم أمين الحافظ وقال بلهجة عامية عنيفة: «يللي بدو يحط شروط على عبد الناصر ماخلق . . والمسألة بين مصر وسورية عبارة عن حيط وهديناه».

وأدى هذا الكلام الى توتر ومشادة لأنه يدل على حماس وإخلاص بعض الزملاء للوحدة، وان ذلك نوع من المزاودة لامكان لها. ثم استؤنف النقاش وتم التصويت على المبادىء الرئيسية بالاجماع، وكلفت والمرحوم أمين النفوري بوضع نص المذكرة . . فقمنا الى غرفة مجاورة، ووضعنا النص الكامل وعرضناه على اللجنة فوافقت عليه، ولم يضف عليه سوى جملة واحدة اقترحها الزميل المقدم ياسين فرجاني وهو: العزة والمجد للأمة العربية.

وبعد ذلك تقرر استدعاء الملحق العسكري المصري وتكليف فئة من مجلس القيادة للذهاب معه بطائرة خاصة الى مصر لعرض المذكرة على الرئيس عبد الناصر، كما كلفت مع اللواء أمين النفوري والعقيد عبد الحميد السراج لتقديم نسخة عن المذكرة للرئيس شكري القوتلي ولرئيس الوزراء السيد خالد العظم بنفس اليوم.

وهكـذا كان . . وكان الشعور السـائد في لجنة القيادة انها برأت ذمتها أمام الشعب والتاريخ وتتحمل كل مايترتب على ذلك من مسؤوليات ، وأن أعضاءها سيكونون فخورين بشرف إقدامهم على هذه الخطوة التاريخية مهما وجهت اليهم من انتقادات .

الجـزء الســادس

الفصل الأول

نـافــذة على الانفصـــال

منـذ اليـوم الأول لاعـلان الوحدة، فوجىء الوسط السياسي بالأسلوب الـذي قدم به الـرئيس جمال عبـد الناصر، العقيد عبد الحميد السراج للجماهير من فوق شرفـة قصـر الضيـافـة باعتبـاره بطل الوحدة، وفي تلك اللحظة أحس الرئيس السابق شكري القوتلي، وقادة حزب البعث، خاصة، وزعماء الأحزاب الأخرى، وكذلك أعضاء لجنة القيادة في الجيش، ان الرئيس أراد استبدال جميع القوى التي ساهمت بالوحدة برجل واحد هو رئيس المخابرات. .

وعنـدمـا أعلن في صبيحـة اليـوم التـالي عن تشكيـل الوزارة التنفيذية في الاقليم الشمالي تبين بوضوح تجاهل «حزب الشعب»، الذي كان يمثل الأكثرية في مجلس النـواب الـذي صوت على الـوحـدة، واغفـال بعض الشخصيـات السيـاسيـة المستقلة، التي كان لها دور هام في سياسة سورية من الاستقلال وفي فترة الخمسينيات بشكل خاص. .

لم يتضمن مرسوم تشكيل الوزارة التنفيذية تسمية رئيس لها، واقتصر على تعيين السـادة أكـرم الحوراني (من قيادة حزب البعث)، وصبري العسلي (أمين عام الحزب الوطني) نوابـا للرئيس، ونظـراً لأن السيـد الحوراني، كان رئيسـاً لمجلس النـواب قبـل الـوحـدة، فقـد اعتبـر ان أقدميته تخوله حق ممارسة رئاسة

الحكومة، وهكذا كان، مما لم يلق الرضا التام من النائب الثاني السيد صبري العسلي، غير ان اهمية الحدث والفرحة بالوحدة، وعدم الرغبة بالتسرع في الحكم على الخطوات الأولية، جعلت هذه الأمور تمر دون اهتمام حتى وتعليق، ومرت الأسابيع الأولى على أفضل مايكون من الانسجام بين أعضاء الحكومة وانصرف كل عضو فيها الى عمله بحماس ودأب، يحاول ان يعطي للوحدة بداية رائعة تتناسب معها كحدث تاريخي هام. وتنسجم مع الآمال والحماس الذي قابلت به الجماهير الوحدة وزعامة الرئيس جمال عبد الناصر.

وفي هذا الجو الطافح بالفرح، جاءت إقالة (أو استقالة) اللواء عفيف البزرة من رئاسة الأركان وتعيين اللواء جمال فيصل بدلاً عنه، دون أن تلفت النظر، بل لقد قوبلت بشيء من عدم الاهتمام نظراً لما كان يشاع عن صداقته للحزب الشيوعي.

غير أن تعيينات أخرى لاحقة لفتت الانتباه، فقد سمي السيد محمود رياض سفير مصر السابق بدمشق، مستشاراً للرئيس في الاقليم الشمالي، وحلقة الاتصال بين المجلس التنفيذي في دمشق والرئاسة في القاهرة، وسمي اللواء عبد المحسن أبو النور الملحق العسكري السابق في السفارة المصرية، نائباً لقائد الجيش الأول (التسمية التي أعطيت حديثاً للقوات المسلحة السورية)، كما عين السيد عدلي حشاد المستشار الثقافي في السفارة المصرية، مستشاراً في وزارة التربية والتعليم. ومنذ الأيام الأولى لهذه التعيينات، أصبح محمود رياض يحتكر كل العلاقات بين الوزارة التنفيذية والرئاسة جيئة وذهاباً، وأخذ عبد المحسن أبو النور يمارس القيادة الفعلية في الجيش السوري مستغلاً ضعف اللواء جمال فيصل، وفرض عدلي حشاد هيمنته على وزارة التربية والتعليم العالي في القطر.

بعد مضي أشهر على قيام الوحدة، وصل الى القطر مئات من الضباط والمعلمين المصريين، هؤلاء وزعوا على القيادة والوحدات، وأولئك عينوا في مختلف المحافظات، وأخذت الألسن بعد فترة ممارستهم أعمالهم، تتحدث على تصرفاتهم الفوقية وتدخلاتهم، ومحاولات بعضهم التسلط على زملائهم.

وفي دمشق لم يستسغ أعضاء الحكومة التنفيذية التبعية للمستشار محمود رياض، واعتبر نائبا الرئيس الحوراني والعسلي ذلك شيئاً ماساً بكرامتهما وماضيهما.

وعلى الصعيد الاقتصادي كان التنظيم الجديد مثيراً للأوساط الاقتصادية والصناعية والتجارية بسبب المركزية المفرطة التي طبقت في هذه الميادين وأصبح الصناعيون والتجار يضطرون للذهاب الى القاهرة للحصول على موافقة وزير الاقتصاد المركزي الدكتور القيسوني، ووزير الصناعة المركزي الدكتور عزيز صدقي، للحصول على الرخص الصناعية أورخص الاستيراد، وقد اصطدم هؤلاء بالبير وقراطية المصرية البالية من جهة، وبالطريقة الفوقية التي يعامل بها الوزراء والأمناء العامون والمدراء المواطنين، وظهر لهؤلاء مدى الفارق الهائل بين الأساليب الادارية في سورية ومصر، والفارق العظيم بين علاقة المواطنين بالسلطة في كلا البلدين، هذه الأساليب الموروثة في مصر عن النظام الملكي، بينما هي في سورية مستوحاة من النظام الجمهوري الديمقراطي . .

ويوماً بعد يوم ظهر بشكل جلي أن المفهوم الذي أقيمت عليه الوحدة، لم يأخذ بعين الاعتبار تاريخ الحركات السياسية والنقابية في سورية، كما لم يقم أي وزن للاختلاف بين طبيعة النظام البرلماني التعددي الذي كان قائماً في سورية قبل الوحدة، والنظام الذي أقامته الثورة المصرية بعد الانقلاب الذي أسقط النظام الملكي، وأقام مجلساً للثورة يجمع بيده كل السلطات، ونظاماً رئاسياً يركز السلطة بيد رئيس الجمهورية، كما لم يفطن الى ان الوحدة بين الاقليمين لم تكن نتيجة انقلاب عسكري سوري، على الرغم من مواكبة القوات المسلحة للمسيرة الجماهيرية ولتصويت البرلمان على الوحدة بالاجماع (باستثناء نائب واحد هو ممثل الحزب الشيوعي) السيد خالد بكداش.

وبدا تدريجياً ان النظام الذي تسير عليه الوحدة ذو سرعتين، إحداهما اعتاد عليها الاقليم الجنوبي (مصر) بعد مرور سبع سنوات على ثورة (٢٣) يوليه والثانية لم تنسجم مع المفاهيم التي تصورتها أكثرية القوى الفاعلة في سورية

حول الـوحـدة، كما لم تكن تنتظرها الأحزاب والنقابات والعسكر والنواب الذين سعـوا للوحـدة ورحبوا بزعامة الرئيـس عبد الناصر، ايماناً منهم جميعاً بأن الوحدة ستكـون لكـل المـواطنين وليـس لفئة أو شخص، كما لايمكن ان تكون نوعاً من التبعية غير المبررة . .

ولم ينقض عام ١٩٥٨ (العـام الأول للوحـدة) حتى تم تطهـير عدد كبير من الضبـاط الـذين قيـل انهم يسـاريون، تلا ذلك إبعاد الضبـاط الذين ينتمون لحزب البعث، بعضهم أحيـل الى التقـاعـد والبعض الآخر نقل الى الوزارات المدنية، ورحل عدد كبير الى الاقليم الجنوبي.

نتيجة لهذه الاجراءات، طلب السـيد صبري العسـلي من الرئيس إعفاءه من منصبـه الفخـري الذي وجد نفسـه فيه مجرداً من أية صـلاحية، وانتظر السـيد أكـرم الحـوراني عبثـاً لعله يحظى بصلاحيات حقيقية ترضـيه خاصـة بعد استقالة زميله العسـلي، وفشلـت المحـاولات الفظة للإيقاع بينهما. وأذكر منها على سبيل المثـال، ان اللواء عبـد المحسـن أبـو النـور معاون قائد الجيش، طلب زيارتي في مكتبي بوزارة الشـؤون البلديـة والقـرويـة، فاستقبلتـه ورحبـت به، اعتقاداً مني بأنها زيارة بريئة وللمجاملة، ولكنه مالبـث ان طلـب مني بصـراحة أن أتعاون مع بعض زمـلائي بالـوزارة، لتشجيـع السـيـد صبري العسـلي ضـد أكرم الحوراني الـذي يلح على المطـالبـة بصـلاحيات، ولذلك يجب «تقليم أظافره!» ـ كذا ـ فوجئت بهذا الطلب الصفيق، وبالأسلوب الذي لم اعتده، ولم أكن أتوقعه . . . ومع ذلك سألته: هذا أمر من الرئيس؟ قال: كلا، قلت: إذن ماعلاقتك أنت بهذا المـوضـوع؟ فأنت عـسكـري، وأنـا أصبحت مدنيـاً لاعـلاقـة لي اطـلاقـاً بالجيش، واني أتقيـد بالتـوجيهـات التي أعطيت لنا عند القسـم من قبل الرئيـس بالـذات، وهي ان نقطـع كل صـلة لنـا بالقـوات المسلحـة وننصـرف الى مهماتنا المـدنيـة . . ولـذلك أرجو ان تعذرني، اذ أؤكد لك بأنني مرتبـط مباشرة بالرئيـس ولاأقبل أن أتلقى أي أمر من هذا النـوع منك أو من غيرك من العسـكر، واذا كان هذا مايريده الرئيـس، فيمكنه ان يرسـل إلي كتاباً أو يستدعيني للقاهرة ويعطيني توجيهاته بهذا الخصوص اذا كانت هذه سياسة تستدعيها سلامة الوحدة . .

صعق السيد عبد النور لجوابي وظهر الاحراج على وجهه، فاعتذر وانصرف، ولكني ودعته بكل مودة، نظراً لعلاقاتنا القديمة.

وماهي إلا ساعة أو أكثر حتى تلقيت مخابرة هاتفية من قيادة الجبهة في القنيطرة، كان المتكلم المرحوم العقيد طعمة العودة الله، قال مباشرة: ماهذا ياأحمد؟ شو صرت تابع لأكرم الحوراني ولحزب البعث!! فيجب ان تعلم انك لم تصبح وزيراً لكي تكون في خدمة هؤلاء.. وعندما ازدادت لهجته حدة وعصبية.. قلت له: بالله عليك أليس عبد المحسن أبو النور الى جانبك؟ فاضطرب، وقال: مادخل عبد المحسن؟ قلت: يظهر انه الى جانبك وأنت منفعل جداً لذلك اعطيني العقيد جادو عز الدين.. وقلت له: ياأخي يبدو ان السيد عبد المحسن أبو النور عندكم وانه نقل لكم حديثي معه أثناء زيارته لي منذ ساعتين تقريباً، ولذلك أرجو ألا تتحدثوا بهذا الموضوع على الهاتف، ويمكنكم الحضور مساء الى بيتي لأحكي لكم حقيقة ماتم بيني وبينه.

وبالفعل حضر الى بيتي مساء كل من العقداء جادو عز الدين، وأحمد حنيدي وطعمة العودة الله، وهم زملاء وأصدقاء قدامى، فسردت على مسامعهم القصة كما وقعت لي، فبدت عليهم الدهشة.. بعد ذلك سألتهم هل يرضيكم ان يتلقى الوزراء تعليمات من اللواء عبد المحسن أبو النور؟ وهل هذه هي الطريقة التي تدار بها حكومة الوحدة..؟.. إنني شخصياً لاأقبل بهذا الأسلوب والأهم من ذلك اننا في الحكومة لايخطر ببالنا بذر الشقاق بين الزملاء فنحن بحاجة لكل أوقاتنا من أجل ان تنفذ البرامج التي وضعناها لكي نبرهن للمواطنين مدى المكاسب التي ستحملها اليهم الوحدة، بدلاً من إضاعة الوقت بالخصومات والمؤامرات الدنيئة التي تلوث سمعة الدولة..

بعد هذا اللقاء لم أعد أسمع أية ملاحظة من هؤلاء الأصدقاء كما لم أعد أرى السيد عبد المحسن، وانصرفت ليل نهار للعمل في تسيير شؤون الوزارة التي أحدثتها من الألف الى الياء، لأنها لم تكن معروفة في سورية[1].

الفصل الثاني

إحداث الوزارة المركزية للجمهورية العربية المتحدة

في نهاية عام ١٩٥٨، صدر مرسوم جمهوري، بإحداث وزارة مركزية مقرها القاهرة، واختير لعضويتها السادة التالية أسماؤهم:

حسن جبارة	وزيراً للمالية
صلاح البيطار	وزيراً للثقافة والارشاد
أمين النفوري	وزيراً للمواصلات
أحمد عبد الكريم	وزيراً للشؤون البلدية والقروية
فاخر الكيالي	وزيراً للعدلية
د. بشير العظمة	وزيراً للصحة
د. فريد زين الدين	معاون لوزير الخارجية

وسمي أكرم الحوراني نائباً لرئيس الجمهورية.

وفي الوقت نفسه تشكلت وزارة تنفيذية للاقليم الشمالي برئاسة الدكتور المهندس نور الدين كحالة، واختير لها ضباط جدد للاشتراك بهذه الوزارة وهم العقداء:

عبد الغني قنوت   للعمل والشؤون الاجتماعية
طعمة العودة الله   للشؤون البلدية والقروية

كما عين الاستاذ المحامي رياض المالكي - من حزب البعث - وزيراً للاعلام.

كان الهدف من تشكيل الوزارة المركزية حل المشكلة الناتجة عن عدم وجود ارتباط بين الاقليمين، واتضح ان التجربة الأولى لاتلبي الهدف المتوخى من الوحدة الاندماجية، ذلك ان الأمر في البداية لايتعدى حدود ادارة مركزية لبلدين لايعرف أي من المسؤولين في هذا البلد شيئاً عن البلد الآخر، اللهم إذا اعتبرنا عملية تعيين بعض الموظفين من هذا الاقليم أو ذاك للقيام بمهمات مؤقتة خارج بلدهم (مسقط رأسهم).

بقيت الحكومة المركزية معظم عام ١٩٥٩ بدون عمل، ومضت عدة أشهر قبل أن يخصص لها مقر، ومكاتب للوزراء، وظلت الأمور على حالها طوال هذه المدة، بحيث تدار شؤون الاقليم الشمالي من قبل الرئيس ومعاونيه في القاهرة، أما الاقليم الجنوبي فيمارس فيه الوزراء المركزيون المصريون صلاحيات واضحة وملموسة بالتعاون المباشر بينهم وبين أعضاء الحكومة التنفيذية، ولكن الوزراء السوريين لم يكن لهم أي دور اطلاقاً في مصر، كما لم يبق لهم أية علاقة مع المجلس التنفيذي في الاقليم الشمالي.

في هذه الفترة لم يكن هناك اجتماعات عمل للوزارة المركزية وكانت الحجة عدم وجود مكاتب وأجهزة، وفي منتصف هذه السنة خصص فندق «الهيلوبوليس الجديد» في مصر مقراً للوزارة، وأصبح لكل وزير مركزي مكتب، وسكرتير، وحاجب، وغرفة اجتماعات. ولكن الأيام استمرت تمر دون أن تحل مشكلة المهمة التي يراد إلقاؤها على عاتق هذا الجهاز المركزي الرفيع - نظرياً -، وبقي أعضاء الوزارة السوريين بدون عمل، يحضرون الى مكاتبهم صباح كل يوم ويجتمعون في أحد المكاتب، يتبادلون الأحاديث ويناقشون بعض الأمور والأخبار التي تصلهم من دمشق، ويتلقون شكاوى رجال الصناعة والاقتصاد الذين يحضرون الى القاهرة لمقابلة المسؤولين في وزارتي الصناعة والاقتصاد

المركزيتين، فتمر الأسابيع دون أن تتاح الفرصة، فيعودون بخفي حنين الى دمشق، ويتذكرون الأيام التي كانوا يحلون فيها مشاكلهم خلال ساعات أو أيام مع الوزراء في سورية، قبل الوحدة، ويستغربون كيف لايستطيع الوزراء السوريون في القاهرة تقديم أية مساعدة لهم لحل مشاكلهم بل وعجزهم معظم الأحيان عن تسهيل مقابلتهم لبعض المسؤولين الكبار من المصريين.

أدى هذا الوضع الى إشاعة التذمر في الأوساط المالية والاقتصادية والتجارية. وهكذا أخذت دائرة التذمر في الاقليم الشمالي تتسع لتشمل الضباط والسياسيين القدامى وأعضاء الأحزاب السياسية المنحلة، وكبار الملاك الذين شملهم الاصلاح الزراعي، بسبب الطريقة التعسفية التي نفذ فيها هذا القانون.

وزاد الوضع تعقيداً بسبب تدهور العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة وبقية البلدان العربية، الأمر الذي انعكس على المبادلات بين سورية وجاراتها العربيات (لبنان والأردن والعراق والمملكة العربية السعودية). ولم يكن للسوريين أي تأثير على هذه العلاقات لأنها أصبحت محصورة بالرئاسة، ولامجال للمشاركة في دراستها أو حتى الاطلاع عليها.

في هذه الفترة علمنا باستقالة الأستاذ رياض المالكي من وزارة الاعلام في الاقليم الشمالي، وقد أشاعت الأجهزة بعد قبولها بأن انتماءه الحزبي لايمكنه من القيام بمهمته بالشكل الذي ينسجم مع سياسة الجمهورية العربية المتحدة، هذه السياسة التي يجسدها أسلوب الأستاذ «أحمد سعيد» في صوت العرب، والمهاترات والحملات الاعلامية الرهيبة التي تشن على معظم الأنظمة في الأقطار العربية في صحيفة الأهرام والمانشيتات المثيرة التي يختارها رئيس التحرير السيد حسنين هيكل وأسلوب المزايدات الذي أصبح العمود الناظم لهذه السياسة الاعلامية الغوغائية.

وعندما طرحت مشكلة تحويل مجرى نهر الأردن واقتسام مياه هذا النهر مع اسرائيل، في أحد الاجتماعات الطارئة للوزارة المركزية في قصر القبّة، ظهر بوضوح التفاوت بين آراء المسؤولين في الاقليمين حول هذه المشكلة، فلم يوافق

الوزراء السوريون على مشروع جونسون، الذي قدمه الأمين العام للأمم المتحدة السيد هامر شولد، ويتضمن المشروع تقديم مساعدة مالية للجمهورية المتحدة، مقابل موافقتها على استمرار اسرائيل بتحويل مياه النهر دون أي اعتراض. وقد نتج عن هذه المشكلة ظهور بعض الفتور في العلاقات بين السوريين والمسؤولين المصريين، وقيل في ذلك الوقت، أن السوريين «مزاودين». . . وأذكر أن السيد أنور السادات علق على موقف الوزراء السوريين أثناء مناقشة الموضوع، فقال: «يظهر أن السوريين عايزين يحاربوا اسرائيل علشان شوية ميّة . . !!».

وجاءت ثالثة الأثافي عندما تقرر انشاء منظمة «الاتحاد القومي» كبديل للأحزاب السياسية، من أجل وضع مبادىء وتنظيم هذه الحركة، شكلت لجنة مشتركة من المصريين والسوريين برئاسة السيد عبد اللطيف البغدادي نائب الرئيس وعضوية السادة الآتية أسماؤهم هم:

السيد حسين الشافعي
السيد كمال الدين حسين ← من الاقليم الجنوبي
السيد كمال رفعت

والسيد أكرم الحوراني
والسيد صلاح البيطار ← من الاقليم الشمالي
والسيد أحمد عبد الكريم

بعد عدة جلسات، وبعد مناقشات طويلة، حول مبادىء الحركة وتنظيمها، رأت أكثرية المجتمعين ان تعطى الفرصة لكل طرف لكي يضع مشروعاً معيناً ليناقش في الجلسات التالية. ولكن السيد كمال الدين حسين، أصر على ان تناقش اللجنة مشروعه الجاهز، والذي كان عبارة عن مخططات ولوحات يظهر عليها التسلسل الهرمي لهذا التنظيم ابتداء من القاعدة في الاقليمين حتى القمة في قصر القبة. وأبدى رأيه حول الشروط التي يجب ان تتوفر في عضوية التنظيم الذي يجب ان يستوعب الغالبية العظمى من المواطنين،

وأكد ان الشرط الأساسي ان يكون المواطن ممارساً لشعائره الدينية (كالصلاة والصوم . . الخ . .) . . عند هذه النقطة توقفت الجلسة ، وكانت جلسة الختام ، إذ نقل الأعضاء السوريون خلاصة رأي السيد كمال الدين حسين للرئيس ، فأمر بوقف الجلسات الى أجل غير مسمى . ولكن بعد مضي فترة من الزمن صدر القرار باحداث «الاتحاد القومي» كما اقترحه السيد كمال الدين حسين .

في نهاية عام ١٩٥٩ أدى تفاقم الوضع الداخلي في سورية ، وخاصة بعد تكليف المشير عبد الحكيم عامر بإدارة شؤون الاقليم ، أدى ذلك الى استقالة جميع الوزراء البعثيين من الوزارتين المركزية والتنفيذية وبالطبع استقالة السيد أكرم الحوراني من منصبه كنائب لرئيس الجمهورية .

والواقع ان الاستقالة لم تكن مفاجئة لنا بحد ذاتها ، ولكنا فوجئنا بتوقيتها والطابع الحزبي الذي أعطي لها .

أزمة الوحدة واستقالة الوزراء البعثيين :

ولإلقاء بعض الضوء على هذه القضية لابد من الرجوع الى العلاقات بين الوزراء السوريين أنفسهم ومواقفهم من مبدأ الاستقالة .

كانت العلاقات في البداية تشوبها بعض المصالح الفئوية فأعضاء حزب البعث كانوا يعتقدون ان لهم الفضل الأول في اقامة الوحدة ، ولهذا فمن حقهم ان تكون لهم الحصة الكبرى في ادارة الاقليم الشمالي والمساهمة في رسم سياسة الجمهورية العربية المتحدة .

وكانوا يتوقعون ان تنتقل هذه القناعة الى الرئيس عبد الناصر ومعاونيه من أعضاء مجلس الثورة ، غير ان السنة الأولى من عمر الوحدة أظهرت لهم ان طموحاتهم وهمية ، وان الرئيس لايفرق بينهم وبين بقية الأحزاب السورية الأخرى ، وحتى العناصر العسكرية المشتركة في الوزارة .

وتجسدت هذه السياسة بشكل ملموس عند تشكيل الاتحاد القومي واجراء الانتخابات على أدنى مستويات لاختيار أعضائه ، وتبين ان الخاسر

الأكبر هوحزب البعث، وكان لهذه النتيجة صدى سلبي عميق ومخيب لآمال قادة الحزب، وقوبل ذلك بشيء من الشماتة من الأحزاب الأخرى التي كانت تتهم حزب البعث بالتواطؤ مع الرئيس لإزالتها من الخريطة السياسية في سورية وفي دولة الوحدة.

غير ان هذه الصورة تبدلت خلال عام ١٩٥٩، فأصبح ممثلوحزب البعث في الحكومة المركزية وأعني السيد أكرم الحوراني والاستاذ صلاح البيطار، يجاهرون بانتقاداتهم لسياسة الجمهورية، ويتوددون لزملائهم، ويناقشون معهم السبل التي يمكن ان تؤدي الى تعديل هذه السياسة.

وفي نهاية شهر كانون الأول ١٩٥٩، توصل جميع الوزراء السوريون في مصر الى اتفاق حول ضرورة وضع مذكرة يشرحون فيها أزمة الوحدة ويبدون رأيهم بالطرق التي يمكن بها مواجهة هذه الأزمة، ثم تقديمها للرئيس واعطائه الفرصة والوقت لمعالجة الموضوع، حتى اذا وجدوا انه لايعير اهتماماً لآرائهم، ولاتبدر منه أية بادرة لمناقشة الموضوع معهم، يمكن ان يختاروا المناسبة لتقديم استقالة جماعية.

وقد كلف كل من الأستاذ صلاح البيطار وأنا شخصياً لنضع مسودة لهذه المذكرة.

ولكن مضت أيام دون ان يظهر من جانب السيد البيطار أية اشارة، وفي صباح يوم من كانون الأول ١٩٥٩، وكنت والزميل المرحوم أمين النفوري في «نادي الجزيرة» بالزمالك، نقتل الوقت مع بعض الاخوان العرب من اللاجئين السياسيين في القاهرة، إذا بالدكتور بشير العظمة يطلب الاجتماع بنا على انفراد ويبلغنا ان الزملاء البعثيين قدموا استقالاتهم من الوزارتين المركزية والتنفيذية، وقد كلفه السيد صلاح البيطار ان يبلغنا ذلك، ويطلب الينا ان نقدم استقالتنا لنشد أزرهم.

الحقيقة فوجئنا بالاستقالة وبهذا الأسلوب وقلنا للدكتور العظمة، بأن يبلغ السادة أكرم الحوراني وصلاح البيطار، بأننا لانوافق على الاستقالة

فنحن أولاً غير حزبيين، وثانياً لأن الزملاء البعثيين لم يتقيدوا بالشرط الذي اتفقنا عليه ألا وهو وضع مذكرة للرئيس تبين نقاط وظروف أزمة الوحدة، وإبداء الرأي بطريقة حلها . .

دعيت في اليوم التالي الى قصر القبة كما دعي زملائي السوريون بالتالي من قبل السيد علي صبري وزير الدولة لشؤون الرئاسة، سألني عن الاستقالة وهل لي علم بها قبل وقوعها، أجبته بأمانة وقلت له: اننا كنا متفقين مع الاخوان البعثيين على تقديم مذكرة مشتركة وشرح وجهة نظرنا في معالجة الأزمة واعطاء الرئيس الفرصة والوقت للنظر فيها وايجاد السبل لحل القضايا التي يشكو منها السوريون، وحل مسألة «النظام»، وأخيراً أكدت على ضرورة رفض الاستقالة، واجراء الحوار مع قيادة حزب البعث ومع القيادات السياسية الأخرى في سورية التي كان لها الدور الحاسم في اقامة الوحدة.

علق السيد علي صبري على حديثي، بأن قيادة حزب البعث لاترى في المشكلة سوى جانب واحد، وهو انها تريد ان تفرض على الرئيس الانفراد بحكم سورية دون بقية القوى في هذا البلد، وتعتقد ان من حقها مشاركة الرئيس في صلاحياته التي خولها له الدستور، والاستفتاء الشعبي ، وأضاف بأن الرئيس يرفض رفضاً قاطعاً هذا المنطق.

وبنفس اليوم علمت من بقية الزملاء السوريين أنهم تلقوا من السيد علي صبري نفس الرأي الذي سمعته منه.

أعلن بنفس اليوم رسمياً عن قبول الاستقالة، وبدأت أجهزة الاعلام تشن حملة على الحزب وقياداته وخاصة السادة ميشيل عفلق وأكرام الحوراني، وذكرت بعض الصحف ان ميشيل عفلق حاول تحريض بعض العناصر في مصر للتآمر على النظام (قضية شخصية عويس) . وبادرت الأجهزة الأخرى لنشر الاشاعات المختلفة كعادتها.

مرت فترة عصيبة، استمرت عدة أشهر، لم تترك أجهزة الاعلام الرسمية للرأي العام فرصة لالتقاط أنفاسه . وخلاصة ماتدعيه أن البعثيين يريدون تدمير الوحدة، والاستئثار بحكم سورية . . . وان الرئيس لايرضى أن يضع

مصـــير الشعب الســـوري بيـد حزب واحـد لأنـه انتخب من كل الشعب وان الوحدة كانت بتأييد وارادة كل الشعب في سورية.

وفي مطلع شهر أيار (مايو) وبعد صمت دام أربعة أشهر، دعيت الوزارة المركزية للاجتماع في قصر القبة لمناقشة الخطة الخمسية.

ولما كانت هذه المناسبة أول فرصة يلتقي فيها الرئيس بأعضاء الوزارة فقد افتتح الجلســة في اليـوم الأول بحملة شعـواء وعصبيـة على الوزراء المـستقبلين وأعلن صراحـة انـه لايقبـل ان يغير أسلوبـه بالعمـل، وان من لايعجبـه هذا الأسلوب ليس أمامه سوى الرحيل..

بدأت بعـد ذلـك منـاقشـة تقارير الخطة، وكا يوجه السـؤال أولاً للوزراء المصـريـين المركـزيـين، فيـدون رأيهم ثم ينتقـل الى الـوزراء التنفيـذيين.. وللصدفة، أتى دور وزارة الشؤون البلدية لمناقشة مشروع خطتها، كان ذلك في ساعة مبكرة من الصباح وقد بدا الارهاق على الجميع، بسبب الجو المتوتر. وجه الـرئيس سؤالـه للسـيـد محمـد أبـو نصير الوزير التنفيذي، فنوقش تقريره وتمت الموافقة عليـه بعد ادخال بعض التعديلات، وكادت تنتهي الجلسـة، ولولا ان نائب الرئيس السيد عبد اللطيف البغدادي سألني قائلاً: انك لم تبد رأيك يا أخ أحمـد... قلت: لم يطلب مني أحـد ذلـك،كما طلب من غيري من الزملاء المركـزيـين.. عنـدها تدخل الرئيس، وقال: أنا لست في مدرسة وكل التقارير متشابهة.. ثم وقف وأنهى الجلسة.

لم أظهر أي رد فعل مباشر خاصة وان الساعة كانت حوالي الثانية صباحاً أو أكثر..

القاهرة في ١/ أيار/ مايس/ ١٩٦٠

سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر

سيدي الرئيس ارجو أن تسمحوا لي بأن أرفع لسيادتكم عميق شكري للثقة الغالية التي اتاحت لي فرصة العمل معكم خلال فترة قاربت العامين، حاولت خلالها كل ماستطعت لكي أخدم بلادي ضمن حدود عملي، ولكي أكون أميناً على هذه الثقة متجاوباً معها.

وإني ياسيدي الرئيس اذ أراني اليوم مضطراً ـ رغم تقديري للظروف الدقيقة الحالية ـ ان اطلب اليكم التفضل بإعفائي من المهمة المشرقة التي اوكلتموها إلي، لكي افسح المجال لغيري من المواطنين المخلصين ليقوم بها على الوجه الذي ترغبون، لأن الحدود التي تبنيتها في جلسة الأمس تضطرني لأن اعتذر عن الاستمرار في عملي والألم والأسف يملآن نفسي.

واني انتهز هذه الفرصة لأعرب لسيادتكم عن عميق احترامي وتقديري لقيادتكم الحكيمة، وتمنياتي القلبية لشخصكم الكريم، والله أدعو أن يسدد خطاكم وأن يحقق كل ماتطمح إليه امتنا العربية من ازدهار وتطور على يديكم وبزعامتكم. وثقوا أنني باق على العهد وسأظل كما كنت جندياً اميناً ومستعداً لأي خدمة يقتضيها الواجب مني، والله يحفظكم ويحفظ جمهوريتنا الحبيبة.

أحمد عبد الكريم

وفي اليـوم التـالي حضـرت في السـاعـة التـاسعـة الى مكتبي ، وكتبت استقالتي ، وأرسلتها مختومة مع مدير مكتبي دون ان أعلم بذلك أحد ، وحزمت أوراقي وعدت الى منزلي .

عند الظهيرة كان خبر الاستقالة على ألسـنة جميع الوزراء ودهش زملائي السـوريون بما في ذلك المرحوم أمين النفوري ، لأنني لم أخبرهم بقراري . وعندما زاروني قلـت لهم : هذا موقف شخصي لاأريد أن أحرج به أحداً، ولكني لاأريد ان يكـون صمتي على هذا الأسلوب من المعـاملة المذلة سابقة تبرر استخدامها مع غيري ، ولذلك أترك لكل منهم ان يختار الموقف الذي يتلاءم مع أوضاعه .

دعـاني السيـد عبـد اللطيف البغـدادي لمنـزلـه في مصر الجديدة ، وأبدى تعاطفه مع موقفي ، وأصر علي لأعدل عن الاستقالة .

ثم كلمني المشـير عبـد الحكيم عامـر هاتفياً ، مستغرباً موقفي ومؤكداً انه يكن لي كل محبة كما ان الرئيـس نفسـه يحبني، ورجاني العدول عن الاستقالة .

ثم زارني السـادة طعمـة العـودة الله وجـادو عز الـدين ، وكـانـا في القـاهـرة مع المشـير عامـر ، وحـاولا إقناعي بالعدول ، ومضى أحدهما الى حد التلميح بأنني بهذه الاسـتقـالـة أعـرض نفسـي وأولادي للجـوع والمهـانة ، فقلت : ليكن فهذا مااخـترتـه ، واذا كان من يبـدي رأيـه ويعتـزل العمـل لايضمن سلامـة نفسـه ومسـتقبل أولاده ، فإن الموقف الصحيح إذن هو مافعلته .

لم تفلح هذه الاتصالات الجانبية في اقناعي بالتراجع عن الاستقالة ، وفي اليـوم الثـالـث تلقيت من الرئاسة دعوة للقاء الرئيـس في منزله بمنشية البكري ، استقبلني - رحمه الله - بكثير من الـود ، وأجلسني قبالته ، وبدأ حديثه بالمتاعب التي لقيها منذ قيام الوحدة ، وانها تفوق كل مالاقاه من متاعب في مصر منذ قيام الثـورة عام ١٩٥٢ ، وانتقـل بعـد ذلـك الى اسـتقـالـة الـوزراء البعثيين ، فقال مامعنـاه بأننـا نخطىء اذا كنـا نعتقد بأنهم كانوا يريدون اصلاح نظام الوحدة ، ولكن هدفهم هو ان يتقـاسـمـوا معـه الحكم وحـدهـم في الاقليمـين وان ينفردوا بإدارة سـوريـة . وان ذلـك غير ممكن لان معنـاه الغـدر بالشعب السـوري والاستـسلام للمزاودة والانتهازية ، أما بشأن استقالتي فقال ان موضوعها مختلف

لأنـهـا جاءت نـتيجـة سوء تفـاهـم غير مقصــود وطلـب مني إلغـاءها أوعلى الأقل إرجـاءهـا ريثما يتم الاحتفال بوضـع الحجر الأسـاسـي للســد العالي وزيارة المغفور له الملك محمد الخامـس، حرصاً على سمعة الوحدة.

أكدت للرئيـس احترامي الصـميمي له وإيماني بالوحدة، ولكني رجوته ألا يلزمني بالـتراجـع عن الاسـتقـالـة، على أني أقبل إرجاءها ريثما يجد هو المناسـبة لقبولها، دون ان نعطي الانطباع السـلبي داخل الجمهورية، أو في البلاد العربية (أي ان تفســر على ان الســوريــين بمختلف اتجـاهـاتهم لم يعـودوا يتحملون مسـؤولية البقاء في السـلطة)..

بعدها، وفي صبيحة أحد الأيام قرأت في الصحف قبول الاستقالة وبالوقت نفسه قيام الرئيس بزيارة مفاجئة للإقليم الشمالي، ولم أسلم كما لم يسلم الزملاء الآخرون من التشهير في الصحافة كما هي العادة.

العودة الى دمشق :

أنهيت إقامتي في القاهرة بعد أيام، وعدت الى دمشق، واعتزلت الناس لكي أبعـد عن نفـي الإشـاعـات والأقـاويـل، وأعـترف انني كنت أخشى تصرفات أجهزة المخابرات ولاأدري ماالذي سـيكون عليه موقف السـلطة.

وللحقيقة أقول، انني لم أواجه أية مشكلة في القاهرة بعد الاستقالة وبقي السـائق والسـيارة تحت تصرفي حتى المطار، كما لم تصادفني أية متاعب من الســلطة في دمشق خاصـة بالنسبة لراتبي التقاعدي كوزير، غير ان ذلك لاينسـحب على أدعيـاء الحرص على الـوحدة، والانتهازيين وبعض أعضاء الاتحاد القومي من المرتـزقـة الـذين أصبحوا يتطلعون لاملاء الفراغ مكان القوى الوطنية والقومية والوحدوية الحقيقية.

وبلمحة بصر أصبح هؤلاء يتطاولون في أحاديثهم على الذين ساهموا ببناء الوحدة وضحوا من أجل اصلاحها.

أذكر في هذه المرحلة، ان عدداً من الضباط الشباب زاروني في بيتي وحملوا على سلوك الضباط المصريين، وقالوا بأن صبرهم فرغ وانهم يريدون ان يفهموا المصريين بأن السوريين لا يقبلون تحمل سيطرتهم مهما كان الثمن. كان جوابي لهم ان المشكلة ليست في سلوك هؤلاء الضباط وان الوحدة شيء، وهذه المشكلة الثانوية شيء آخر يمكن اصلاحه، وان أي صدام مع الضباط المصريين سيجعلهم يكفرون بالوحدة العربية وان أي تآمر على الوحدة لايخدم سوى اسرائيل والقوى المعادية للحركة العربية، والحقيقة اني كنت ألمس الصدق في لهجتهم ولم أشك أبداً في اخلاصهم للوحدة، كما لم أشك في انهم جاؤوا إلي ليمتحنوا ولائي للوحدة.. وأعتقد أنهم خرجوا من المقابلة وعندهم بعض التساؤلات حول الهدف من الاستقالات، رغم انني قلت لهم آنذاك ان هذا التصرف ينسجم مع تاريخ العمل السياسي في سورية منذ الاستقلال حتى قيام الوحدة، وان استقالة وزير لاتعني أبداً التنكر للكيان السياسي، بل هي محاولة وأسلوب مشروع لإبداء الرأي وعدم تحمل مسؤولية سياسة معينة في فترة زمنية محدودة، في إطار النظام القائم.

وقد أكدت لي الأيام فيما بعد ان هذه المجموعة لم تكن تكفر بالوحدة بل ترفض السلوك المتعالي والتسلطي الذي تميز به الضباط المصريون حيال زملائهم السوريين، ولهذا كانوا بين الضباط الذين ثاروا على الانفصال على طريقهم ومن مواقع مختلفة في ٨/ آذار ١٩٦٣.

والغريب أيضاً في هذا المجال، ان الأمور لم تتحسن في عامي ١٩٦٠ و١٩٦١، وخاصة بعد الطريقة التي جرى على أساسها اختيار أعضاء الاتحاد القومي، ومجلس الشعب، وتسليم شؤون الاقليم للمشير عبد الحكيم عامر، ولوزير الداخلية العقيد عبد الحميد السراج الذي سمي في عام ١٩٦١ نائباً للرئيس ورئيساً للمجلس التنفيذي، وابتدأ الصراع بينه وبين المشير عامر على

السلطة في سورية، وأصبحت الألسن في جميع الأوساط وعلى جميع المستويات تروي القصص عن سلوك الأجهزة التابعة لكل منها.

بلغ التذمر من هذه الازدواجية، ومن الطريقة التي يدير بها المشير عامر امور الأقليم حداً كبيراً وأخذ الناس في ايلول يعيشون في جو قلق، يتمخض عن الكثير من المفاجآت، بل لقد أصبح الكثير من الناس يتوقعون انهيار السلطة...

وفجأة سمع الناس عن استدعاء عبد الحميد السراج الى القاهرة، ثم الاعلان عن قبول استقالته من رئاسة المجلس التنفيذي، وعودته مباشرة الى دمشق. وكان ذلك إيذاناً بتفجير أزمة خطيرة نظراً للدور الذي لعبه هذا الشخص منذ قيام الوحدة والحظوة التي كانت له لدى الرئيس بالذات يوم قدمه كبطل للوحدة.. وبدا ذلك وكأنه انتصار للمشير عبد الحكيم عامر ولبعض زملاء السراج من العسكريين في الوزارة التنفيذية اللذين اختاروا الالتصاق بعامر.

ومن ذكرياتي في هذه الأيام الخطيرة، أنني دعيت صباح ٢٧ / أيلول ١٩٦١ مع المرحوم اللواء أمين النفوري للغداء في منزل المرحوم العقيد محمود بنيان، في قرية الناصرية الواقعة شرقي بلدة جبرود، وعندما اتجهنا الى هناك لاحظنا وجود سيارة فولكس فاكن تتبعنا الى هناك، ثم تقف قبالة المنزل الذي دعينا اليه، وكان واضحاً انها تقوم بمراقبتنا.

وعندما قمنا للمائدة لتناول الطعام قرع جرس المنزل فهب صاحب الدعوة لاستقبال الطارق، فإذا به يعود بسرعة ويقول: الضيف هو المحامي السيد محمد خير الجيرودي، وقد رفض مشاركتكم الطعام رغم الإلحاح ويصر على مقابلتكما بسرعة لأنه سيعود فوراً الى دمشق.

قمت والمرحوم النفوري قبل اتمام طعامنا. بادرنا بأنه مرسل من العقيد عبد الكريم النحلاوي، الذي ينوي القيام بانقلاب، وهويرغب أن تشاركاه بالعملية، فدهشنا لهذه الجرأة، وقلنا له ألم تلاحظ ان هناك سيارة مخابرات أمام المنزل؟ وكيف يمكن الا تلاحظ زيارتك؟ ومع ذلك لنفترض فعلاً ان السيد

النحلاوي حزم أمره للقيام بانقلابه، فما دخلنا بذلك ونحن لانملك أي قوة تنفعه أو تضره، علماً بأننا أخذنا على أنفسنا منذ سنوات الا نشترك بأي عمل انقلابي مهما كان نوعه، هذا بالاضافة الى اننا ساهمنا مع رفاق من خيرة ضباط الجيش بدعم إرادة الجماهير وممثليهم في السلطتين التشريعية والتنفيذية، بإقامة الوحدة، ولانقبل أبداً المساهمة في إسقاطها، علماً بأننا بكل أسف لانملك أية وسيلة للدفاع عنها . .

أما اذا كان المقصود من هذه الدعوة توريطنا في مؤامرة لكي ينفذ السراج مركزه وحظوته، فنحن لسنا سذجاً الى هذا الحد، وعليه ان يفتش عن وسيلة أخرى ليبيض صفحته . . وأخيراً فنحن لسنا مخبرين عند أحد لاعند السراج ولاعند الأجهزة المصرية لكي نذهب اليهم ونكشف لهم عرضك وعرض السيد النحلاوي، واعتقادنا أن هذه الأجهزة قادرة على كشف مثل هذه المؤامرة .

الحقيقة لم تعجب إجابتنا السيد الجير ودي ولكنه ودعنا فوراً وانصرف، وعدنا نكمل غداءنا ونتعجب كيف وصلت الأمور الى هذا الحد . . ! . وفي المساء عدنا الى دمشق بمرافقة السيارة الفولكس المذكورة . .

وبالليلة نفسها، قدم الى بيتي الرائد بالشرطة العسكرية السيد جاسم ويس وطلب الانفراد بي، وادعى انه مرسل من العقيد السراج ليبلغني انه عزم على القيام بانقلاب، وان هناك لوائين مدرعين يدعمانه في منطقة دمشق بالاضافة الى أجهزة المخابرات . . كانت مفاجأتي مذهلة . . وربطت بينها وبين مقولة الاستاذ الجير ودي . . وتخيلت ان السراج مصمم على الايقاع بي وببعض زملائه من العسكريين القدامى، فقلت له : إن السراج هو المسؤول الأول عن حماية الوحدة في سورية وباستطاعته ان يدمرها اذا أراد كما بإمكانه حمايتها كما تقضي بذلك مهمته، وانا لاأملك شيئاً للدفاع عنها كما انني لاأقبل التآمر عليها لامع السراج ولامع غيره، أما اذا كان يريد نصب فخ لي ولغيري من زملائه القدامى، فهذا لانستغربه منه، ولكننا لايمكن ان نسقط في حبائله، وعليه ان يفتش عن طريقه أخرى ليستعيد مكانته التي فقدها عند ولي نعمته .

هوامش الجزء السادس

(١): ذكر لي الأستاذ موسى الزعبي، المقدم المتقاعد، وعضو اتحاد الكتاب في سورية حالياً، بتاريخ ١٩/١٠/١٩٩٣، الواقعة التالية بمناسبة الحديث عن حركة الانفصال في ٢٨/ أيلول ١٩٦١:

في شهر تموز من عام ١٩٦١، وقبل حدوث الانقلاب على الوحدة المصرية السورية بحوالي شهرين تقريباً، اجتمع عدد من الضباط الوحدويين ومن بينهم:

النقيب: عبد الوهاب الخطيب

النقيب: موسى الزعبي

النقيب: ممدوح الأحدب

النقيب: بسام عبد النور

النقيب: عبد الرافع رمضون

وتداولوا في موضوع النشاط الذي يقوم به بعض الضباط السوريين للتآمر على الوحدة، وعلى رأس هؤلاء المقدم عبد الكريم النحلاوي، الذي كان يشغل منصباً هاماً في رئاسة أركان الجيش الأول، ولاحظوا انه تمت بعض التنقلات التي تدل على اعداد حركة معادية للوحدة في صفوف القوات المسلحة، ونتيجة هذه المداولات رأى المجتمعون ضرورة إعلام الرئيس جمال عبد الناصر بالذات بهذا النشاط المشبوه لعل بالامكان تلافي مايمكن ان يترتب عليه قبل فوات الأوان، ولذلك قرروا إيفاد الضباط الآتية أسماؤهم الى القاهرة لمقابلة الرئيس عبد الناصر وهم:

النقيب: عبد الرافع رمضون

النقيب: عبد الوهاب الخطيب

النقيب: ممدوح الأحدب.

وذهب هؤلاء الى مصر واستطاعوا فعلاً مقابلة الرئيس عبد الناصر، ولفتوا انتباهه للنشاط المعادي للوحدة بزعامة عبد الكريم النحلاوي، واقترحوا عليه اتخاذ بعض الاجراءات الاحتياطية، وابعاد النحلاوي عن قيادة الجيش.

ويذكر السيد موسى الزعبي ان الرئيس عبد الناصر استخف بالمعلومات التي نقلها الضباط المذكورين، وقال لهم: ان النحلاوي ليس أهلاً للمغامرة، وان جماعته أومن يؤثر عليهم من الضباط في الجيش، أضعف من ان يقوموا بأي عملية ضد الوحدة.

وهكذا عاد الضباط من مهمتهم بخفي حنين.

ولم يمض إلا فترة وجيزة حتى قام الانقلاب الذي ذهب بالوحدة، وكرس الانفصال وكان من أبرز الضباط الذين قاموا بالعملية، المقدم عبد الكريم النحلاوي.

(المؤلف أحمد عبد الكريم)

الجزء السابع

الانفصال

الفصل الأول

الانقلاب العسكري الخامس

مع بزوغ فجر ٢٨ / أيلول ١٩٦١، فوجىء المواطنون بدمشق باستيلاء وحدات من حرس البادية بقيادة العقيد حيدر الكزبري على مبنى القيادة العامة للجيش الأول في ساحة الأمويين، كما استولت بعض الوحدات المدرعة بقيادة العقيد عبد الغني دهمان على مبنى الاذاعة والتلفزيون، والغريب انه لم يسمع أية طلقات نارية، وفي الصباح أذاع راديو دمشق البيان رقم ـ ١ ـ الذي يعلن: «أن القوات المسلحة السورية قررت القيام بتصحيح الوحدة من انحرافاتها ووضع حد للتسلط المصري».

بعد ذلك صمتت الاذاعة تماماً وأخذت تذيع الأناشيد والموسيقى الحماسية واستمر ذلك معظم ساعات الصباح دون ان يعرف الناس هوية الانقلاب وهدفه. وكانت بعض الطائرات المقاتلة تحلق فوق العاصمة على ارتفاع منخفض.

وأخيراً تسربت الأخبار من مقر رئاسة الأركان ان قائد الحركة الانقلابية هو العقيد عبد الكريم النحلاوي، ومن بين أبرز القائمين بها الضباط :

- العقيد حيدر الكزبري قائد حرس البادية .
- والعميد فيصل الحسيني آمر سلاح المدفعية .
- والعميد عبد الغني دهمان .
- والعقيد الطيار موفق عصاصة .
- والعقيد محمد منصور .
- والعقيد الطيار هيثم المهايني .
- والعقيد مطيع السمان .
- والعقيد مهيب الهندي .
- والمقدم فايز الرفاعي .

وبمجرد التعرف على أسماء هؤلاء الضباط لوحظ انهم جميعهم من مواليد مدينة دمشق ، وأنهم غير راضين عن تجاهل دور سورية العربي واهمال مدينة دمشق التاريخية ، وقياداتها السياسية ، وتخريب الاقتصاد والحركة الصناعية وتسلط الضباط المصريين الذي يذكر بسلوك الضباط الفرنسيين أثناء الانتداب ، وإدارة المشير عامر الذي حل محل المفوض السامي وبدأ يطبق سياسة «فرق تسد» . وتسلط مخابرات السراج .

وبين وقت وآخر كان الراديو يذيع بعض البيانات المتناقضة حول المفاوضات التي تجري في مبنى رئاسة الأركان بين قادة الحركة من جهة والمشير عبد الحكيم عامر من جهة أخرى ، بعضها يؤكد التمسك بالوحدة والاصرار على بعض الاصلاحات الدستورية التي تعيد لسورية شيئاً من مكانتها وتضع حداً للتسلط السياسي والاقتصادي والعسكري ، والبعض الآخر يعطي الانطباع بأن الحركة تهدف لوضع نهاية للوحدة وإعادة سورية الى ماقبل عام ١٩٥٨ .

وحوالي الظهيرة استمع المواطنون الى البلاغ العسكري رقم - ٩ - الذي أعلن قطع الاتصالات مع القاهرة وإنهاء المفاوضات مع المشير عبد الحكيم عامر وترحيله بالطائرة الى القاهرة مع عدد من كبار الضباط المصريين وبعض

الوزراء السوريين، وأخيراً الاعلان عن عودة سورية كما كانت قبل الوحدة «جمهورية عربية مستقلة ذات سيادة كاملة».

وهكذا اتضح بعد مرور ساعات من الترقب ان قادة الانقلاب يئسوا من امكانية التفاهم مع المشير عبد الحكيم عامر على ادخال تعديلات على عملية الانفصال النهائي. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت «الجمهورية العربية المتحدة» حدثاً هاماً في ذمة تاريخ الأمة العربية الحديث، وانهارت أول تجربة حقيقية للوحدة الاندماجية بين قطرين عربيين لاصلة جغرافية بينهما بسبب اسرائيل.

وتجدر الاشارة هنا، بكل استغراب، أن الجماهير المتحمسة التي كانت وراء قيام الوحدة في مطلع عام ١٩٥٨، لم تبد حراكاً دفاعاً عنها في نهاية أيلول ١٩٦١، وقد ذهل الرأي العام في سورية من موقف المشير عبد الحكيم عامر، وقيادة الجيش الأول، وكبار الضباط المصريين والسوريين وخاصة قادة الوحدات المدرعة المعسكرة في المراكز الحيوية في القابون وقطنا والكسوة. ومما يروى ان إحدى هذه الوحدات المدرعة التقت بقوات حرس البادية المتجهة الى دمشق عند الفجر، ولم تحرك ساكناً. كما دهش الناس من مواقف أجهزة المخابرات السلبية، وبشكل خاص قوات الأمن الداخلي وأجهزة المخابرات التابعة للعقيد عبد الحميد السراج... كما فوجىء الرأي العام بموقف الرئيس جمال عبد الناصر نفسه عندما أعطى أوامره للقوات المصرية المظلية التي كانت متجهة الى سورية، للعودة الى مصر والقبول بالأمر الواقع، ووجه كلمة مأساوية الى الشعب في سورية يودعه ويقول فيها مامعناه: «ليس المهم بقاء الوحدة بل الأكثر أهمية بقاء سورية نفسها»..

وفي اليوم الثاني للانقلاب أذاع راديو دمشق بياناً من قيادة الحركة يشرح فيها الأسباب المبررة للانفصال ويلقي مسؤولية انهيار الوحدة على عاتق الرئيس عبد الناصر وسياسته حيال الاقليم الشمالي وسلوك أجهزته التسلطية.

وفي بيان آخر موجه للشعب السوري أكد فيه قادة الانقلاب ان الهدف من حركتهم هو: «إعادة السيادة الكاملة للجمهورية العربية السورية وتكريس النظام الديمقراطي البرلماني، واحترام الحريات، والاسراع باجراء استفتاء

مباشر على الدستور الجديد وانتخاب مجلس تشريعي ورئيس للجمهورية في موعد أقصاه نهاية عام ١٩٦١ .

بعد أيام من قيام الحركة واعتراف معظم الدول العربية والأجنبية بالوضع الجديد بادرت قيادة الجيش لتسليم السلطة لحكومة مدنية مؤقتة تم تأليفها على الشكل التالي :

السادة :

الدكتور مأمون الكزبري	رئيساً للحكومة
الدكتور عزت النص	نائباً للرئيس ووزيراً للخارجية والدفاع
الأستاذ فتح الله أسيون	وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل والصناعة
الأستاذ أحمد سلطان	وزيراً للعدل والأوقاف
السيد عبد الرحمن حورية	وزيراً للاشغال العامة والمواصلات والتخطيط
السيد نعمان الأزهري	وزيراً للاعلام والشؤون البلدية والقروية
الاستاذ أحمد السمان	وزيراً للتربية والتعليم والثقافة والارشاد
الاستاذ عبد السلام الترمانيني	وزيراً للداخلية والصحة
السيد سعيد السيد	وزيراً للاصلاح الزراعي

وكلفت الحكومة بإدارة البلاد والمباشرة بالاعداد لاجراء الاستفتاء وانتخاب المجلس التأسيسي والاسراع بعودة الحياة الديمقراطية .

الاستفتاء على الدستور الجديد والانتخابات التشريعية :

ماأن تسلمت الحكومة الجديدة مهمتها حتى تشكلت لجنة لوضع الدستور الجديد ، وإعادة العمل بقانون الانتخابات التشريعية القديم ، وقامت بتعيين عدد من كبار رجال القضاء كمحافظين مؤقتين للاشراف على الاستفتاء والانتخابات في المحافظات .

وفي هذه الفترة قدمت أوراق ترشيحي للانتخابات البرلمانية لمحافظ درعا

القـاضي الـسيـد محسن العبـاس، وشكلتُ قائمـة من مرشحين اثنين في دائرة منطقـة ازرع الانتخـابيـة، ثم بدأت بالجـولـة على القرى فلاقيت تشجيعاً من الغالبـة العظمى من المواطنين.

وبتاريخ ١٩٦١/١١/٢١ أجريت الانتخابات والاستفتاء على الدستور في جو من الحرية.

وأذكـر بهذه المنـاسبـة انني تلقيت قبل أسبوع من بدء التصويت زيارة من قبـل ضابـط الشـرطـة العسكـريـة في قيادة منطقة الـسويداء يرجوني فيه تعديل قائمتي الانتخابية والتحالف مع أشخاص معينين، ترضى عنهم وزارة الداخلية وقيـادة المنطقـة، ولكني رفضت هذا الطلب وقلت لهذا المبعوث بكل صراحة: بلغ قائـد المنطقـة (وكـان آنذاك اللواء رفعت خيري) انني لاأقبل أي توجيه من الـسلطـة، واذا كان في نيتهـا التـدخل لصـالح مرشح معين أو لائحة معينة فعليها ان تـستخـدم قواتهـا لاجبـار المواطنين على تنفيذ رغبتها!.. واستغرب الضـابط اجابتي ورجاني ان أغير رأيي أو على الأقل ان أخفف من لهجة الاجابة، ولكني أعـدت رأيي بصـراحـة وقلت له: ان يبلغ من أرسلوه بهذه المهمة النص الحرفي لجوابي، وليس عندي غيره...

قمت صبيحـة التصـويت بالإدلاء بصـوتي في صنـدوق قريـة «غـاغـب» وهناك حاول بعض مؤيدي القائمة الثانية المؤلفة من الـسادة: محمد الحريري، ومحمـد يوسـف أبـو روميـة، والمحـامي سعيـد الـزعبي التعـرض لي وللنـاخبـين المؤيـدين لقـائمتي ومنعهم من الدخول الى قاعة التصويت ولكن سرعان ماعاد الصفـاء للجـو وجـرت العمليـة بكل هدوء وحرية بعد لقائي مع المرشح المرحوم محمد يوسف أبو رومية الذي أبدى كل ود وسعة صدر.

انتقلت بعـدهـا الى مركز الصنمين، فقوبلت بحشد من المؤيدين الذين شكـوا لي من محاولات لشـراء الأصـوات، فأجبتهم بأنني لاأملك سوى سترتي ومن أراد ان يبيع نفسـه وصوته فهو حر، وكان لهذا الكلام وقع الصاعقة، اذ اتجه الحشـد الى صـناديق الاقتـراع وسيطـر الحماس على الناخبين فكانت الغالبية العظمى منهم تصوت لصالحي.

تابعت الجولة الى قرية «الحارة» وهناك لقيت من الحماس ماجعلني ازداد ثقة بوعي المواطنين ورغبتهم بالتغيير والانتقال الى مرحلة اجتماعية وسياسة بعيدة عن القبلية والعشائرية والتحرر من تدخل السلطات لصالح أصحاب النفوذ، لقد استقبلني معظم أهالي الحارة من شيوخ وشباب بالأهازيج، وصادف وجود المحافظ السيد العباس ولجنة الانتخابات في القرية للاشراف على العملية، ففوجئوا بهذا الموقف وعلق المحافظ بقوله: لقد تغير الرأي العام في حوران، ولم يعد للعشائرية والولاء القبلي أي تأثير وهذا تحول اجتماعي وسياسي عميق لم أكن أتوقعه.

وهكذا، أكملت جولتي على مدينة «نوى» وبلدة «شيخ مسكين» وبلدة «إزرع» وأخيراً «بصرى الحرير» ولم تنته الجولة حتى الساعة الثامنة مساء عند اقفال الصناديق، عندها عدت الى ازرع فعلمت باعلان النتائج وفوز قائمتي ولم يفز من القائمة الثانية سوى الشيخ محمد خير الحريري رحمه الله، وكان الفارق بالأصوات بيني وبين زميلي من جهة وبين الفائز من القائمة الأخرى كبيراً.

وفي تاريخ ١٩٦٢/١٢/٥ أعلنت نتائج الانتخابات والاستفتاء رسمياً وأصبحت نائباً عن محافظة درعا..

وبهذه المناسبة لابد من الاعتراف بأنني شعرت بالنشوة وازدادت ثقتي واعتزازي بأبناء محافظة حوران جميعاً، حتى أولئك الذين لم يصوتوا في دائرة ازرع، لأنني تلقيت من جميع المثقفين والفلاحين التشجيع والتأييد، وأعتبر ان هذه الفترة القصيرة من حياتي العملية أشرف مرحلة عشتها لأنني أيقنت بأن المجتمع في حوران قطع شوطاً من التطور والوعي السياسي والاجتماعي يفتح أمامه المستقبل ويؤكد عزمه على الولاء للوطن والأمة والتصميم على التطور قبل أي ولاء عشائري أو أية تقاليد بالية

انعقاد المجلس التأسيسي:

في صباح يوم الثلاثاء الواقع في ١٩٦١/١٢/٢٢، عقد المجلس

التأسيسي المنتخب جلسته الأولى في تمام الساعة العاشرة برئاسة الأستاذ سعيد الغزي نائب دمشق، وأكبر الأعضاء سناً، وقام النواب المنتخبون بالتالي بأداء اليمين القانونية.. ومن ثم تم انتخاب الدكتور مأمون الكزبري رئيساً للمجلس، وبعد استراحة قصيرة استأنف المجلس جلسته، فانتخب الدكتور ناظم القدسي، نائب مدينة حلب، وعضو حزب الشعب، رئيساً للجمهورية.

وعلى الأثر قدم السيد عزت النص استقالة الوزارة المؤقتة، وكلف رئيس الجمهورية، الدكتور معروف الدواليبي بتشكيل الحكومة من أعضاء المجلس النيابي..

وبعد المداولات والمشاورات بين أعضاء البرلمان والكتل النيابية، تم تشكيل الحكومة من السادة الآتية أسماؤهم:

- الدكتور معروف الدواليبي رئيساً للوزارة (حزب الشعب)
- الاستاذ جلال السيد نائب للرئيس (حزب البعث)
- السيد أحمد قنبر وزيراً للداخلية (حزب الشعب)
- السيد رشاد برمدا وزيراً للدفاع (حزب الشعب).

لم يمض على انتخاب المجلس النيابي سوى بضعة أسابيع حتى بدأت الشائعات تتردد عن عدم رضى القوات المسلحة بدعوى ان غالبية النواب من اليمين وان الهدف الأول الذي ترمي اليه حكومة الدكتور الدواليبي هو الغاء قانون الاصلاح الزراعي وقوانين التأميم والمكاسب التي حصل عليها العمال والفلاحون في القطر خلال فترة الوحدة.

ورافق هذه الشائعات حملات عنيفة من أجهزة الاعلام المصرية وتحريض العمال والفلاحين والقوى الوحدوية في سورية لاسقاط النظام الجديد الذي كانت تصفه بالرجعة والانفصالية.

وبالفعل بدأت في جميع المحافظات حركات شعبية واضطرابات وسيطر على هذه التحركات التيار الداعي لعودة الوحدة الفورية مع مصر، والملفت

للنظر آنذاك ان هذه التحركات لم تنشط بشكل جدي إلا بعد انتخاب المجلس النيابي ورئيس الجمهورية واعتراف جميع دول العالم بالنظام الجديد!! . .

ويبدو ان الغاية الحقيقية ليست اعادة الوحدة بل هي زرع عدم الاستقرار والاضطرابات في سورية وتكريس الانفصال .

وفي مطلع شهر آذار من عام ١٩٦٢م راجت بعض الأخبار عن وجود تيار قوي في القوات المسلحة يطالب بعودة الوحدة وحل المجلس النيابي ثم مالبثت ان تأكدت هذه الأنباء عندما أعلن رسمياً ذهاب وفد عسكري يمثل لقيادة الجيش السوري الى القاهرة لاجراء مباحثات مع الرئيس جمال عبد الناصر لاعادة الوحدة بعد ان تم تجميد العقيد حيدر الكزبري والعميد فيصل الحسيني ، وموفق عصاصة وبعض الضباط المعارضين للوحدة وقد عرف من هذا الوفد العقيد محمد منصور والعقيد زهير عقيل والمقدم فائز الرفاعي وقيل آنذاك ان الوفد طلب من الرئيس عبد الناصر تحديد شروطه لاعادة الوحدة فكان جوابه القاطع :

الغاء كل الاجراءات التي تمت منذ ٢٨ أيلول وعودة سورية الى وضعها السابق في اطار الجمهورية العربية المتحدة وإحالة الضباط الذين قاموا بالانقلاب على القضاء . .

ويبدو ان الرئيس عبد الناصر أصبح متأكداً من ضعف مركز قادة حركة ٢٨ أيلول وفقدانهم السيطرة الفعلية على القوات المسلحة وتصاعد التيار الوحدوي في هذه القوات ، وظن هؤلاء ان اقدامهم على حل المجلس النيابي وإقالة الحكومة ورئيس الجمهورية قد يفسح المجال لهم للحوار مع الرئيس عبد الناصر والوصول معه الى حل وسط ينقذ مصيرهم . ولكن تقديرهم للوضع لم يكن صحيحاً لأن الغاية المتوخاة إسقاط السلطة الشرعية التي أقيمت بعد الاستفتاء والانتخابات التشريعية واشاعة الفتن وعدم الاستقرار في سورية وإظهارها بمظهر البلد الذي لايمكن لأية سلطة محلية السيطرة عليه والتهرب بكل الوسائل مع اعادة الوحدة وإلغاء مسؤولية ذلك على السوريين أنفسهم .

وفي هذه الفترة وقعت حوادث دامية في مدينة حلب ذهب ضحيتها

العديد من المواطنين وأقدم بعض الضباط على اغتيال رفاقهم في قيادة المنطقة وكان ذلك بادرة في منتهى الخطورة وأصبح الوضع بعدها داخل القوات المسلحة في حالة من الغليان الشديد.

انقلاب عسكري آخر يطيح بالسلطة الشرعية:

على اثر الحوادث الدامية في حلب وقعت اضطرابات أخرى في بعض المدن السورية ودعا بعض ضباط القوات المسلحة الى عقد اجتماع طارىء في مدينة حمص تقرر خلاله طرد بعض العناصر التي ساهمت في حركة ٢٨ أيلول وحل المجلس النيابي وإقالة الحكومة المنبثقة عنه وإقالة رئيس الجمهورية.

وفي صباح يوم ٢٨ آذار ١٩٦٢م أصدرت القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة سلسلة من البلاغات تقضي باستلام السلطة الكاملة وإقالة رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي ـ وحل المجلس النيابي الجديد ـ وإقالة حكومة الدكتور معروف الدواليبي.

وهكذا ساد جو من الفوضى وأصبحت قوات الأمن عاجزة عن السيطرة الفعلية على الشارع كما لم تعد القوات المسلحة ظاهرة الولاء للنظام الجديد بعد ان انتقلت اليها حمى السياسة من الشارع وأصبح من الواضح ان هناك ثلاثة تيارات رئيسية متناقضة داخل الجيش هي:

١ ـ التيار الوحدوي الناصري وينادي بالعودة الفورية غير المشروطة للوحدة بزعامة الرئيس عبد الناصر والانتقام ممن يسمى بالقوى الانفصالية. ويتكون هذا التيار من الناصريين والقوميين العرب وخليط من الشخصيات السياسية والعسكرية، ومن أبرزهم السادة: نهاد القاسم ويوسف مزاحم، والعقيد جاسم علوان....

٢ ـ التيار الوحدوي «البعثي» وعلى رأسه نظرياً القيادة القومية بزعامة ميشيل عفلق وصلاح البيطار وينادي بالمحافظة على مكاسب العمال والفلاحين

وجميع القوانين الاشتراكية التي صدرت أثناء الوحدة والتفاوض مع مصر لإعادة قيام الوحدة على أسس صحيحة ومدروسة، انطلاقاً من موقع الانفصال.

٣ ـ التيار الانفصالي: وهو أضعف هذه التيارات تنظيماً ويحاول تثبيت انقلاب ٢٨ أيلول وتكريس الصيغة التي انبثقت عن الانتخابات التشريعية في مطلع عام ١٩٦٢.

كانت حركة ٢٨ آذار بمثابة المحاولة اليائسة لانقاذ انقلاب ٢٨ أيلول وإعطائه طابعاً وحدوياً يرضي الرئيس عبد الناصر ويبقي على بعض المكاسب والاصلاحات الاجتماعية لارضاء الجماهير الغاضبة وتكريس النظام الديمقراطي في سورية ولذلك دعت القيادة العامة للقوات المسلحة لعقد مؤتمر للعاملين في الحقل الوطني، وعلى هذا الأساس دعت قيادة الجيش لعقد مؤتمر، في نادي الضباط القديم مساء يوم ٣٠ آذار ١٩٦٢م وألقى فيه اللواء عبد الكريم زهر الدين بياناً طلب فيه المحافظة على الاستقرار والوحدة الوطنية وأكد اخلاص القوات للوحدة العربية .

وبعد مناقشات بين الساسة المجتمعين والعناصر الممثلة لقيادة الجيش، تم الاتفاق على اصدار بيان بمثابة ميثاق وطني ، يؤكد على الاحتفاظ بالنظام الجمهوري البرلماني الديمقراطي ويضمن جميع الحريات للمواطنين والتمسك بالحقوق المكتسبة للفلاحين والعمال. والعمل على اقامة وحدة عربية على أساس اللامركزية الدستورية والسعي لتشكيل حكومة مؤقتة تعمل على وضع دستور دائم مستوحى من مبادىء الميثاق واجراء انتخابات تشريعية جديدة، بالسرعة الممكنة خلال عام ١٩٦٢.

على أثر صدور الميثاق الوطني بذلت الكثير من الجهود للوصول الى صيغة عملية تعيد البلاد تدريجياً الى الوضع الشرعية وتركزت المساعي في البداية على اقناع السيد الدكتور ناظم القدسي رئيس الجمهورية بالعودة عن استقالته بعد ان تراجعت قيادة الجيش عن موقفها وتأكيدها على التخلي عن السلطتين التشريعية والتنفيذية للحكومة المدنية، وقد قبل الرئيس القدسي سحب استقالته وتم الاتفاق على تشكيل حكومة مؤقتة حيادية ذات طابع

تقدمي وحدوي تقوم بإدارة شؤون البلاد بالتعاون مع السيد رئيس الجمهورية.

وفي مساء يوم الجمعة الواقع في ١٣/٤/١٩٦٢م أصدر القائد العام للجيش والقوات المسلحة اللواء عبد الكريم زهر الدين بياناً أعاد فيه السلطة للحكومة المدنية ووعد بابتعاد الجيش عن السياسة . . . (يرجى الرجوع للبيان المرفق بالوثائق) . .

وفي مساء السبت الواقع في ١٤/٤/١٩٦٢م وجه السيد رئيس الجمهورية ناظم القدسي بياناً الى الشعب في سورية أشار فيه الى تنازل قيادة القوات المسلحة عن السلطة وتكليفه بتنظيم الكيان الوطني وتوطيد الاستقرار في البلاد استناداً للميثاق الوطني . وأعلن فيه استقالة أكثرية النواب أعضاء المجلس التأسيسي والنيابي وتفويضهم له باختيار حكومة انتقالية تتمتع بحق التشريع والتنظيم واجراء الانتخابات وارساء الأسس الديمقراطية وقراره بالتراجع عن الاستقالة والاستقرار في تحمل المسؤولية .

وبعد صدور هذا البيان باشر السيد رئيس الجمهورية استشاراته مع قادة الأحزاب وعدد من أعضاء المجلس النيابي المنحل تقرر بنتيجتها تكليف الدكتور بشير العظمة بتشكيل حكومة انتقالية ائتلافية .

وفي مساء يوم الاثنين الواقع في ١٦/٤/١٩٦٢م أصدر رئيس الجمهورية المرسوم رقم /٦٨٠/ القاضي بتسمية أعضاء الحكومة الجديدة التي اشترك فيها عدد من أعضاء الأحزاب التالية : حزب البعث العربي الاشتراكي (وزيران)، وحزب الشعب (وزيران)، والحزب الوطني (وزير واحد)، وعدد من المستقلين، والفنيين .

الدكتور بشير العظمة	رئيساً لمجلس الوزراء
الاستاذ رشاد برمدا	نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للتربية والتعليم والزراعة
السيد أحمد عبد الكريم	وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل والاصلاح الزراعي

الاستاذ رياض الميداني	وزيراً للشؤون البلدية والقروية والتموين
الدكتور عدنان الازهري	وزيراً للخارجية
الاستاذ رشيد حيدان	وزيراً للعدلية والاوقاف
الاستاذ جورج خوري	وزيراً للمالية
المهندس صبحي كحالة	وزيراً للمواصلات والتخطيط
الدكتور عبد السلام العجيلي	وزيراً للثقافة والارشاد القومي
الدكتور نهاد الساعي	وزيراً للاقتصاد
الدكتور احسان الرفاعي	وزيراً للصحة والاسعاف العام
الاستاذ عبد الحليم قدور	وزيراً للداخلية
المهندس روبير الياس	وزيراً للصناعة والاشغال العامة
الدكتور عبد الله عبد الدائم	وزيراً للاعلام

ويتولى القائد العام للجيش والقوات المسلحة صلاحيات واختصاصات وزير الدفاع الوطني.

وقد حددت مهام هذه الوزارة في تصريح للدكتور عبد الله عبد الدائم وزير الاعلام بتنفيذ الأمور العامة التالية:

١ - وضع أسس عامة ومفصلة لموضوع الوحدة العربية مع الأقطار الشقيقة، وذلك ضمن مشروع خاص للوحدة لعرضه على الشعب السوري. على أن يوضح هذا المشروع بعد دراسات عامة تقوم بها الحكومة، ثم يقدم الى الشعب السوري ليقول كلمته به عن طريق الاستفتاء العام.

٢ - وضع الدستور الدائم للجمهورية العربية السورية وعرض الدستور على الاستفتاء الشعبي أيضاً.

٣ - وضع قانون الانتخابات العامة، على أن يتضمن تلافي الأخطاء في القوانين السابقة.

٤ ـ تنظيم الحريات العامة بما يضمن بناء حياة ديمقراطية سليمة .
٥ ـ دراسة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية واعادة النظر بالخطوات التي تمت في الفترة الماضية بعد انقلاب ٢٨ ايلول/ ١٩٦١ .

وقد وجه رئيس مجلس الوزراء بياناً من اذاعة دمشق ظهر يوم الأحد ١٧/٤/١٩٦٢م شرح فيه سياسة الحكومة الانتقالية الجديدة :

الفصل الثاني

حكومة الدكتور بشير العظمة الانتقالية

منذ اليوم الأول لتشكيل حكومة الدكتور بشير العظمة تبين أنها تقاتل على جبهات عديدة تشل من قدرتها على الحركة.

فعلى الصعيد الداخلي:

كانت أكثرية أعضاء المجلس النيابي المنحل غير راضية عن انقلاب ٢٨ / آذار الذي أدى الى حل المجلس وتعتبر كل ماترتب على هذا الانقلاب خروجاً عن المبادىء الديمقراطية التي التزمت بها حركة /٢٨ / أيلول وهي بالتالي غير شرعية ومن الطبيعي ان يكون الى جانب هذه الأكثرية بعض العناصر من قيادة الجيش وكان من بين المؤيدين لهذا الاتجاه عدد من السياسيين البارزين الذين يتمتعون بشعبية واسعة من أمثال السادة خالد العظم ومعروف الدواليبي وجلال السيد وعصام العطار هذا بالاضافة الى ان القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي لم تكن راغبة في تحمل مسؤولية المرحلة وتحاول تمييز موقفها عن موقف السيد أكرم الحوراني ولهذا نجدها تتراجع عن قرارها

بإشراك أربعة وزراء في الحكومة وتكتفي بوزيرين فقط هما السيد عبد الله عبد الدايم (ممثل القيادة القومية أي جناح ميشيل عفلق وصلاح البيطار) والسيد عبد الحليم قدور (ممثل القيادة القطرية جناح أكرم الحوراني)، وبعد فترة قصيرة طلبت من ممثلها في الوزارة الدكتور عبد الله عبد الدايم الاستقالة.

أما قيادة القوات المسلحة المنبثقة عن حركة حمص فبالرغم من تعهدها بعدم التدخل في الشؤون السياسية إلا أنها أصرت على قيام لجنة عسكرية عليا برئاسة اللواء عبد الكريم زهر الدين وعدد من الضباط القادة بمناقشة الأمور الهامة مع رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء. وكان من الملاحظ عدم وجود الانسجام الكامل بين أعضاء هذه اللجنة من جهة وبين قادة الوحدات والمناطق العسكرية. وقد ظهر هذا التناقض جلياً في أحداث حلب وحمص والكسوة (اللواء ٧٠) وأخيراً في مواقف القوات المسلحة عامة أثناء ثورة ٨ آذار.

وعلى الصعيد العربي:

كانت سورية في هذه المرحلة تعاني من عزلة كاملة فالقاهرة تشدد الحصار والحملات الاعلامية والسياسية حولها وتسعى بشتى الوسائل لبث الفوضى داخل البلاد بالاعتماد على القوى الناصرية والوحدوية. والعراق غارق في صراع دموي مرير بين القوى القومية والتيارات الشيوعية والانفصالية.

والحكومة الثورية في الجزائر بقيادة بن بلا تنظر بكثير من الريبة الى عملية الانفصال، أما بقية الدول العربية بالرغم من علاقاتها السيئة مع الجمهورية العربية المتحدة إلا انها لم تكن قادرة على تقديم أي دعم لسورية لكيلا تثير غضب عبد الناصر خاصة وان الجماهير في هذه البلدان العربية تؤيد الوحدة وكانت آنذاك شديدة التأثر بإعلام القاهرة ولم تكن راضية عن انهيار الوحدة السورية المصرية.

وأخيراً، فإن سمعة سورية الدولية في هذه المرحلة كانت في الحضيض بسبب عدم الاستقرار الدائم بالاضافة الى ان بعض الدول في الغرب تعتقد ان

هذه الفوضى ستدعم النفوذ الشيوعي اذا استمرت وتضطر سورية الى الارتماء في أحضان الكتلة السوفييتية من جديد . .

والخلاصة : فإن سورية في نظر الكثيرين كانت بحاجة الى نظام متماسك قوي يستطيع احتواءها وضبطها كما كان الأمر في أيام الوحدة .

في هذا الجو المضطرب القائم حاولت حكومة الدكتور بشير العظمة ان تفعل المستحيل كما يظهر ذلك في بيانها الوزاري ، ولكنها اصطدمت بالواقع المرير فإذا بها رغم كل مابذلت من جهود نزيهة ونبيلة في جميع الميادين تجد نفسها مضطرة للاستقالة بعد فترة لاتتجاوز خمسة أشهر نظراً لتخلي قيادة القوات المسلحة وإصرار الأكثرية البرلمانية على اعادة الشرعية (أي إعادة المجلس النيابي المنحل وتشكيل حكومة من أعضاء هذا المجلس) بالاضافة الى رفض القاهرة لفكرة الحوار معها حول وضع الأسس لوحدة سليمة مدروسة بين مصر وسورية .

وهكذا تقدمت حكومة الدكتور بشير العظمة باستقالتها الى السيد رئيس الجمهورية لتفسح المجال لتجربة إعادة الشرعية ولإيمانها بأن الغاية التي أتت من أجلها لم يعد بالإمكان تحقيقها ألا وهي وضع الأسس الراسخة لحياة ديمقراطية منفتحة ومستقرة ويعيد لسورية دورها القومي الطبيعي في العالم العربي وبين بلدان عدم الانحياز .

وقد قبل السيد رئيس الجمهورية استقالة هذه الوزارة .

الجمهورية العربية السورية

رئاسة مجلس الوزراء

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي السيد الدكتور بشير العظمة

تلقيت ، استقالة وزارتكم التي قدمتموها بتاريخ ١٣/ ٩/ ١٩٦٢ بعد ان ساهمتم بالقسط الأوفر في التمهيد لاعادة الأوضاع الدستورية وتوطيد الاستقرار في البلاد .

وإني، إذ أشعر سيادتكم بقبول هذه الاستقالة وفقاً للاعراف الدستورية، ليسرني السرور كله أن أعرب لكم شخصياً ولأصحاب السادة زملائكم الأكارم عن كبير تقديري لما قدمتم للبلاد من جزيل الخدمات خلال الفترة الدقيقة التي مرت بها وأنتم تضطلعون بأعباء الحكم.

وسيذكر لكم تاريخ سورية العزيزة ماتحملتموه من عنت ومشقات في سبيل اجتياز صعوبات قاسية قابلتموها بالحكمة والصبر وتغلبتم عليها معتصمين بوطنيتكم واخلاصكم.

يضاف الى ذلك كله أن مدة حكمكم كانت، على قصرها وكثرة مشاكلها نموذجاً يحتذى بالدقة والتجرد والاخلاص فآمل ابلاغ زملائكم الأكارم جزيل شكري وامتناني وتقديري راجياً المولى أن يتولاكم وأخوانكم برعايته ويجزيكم خير الجزاء على ماأديتم من عمل مخلص للسير بالوطن في طريق الفلاح والسداد. والله اسأل أن يرشدنا جميعاً لما يحقق للأمة العربية عزها ومجدها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

دمشق في ١٣/٩/١٩٦٢

رئيس الجمهورية
ناظم القدسي

نسخة طبق الأصل
الى السيد أحمد عبد الكريم وزير الاصلاح الزراعي
الأمين العام لرئاسة مجلس الوزراء

السيد خالد العظم يشكل حكومة جديدة من أعضاء المجلس النيابي:

منذ أن تشكلت حكومة الدكتور بشير العظمة كان واضحاً للرأي العام أنها حكومة انتقالية الغاية منها المصالحة مع الرئيس عبد الناصر على أسس جديدة تنقذ فكرة الوحدة فيتمكن رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي من

معالجة الأزمة التي نشأت عن حل المجلس التأسيسي النيابي الذي يجسد الشرعية في الجمهورية العربية السورية بعد انفكاك الوحدة مع مصر.

والحقيقة ان عودة السيد ناظم القدسي رئيس الجمهورية عن الاستقالة وقبول الاستمرار في تحمل المسؤولية كان بمثابة خطوة هامة نحو العودة للشرعية باعتباره رئيساً منتخباً.

غير ان المشكلة الأساسية بقيت دون حل عندما رفض عدد من السادة النواب تقديم استقالتهم وأصرت قيادة القوات المسلحة الجديدة (المنبثقة عن حركة حمص ٢٨ آذار) على قرارها بحل المجلس.

ولما كان الدكتور ناظم القدسي من بين أكثر السياسيين في سورية ايماناً بالديمقراطية فقد وجد نفسه أمام خيارين خطيرين أحلاهما مر:

الخيار الأول: هو احترام الأكثرية النيابية التي انتخبها الشعب في جو من الحرية وهذا يعني القبول بفكرة تحدي السياسيين المدنيين لقادة الانقلاب العسكري بصرف النظر عن النتائج التي تترتب على ذلك.

الخيار الثاني: وهو الانصياع لارادة العسكريين الذين يمسكون بأيديهم القوة الحقيقية وعدم الاهتمام برأي ممثلي الشعب المنتخبين والتنكر للمبادىء الديمقراطية. وقد اختار قرار الأكثرية النيابية وتعني الشرعية الدستورية.

وهكذا اضطر لقبول استقالة حكومة بشير العظمة والقبول بحكومة السيد خالد العظم التي عارضتها قيادة الجيش كما عارضت اجتماع المجلس النيابي في مقره أو مكان آخر لأن ذلك يعتبر بمثابة تحد للرأي العام الذي أصبح ناقماً على تصرفات هذا المجلس، وتحدياً للقوات المسلحة التي قامت بحركة ٢٨ أيلول وقررت حله.

وبتشكيل الحكومة الجديدة، باءت جميع المحاولات التي أرادتها حركة ٢٨ / آذار والغاية التي تشكلت من أجلها حكومة بشير العظمة الائتلافية، وأهم هذه الأهداف:

١ - إعادة جو الاخاء بين سورية ومصر والعمل على وضع أسس للوحدة بالاتفاق مع الدول العربية المتحررة وفي طليعتها مصر.

٢ ـ إعادة حقوق العمال وقانون الاصلاح الزراعي وإعادة التأميم على الشركة الخماسية والمؤسسات المصرفية.

٣ ـ التحضير لاقامة قواعد متينة للحياة الديمقراطية.

وقد فشلت في إعادة الصفاء مع مصر رغم كل ماقدمته ومأبدته من استعداد لذلك وبالرغم من إصرارها على عدم الدخول في أية مهاترات معها. ولكن الرئيس عبد الناصر لم يلتفت الى كل هذه المحاولات الجادة من جانب الحكومة ولم يعترف بوجودها واكتفى بالايعاز الى رئيس تحرير جريدة الأهرام السيد محمد حسنين هيكل للرد على بيان حكومة السيد الدكتور بشير العظمة رئيس الحكومة وكان رد هيكل يتلخص بما يلي:

١ ـ إن القاهرة لاتستطيع ان تتعاون مع حكومة لاتمثل إرادة الشعب.

٢ ـ وانه من واجب سلطات دمشق (هكذا. . .) ان تشكل لجنة وتحقق بالاتهامات التي وجهت الى الرئيس عبد الناصر ومحاكمة المسؤولين عنها.

٣ ـ يجب ان تنفذ مقررات مؤتمر حمص بحذافيرها.

وهكذا أصبحت الحكومة أمام طريقين مسدودين:

فالجمعية التأسيسية والنيابية التي حلتها الحركة الانقلابية في ٢٨/ آذار تطالب بالعودة الى الشرعية واستقالة الحكومة الانتقالية وتأليف حكومة منبثقة عنها، والرئيس عبد الناصر لايعترف بالحكومة ولابشرعية المجلس النيابي ولايعتبر أي نظام في سورية بعد الوحدة ممثلاً لإرادة الشعب ويطلب التحقيق مع قادة انقلاب ٢٨ أيلول ومحاكمتهم.

وهكذا قررت حكومة بشير العظمة رفع استقالتها للسيد الدكتور ناظم القدسي رئيس الجمهورية وتركنا له وللمجلس الكريم ان يتحملا مسؤولية الحكم.

فكان ان اجتمع المجلس في بيت السيد خالد العظم وانتخبه رئيساً للوزارة بالاجماع وقبلت استقالة الوزارة وشكلت وزارة العظم من واحد وعشرين وزيراً بينهم ثلاثة من الجبهة الاشتراكية.

وفي اليوم الثاني عندما اجتمعت الكتلة الاشتراكية في منزل السيد أمين النفوري كان رأيي ورأي السيد رياض المالكي ومصطفى حمدون وعبد الغني

قنوت عدم الاشتراك بالحكومة، وانتهى الاجتماع على هذا الأساس، أما السيد أكرم الحوراني فكان يرى ان عدم الاشتراك في الوزارة منذ اليوم الأول سيعطي لليمين فرصة اتهام الاشتراكيين بمحاولة دهورة الأوضاع ودفعها الى الفوضى والانقلاب خاصة وان رئيس الجمهورية كان يقول له ان الجيش سيستلم الحكم اذا لم تتفق جميع الأحزاب والكتل النيابية على تشكيل الحكومة وتحمل المسؤولية.

وعندما ذهب الوزراء الاشتراكيون الثلاثة ليعتذروا عن قبول الاشتراك لم يعودوا من القصر الجمهوري واضطروا للأخذ برأي المنادين بالشرعية فقبلوا الدخول بالحكومة والمباشرة بأعمالهم.

وفي اليوم الثاني أتاني الى منزلي الدكتور بشير العظمة والأستاذ صبحي كحالة يسألاني عن رأيي بالاشتراك بالوزارة فأجبتهم أني لا أرى ان يقبل الدكتور العظمة الاشتراك بهذه الحكومة لأنني أرى ان وضعه كنائب للرئيس ليس إلا مناورة لاستهلاكه أما من جهتي فإنني أرفض تحمل المسؤولية في هذه المرحلة بأي شرط كما انه ليس من رأيي قبول الكتلة الاشتراكية وأمين النفوري المساهمة مع الحكومة التي أصبحت تمثل المجلس النيابي الذي أقدم الجيش على حله وسوف ينظر اليها كتحدٍ سافر للجيش أما اذا حاولت تجاهل هذا الوضع فإنها لابد ان تعيد السلطة من جديد الى المجلس المنتخب طبقاً للدستور، وستجد نفسها معرضة لانقلاب عسكري عاجلاً أم آجلاً لان الجيش يرفض عودة المجلس النيابي..

الانقلاب في اليمن وموقف حكومة العظم:

ولم يمض إلا أيام معدودات حتى قامت ثورة اليمن ولم تحرك الحكومة ساكناً حيالها وقد اتصلت بكل من الدكتور العظمة والسيد أمين النفوري والسيد عبد الحليم قدور واقترحت ان يصار الى الاعتراف الفوري بجمهورية اليمن الجديدة وابداء الاستعداد لدعمها سياسياً ومادياً وأعلنت رأيي بصراحة بالصحف.

وبعـد فترة قليلة أيضـاً وقعت مشكلة تتعلق بصحف المعـارضـة التي أخذت تنتقد الأوضاع وتهاجم الحكومة فما كان من مجلس الوزراء إلا أن أصدر قراراً بإلغـاء الـرخص الخاصـة بصحيفتي «البعث» «والوحدة العربية» وكان ذلك بمثـابـة نقطـة تحول في سيـاسـة الحكومـة جعلها تظهر بمظهر المعادي للحرية وللديمقراطية، أي انها تتناقض مع المبادىء التي تبر ر وجودها.

في ذلك اليوم اتصلت بالسيد رياض الميداني أمين عام رئاسة الجمهورية ورجونه ان ينقل للرئيس الدكتور ناظم القدسي رأيي الشخصي التالي:

١ ـ ضرورة المبادرة بالاعتراف بالجمهورية اليمنية الجديدة.

٢ ـ عدم الموافقة على اغلاق صحف المعارضة بهذه الطريقة الشاذة وبالأخص صحيفة البعث التي تمثل تياراً شعبياً يجب ان يتسع صدر العهد لتحمله.

متاعب حكومة السيد خالد العظم:

بعد فترة أخذت تظهر بعض المتاعب أمام الحكومة عندما بدأت تبحث اتفاقية مشروع سد الفرات مع ألمانيا الغربية ومسألة الغاء قانون الطوارىء، وفي ذلك الوقت حاول الزملاء من القيادة القطرية إقناعي بدخول الوزارة معهم بالاضافة الى عنصر أو عنصرين من حزب البعث الاشتراكي تنفيذاً لوعد رئيس الوزراء في زيادة عدد الاشتراكيين بالوزارة وتسليم وزارة العمل لأحد التقدميين ولكنني رفضت، وكان ملخص رأيي بأن وزارة العظم عاجزة عن السيطرة على الوضع الداخلي في هذه الفترة وان هناك قوى تتعامى عن تردي الأوضاع وتحاول إعادة امتيازاتها والتحضير لاجراء الانتخابات النيابية بشكل يكون معه المجلس الجديد صورة مطابقة للمجلس المنحل، وقد أخذت تظهر النتائج الخطرة التي تنطوي على اشتراك الاخوان المسلمين بالوزارة وإصرار رئاسة الجمهورية على إبراز السيد عصام العطار كقطب من أكبر أقطاب السياسة في سورية وبدا ذلك في جولاته وتصريحاته المعادية للقوى التقدمية ومحاولاته التشهير بها واتهامها

بالتحالف مع الشيوعية ويسانده في هذا الموقف بعض كبار الضباط من حركة ٢٨ آذار وأصبح واضحاً تماماً ان الغاية من زج الكتلة الاشتراكية في الحكم هي :

١ ـ استهلاكها عن طريق تحميلها ناصر والناصرية فقط .

٢ ـ استهلاكها عن طريق تحميلها مسؤولية التنكيل بالموظفين والطلاب والمعلمين والعمال الوحدويين وإظهارها كقوة انفصالية غايتها مقاومة العناصر الوحدوية وإفشال كل تقارب مع مصر .

وظهر ذلك جلياً عند قيام المعلمين بإضرابهم للمطالبة برفع رواتبهم وقيام المظاهرات الطلابية في درعا والجامعة السورية في دمشق وحلب .

وتأكدت الأحداث بما لايقبل الشك بتآمر الاخوان المسلمين وتحالفهم مع قادة حركة ٢٨ أيلول ومحاولتهم فيما بعد الظهور بمظهر المدافعين عن الوحدة مع مصر .

وفي هذا الوقت أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بالاعدام والسجن على بعض العسكريين المشتركين في حوادث حلب ، فبدأنا نتخوف من أن الاخوان المسلمين يدعمهم في ذلك بعض عناصر القيادة العسكرية يحاولون استغلال وجود العناصر الاشتراكية بالوزارة وتنفيذ حكم الاعدام بالملازم ابراهيم العلي ورفاقه المتهمين بمقتل بعض الضباط في موقع حلب ، لذلك طلبنا من الوزراء التقدميين المشتركين بالوزارة الانتباه لهذا المخطط أو الاستقالة فوراً قبل ان يوقعوهم في الفخ . . وقمت آنذاك شخصياً مع السيد مصطفى حمدون في اليوم الخامس لصدور الحكم بزيارة القصر الجمهوري واجتمعنا بالسيد الرئيس ناظم القدسي وأبلغناه أننا نحذر من تنفيذ الاعدام بالعسكريين وتجنب مايمكن أن ينتج عن ذلك في الظروف الاستثنائية التي تمر فيها البلاد ، فوعدنا بإجراء اللازم ، وقد شعرنا أنه لن يأخذ بتحذيرنا ، ذلك لأنه كان يعتقد بأن زيارتنا لها غاية أخرى بسبب اعتذاري عن قبول منصب السفير في الصين الشعبية واعتذار السيد مصطفى حمدون عن قبول السفارة في المملكة الليبية .

وبالفعل فقد تقدم الوزراء الاشتراكيون باستقالتهم بعد حوادث

الاضـرابـات وخاصة عندما ظهر جلياً اشتراك الاخوان المـسلمين الفعلي في هذه المظاهرات في نفـس الوقت الذي جرت فيه محاولة انقلابية جديدة بزعامة العقيد عبد الكريم النحلاوي ظهرت على شكل عصيـان عـسكري في وحدات قطنا ـ والكـسوة، ويـبـدو ان هذا الانقلاب كان بالاتفاق مع الاخوان المـسلمين وبعض الـسـياسـيين وكـانـت غايته كما ترشحت الينا المعلومات تصفـية العناصر التقدمية وإعادة قانون الطوارىء وإقامة حكم ديكتاتوري عـسكري يدعمه الاخوان المسلمون.

قبل رئيس الجمهورية استقالة الوزراء، وأصبح واضحاً ان الوضع العام في البـلاد بات قلقـاً يشـجـع على المغـامرات بـسبب تردي الأوضـاع وخاصة بعد قيام ثورة (٨) شـباط في العراق والاطاحة بنظام الزعيم عبد الكريم قاسـم.

الفصل الثالث

ثــورة ٨ آذار

في صباح ٨ آذار ١٩٦٣ استولت القوات المسلحة على السلطة وأعلن عن تشكيل مجلس وطني للثورة يتألف من الضباط البعثيين، (من حزب البعث العربي الاشتراكي القيادة القومية بزعامة الاستاذ ميشيل عفلق) وعدد من الضباط الناصريين والقوميين العرب.

كان هذا الانقلاب متوقعاً منذ أسابيع بعد انهيار وزارة السيد خالد العظم وإشاعة الفوضى في البلاد بشكل لم يعد هناك أية فئة أو قوة عسكرية تدافع عن النظام.

وفي صباح اليوم التالي للانقلاب، فرضت بحقي الاقامة الاجبارية ووضع حول منزلي في دمشق الجديدة - المزة، ثلاثة جنود من الشرطة العسكرية، ولم أكترث بهذا الاجراء الذي لم أجد له مبرراً في البداية، ولكني سرعان ماشعرت بالقلق عندما علمت بأن الصحف نشرت لائحة بعدد من السياسيين والصحفيين الذين قيل بأنهم قبضوا مبالغ من العراق، وكان اسمي بين قائمة المتهمين بقبض مائة ألف ليرة سورية. .

صار واضحاً بأن القائمين بالانقلاب يفتشون عن ضحايا (أكباش فداء) يبررون بها حركتهم أمام الرأي العام في سورية والعالم العربي. وهكذا تأكد ماتوقعته بتاريخ ٧/ آذار أي قبل الانقلاب بأربع وعشرين ساعة عندما أعلمني المقدم فواز محارب بتوزيع مناشير على الضباط في بعض وحدات الجيش تتضمن أسماء عدد من السياسيين الذين قبضوا الأموال من نظام الزعيم عبد الكريم قاسم في العراق، وقد استغرب أن يكون اسمي بين هؤلاء الأشخاص. وأذكر يومها انني قلت له بأن معنى ذلك احتمال وقوع انقلاب قريب، وان الأشخاص الواردة أسماؤهم في المناشير المذكورة، مطلوب القبض عليهم وسجنهم أو اغتيالهم، نفى أن يكون هناك انقلاب.. وقال: أنا متأكد من انك لايمكن ان تقبض مالاً من أية جهة عربية أو أجنبية! قلت ولكن هناك العديد من الضباط قد لايشاركونك بهذا الرأي ولا يعرفونني، واذا كلفوا باعتقالي أو اغتيالي لن يترددوا لقناعتهم بأن التهمة صحيحة..!

ثم سألته مارأيك بفلان من السياسيين المذكورين في اللائحة؟ أجاب: هذا لايتورع عن القبض!! قلت إذن يمكن ان تكلف أنت باعتقاله أو اغتياله وضميرك راض عن عملك!

بعد هذا الحديث اتصلت ببعض الأصدقاء الذين ذكرت أسماءهم في اللائحة المذكورة، واتفقنا على اصدار بيان بالتكذيب، ولكن ماتوقعته كان.. فقد قامت ثورة (٨) آذار في فجر اليوم التالي وأصبحنا تحت رحمة قادة هذه الحركة، وكان المقدم فواز محارب من بينهم، كما علمت فيما بعد أنه أحد أعضاء مجلس الثورة.

جريدة بردى السبت في ٩ آذار ١٩٦٣ العدد ٢٨٣٨

اللائحة التي نشرت قبيل قيام ثورة ٨ آذار

المبالغ التي قبضها السياسيون المنحرفون وأصحاب الصحف المأجورة من السفارة العراقية

ننشر فيما يلي: قائمة بأسماء السياسيين المنحرفين والمرتدين والعملاء وأصحاب الصحف المأجورة مع المبالغ التي قبضوها من السفارة العراقية في دمشق خلال الحكم الأسود المنحل الذي قضت عليه انتفاضة جيشنا الباسل الخالدة.

المبالغ التي قبضها السياسيون:

١ ـ خالد العظم سلم شيكاً بمبلغ نصف مليون ليرة على بنك الرافدين بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٩٦٢.

٢ ـ أكرم الحوراني استلم شيكاً مفتوحاً.

٣ ـ خليل الكلاس ١٠٠ ألف ليرة سورية.

٤ ـ حيدر الكزبري ١٥٠ ألف ليرة سورية.

٥ ـ فؤاد العادل ١٠٠ ألف ليرة.

٦ ـ مصطفى البارودي ١٠٠ ألف ليرة.

٧ ـ أحمد عبد الكريم ١٠٠ ألف ليرة.

٨ ـ صبري العسلي ٢٨٠ ألف ليرة.

٩ ـ مأمون الكزبري ٢٨٠ ألف ليرة.

١٠ ـ معروف الدواليبي ٢٥٠ ألف ليرة.

١١ ـ عدنان القوتلي ٥٠ ألف ليرة.

١٢ ـ محمد عابدين ٥٠ ألف ليرة .
١٣ ـ المحامي نزار العرابي ٥٠ ألف ليرة .
١٤ ـ هاني الساعي ٥٠ ألف ليرة .
١٥ ـ مطلع وشريف الرأس ٥٠ ألف ليرة .
١٦ ـ نهاد الغادري ٥٠ ألف ليرة .
١٧ ـ عفيف البزري ١٠٠ ألف ليرة .
١٨ ـ أمين النفوري ١٠٠ ألف ليرة .

المبالغ التي قبضها أصحاب الصحف

١ ـ جريدة الرأي العام ٢٠ ألف ليرة سورية مع سيارة كاديلاك (ستيشن) موديل ١٩٦٣ لأحمد عسه تسلم إليه من الوكالة العامة بدمشق بتاريخ ٢٧ / ٢ / ١٩٦٣ .
٢ ـ الشام ٢٥ ألف ليرة .
٣ ـ المنار ٢٥ ألف ليرة .
٤ ـ دمشق ٣٠ ألف ليرة .
٥ ـ الأيام ٣٠ ألف ليرة .
٦ ـ صوت العرب ٣٠ ألف ليرة .
٧ ـ النسر ٣٠ ألف ليرة .
٨ ـ الطليعة ٣٠ ألف ليرة .
٩ ـ الصرخة ٣٠ ألف ليرة .
١٠ ـ الأخبار ١٠ آلاف ليرة سورية .
١١ ـ العلم ١٠ آلاف ليرة سورية .
١٢ ـ صحافة حلب ٢٠ ألف ليرة .
١٣ ـ جريدة الحرية بحماه ١٠ آلاف ليرة سورية .
١٤ ـ مجلة الدنيا ٢٠ ألف ليرة .

نص البرقية

السيد رئيس تحرير جريدة الوحدة

نشرت جريدة بردى في عددها رقم ٢٨٣٨ الصادر يوم السبت في ٩/ ٣/ ١٩٦٣ في الصفحة السادسة قائمة بأسماء بعض الأشخاص مدعية بأنهم قبضوا مبالغ معينة من السفارة العراقية بدمشق واوردت اسمي بين هؤلاء الأشخاص.

استنكر هذا الافتراء. واطلب التحقيق العاجل بالأمر، واضعاً نفسي تحت تصرف القضاء، واحتفظ لنفسي بحق اقامة الدعوى على الصحيفة والمصدر الكاذبين.

واني لعلى يقين بأنكم لاتقبلون هذا الأسلوب الرخيص الذي يتنافى مع الاخلاق والمبادىء النبيلة التي نادت بها الثورة.

وبانتظار اجراءاتكم تفضلوا بقبول فائق الاحترام.

دمشق ٩/ ٣/ ١٩٦٣

احمد عبد الكريم

الى النيابة العامة في دمشق

نشرت بعض الصحف السورية الصادرة بتاريخ ٩/ ٣/ ١٩٦٣ من الصفحة السادسة تحت عنوان (المبالغ التي قبضها السياسيون المنحرفون وأصحاب الصحف المأجورة من السفارة العراقية» الخبر التالي:

(نشر فيما يلي: قائمة بأسماء السياسيين المنحرفين والمرتدين والعملاء وأصحاب الصحف المأجورة مع المبالغ التي قبضوها من السفارة العراقية في

دمشق خلال الحكم الأسود المنحل الذي قضت عليه انتفاضة جيشنا الباسل الخالدة:

المبالغ التي قبضها السياسيون:

١

٢

•

•

•

٧ ـ أحمد عبد الكريم ١٠٠ ألف ليرة.

ولما كان هذا الخبر الكاذب يشكل جريمة الذم المنصوص على عقوبتها في المادة /٦٣/ من قانون المطبوعات المعطوفة على / المادة ٥٦٨/ من قانون العقوبات لان المادة /٣٧٥/ من قانون العقوبات عرفت الذم بأنه نسبة أمر الى شخص ولو في معرض الشك أو الاستفهام ينال من شرفه وكرامته.

وكان مانسبته هذه الصحف الى من قبض أموال من السفارة العراقية (أو من أية جهة أخرى) وما الصقته بين من نعوت الانحراف والارتداد والعمالة يقع تحت تعريف الذم المبين آنفاً.

وكأن الجريدة لم تسند نبأها إلي وقت كنت وزيراً للاصلاح الزراعي، ومع ذلك فإنني ـ أعطيها كل الحق وافسح لها المجال عريضاً متحدياً أن تثبت هي ومصدرها وما اختلقته رغماً عن أن القانون لم يعطها مثل هذا الحق إلا اذا كان هذا الذم موجهاً الى مهمتي ووظيفتي كوزير.

وكانت الصحف بتعرضها لكرامة الشرفاء من المواطنين الذين عملوا في حقل القضية العامة باتهامهم اعتباطاً، وجزافاً بأمور تمس الثقة بهم، عدا عن كونها ارتكبت الجرائم العادية المنصوص عنها في القوانين فإنها تكون قاصدة بذلك بذر بذور التشكيك في كل القيم الاخلاقية والوطنية، وهذه في حقيقتها أسباب لتشديد العقوبات على اعتبار أن خطرها كبير على قضية الوطن واتجاهه، وعلى العهد الثوري الجديد الذي تحاول الالتصاق به.

ان القضـاء النـزيه اسـتطاع يوماً أن يقضـي بحزم على حملة الشـانتاج التي استعملت ضد المواطنين من قبل الصحف دون أن يكون بحاجة الى قوانين خاصـة .

وأملنا كبير في أن يحزم قضاؤ نا أمره على إيقاف حملة مقصودة من التشهير في قيم بعض السـياسـيين الشرفاء حتى يفقد المواطن كل أمل ورجاء .

لذلـك :

فإنني اتقدم الى النيابة العامة طالباً اعتباري مدعياً شخصـياً على السـادة أصحاب هذه الصحف وعلى كل من يظهر فاعلاً أصـلياً وشريكاً أو متدخلاً في هذه الجريمة وبكل جريمة أخرى تظهر أثناء التحقيق أو المحكمة من جراء نشـر الخبر المنوه عنه وإحالة هذه الدعوى الى المحكمة المختصة لمحاكمة المدعي عليه المـذكـور او انـزال العقـوبـة التي يراها القضـاء متـاسـبة والعمل المرتكب ومن ثم الحكم لي تبعاً لذلك بعطل وضـرر رمزي قدره خمـس قروش سـورية من نشـر الحكم .

أحمد عبـد الكريم

أصــدر مجلـس الثـورة يوم ٩/ آذار قراراً بتشكيـل حكـومـة ثوريـة من العسكريين والمدنيين فكانت على الشكل التالي :

الأسـتاذ صـلاح البيطار	رئيسـاً للحكومة ووزيراً للخارجية
العقيد أمين الحافظ	وزيراً للداخلية
المقدم محمد الصوفي	وزيراً للدفاع
الأسـتاذ منصـور الأطرش	وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية
الأسـتاذ سـامي الدروبي	وزيراً للتربية

الدكتور جمال الأتاسي	وزيراً للاعلام
الأستاذ عبد الكريم زهور	وزيراً للاقتصاد
الأستاذ شبلي العيسمي	وزيراً للاصلاح الزراعي
السيد طالب الضماد	وزيراً للصناعة
السيد جهاد ضاحي	وزيراً للمواصلات
السيد هاني الهندي	وزيراً للتخطيط
السيد وليد طالب	وزيراً للشؤون البلدية والقروية
الأستاذ نهاد القاسم	وزيراً للعدلية
الأستاذ عبد الوهاب حومد	وزيراً للمالية
الدكتور ابراهيم ماخوس	وزيراً للصحة
الأستاذ أحمد أبو صالح	وزيراً للاشغال العامة
الأستاذ درويش علواني	وزيراً للأوقاف
الأستاذ سامي صوفان	وزيراً للتموين
الدكتور سامي الجندي	وزيراً للثقافة

بعد اطلاعي على مانشرته الصحف بادرت بارسال عدد من الكتب والبرقيات للحكومة ولمجلس الثورة وسلمت نسخة لجاري وصديقي المرحوم عبد الكريم زهور الذي استنكر هذا الأسلوب اللاخلاقي ووضعت نفسي تحت تصرف القضاء، وطلبت تكذيب التهمة، وكنت قانعاً بأن الجهة التي اختلقت هذه الفرية اللاأخلاقية ليست مستعدة لتكذيب نفسها، ومع ذلك وجدت من الضروري عدم الصمت معتمداً على الضمائر الحية! . .

الاعتقال في سجن المزة :

في فجر يوم الخميس بتاريخ ١٤ / آذار قدم الى منزلي ضابطان من الشرطة العسكرية وأبلغاني القرار باعتقالي، وكان سلوكهما في منتهى الأدب

والاحترام. ارتديت البتي على عجل وودعت والدتي وزوجتي، ورافقني هذان الضابطان بسيارة بيك آب الى سجن المزة العسكري، حيث ألقي بي في الزنزانة رقم (١٨) بعد الاجراءات الروتينية المعروفة..

كانت الزنزانة مظلمة، ليس فيها سوى بطانيتين ومرحاض.. وطاقة صغيرة عالية يتسرب منها الضوء وتشرف على ساحة في الطابق العلوي من السجن..

ضاق صدري، وشعرت كأنني أودعت القبر لضيق هذه الحجرة، ولم أستطع النوم. ويبدو أن نزيل الزنزانة المجاورة كان لايزال يقظاً لأنه فور ابتعاد الحارس واغلاق باب زنزانتي، أخذ يسأل عن اسمي ولكني لم أجبه إلا في اليوم التالي بعد ان عرفت بأنه العميد فيصل سري الحسيني.

في حوالي الساعة الثامنة فتح باب الزنزانة، وألقى أحد الحراس على الأرض كوباً معدنياً من الشاي، وقطعة من الخبز وصحناً يحتوي على كمية من الحلاوة، ثم أغلق الباب واختفى دون أية كلمة

لم أجد في نفسي الرغبة بالكلام أو الحركة وبقيت مستلقياً على البطانية ثم أخذت أتسلى بتعداد خيوطها لكيلا أشعر بالوقت..

ومرة أخرى.. فتح الباب.. تناول الحارس أوعية الصباح وترك على الأرض قطعة خبز وملعقة وصحن يحتوي كمية من البرغل واللحم..

لاأدري كم مضى من الوقت، لكنني فوجئت بزيارة مدير السجن وهو ضابط برتبة نقيب يدعى الصعيدي.. خاطبني بأدب واحترام وقدم نفسه واعتذر قائلاً بأنه ينفذ الأوامر ولاخيار أمامه كعسكري، وسألني فيما اذا كنت بحاجة لبعض الكتب..؟ كان موقف هذا الضابط مطمئناً مناقضاً للإجراءات التعسفية المتصاعدة التي لقيتها منذ قيام الثورة، خاصة بعد ماسمعناه عن تصريحات بطل ثورة ٨ شباط في العراق السيد علي صالح السعدي والتي قال فيها لمستقبليه في مطار المزة: «ثورة بلا دماء ليست ثورة!!»، لذلك تلكأت بالاجابة مستغرباً ثم قلت له: «لابأس اذا كان ذلك ممكناً». ثم ودعني وانصرف، وبعد

دقـائق جاءني أحـد الحـراس بعدد من الكتب ووضعها على أرض الزنزانة دون كلام كما يضع وقعات الطعام، وانصرف.

كان ذلك عزاء لي في هذه العزلة المقيتة، لذلك تناولت أول كتاب وبدأت القـراءة الى أن سيطـر عليَّ النعـاس، فنمـت نومـاً عميقـاً الى ان أيقظني أحـد الحـراس ليرافقني لأول مرة الى باحـة السجن للنـزهة. لم يكن في السـاحة أحد سواي والحـارس الأمـين. باشـرت السـير ذهاباً واياباً، أتطلع الى السـماء تارة، وأتلفت حولي تارة أخرى، وأعد خطاي الى ان سمعت الحارس يقول: انتهى الوقت، ثم قادني الى الزنزانة وأغلق الباب. لم أعرف كم استغرق وقت النزهة ولكنني شعرت كأنه ثوان قليلة بالقياس الى الدقائق والسـاعات التي أقضيها في الحجرة المنفردة.

وقبيل غروب الشمـس من ذلك اليوم، سمعت صـوتاً يتسـرب من النافذة الصغـيرة المطلة على سـاحـة السـجن وينـاديني باسمي، أجبت الصوت، فقال مامعنـاه: «هـانحن عدد من السـجنـاء نقضي فترة النـزهة، وقد شاهدناك منذ قليـل في الســاحـة وحـدك؟» وبعد ذلك قذف أحدهم علبة سجاير «خصوصي للجيش» وكبريتة.. ياإلهي شعرت كأن زنزانتي أصبحت حديقة غناء فـيحة، أشعلت سيجــارة، وإذا بالصـوت يقـول سوف نلخص لك آخـر الأخبـار التي سمعناها في الصباح من أجهزة الراديو التي يحملها الحراس:

١ ـ تشـكـل وفـد رسمي من مجلس الثورة وعدد من الوزراء للذهاب الى القاهرة للتباحث مع الرئيس جمال عبد الناصر حول شروط إعادة الوحدة.

٢ ـ أذاعـت محطـة صوت العـرب مقـالاً لحسـنين هيكـل، هاجم فيه حزب البعث لأنـه سـرق الانقـلاب من الـوحـدويـين وحمل على الســيد صلاح البيطار رئيس الوزارة.

٣ ـ تقـول بعض الاذاعـات ان الـوفدين الســوري والعراقي يصران على الـتريث وإقـامة وحدة اتحادية لامركزية، وان تكون الرئاسة بالتـاوب وان يكون لكـل قطـر برلمـانـه، أمـا الـرئيـس عبد الناصر فيرفض هذا الرأي، ويصر على الوحدة الاندماجية.

٤ ـ تؤكد الاذاعات ان الصراع يشتد في سورية بين البعثيين والناصريين وان السوريين رفضوا عودة بعض الضباط والوزراء السوريين الذين لجؤوا الى القاهرة عام ١٩٦١، الى سورية.

وللحقيقة كان لهذه الأخبار وقع حسن في نفسي، وشعرت بمزيد من الاطمئنان وزال عني بعض القلق، «ولأن اختلاف الأئمة رحمة!!»، وخاصة بعد مالاحظته من مدير السجن، ومن وجود الكتب، وإشاعة وجودي في السجن بين السجناء الآخرين، بالاضافة الى تزويدي بالسجاير، لذلك لم أعد أهتم للعزلة وضيق الزنزانة، فأنا على صلة بالعالم الخارجي..

وفي اليوم الثالث، تكرر النداء وتلخيص الأخبار وتساقطت عليّ من النافذة عدد من علب السجاير...

بقيت على هذه الحالة أياماً وفي صباح اليوم الثامن زراني مدير السجن وحياني بأدب واحترام، وأبلغني أنه تقرر نقلي الى أحد المهاجع التي يقيم فيها عدد من السجناء.

ورافقني فوراً الى ذلك المهجع بعد ان حملت الكتب والسجاير فلم يبد عليه أي رد فعل.

وما أن دخلت المهجع حتى قوبلت بالترحيب والعناق والضحك فشعرت بأنني انتقلت من عالم مظلم معزول لاصلة له بهذا العالم، الى قاعة فسيحة مضيئة تعج بالناس، وجميعهم من الشخصيات السياسية والصحفيين المعروفين، وأذكر منهم السادة: سهيل الخوري، مصطفى البارودي، رياض الميداني، أحمد الشرابـاتي، ابراهيم الحمزاوي، وهيب الغانم، وديع الصيداوي، نوفل الياس، عبد اللطيف اليونس، هشام السمان، رفعت زريق، وفيصل سري الحسيني.. وآخرون.

احتفل بي الرفاق، وتناولت معهم الطعام الشهي الذي يعد لهم بإشراف السيد سهيل الخوري المسؤول عن التموين والعلاقات العامة، وأقيمت حولي حلقة اشترك فيها معظم نزلاء المهجع وأمطرني الأستاذ نوفل الياس بكثير من الأسئلة، وكان يغمز بأسلوبه اللاذع الذكي بي وبالدكتور وهيب الغانم

وبحماسنا للوحدة والاشتراكية، ويحمد الله على أنه عاش ليجد نفسه في السجن مع بعض العناصر التي ألقت بسورية في أحضان عبد الناصر باسم الوحدة، ويأمل الا يخرج من هذا السجن حتى يرى الآخرين فيه.

كان سروري عظيماً بوجودي بين هذه النخبة رغم اختلاف ميولهم، ومالبثت ان شعرت براحة النفس والإلفة بينهم، وساعد ذلك اتساع الغرفة والجو الثقافي والأخوي الذي تتسم به علاقاتنا الانسانية مما أضفى على هذا المجتمع الصغير طابع الندوة السياسية والأدبية. ففي بعض ساعات النهار يدور النقاش بين أنصار الوحدة، ودعاة القطرية، ثم يتحول النقاش الى أهمية الحريات وفظاعة الحكم الدكتاتوري العسكري، وفجأة ينبري الأستاذ نوفل الياس ليلقي إحدى القصائد، أوليروي بعض مغامراته ومناوراته السياسية في أيام الفرنسيين أو في المجلس النيابي قبيل الوحدة ويسرد الدور الذي قام به شخصياً لاقناع بعض قادة حزب الشعب والحزب الوطني لتأييد الوحدة بزعامة عبد الناصر، على أمل التخلص من هيمنة ضباط الجيش وحزب البعث العربي الاشتراكي والنفوذ الشيوعي.

كانت المواضيع التي تناولها الأحاديث في قاعة السجن متنوعة وصريحة، وبعيدة عن الكلفة، فالجميع في غرفة نوم واحدة، تحتوي على مصطبتين متقابلتين بارتفاع متر واحد، يفصل بينهما ممر بعرض مترين تقريباً، وفوق هاتين المصطبتين يستلقي السجناء جنباً الى جنب بصف واحد، ويلتحفون بطانية عسكرية ويفترشون أخرى، وغالباً ماينقسمون على شكل حلقات حسب مواضيع النقاش.

لقد زالت من بينهم جميع الحواجز الايديولوجية والسياسية والاجتماعية ونسوا جميع المهاترات والخصومات والمزاودات التي عاشتها سورية في الخمسينيات وأوائل الستينيات. وأصبح كل منهم يتصرف وكأنه في بيته بعيداً عن الأصول وآداب السلوك والحشمة الكمالية، والكل يتناوبون على بيت الخلاء المفتوح ويستمعون الى الانغام التي تصدر عن هذا المكان وترجع أصداؤها أحياناً في أركان القاعة الواسعة!!!..

ومن الأمانة القول بأن شخصاً واحداً كان يشذ عن هذه القاعدة فيحافظ على أناقته المعروفة ويتمسك بكل قواعد الآداب الرفيعة، ألا وهو الأستاذ سهيل الخوري. كان ينهض بوقت مبكر، فيحلق ذقنه، ويرتدي ملابسه الأنيقة، ويبدو كمن يستعد لحضور حفل استقبال رسمي.

أما السيد نوفل الياس نائب بانياس، فكان نجم المهجع، فهو تارة يلقي قصائد من الشعر، وتارة يتحدث بالسياسة أو يوجه الانتقادات اللاذعة لأحد الرفاق.

وفي أحد الأيام بينما كنت أتحدث مع جاري في المهجع النائب السابق السيد عبد اللطيف اليونس قال لي: يجب ألا تخدعك بلاغة الزميل عبد اللطيف فهو دائماً مع التيار الصاعد.

وبالنسبة إليك والدكتور وهيب الغانم فإنكم ستدفعون ثمن حماستكم للوحدة والاشتراكية.. ويوسع مجال تعليقه ويلتفت نحو الأستاذ سهيل الخوري فيقول متضاحكاً: انه لشيء يدعو للأسف، أن يكون سهيل الخوري خلفاً لفارس الخوري. ثم يلتفت نحو السادة رياض الميداني ومصطفى البارودي، ويقول: لاأدري من أغراهم بالتعدي على «كاره السياسة؟ هل كانت تنقصهم تجربة السجن والبهدلة؟.

وبعد أن وزع ملاحظاته يميناً ويساراً واطمأن الى لفت انتباه أكبر عدد من النزلاء بدأ بسرد بعض الوقائع التي أكد بأنها من أسرار السياسة في سورية ومنها على سبيل المثال:

- ان أحد كبار التجار السوريين المقيمين في لبنان، كان له دور أساسي بالاعداد لحركة ٢٨ / أيلول ١٩٦١ بالتواطؤ مع احدى الدول العربية وان المدعو «بشارة مارون» مول حملات انتخاب عدد من المرشحين للمجلس النيابي السوري بعد الحركة المذكورة.
- ان السيد اميل البستاني كان عميلاً لبريطانيا وأصبح مؤيداً للرئيس عبد الناصر ولسياسة أمريكا في الشرق الأوسط.
- وان الرئيس عبد الناصر كان يحب كميل شمعون ويقدر إمكانياته، وكان

يقول عنه : بانه اذا أراد رجلاً يتعاون معه في العالم العربي ، فإنه لن يختار إلا كميل شمعون . . ولكن شمعون خيب ظن عبد الناصر وأصبح من أكبر أعدائه لأنه حاول خلق المتاعب له في لبنان وسورية ، واستضاف مؤتمر شتورة المشؤوم وحجز حوالي خمسين غرفة وضعت تحت تصرف الوفد السوري ، وكلف بعض رجاله لحماية هذا الوفد .

أما المخطط الصهيوني الأمريكي فهو يرمي :

١ ـ لإقامة دولة كردية في العراق .

٢ ـ حماية أمن اسرائيل .

٣ ـ خلق الظروف الملائمة لإجبار المسيحيين في سورية ولبنان على الهجرة .

٤ ـ المحافظة على المصالح البترولية في البلدان العربية .

٥ ـ تصفية الوجود السوفييتي في البلدان العربية وخاصة في مصر وسورية .

٦ ـ لم تعد أمريكا بحاجة للوحدة بين مصر وسورية بزعامة عبد الناصر ، وهي تخشى بأن تؤدي ثورة العراق الى التفاهم بين قيادتي حزب البعث في سورية والعراق ، وإحياء مشروع الهلال الخصيب على أسس ومفاهيم وأهداف جديدة تتعارض مع مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية .

كنت أستمع لحديث هذا الرجل ، فلا أدري كيف يخلط الجد بالهزل ليصل الى هدفه دون ان يثير غضب المستمعين ، ويترك لهم الحرية في فهم رواياته كما يريدون . .

والحقيقة ان روحه المرحة وذكاءه وذاكرته الرهيبة وملكاته الأدبية ، ومعرفته الواسعة لتاريخ سورية ولبنان وكبار الشخصيات السياسية في البلدين ، جعلت منه شخصاً خفيفاً رغم خفة دمه ، وبفضل نكاته وقصصه الطريفة وتعليقاته أصبح المهجع رقم ـ ٢٢ ـ أقرب الى إحد المقاهي منه الى سجن ، فهناك مجموعة تلعب الورق ، وأشخاص يطالعون ، وآخرون يستمعون لقصيدة شعر

وبعضهم يعد الطعام، وفي أحد الزوايا سجين يغسل قميصاً وآخر يغط في نومه ويشخر، أما المرحاض فهو المكان الذي لايخلو من الزبائن ليل نهار . . . .

كنت أخلو أحياناً مع الدكتور وهيب الغانم، وقد حدثني عن سوء المعاملة التي لقيها عند اعتقاله . كما أعلمني بأن بعض الضباط أطلعوه على مشروع الاتحاد الذي حمله الوفد السوري الى القاهرة ورفضه الرئيس عبد الناصر . ويتلخص المشروع بما يلي :

١ ـ سورية تصر على ألا تخطو أية خطوة وحدوية إلا في الحدود التي يوافق عليها الوفد العراقي .

٢ ـ يجب ان يقوم الاتحاد على أساس التكافؤ بين البلدان المتحدة من جميع الوجوه .

٣ ـ ان يكون الاتحاد لامركزياً .

٤ ـ ان يتشكل مجلس رئاسة للاتحاد يتألف من عدد متساوٍ من البلدان المتحدة .

٥ ـ ان يحتفظ كل بلد عضو بالاتحاد بعضويته في الجمعية العامة للأمم المتحدة، وان يكون له رئيس جمهورية ومجلسه التشريعي .

يوميات السجن :

الجمعة في ٢٢/٣

استمعت للراديو في المهجع الى تعليق محمد حسنين هيكل الأسبوعي وكان أهم مافيه :

أ ـ ان صمود الجمهورية العربية المتحدة وحدها ونضال الوحدويين في سورية وتراجع قسم من البعثيين المرتدين هو الذي فرض الالتقاء الجديد الحتمي .

ب ـ ان من يقاوم هذه الإرادة يلقى مصير ذلك الأب اليمني الذي قطع ابنه

رأسه وعلقه على باب صنعاء عندما خان ثورة اليمن وقتل بعض العسكريين المصريين وانضم الى البدر.

كما سيكون مصيره كمصير الطيارين العراقيين الشيوعيين الذين دُمرت طائراتهم في مطار بغداد قبل بدء الثورة. أو مصير جماعة الانفصاليين في سورية. . .

وكان واضحاً من هذا التعليق ان الاعلام المصري يحرض على القتل وإراقة الدماء في سورية.

ج - ان الرئيس عبد الناصر لايقبل أن تكون الوحدة شكلية، وأن الجماهير وحدها هي التي ستقرر المصير المحتوم، وانه يقبل أن يسير الى الحد الذي يرضي العراق وسورية، شريطة وحدة الهدف وهو القضاء على الشيوعيين والانفصاليين والرجعيين. .

د - ان أسطورة البطل أصبحت مجسدة للوحدة وللمضمون الاجتماعي المعبر عن الاشتراكية.

هـ - انه لايقبل ان يتعاون مع البعثيين إلا اذا طردوا من صفوفهم العناصر المرتدة وهو يفرق بين البعثيين في العراق الذين قاموا بالثورة وبين البعثيين في سورية الذين قاموا مع غيرهم من العناصر الوحدوية بالثورة.

و- ولهذا فهو يرضى أن يكون للبعث العربي دور جماهيري لحماية الثورة على أن تتجمع الجهود للجمع بين القوى الثورية ويعني ذلك الاتحاد الاشتراكي العربي وحزب البعث وغيره.

ح - يعترف الرئيس بالأخطاء ولكنه لايذكر بينها أي خطأ له ويلخصها كمايلي:

١ - التساهل مع الرجعية.

٢ - عدم تطهير الجهاز الحكومي وجعله في مستوى الثورة.

٣ - عدم الاكتراث بالصراع الشخصي داخل الحكم من أجل الاختصاصات الذي كان يهدم الوحدة من داخلها.

إن الشيء الهام بين سطور المقال هو وضع البعثيين أمام الأمر الواقع

وإطلاع الرأي العام على شروط الرئيس عبد الناصر في المفاوضات معهم وتهديد كل من يتطاول على معارضة مخططه بالمصير الذي لقيه ذلك اليمني على يد ابنه، كما ويريد أن يضع البعثيين في وضع الياباني الذي ينتحر بطريقة الهاراكيري ليضربوا بيدهم رفاقهم باسم الوحدة . . . ثم يضعهم بين يدي القدر ويحتفظ بحق الحكم عليهم مع أتباعه من الناصريين.

ويبدو أن الغاية من وجود وهيب الغانم وأمثالنا في السجن ومطاردة بعض رفاقنا مثل أكرم الحوراني وأمين النفوري بمثابة وسيلة لإظهار حسن نية النظام واستعداده لضرب كل من تجرأ على انتقاد الوحدة الاندماجية اذا استدعت الظروف ذلك لاسترضاء الرئيس والقوى الناصرية في سورية.

السبت في ٢٣/٣/ اليوم التاسع:

الأخبار تقول ان النية متجهة الى الافراج عن المعتقلين السياسيين لأنه ليس بينهم من له من الجرائم بحق الوحدة أو غيرها مايستحق المحاكمة كما أذاعت بعض الاذاعات مايؤكد ذلك.

. . . وفي هذا اليوم حدثني السيد نوفل الياس عن مقومات الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨م كما يعرفها هو فذكر أنه في إحدى الجلسات عام ١٩٥٧م عندما ناقش المجلس النيابي مسألة القرض السوفييتي لسورية قام هو واعترض على الاتفاقية قائلاً: بأنه مادامت هناك مباحثات واتصالات مع مصر من أجل إقامة الوحدة بين البلدين فلماذا نحاول أن نفرض اتفاقيات على الدول التي تتعاقد معنا مادمنا لانعرف هل سيكون الاتحاد وحدة كاملة أو اتحاداً فيدرالياً. . «فقوبلت كلمته بالامتعاض من قبل حكومة (التجمع) التي يدعي بأنها جاءت من أجل الاتحاد مع مصر» وقال السيد صبري العسلي رئيس الوزراء آنذاك يا أخي إننا متفقون مع مصر على هذه الاتفاقية... وفي الليلة نفسها استدعاه محمود رياض سفير مصر في دمشق وعاتبه على حديثه، فقال له: ماذا تريدون أن تعملوا؟ فأجابه: بأن هناك اتصالات مع قائد الجيش شوكت شقير وحزب البعث من أجل إقامة وحدة مع مصر، فقال نوفل: ولكن هؤلاء لايمثلون البلد فلماذا لاتوسعون اتصالاتكم؟ فما كان من رياض إلا أن طلب اليه أن يذهبا معاً

الى بيروت لاتمام البحث. وبالفعل فقد ذهب مع محمود رياض الى السفارة المصرية واجتمعا مع السفير المصري عبد الحميد غالب وهناك اقترح عليهما أن يقوم نوفل بالاتصال بالسادة:

رشدي الكيخيا وميخائيل اليان وصبري العسلي لإقناعهم بالعمل مع عبد الناصر لإقامة الوحدة وأرسل عبد الحميد غالب سفير مصر في لبنان برقية يسأل القاهرة وجاء الجواب بالموافقة.

قام بعد ذلك نوفل الياس بزيارة السيد رشدي الكيخيا وأطلعه على ماتم بينه وبين محمود رياض فوافق على المبدأ وهيأ له اجتماعاً مع محمود رياض في دمشق. وعندما أمن ذلك اعتذر نوفل الياس عن حضور المباحثات قائلاً: بأنه يخشى على الحديث من لسانه!!.. ولكنه بعد أن عاد الى محمود رياض أطلعه بأنه تم الاتفاق على كل شيء. ثم تابع مهمته مع ميخائيل اليان الذي رفض الاجتماع مع سفير مصر، وقال: بأن سورية ستصفى خلال /٤٠/ يوماً؛ وان عبد الناصر لايمكن أن يصل الى سورية. وعندما اجتمع محمود رياض معه وأخبره اتصل محمود رياض بالزعيم شوكت شقير واستعرضا الوضع فثار شقير وقال: بأننا سنظهر إضبارة المؤامرة على سورية من حلف بغداد وسيرى المعارضون من حزب الشعب والحزب الوطني بأن مصيرهم سيكون السجن، فإذا عارض صبري العسلي فإننا سنكشف مؤامراته والأموال الطائلة التي قبضها من العراق وغيرها وهي تزيد عن مئات الألوف من الجنيهات، وكان رشدي الكيخيا يقول بأن هناك جناحاً معارضاً للوحدة في حزبه ومن هذا الجناح السيد عدنان الأتاسي. وأبدى نوفل استعداده لإقناع صبري العسلي بالسير مع الوحدة ولكنه اشترط أن تهيأ الظروف لميخائيل اليان بالهروب خارج سورية وأن يترك له الأمر لانذاره. ويبدو أن الزعيم شقير والسفير محمود رياض وافقا على ذلك وبالفعل ذهب اليان الى لبنان ولم يعد الى سورية بعد ذلك.

وعندما استعرضت معه أسباب اعتقال كل السياسيين الموجودين في السجن معنا كان رأيه كمايلي، لقد اعتقل شخص بسبب الدور الذي قام به بين بطريرك الموارنة المعوشي وبين السادة ناظم القدسي وخالد العظم بالاضافة الى

معارضته لسياسة عبد الناصر في لبنان، وذكر لي خطابه أثناء استقبال البطريرك المعوشي عند عودته من أمريكا وقال فيه:

(لاناصر فيك ولاسلال!!).

أما رياض الميداني فهو هنا بدلاً من ناظم القدسي. وأما اعتقال وهيب الغانم واعتقال أحمد عبد الكريم ومطاردة جماعة القيادة القطرية فمن أجل استرضاء الرئيس عبد الناصر وإبداء حسن النية للتفاهم معه على اقامة وحدة مقبولة ومدروسة.

أما الدكتور وهيب الغانم فقد حدثني في أحد الأيام بأنه قابل قبل اعتقاله أحد المسؤولين من مجلس الثورة اليوم فأكد له بأنهم مستعدون لعزل العناصر الناصرية من الجيش وجهاز الحكم وأن معظم القوى الضاربة أصبحت في يد حزب البعث العربي الاشتراكي، وأضاف هذا المسؤول بأن الناصريين كانوا يريدون القيام بحركة دموية واعلان الوحدة الفورية منذ اليوم الثاني للثورة ولكن بعض عناصر مجلس القيادة وقفوا موقفاً حازماً وابعدوا الضباط الخطرين من الناصريين وبدؤوا منذ ذلك الوقت بتصفية هذه العناصر من المراكز الحساسة والوحدات المدرعة..

كما علمت أنه تم اعتقال كل من السادة مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت في البداية ثم أخلي سبيلهما وهما الآن في منزليهما تحت الحراسة وقد سُمح البارحة لهم بأن يستقبلوا الزوار، وقد حاول الناصريون وبدون علم القيادة في حماة اعتقال الاشتراكيين ولكن القيادة أخلت سبيلهم واعتقلت الناصريين بدلاً عنهم.

الأحد ٢٤/٣/٦٣:

أذيعت المراسم التشريعية الخاصة بعزل بعض السياسيين وبلغ عددهم /٧٤/ شخصاً كان من بينهم السادة: أكرم الحوراني ـ وخليل كلاس ـ وأمين النفوري ـ ووهيب الغانم ـ والدكتور بشير العظمة ـ وأحمد عبد الكريم وغيرهم.

وقد تأكد لنا من مصادر موثوقة ان هذا القرار كان الشرط الأول من الرئيس عبد الناصر للبدء جدياً بمباحثات الوحدة .

أصبح من الواضح تماماً من لهجة الاذاعتين المصرية والسورية أن الهوة تتسع يوماً بعد يوم بين النظام الجديد في سورية وبين الرئيس عبد الناصر وان هذه المواقف تخفي حقيقة واحدة هي : أن الطرفين لايريدان إعادة الوحدة الاندماجية وان ثورة ٨ آذار أصبحت «بعثية» وان الرئيس عبد الناصر لايفكر بالوحدة ويحاول إلقاء مسؤولية عدم إعادتها على الآخرين أي على حزب البعث في سورية .

وهكذا بدا لنا أن إقامتنا في السجن لم يعد لها معنى وأن الأمر لايعدو كونه مسألة وقت وان تهمة الانفصالية لم يعد لها مايبررها .

الأحد في ١٥/ ٤/ ١٩٦٣ :

وفي الساعات الأولى من يوم ١٥ نيسان حضر الى المهجع مدير السجن وطلب إلي أن أجمع لوازمي دون أن يفصح عن السبب وبعد دقائق تلقى مدير السجن قرار الإفراج عني وعن السيد هشام السمان محافظ اللاذقية وحملتنا سيارة جيب حوالي الساعة الثالثة صباحاً الى منازلنا . ومما لاحظته عند مرور السيارة في شوارع دمشق أنها تبدو كمدينة مهجورة ليس فيها سوى الكلاب الشاردة التي تبحث في القمامة عن شيء تقتات به . وفي نفس اليوم أُبلغت بفرض الإقامة الإجبارية علي في منزلي ففرحت لأن في هذا الوضع الجديد ميزة العيش بين الأهل والأبناء واستنشاق الهواء بحرية نسبياً على الأقل ! ! .



الـوثـائــق

الوثيقة رقم - ١ -

بسم الله الرحمن الرحيم
ميثاق الوحدة الوطنية
في الجمهورية العربية السورية

نحن الموقعين على هذا الميثاق بوصفنا نفراً من العاملين في ميدان الخدمة الوطنية والقضية القومية إيماناً منا بالدور التاريخي الذي تهيأت له سورية في فجر النهضة العربية الحديثة، فكانت في طليعة الصف العربي المكافح عن وحدة العرب واستقلال الوطن العربي في شتى أجزائه من الخليج الى المحيط ومن ذرى طوروس وأوراس الى أعماق افريقيا العربية.

وبأن سورية، من أجل هذه الغاية المثلى، قد تقدمت فخطت الخطوة الأولى في طريق تحقيق الوحدة العربية، حين سلمت أمورها تسليماً في اطار الجمهورية العربية المتحدة التي فشلت في طريقة حكمها وعملها فشلاً شوهت معه قدسية الوحدة في ذاتها، فأوشك أن يتزعزع اليقين العربي في القلوب المكينة.

وبأن الوحدة العربية باتت مهددة بخطر فشل التجربة المصرية السورية، لولا ثورة الجيش العربي الباسل في سوريا التي انبثقت في الثامن والعشرين من ايلول ١٩٦١، وولدت معها من جديد في الميدان الدولي «الجمهورية العربية السورية» التي باركها الشعب كله فالتف من حول القيادة العربية الثورية العليا

باندفاع وحية وثبت أركان الدولة فمضت في طريقها البناءة لخير الشعب العربي كله في الوطن العربي عامة وفي هذا الجزء من الوطن خاصة».

وتمسكاً منا بالمبادىء التي قامت عليها ثورة الثامن والعشرين من أيلول، المبادىء التي تنبع من أعماق ارادة الشعب العربي في الجمهورية العربية السورية، سواء في اطار الوحدة العربية أم في اطار العمل الداخلي من أجل تحقيق الاشتراكية العادلة والديمقراطية الصحيحة، وفقاً للأسس الآتية:

أولاً ـ في الوحدة العربية:

١ ـ انشاء وحدة عربية طوعية شاملة على أساس لامركزية دستورية، بحيث تحقق هذه الوحدة تكافؤ الأقطار العربية وتضمن تكافلها وتصون ميزاتها وضروراتها المحلية، في اطار من الحرية والمبادىء الديمقراطية الصحيحة.

٢ ـ اقامة النهضة العربية في جميع مرافقها على الاتجاهات الأصيلة المتجلية في المبادىء الخلقية والقيم الروحية التي تؤمن بها الأمة العربية.

ثانياً ـ الاشتراكية العربية وأسسها الاجتماعية:

١ ـ تقوم الدولة بتطبيق المبادىء الاشتراكية السليمة التي تؤمن الازدهار الاقتصادي بالعمل على زيادة القدرة الانتاجية في شتى مجالات النشاط الاقتصادي، وتكفل العدالة الاجتماعية بحسن توزيع الانتاج للوصول الى تحقيق الانعاش الاجتماعي.

٢ ـ تتدخل الدولة في شؤون التموين ومراقبة الأسعار، وتقاوم الاحتكار والاستغلال للحيلولة دون تمركز رأس المال لما يؤدي الى التحكم والسيطرة، وتعمل لفسح المجال أمام صغار المدخرين للمشاركة في قدر واسع من المنشآت الصناعية الفعاليات الاقتصادية.

٣ ـ تؤمن الدولة أن من أهم واجباتها توفير العمل للمواطنين وصون حقوق الفئات العاملة مستهدفة رفع مستواها المعاشي والثقافي والاجتماعي والمهني .

٤ ـ تعمل الدولة على صيانة العمال من التسريح التعسفي وعلى توكيد مكاسبهم الاجتماعية وتأمين الحريات النقابية ، وعلى رعاية منظمات العمال ومدها بالمعونات المالية والفنية وتوفير الثقافة العمالية لها ، والتقيد باتفاقات العمل الدولية .

٥ ـ توفق الدولة التشريعات العمالية والاجتماعية مع الخطة الاشتراكية للدولة وتعمل على الاستزادة من مكاسب العمال .

٦ ـ تعمل الدولة على اشراك العمال في ادارة الشركات والمؤسسات واعطائهم نصيبهم من الأرباح .

وعلى خلق روح التعاون بين أصحاب الأعمال والعمال واتباع قاعدة التشاور الثلاثي في دراسة قضاياهم المشتركة لاسيما المتعلق منها بتنظيم العمل وتحسين شروطه وزيادة الانتاج وبالتالي لتوطيد العلاقات الانسانية الخيرة بينهم .

وعلى التوسع في تأمين الخدمات الاجتماعية الصحية للعامل ولافراد أسرته وحمايته من طوارىء العمل والمرض والبطالة وتوفير العيش الانساني الكريم له في شيخوخته وعجزه ، وعلى حماية حد أدنى من الأجر يؤمن للعامل حاجاته الاساسية ويكفل له حياة انسانية كريمة .

٧ ـ تعمل الدولة على حماية الطفولة والأمومة ، ورعاية الشيوخ والعاجزين . وعلى مكافحة الأمراض والأدواء الاجتماعية .

وعلى تحسين المستوى العام في التغذية والمسكن والتربية .

٨ ـ تشجع الدولة الحركة التعاونية بنشر الوعي التعاوني وتأمين مقومات نجاحها في الميدان الزراعي والاقتصادي والسكني .

٩ ـ تعمل الدولة على تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين في جميع الميادين .

الاصلاح الزراعي في اطار الاشتراكية العربية :

١ - تتمسك الدولة بمبادىء قانون الاصلاح الزراعي باعتباره عاملاً أساسياً في تحقيق العدالة الاجتماعية وزيادة الانتاج القومي وتعلق سكان الريف بالأرض تعلقاً وثيقاً.

٢ - تتعهد الدولة بالحفاظ على جميع الحقوق المكتسبة للفلاحين المتفعين بالاصلاح الزراعي وتساعدهم على تثمير أراضيهم وتطويرها.

٣ - تتبنى الدولة حفظ حقوق الملاكين المشمولين بالاصلاح الزراعي وتسديد قيمة أرضيهم بشكل عادل وخلال مدة معقولة ورفع الحيف الناجم عن سوء تطبيق قانون الاصلاح الزراعي.

٤ - تعمل الدولة على توفير المساعدات المالية والفنية والارشادية لكل فلاح تؤول إليه الأرض ليستطيع مباشرة العمل والاستثمار بشكل منتج صحيح.

والدولة اذ تعني بوجه خاص بتطبيق المبادىء المذكورة تحرص على حماية الفلاح وشد أزره وإيصاله الى مستوى من العيش اللائق الكريم وحماية مكاسبه وتحقيق جو من العلاقات الانسانية الخيرة بين العاملين في الأرض من ملاكين ومزارعين وعمال زراعيين.

٥ - تعمل الدولة على الاهتمام بشؤون الريف والقرية وتأمين الماء والكهرباء فيهما وتوسيع المدارس وتحسين طرق المواصلات وتأسيس المستشفيات ونشر وتطوير الصناعات المنزلية ومساعدة المزارعين والعمال الزراعيين وحفظ حقوقهم ومكاسبهم ورفع مستواهم.

ثالثاً - مبادىء الحكم الديمقراطي :

آ - الشعب العربي السوري مصدر السلطات جميعاً في الجمهورية العربية السورية.

ب ـ نظام الحكم في الجمهورية العربية السورية نظام برلماني ديمقراطي.
جـ ـ يضمن الدستور جميع الحريات العامة للمواطنين.
لهذا، وبناء على هذه المبادىء، وحرصاً منا على أن تخطو الجمهورية العربية السورية خطواتها الواثقة المطمئنة على طريقها العربية الصاعدة فتخط في التاريخ العربي الجديد صفحات مشرقة في حياة الشعب العربي تقرأها الأجيال العربية الطالعة باعتزاز واجلال وتكمل السعي الى بناء المجد العربي على مشارف الخلود، فاننا نعلن،

أننا بهذا الميثاق نشهد الله على أن نعمل بكل قوانا على تدعيم قيام الجمهورية العربية السورية القائمة على المبادىء والأسس السالفة ذكرها كيما تتم جمهوريتنا الحبيبة دورها التاريخي في خدمة الشعب العربي،

وذلك في اطار من:

سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز في الميدان الدولي،

وتحرير الأرض المغتصبة من فلسطين والجزائر وعمان وسائر الأجزاء المحتلة من الوطن العربي،

وتحقيق مزيد من الأخوة والتآزر والتعاضد في الميدان الداخلي، حتى نكفل للوطن رفعته، وللمواطن كرامته، ونظفر برضوان الله وتأييد الشعب.

والله أكبر والعزة للعرب

أحمد عبد الكريم	أحمد قنبر	أديب باغ
ادمون حمصي	أسعد كوراني	أسعد هارون
أكرم الحوراني	أمين نفوري	أنيس شعراني
بدر الدين علوش	بشير العظمة	توفيق نظام الدين
جلال السيد	حامد الخوجة	حسن الحكم
حمادى الأسعد	خالد العظم	خلوصي الكزبري
دهام الهادي	رشاد برمدا	رشاد جبري
رشيد الدقر	رياض المالكي	رياض ميداني
زهير شطي	سلامة عبيد	سلطان الأطرش

سعيد الغزي	سهيل الخوري	صبري العسلي
صلاح الدين البيطار	طلعت التغلبي	ظافر القاسمي
عبد العزيز صلاح	عبد الرحمن العظم	عوض العامري
عبد الله عبد الدائم	عبد السلام العجيلي	عبد الكريم فياض
عبد الفتاح الزلط	عبد الرحمن كيالي	عزيز عبد الكريم
عرفان الجلاد	علاء الدين الجابري	فتح الله الصقال
فؤاد دهمان	فريد أرسيلانيان	فهمي الحكيم
فيليب كبا	لطفي الحفار	ماجد صفية
مكرم الأتاسي	محمد سعيد الزعيم	محمد طلس
محمد مبارك	محمد نعمة	منير شورى
نديم شومان	نصوح بابيل	يوسف أبو حمود
هاني السباعي	زهير الحسيني	

الوثيقة رقم - ٢ -

الجلسة الأولى في ١٢ كانون الأول ١٩٦١
٤ - المرسوم رقم ٥٤٠ بدعوة المجلس التأسيسي والنيابي للاجتماع :
المرسوم رقم ٥٤٠

إن رئيس مجلس الوزراء
بناء على احكام المادة الثالثة من الدستور المؤقت للجمهورية العربية السورية وعلى المرسوم رقم ٥٣٩ تاريخ ٥/ ١٢/ ١٩٦١
وعلى قرار مجلس الوراء رقم ٣٨٠ تاريخ ٥/ ١٢/ ١٩٦١
يرسم مايلي :

المادة ١ - يدعى المجلس التأسيسي والنيابي للاجتماع في الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء الثاني عشر من كانون الأول ١٩٦١ .
المادة ٢ - ينشر هذا المرسوم ويبلغ من يلزم .
دمشق في ٥/ ١٢/ ١٩٦١

رئيس مجلس الوزراء
عزة النص

الرئيس - والآن يتلو عليكم أمين السر المرسوم المتضمن تسمية أعضاء المجلس .

٥ ـ المرسوم ٥٣٩ بتسمية السادة أعضاء المجلس التأسيسي والنيابي :

الملحق رقم ـ ـ

أعضاء المجلس التأسيسي والنيابي الذي تم انتخابه

مرسوم رقم ٥٣٩

إن رئيس مجلس الوزراء

بناء على قانون الانتخابات العامة المصدق بالمرسوم التشريعي رقم ١٧ تاريخ ١٠ ايلول ١٩٤٩ وتعديلاته ولاسيما المرسومين التشريعيين رقم ٥٦ تاريخ ٢٦/١٠/١٩٦١ ورقم ٨٧ تاريخ ١٢/١١/١٩٦١

وبناء على المرسوم رقم ٢٣١ تاريخ ١٢/ ١١/ ١٩٦١ المتضمن تحديد موعد انتخاب ممثلي الشعب في المجلس التأسيسي والنيابي .

وعلى المرسوم رقم ٢٤٦ تاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٦١ المتضمن تحديد عدد نواب الدوائر الانتخابية .

وعلى محاضر انتخابات اللجان المركزية المنصوص عنها في المادة المتعلقة بقانون الانتخابات العامة .

وعلى اقتراح وزير الداخلية .

يرسم مايلي :

١ ـ بمقتضى الانتخابات العامة الجارية وفقاً لاحكام قانون الانتخابات بتاريخ الأول والثاني من كانون الأول ١٩٦١ يعتبر السادة المدونة اسماؤهم فيما يلي أعضاء في المجلس التأسيسي والنيابي .

الدائرة الانتخابية	الأعضاء المسلمون	الأعضاء غير المسلمين
دمشق	خالد العظم	عوض بركات
	مأمون الكزبري	سهيل الخوري
	عصام الدين العطار	حنين صحناوي

محمد عبد الرزاق عابدين
صبري العلي
حسين خطاب
محمد سعيد الغزي
محمد رشاد جبري
فؤاد العادل
عدنان القوتلي
محمد رشيد الدقر
عمر عبد الله عودة الخطيب
محمد زهير مصطفى الجاويش
محمد بشير عبد الله رمضان
الغوطتان — محمد سعيد بن كامل العبار
عبد الرؤوف أبو طوق
مظهر الشربجي
دوما — محمود الحكيم
أحمد اسماعيل
محمد صبحي طه
محمود العظم
النبك — أمين النفوري
ابراهيم طيفور
القطيفة — محمود محمد دياب
الزبداني — جميل الشماط
القنيطرة — فاعور بن الأمير محمود
عبد الرزاق الطحان
عبد الرحمن ايوب
قطنا — حسين مربود

	عادل عجلاني	
درعا	ابراهيم رزق أبا زيد	
	عبد اللطيف المقداد	
	محمد مفلح الزعبي	
ازرع	أحمد عبد الكريم	
	عبد الحميد الخليل	
	محمد خير الحريري	
الزاوية	خالد السرحاني	
السويداء	حسين مرشد	
	نايف جربوع	
صلخد	محمد مصطفى الأطرش	
شهبا	نواف حسن عامر	
حمص	راتب الحسامي	عبد الله فركوح
	فيضي الاتاسي	مسلم حداد
	طيب الخوجا	
	محمد مشعل	
	فرحان الجندلي	
	سامي طيارة	
	سعيد التلاوي	
	هاني السباعي	
	منيب رسلان	
جب الجراح	أحمد ضحية	
تدمر	منير أحمد الفياض	
تلكلخ	منصور توفيق الحسن	خليل جرجس دعاس
	عبد الكريم دباح الدندشي	
حماة	حسن أكرم الحوراني	خليل كلاس

	مصطفى حمدون	
	عبد الغني قنوت	
	عبد العزيز عثمان	
	محمد علي عدي	
	محمط عطورة	
السلمية	مصطفى ميرزا	
	مصطفى تامر	
سمن السمين	محمد بن عبد الكريم ديوب ناصر	
مصياف	قحطان عزيز هواش	
	محمد سليمان علي معروف	
	عبد الهادي أحمد عباس	
الحسكة	محمد رشاد الزوبع	زيا ملك اسماعيل
	خليل ابراهيم باشا	
	كعود خالد الطلاع	
الشدادة	سليمان علي الأسعد	
القامشلي	عبد الرزاق الحسو	الياس نجار
	عبد الرزاق النايف	
	طلعت عبد القادر	
ديريك (المالكية)	دهام نايف بك مصطفى باشا	
دير الزور	عبد الصمد الفتيح	
	راغب البشير	
	جلال السيد	
	عبد الرحمن الهنيدي	
	عبد الكريم الفرحان الفياض	
الميادين	عبود الجدعان	
	احمد شاشان	

البوكمال	دحام رجا الدندل	
	فهد متعب الدندل	
الرقة	فيصل الهويدي	
	حامد الخوجا	
	مصطفى الكعكة جي	
تل أبيض	خلف الحسان	
عين عيسى	مجحم بن مهيد	
حلب	معروف الدواليبي	ارام فره مانوكيان
	محمد رشاد برمدا	ليون زمريا
	محمد علاء الدين بهيج الجابري	
		نعوم السيوفي
	محمد أسعد كوراني	كركور ابلغاتيان
	عبد السلام كنعان	جوزيف جرمق
	عبد الفتاح أبو غدة	
	أحمد قنبر	
	عبد الخالق نهاد ابراهيم باشا	
	مصطفى الزرقا	
	بكري القباني	
	محمد طلس	
جبل سمعان	حسين علي شاهين عواد	
	حسن عبد الكريم دندل	
	محمد عزت بن عارف آل ابراهيم باشا	
	اسماعيل بن الحاج بركات الناصر	
	احمد توفيق طاهر آغا عبد الكريم	
الباب	طاهر الحاج فاضل	
	عبد الله جسومة	

	أحمد علي آغا
عين العرب	شاهين مصطفى شاهين
	عصمت بوظان شاهين
منبج	دياب بن حاجي شواخ الماشي
	ابراهيم بن شلاش ابراهيم
	محمد حازم بن وفا اللبني
عفرين	محمد منان شيخ اسماعيل زادة
	أحمد جعفر شيخ اسماعيل زادة
	محمد نوري عارف
	محمد ذهني عثمان آغا
اعزاز	احمد بن الحاج محمد حسن كنو
	نافع بن محمد هادي بكار
	علي بن حسن جنيدان
جرابلس	علي محلي ابراهيم
ادلب	محمد أديب اصفري
	عبد الحميد دويدري
منطقة ادلب	حسن مصطفى حاج حسين
	حكمت عبيدين
	محمد فهمي عاشوري
جسر الشغور	نعسان زكي النجاري
	نجدت بن حسيب بكري النجاري
معرة النعمان	أحمد نور اليوسفي
	عماد الدين الحراكي
حارم	الوليد بن أحمد عبد الرحمن
	ناظم بن سعيد الكيالي

اللاذقية	نبيل الطويل	عادل مرقص
	محمد الشواف	
منطقة اللاذقية	الدكتور وهيب الغانم	
	منير الحافظ	
الحفة	محمد علي كامل	
	نديم مصطفى اسماعيل	
جبلة	محمد نذير بن محمد راغب علي أديب	
جبل علي	أحمد شفيق كنج	
	عثمان حسن أسبر	
	أحمد علي الكامل	
بانياس	الشيخ محمود حبيب	
	محمد الحسن	
طرطوس	بديع اسماعيل	
	رياض عبد الرزاق	
	محيي الدين مرهج	
صافيتا	منير العباس	رفيق بشور
	محمد أمين رسلان	
	عبد اللطيف اليونس	
عشائر شمر الخرصة	دهام الهادي	
عشائر شمر الزور	ميرز عبد المحسن	
عشائر بلدية الشام		
بما فيها الحسنة	متعب بن فواز الشعلان	
	تامر بن طراد الملحم	
عشائر بادية تدمر		
(حمص وحماه)	الأمير عبد الابراهيم بن ابراهيم باشا الابراهيم	
عشائر الحديديين	فيصل نواف الصالح	

٢ ـ ينشر هذا المرسوم ويبلغ من يلزم لتنفيذه.
دمشق في ٥/ ١٢/ ١٩٦١

وزير الداخلية	رئيس مجلس الوزراء
عبد السلام الترمانيني	عزة النص

الرئيس ـ لدينا الآن الفقرة المتعلقة بانتخاب رئيس المجلس وقبل أن نبدأ عملية الانتخاب أرجو من الاخوان السادة محمد عطورة، عصام العطار، وعبد السلام كنعان أن يتفضلوا بقبول مهمة المراقبة لعملية الاقتراع والكلمة للسيد حسن عبد الكريم.

السيد حسن عبد الكريم ـ سيدي الرئيس لقد ورد اسمي في التلاوة خطأ، فأرجو تصحيحه على الشكل التالي (حسن عبد الكريم).

الرئيس ـ يصحح الاسم كما أشار إليه حضرة النائب.

الوثيقة رقم ـ ٣ ـ

الجمهورية العربية السورية
المديرية العامة للأنباء
شعبة النشرة رقم /٩٢/

ملحق النشرة الأنباء الداخلية
مساء يوم الاثنين ١٦/ ٤/ ١٩٦٢

تشكيل الحكومة الانتقالية
برئاسة الدكتور بشير العظمة

في الساعة الثانية والعشرين من مساء اليوم الثالث عشر من شهر ذي القعدة عام ١٣٨١ هجرية والموافق للسادس عشر من نيسان عام ١٩٦٢ ميلادية وقع الدكتور ناظم القدسي رئيس الجمهورية العربية السورية مرسوماً برقم /٦٧٨/ بقبول استقالة السيد الدكتور محمد معروف الدواليبي اعتباراً من غاية يوم ٢٧/ ٣/ ١٩٦٢.

كما وقع مرسوماً برقم / ٢٨٠ / يقضي بتسمية أعضاء الوزارة وقد تم تأليف الوزارة على الشكل التالي :

الدكتور بشير العظمة	رئيساً لمجلس الوزراء
الاستاذ رشاد برمدا	نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للتربية والتعليم والزراعة
السيد أحمد عبد الكريم	وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل والاصلاح الزراعي
الاستاذ رياض الميداني	وزيراً للشؤون البلدية والقروية والتموين
الدكتور عدنان الازهري	وزيراً للخارجية
الاستاذ رشيد حيدان	وزيراً للعدلية والاوقاف
الاستاذ جورج خوري	وزيراً للمالية
المهندس صبحي كحالة	وزيراً للمواصلات والتخطيط
الدكتور عبد السلام العجيلي	وزيراً للثقافة والارشاد القومي
الدكتور نهاد الساعي	وزيراً للاقتصاد
الدكتور احسان الرفاعي	وزيراً للصحة والاسعاف العام
الاستاذ عبد الحليم قدور	وزيراً للداخلية
المهندس روبير الياس	وزيراً للصناعة والاشغال العامة
الدكتور عبد الله عبد الدائم	وزيراً للاعلام

ويتولى القائد العام للجيش والقوات المسلحة صلاحيات واختصاصات وزير الدفاع الوطني.

وقد حددت مهام هذه الوزارة في تصريح للدكتور عبد الله عبد الدائم وزير الاعلام بتنفيذ الأمور العامة التالية:

١ ـ وضع أسس عامة ومفصلة لموضوع الوحدة العربية مع الأقطار الشقيقة، وذلك ضمن مشروع خاص للوحدة لعرضه على الشعب السوري. على أن يوضح هذا المشروع بعد دراسات عامة تقوم بها الحكومة، ثم يقدم الى الشعب السوري ليقول كلمته به عن طريق الاستفتاء العام.

٢ ـ وضع الدستور الدائم للجمهورية العربية السورية وعرض الدستور على الاستفتاء الشعبي أيضاً.

٣ ـ وضع قانون الانتخابات العامة، على أن يتضمن تلافي الأخطاء في القوانين السابقة.

٤ ـ تنظيم الحريات العامة بما يضمن بناء حياة ديمقراطية سليمة.

٥ ـ دراسة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية واعادة النظر بالخطوات التي تمت في الفترة الماضية بعد انقلاب ٢٨ ايلول/ ١٩٦١.

الوثيقة رقم ـ ٤ ـ

الجمهورية العربية السورية
المديرية العامة للأنباء
شعبة النشرة

تاريخ ٢١/ ٤/ ١٩٦٢
الرقم :
نشرة الأنباء الداخلية

البيان الوزاري الذي قدمته وزارة الدكتور بشير العظمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشعب الكريم ،

في هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها بلادنا ويجتازها العالم العربي ، أقدمت الحكومة على الاضطلاع بمسؤوليات الحكم الجسام ، تلبية لنداء الواجب القومي . الكل يعلم أن الحين حين تعبئة كاملة لطاقات الشعب والحكومة ، في اطار منسجم قوي ، يحقق الاستقرار ويضمن أهداف الأمة في الوحدة والتطور والتحرر السياسي والاجتماعي .

أيها المواطنون ،

لقد اضطلعت الحكومة بأعبائها في ظروف حرجة، وبعد سلسلة من التقلبات والازمات إيماناً منها بتصميم الشعب وقدرته على أن يضع أهدافه موضع التنفيذ، ويقيناً منها بأن الذي يقلب الازمات قوى بناءة، هو القدرة على الخروج منها، العزيمة على استخلاص الدروس الذي ترشد إليه.

إن سورية العربية التي أعدتها الظروف المختلفة، لتكون في مقدمة الطليعة العربية، أدركت منذ بداية نضالها ضد الحكم العثماني والاحتلال الأجنبي، ان أدواء الأمة العربية كلها ترتد الى ثلاثة كبرى هي: الاستعمار والتجزئة والتخلف، وان هذه الأدواء مترابطة لاسبيل الى التغلب على واحد منها، دون مغالبة الآخر في الوقت نفسه.

ولقد تبدى لسورية خلال تجاربها الحقة، أن الوجود السليم الأصيل لأي بلد عربي، هو الكيل العربي الموحد، المتحرر المتسلط سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وأخذ شعبنا بشق طريقه نحو هذه الغاية بعزيمة وتصميم، وكان يتعثر حيناً وتخونه الظروف أحياناً، ولكنه كان يمضي دائماً في طريقه أشد قوة وأصلب عقيدة.

وكانت المأساة التي انتهت اليها فلسطين، عاملاً من عوامل انطلاقه في عزم أكبر من أجل تحقيق مثله وأهدافه، ومن خلال هذه النظرة أخذ يناضل من أجل تحقيق نواة أولى للوحدة العربية الشاملة، حين رأى في أوضاع مصر الشقيقة نقاط التقاء كثيرة مع أهدافه الكبرى، وقامت وحدة سورية ومصر محاولة أولى لتطبيق الهدف الأسمى بين أهداف العرب الاساسية. وارتجى الشعب من هذه الوحدة أن تكون نقطة انطلاق حقيقية نحو الوحدة الكبرى ونحو الكيان العربي الموحد، والقادر على حماية أهداف الأمة العربية، والقضاء على مكائد الاستعمار، ومحاربة قوى الصهيونية الشريرة المتمثلة في اسرائيل.

وانتكست تجربة الوحدة لأسباب كثيرة، تقع المسؤولية فيها على العديد من العوامل، وكانت وراء انتكاستها حوادث ومواقف ليس المهم أن نتهمها، بل المهم أن نعرفها ونفيد من دروسها، ولم تقف سورية العربية من هذه الانتكاسة موقف المتفرج والمتألم، ولاسيما بعد أن رأت محاولات الرجعية ومؤامرات

الاستعمار، تعمل جاهدة من أجل تكريس الانفصال وتخليده، وابعاد سورية عن رسالتها العربية والاشتراكية، بل مضت تستجمع قواها كلها من أجل الخروج من الانتكاسة ومن أجل العمل الجديد، ضمن اطار جديد في سبيل وحدة اثبت وأبقى. ولم تصدر في هذا العزم الجديد عن حاجة أو وهن، وإنما انطلقت من إيمانها القومي العربي الأصيل الذي عبرت عنه خلال تاريخها الطويل وكفاحها العنيد.

وجاءت هذه الحكومة الانتقالية لتستجيب لهذه الارادة الشعبية الحرة الأصيلة، التي تهدف الى إقامة وحدة عربية وفق أسس مدروسة تضمن لهذه الوحدة البقاء والنماء، والى تحقيق سياسة اشتراكية تخدم جماهير الشعب، والى تثبيت دعائم الحياة الديموقراطية في أوسع معانيها. وترى الحكومة في هذه الأهداف مجتمعة السبيل الى تحقيق الاستقرار المنشود، وبلوغ المثل العليا التي تتطلبها ارادة الشعب العربي في كل مكان.

أيها المواطنون،

ان حكومتنا تنطلق في سياستها من حقيقة كبرى، هي أن الطريق الصحيح للاستقرار الذي نريد لايكون إلا بأن يتحقق التجاوب والاتصال الكامل بين رغبات الشعب وبين الحكم الذي يعمل باسمه، وبأن يكون الحكم ترجماناً لارادة الشعب العميقة التي عبر عنها في مراحل نضاله المختلفة. والحكومة تدرك أشد الادراك أن الحكم الذي تنتظره البلاد ماهو حكم طبقة أو فئة، ولا هو الحكم الذي يخدم مصالح طبقات محدودة وفئات معينة، وإنما هو الحكم الذي يعبر عن مطالب الجمهرة الكبرى من الشعب، ورغبات القوى الحية الفعالة، قوى الجماهير الغفيرة التي تكمن فيها طاقات الانتاج الحقة.

١ ـ ولهذا ستمضي الحكومة في اتخاذ خطوة جادة من أجل العمل لتحقيق الوحدة العربية، وستباشر فوراً بدراسة الاسس الصحيحة لتحقيق هذه الوحدة ذات الأهداف والمحتوى السياسي والاجتماعي، والمتجاوبة مع ارادة شعبنا العربي في كل اقطاره. وترى أن الوحدة المتكافئة، والتي تستند الى قواعد مدروسة، تعبر عن ظروف الواقع العربي، وتوفر لكل بلد يسهم فيها كرامته

وارادته، هي السبيل الى إزالة الفوارق بين البلاد العربية، وهي الطريق الوحيد الى بقاء هذه الوحدة ونمائها. ومن أجل هذه الغاية ستبادر الحكومة دون تأخير بالتعرف على وجهات النظر المختلفة، عن طريق اللجان والمؤتمرات والصحافة والاذاعة، وبالاتصال مع الحكومات العربية المتحررة مبتدئة بمصر الشقيقة، لتطرح بعد ذلك على الاستفتاء الشعبي مشروعاً مدروساً ومتفقاً عليه، ليقول الشعب كلمته فيه.

إن مبدأ الوحدة العربية الذي نؤمن به، والذي ينبثق من وحدة المصير العربي ووحدة التاريخ والآلام والآمال، يجعلنا نعتبر معركة التحرير العربي، في أي جزء من أرض العرب معركتنا. وأن قيام اسرائيل في قلب الأمة العربية، ممزقة وحدتها شاطرة أرضها، يجعل من أهم واجبات سورية، وواجبات العرب عامة، إقامة قوة عربية متماسكة تشكل حصناً منيعاً ضد عدوان اسرائيل وتضع امكانياتها من أجل تحرير الأرض العربية في فلسطين. ولابد لهذه الغاية من تنظيم الأخوة من أبناء فلسطين تنظيماً يستهدف تعبئة قواهم الفكرية والاجتماعية، ويضعهم أمام مسؤولياتهم تجاه هذه القضية العربية الكبرى.

كذلك يملي الايمان بوحدة الكفاح العربي أن نتجاوب ونتفاعل مع جميع الحركات التحررية السياسية والاجتماعية في جميع أنحاء الوطن العربي. ومن هنا ستعمل الحكومة بكل قواها لدعم الحكومة الجزائرية من أجل بناء هذا الجزء من الوطن العربي ليقوم بدوره في حركة النضال العربي الشامل.

كما تأمل الحكومة أن تكون جامعة الدول العربية على مستوى الأحداث التي تعيشها الأمة العربية.

أيها الشعب الكريم،

٢ ـ إن الحكومة تؤمن أعمق الايمان بالديمقراطية وبدورها البناء في تحقيق أهداف الأمة، وعلى رأسها هدف الوحدة، وترى أن السد المنيع ضد أي انحراف في الحكم وضد أي تنكر لرغبات الشعب هو جو الحرية.

ولهذا ستعمل الحكومة على تنظيم الحريات العامة واطلاقها، وفق اسس تجعلها بناءة منتجة وتحول دون فقدان الثقة بها من جديد. وهي ترى أن صراع

الفكر في النور لا في الظلام هو السبيل الى الوحدة الوطنية المرجوة، والى تقريب وجهات النظر، وتكوين الرأي العام الموحد. ولهذا ستتخذ الاجراءات السريعة من أجل تنظيم الحريات العامة من سياسية وحزبية ونقابية، ومن أجل صيانة حرية التعبير والتفكير، وستعنى لهذه الغاية عناية خاصة بإعادة بناء الصحافة ووسائل الاعلام المختلفة، لتجعل منها أدوات حرة للرأي الحر، لا أدوات مسخرة لاغراض تعمل في الظلام وتخرّب من وراء ستار، ورائدها في تنظيمها المرجو للحريات العامة، وخاصة حريات الصحافة، الاعتقاد بأن الاطار الذي يمكن أن تقوم فيه الحرية هو الاطار الذي يحمي الأهداف الوطنية والقومية. ولابد للدولة، اذا ارادت الابقاء على الديموقراطية وحمايتها من التزييف والفشل، ان تقوم بحماية الاهداف القومية ضمن اطارها. ولهذا فهي ستقف موقف الحزم والشدة من كل محاولة تخريبية يقصد منها المساس بالاهداف الكبرى التي يجمع عليها الشعب وتمثلها الحكومة. وعلى رأس الحريات التي ستعني الحكومة بدراسة الاسس اللازمة لتنظيمها حرية الشعب في اختيار ممثليه في الحكم الديموقراطي أو في المجالس البلدية والقروية. ولهذا ستعمل على وضع قانون للانتخابات يجعل التمثيل الانتخابي تمثيلاً لارادة الشعب بكامله لا لارادة طبقات معينة أو فئات حاكمة، ويضمن تحرير الناخب من كل مايزيف ارادته، ويوفر التمثيل الشامل لمختلف القوى الفعالة في المجتمع.

وواضح أن الحرية التي ننشدها والتحرير الذي نريده لارادة المواطن لايتوافران إلا اذا سارت الديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية، جنباً إلى جنب مع الديمقراطية السياسية، بحيث يتحرر المواطن من الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي تغله وتحول دون قدرته على التعبير عن ارادته.

٣ ـ ولهذا كان الاتجاه الثالث الكبير الذي ستأخذ به الحكومة هو الاتجاه الاشتراكي الذي ينطلق من تخطيط اقتصادي، يضمن التنمية الاقتصادية وزيادة الثروة القومية وتوفير الخدمات كما يضمن ايضاً العدالة الاجتماعية التي لاتقوم تنمية حقة بدونها.

والحكومة تدرك في هذا المجال أن مرحلتنا هي مرحلة التنمية واستخراج

ثروات البلاد، وترى أن هذه الغاية لاتتحقق الا إذا تم دعم رأس المال الوطني من جهة بحيث يتمكن من التطور والازدهار في مجال الصناعة والزراعة والتجارة وسائر مجالات الانتاج، وإلا اذا قامت من جهة ثانية عدالة التوزيع، تمنع تمركز رأس المال ونشوء الاحتكارات، وتحول دون استغلال فئة قليلة لجهود الجمهرة الكبرى من المواطنين. وهي تؤمن في هذا المجال، بأن من أول واجباتها في معركة البناء والتنمية التي تعتزم خوضها، تشجيع رأس المال الوطني الخاص وحمايته وضمان حصوله على ثمرات جهوده، ومساعدته بشتى الوسائل الممكنة، على أن يوظف في المشاريع الانتاجية والخدمات وتأمين الأسواق لتصريف المنتجات الزراعية والصناعية.

والحكومة ادراكاً منها للدور التجاري الهام الذي يقوم به السوريون، ستعمل على تنشيط التجارة ودعمها وتقديم التسهيلات اللازمة لها في نطاق السياسة الاقتصادية.

وهي اذ ترى تشجيع رؤوس الأموال الوطنية هدفاً يفيد منه الشعب في جميع فئاته ويعود بالخير على المواطنين جميعهم، ترى في الوقت نفسه أن تشجع رؤوس الأموال يشترط بعدها عن الاستغلال والاحتكار والتسلط على الحكم. وتقبل الحكومة دخول رؤوس الأموال العربية والأجنبية ضمن اطار الخطة الاقتصادية، على أن تبقى منزهة عن الغرض السياسي.

أما بالنسبة للمصارف وشركات التأمين فستدرس الحكومة بعناية وبسرعة موضوعها وفق مقتضيات الاقتصاد القومي.

وسياستنا الاقتصادية عامة تهدف الى تحقيق الانسجام بين القطاع العام والقطاع الخاص ضمن اطار المصلحة وما يفرضه الواقع الاقتصادي في سورية وما تستلزمه ضرورات التنمية.

والطريق لهذا كله أن تقوم ثورة حقيقية في ميدان التخطيط الاقتصادي تضع أسساً لنظام اقتصادي فعال يتمتع بدعم جميع المواطنين، وتؤيده سواعد وعقول العدد الأكبر من أبناء الشعب، ويستند الى دراسة علمية لامكانيات البلاد المختلفة وطاقاتها ووسائل تحسين انتاجها. والحكومة تؤمن بأن تنمية

الاقتصـاد القـومي وزيـادة حجم الانتاج العام لن تتحققا إلا اذا نظم الاقتصاد القـومي وفق خطـة مرسـومة تتبع فيها أحدث أساليب التخطيط العلمي البعيد المدى، ويتم عن طريقهـا تنسيق العمـل بين شتى المجـالات تنسيقـاً مدروسـاً ومتجاً. وسيكون شعار هذه المرحلة في الانتاج تصميماً أكيداً على ضرورة دفع عجلة الانتـاج باستثـمار ثروات البـلاد الدفينة، من معدنية وبترولية، وغيرها، وبـالعنـايـة خاصـة بالمشـروعـات الانتـاجية الكبرى وعلى رأسها مشروع سد الفـرات والـذي ستجعـل الحكـومـة من انجازه الهدف الأكبر الذي تجند له كل ماتستطيع من امكانيات.

ان التصنيـع جزء أسـاسي في الخطـة الاقتصادية وعامل جوهري في رفع مستـوى الـدخـل القـومي والقضـاء على التخلف الاقتصـادي والاجتماعي والانطـلاق مع روح العصـر. كما أن توفـير وسـائل المواصلات الحديثة ضرورة لابد منها لجني ثمرات هذه المشروعات على الوجه الأتم.

ورغم ايماننا بواجب الحكومة في دعم الصناعة لتحقيق أهداف الاقتصاد القـومي، نرى أن هذه الاهـداف تتعـارض مع التمـركـز الشـديد لرأس المال، وامكـانيـة تسلطـه على الحكم، ولهذا قررت الحكومة اعادة تطبيق التأميم على الشركة الخماسية التي تمثل أكبر تمركز لرأس المال عندنا، والتي انزلقت منذ نشأتها حتى الآن في محاولات لاخضـاع الحكم لسلطـانهـا، وجنحت الى أن يكون لها دورها السياسي الى جانب دورها الاقتصادي.

ان طريقنـا لمنـع تمركـز رأس المـال وابعـاده عن افسـاد الحكم طريق ديمقـراطي وعـادل، وسنعمل من أجل ذلك على توفير الأجهزة اللازمة لتطبيق ضريـبة الايـراد العـام التصـاعـديـة تطبيقاً فعلياً، بعد اعادة النظر فيها، وسن التشـريعـات التي تضـمن توقيـع أقسى العقـوبات على جريمة التلاعب بهذه الضـريبـة، وسـوف تحول هذه التدابير دون قيام تمركز جديد لرأس المال، وتوفر على الحكـومـة اتخـاذ اجـراءات استثنائية تجاهه، وبذلك تتاح الفرصة لرؤوس الأموال الوطنية للقيام بدورها في التطور الاقتصادي ضمن الاهداف العامة للدولة.

وفي مجال الاصلاح الزراعي الذي هو عصب الثروة في بلادنا الزراعية بالدرجة الأولى، ترى الحكومة أن الغرض الأول من الاصلاح الزراعي، ومن كل تدبير يتخذ في ميدان الحياة الاقتصادية هو العمل على تنمية الثروة القومية، عن طريق التوزيع العادل واشراك سواعد الشعب جميعها في البناء القومي المنشود. والاصلاح الزراعي ليس تدبيراً سلبياً، ولا يستهدف مجرد التوزيع والعدالة، وإنما هو أداة رئيسية في تنظيم قوى الانتاج، وعلاقات الانتاج، وفي اصلاح الحياة الاجتماعية، وتحرير المواطن الفلاح، ولهذا ستعمل الحكومة على إلغاء جميع التعديلات التي طرأت على قانون الاصلاح الزراعي والتي غيرت جوهره وروحه، وعلى العودة الى القانون السابق واعادة النظر باسرع وقت ممكن في بعض النقاط التفصيلية الواردة فيه، بحيث يؤدي ذلك الى رفع الحيف الذي قد يقع على المالكين والفلاحين، مع مراعاة العدالة في التطبيق لكي يحقق هذا القانون أهدافه لابد من تقديم جميع المساعدات الكفيلة باستغلال الأراضي الممنوحة للمنتفعين، وتمكينهم من رفع مستوى انتاجهم الى أقصى حد ممكن. وعلى رأس هذه المساعدات إقامة تعاونيات زراعية، تحول دون محاذير تفتيت الملكية، وإنشاء مراكز للارشاد الزراعي، والتوسع في سياسة الاقراض، والعناية بجعل المصرف التعاوني الزراعي في مستوى الاصلاح الزراعي ومهماته الجسيمة، وغيرها من الوسائل التي تعين الفلاح على استثمار ارضه.

٤ ـ وهذا الاهتمام الذي توليه الدولة لتنمية الثروة القومية سيكون عوناً لها على أداء واجباتها تجاه الخدمات الراهنة التي ينبغي أن تقدمها للمواطنين في سائر المجالات. وهذا ستعنى عناية خاصة بالاداة الأولى لكل انتاج قومي، نعني العمال الصناعيين والزراعيين وغيرهم. وستقوم هذه العناية باتخاذ الاجراءات الكفيلة بتنفيذ مكاسب العمال عن طريق اشراكهم في مجالس الادارة، وتنظيم توزيع الارباح عليهم، كما ستعمل على اعادة النظر بأمر العمال المسرحين وعلى منح التسريح عن طريق دعم الصناعة والمصانع، وامتصاص الفائض من الانتاج بحيث تتمكن المصانع من الاستمرار في تشغيل

عمالها. وكما ستهتم بتوفير التنظيم النقابي الحر والتفريغ النقابي، وبتيسير سبل الحياة أمام هذه الفئة التي تحمل العبء الأكبر في حركة البناء والتنمية.

والحكومة اذ تنطلق من شعار أساسي لها في الخدمات هو الصحة والتعليم كمطلبين شعبيين كبيرين ستعمل على انتهاج سياسة تؤدي الى توفير الخدمات الطبية لجميع المحتاجين لها إلا القادرين على شرائها وحدهم، ولاسيما في الريف المحروم من هذه الخدمات الى حد كبير. ولهذه الغاية ستسعى لتوفير أكبر عدد من الأطباء والمساعدين الصحيين في المناطق الريفية لتأمين رفع المستوى الصحي فيها.

كما ستوجه اهتماماً خاصاً لنشر التعليم في الريف على أوسع نطاق ممكن. وترى أن العناية بمكافحة الأمية في البلاد عامة وفي الريف خاصة، ضمن اطار خطة مدروسة، مهمة أساسية من شأنها أن ترفع من قدرة الاداة الأولى لكل انتاج وتنمية، نعني العنصر البشري.

كما ستعنى الحكومة بإتباع سياسة اسكانية تساعد على توفير السكن الشعبي الرخيص وتنشيط السكن التعاوني تفريجاً لضائقة السكن وتحسيناً لمستوى معيشة ذوي الدخل المحدود.

وهي اذ تعمل على تأمين هذه الخدمات الطبية والتعليمية وغيرها من الخدمات تنطلق من حقيقة كبرى، وهي أن هذه الخدمات أدوات انتاج وتنمية بالاضافة إلى كونها أداة عدالة وأن ماينفق عليها يرتد في النهاية على الثروة القومية اضعافاً مضاعفة، على أنه لابد لتحقيق العدالة في توزيع الخدمات وحسن أدائها، ومن اعطاء المحافظات سلطات واسعة تمكنها من التنفيذ والاشراف على هذه الخدمات.

وواضح أن السياسة التعليمية التي تؤدي الى مثل هذه الغاية يجب أن تستهدف بالدرجة الأولى الاعداد المهني الذي يساعد على توفير الأيدي العاملة الفنية واعداد الفنيين، والمساعدين الذين تحتاج إليهم حياتنا الاقتصادية النامية والذين لايمكن أن ينهض التطور إلا بهم.

ولابـد لهذه الغـايـة من دعم التعليم المهني والعلمي في مرحلة الـدراسـة الثانوية والجامعية والتوسع فيه، ومن توفير مراكز التدريب والاعداد المهني.

٥ ـ ومما يـساعد الحكومة على تقديم الخدمات اللازمة والضـرورية الأخذ بـسياسة ضغط النفقات ومنع التبذير في أموال الدولة والحد من التعويضات والاستثناءات.

٦ ـ ان هذه الاهـداف التي ترسمهـا حكـومتـك من أجل بناء حياتك في شتى جنباتها لايمكن أن تصـل الى مـستقرها وتؤتي ثمارها، إلا اذا قام جيش قوي منيع يحقق الاستقرار للبلاد ويقف في وجه الأخطار والمطامع التي تهددها، لهذا ستعنى الحكومة كل العناية بجيشنا الرابض على الحدود وتطوير تسليحه ليزداد قدرة على حمل الرسالة الكبرى الملقاة على عاتقه.

أيها الشعب الكريم،

٧ ـ إن القـواعـد التي تريـد حكـومتـك أن تسير عليهـا لإرسـاء حكم ديمقراطي اشتراكي عربي لابد أن تشاد على أساس وضع دستور للبلاد يرسي الحكم على أسس قوية ويستمد من واقع البلاد الروحي والمادي ولهذا ستعمد الحكومة لوضـع مشروع دستور للبلاد تشترك في اعداده خلاصة الكفاءات كما ستوضح مراميه عن طريق نقاش بناء حريتهي بطرحه على استفتاء شعبي لاقراره ووضعه موضع التنفيذ.

٨ ـ أما سيـاسـة الحكومة الخارجية فهي تقوم على مبادىء سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز، والبعد عن الاحلاف والمعسكرات والحرب الباردة، والتمسك بمبادىء ميثاق هيئة الأمم المتحدة.

كما أن سيـاسـة الحكـومـة تقـوم على دعم الحـركـات التحررية في العالم ولاسيما في آسيا وافريقيا ودعم كل جهد لتصفية الاستعمار والقضاء على التميز العنصري في شتى ألوانه وأشكاله.

أيها المواطنون،

في يقيننا أن فجر الاستقرار والطمأنينة للعمل والانتاج قريب، ولايجوز أن نخفي عنكم أن تحقيق هذه الأهـداف القـوميـة التي نلتزم بالـوفاء لها، يتطلب

جهداً، يتطلب تضحية، يتطلب تعاوناً، يتطلب إيماناً منّا جميعاً بأن الوطن وخيراته لأبنائه كافة، وتهيب الحكومة بجميع المواطنين أن يتضامنوا ويقدروا المسؤولية الملقاة على عاتقهم وأن يثقوا بأننا نعاهد الله والوطن مخلصين على العمل من أجل الأهداف التي رسمناها والتي نؤمن بأنها تمثل ارادة الكثرة الساحقة من شعبنا وان يجعلوا من هذه الأهداف قوام وحدة وطنية ثابتة الأركان صامدة أمام كل المكائد، عنيدة في تجنيد كل طاقاتها من أجل خدمة الوطن وأماني الامة العربية، وستكون قدرة الحكومة على تحمل مسؤولياتها والوفاء بتعهداتها في حاجة دوماً الى تأييد الشعب والتفافه حولها.

والله نسأل أن يوفقنا الى تعاون كامل من أجل خدمة بلادنا وعزة عروبتنا

والسلام عليكم..

الوثيقة رقم ـ ٥ ـ

بيـــان
القائد العام للجيش والقوات المسلحة

مساء يوم الجمعة ١٣/ ٤/ ١٩٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشعب السوري النبيل

في هذه الساعة الحاسمة من تاريخ سورية العربية وبعد أن تمكنت القيادة الجديدة لجيشك الباسل من أن تعيد الحق الى نصابه بفضل وعيك وإيمانك وتصميمك، يود الجيش أن يعرب لك أيها الشعب العظيم عن عميق شكره فلك تحية الجيش وحبه. في سبيل أهدافك القومية العليا سهره وتضحيته ولن تستطيع الاحداث أن تنال من وطن يقف جيشه وشعبه صفاً واحداً في طريق الزحف نحو العزة والكرامة والمجد، ومن حقك أيها الشعب العربي النبيل أن تكشف لك القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة عن الجهود الوطنية الكبير التي لم تنم لحظة خلال الاسبوعين الماضيين حتى تمكنت السواعد المؤمنة أن تقود سفينة الوطن الى شاطىء السلامة من جديد وان تسير بها في الاتجاه السليم

الـذي يرضيـك ويحقق لك أمـانيـك ورغبـاتـك ويمنحك الاستقرار والطمأنينة ويمهد لخطواتك الـسبيل نحو التقدم والازدهار.

أيها المواطنون

منـذ تألفت الهيئـة الجـديدة للقيادة انصرفت الى دراسة الوضـع في البلاد من جميـع جهـاتـه واضـعـة نصب عينيها تحقيق ارادت الشـعب وتغليب المصلحة القومية العليا والحفاظ على وحدة الجيش والشعب وقد انتهت القيادة بعد هذه الدراسة الى هذه الحقائق الكبيرة.

أولاً : الجيش بجميع وحداته وعناصره مجمع كل الاجماع على الابتعاد عن الحكم والسياسة ومصـر كل الاصـرار بأن يعـود الى ثكناته بعد أن يضمن للوطن حكماً نظيفاً حراً لينصرف الى مهماته الاساسية انصرافاً كاملاً.

ثانياً : الجيش لم يهدف من حركتـه الى التـدخـل في الحكم والسياسة ولكنه ملزم بحماية الاهـداف القـوميـة العليا التي تتمثل في السعي لاقامة وحـدة عربيـة سليمـة مع الـدول العربية المتحررة وفي طليعتها مصر بشروط مدروسة تحفظ لسورية كرامتها وكيانها وتجنبها اخطاء الماضي وعثراته على أن تؤلف بأسرع مايمكن اللجان التي تضع أسـس هذه الـوحـدة المنشـودة لتعـرض في استفتـاء شعبي حر قادم كما تتمثـل الاهـداف القـوميـة في تحقيق عدالـة اجتـماعيـة تسـير بالشعب نحو الاشتراكية العادلة والتنمية الاقتصادية اللازمة وتحفظ للطبقة العاملة في الأرض والمصنع حياة كريمة وعيشاً لائقاً.

ثالثاً : الجيش مؤمن بأن تشكيـل وزارة انتقـاليـة للبـلاد قبـل اعـادة الحياة الـدستـوريـة يخالف مبـدأه التقليـدي في الابتعـاد عن السياسة لأن الحكومة الانتقالية ستكون مسؤولة أمامه عن سياستها واعمالها ومعنى هذا أن يكون الجيش مسؤولاً أمام الشعب عن الحكم والسياسة وهو يأبى ذلـك ويصـر على الابتعـاد عنهـا والانصـراف الى تأدية رسالته الكبرى في حماية الوطن وحراسة حدوده.

رابعاً : الجيش مدرك كل الادراك حاجة الوطن الى الاستقرار فبالاستقرار وحده يوالي الشعب تقدمه البناء لتحقيق الازدهار واستغلال خيرات الارض وتنمية الحركة الاقتصادية ، وبالاستقرار وحده يتمكن الجيش من دعم قوته وصفوفه لينهض عند الحدود كالبنيان الصامد المرصوص الذي تتحطم عند اقدامه جميع مؤامرات الصهيونية والاستعمار واعوانهما .

خامساً : الاستقرار المنشود لايمكن أن يتحقق لوطننا الحبيب بدون قيام حكم دستوري ديمقراطي قوي يستمد طاقاته من سلطة شرعية حقيقية تمثل ارادة الشعب وتجسم أهدافه دون تزييف أو تحوير لأنها تنبثق عن اجماعه في تصويت نزيه حر وبرلمان قادم عنيد يجنب الوطن مآسي الفرقة . والجيش مؤمن بأن الشعب لن يمنح قيادته للأيدي الملوثة وللضمائر الرخيصة التي تنهار مقاومتها أمام المغريات والرشوات فتبيع الوطن ومكاسب الشعب بالمال الحرام وعلى القضاء الحر النزيه وحده أن يفضح للشعب جرائم هذه الأيدي ويكشف الستار عن عفونة تلك الضمائر لينصرف الشعب عنها ويوليها كل بغضه واحتقاره .

أمام هذه الحقائق الخمس الكبيرة سهرت هيئة القيادة الجديدة ليالي الاسبوعين الماضيين وانتهت بعد الدراسة الى أن وحدة الجيش والشعب تتجه بالثقة والأمل نحو شخصية وطنية كبيرة تجمع الاخلاص العميق والخبرة الطويلة والعلم والكفاءة وهي شخصية السيد الدكتور ناظم القدسي رئيس الجمهورية العربية السورية . عند ذلك اجمعت كلمة الجيش العربي السوري على أن المصلحة الوطنية العليا تفرض عليه أن يعلن رفض الجيش والشعب لاستقالة رئيس الجمهورية وان يدعوه باسم الجيش والشعب الى العودة عن استقالته ليحمل من جديد عبء الرسالة القومية الكبرى التي ألقاها الشعب على كتفيه ، والذي تستطيع القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة أن تؤكده هو أن الرجل الكبير لم يصم أذنيه عن نداء الوطن فمد يده ليحمل الامانة الكبرى ويقود عجلة الوطن في طريق الأمن والاستقرار والازدهار والوحدة

المنشودة على هدى المصلحة القومية العليا والأسس الراسخة التي اجمع عليها الوطن شعباً وجيشاً. ان الوطن بجميع هيئاته الشعبية وبإجماع من الجيش حامي العرين يبارك عودة رئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي لتسلم سدة الرئاسة ويعلق على قيادته الحكيمة وحزمه وصموده كل الآمال ففي ظلال رئاسته سينال الشعب حقوقه وتتحقق له آماله في الاستقرار والوحدة السليمة والعدالة الاجتماعية ورعاية اليد العاملة وحفظ مكاسب العمال والفلاحين وضمان الحريات العامة وفي ظلال حكمه واخلاصه وسهره ستنعم البلاد بحكم نزيه على أساس ديمقراطي حر وسيتخلص الوطن من كل من يدينه القضاء من سماسرة الحكم والسياسة أخذ الله بيد الرئيس الجليل واعانه على حمل مسؤولياته وأمده بعونه وتأييده.

أيها الشعب العربي السوري، ان الجيش قد وفى لك بعهوده وهو دائماً عند كلمته لك ففي سبيلك ثار ومن أجل كرامتك وتحقيق ارادتك ترك ثكناته بالأمس وهو اليوم يعود إليها رضي الضمير فائزاً بثقتك وحبك بعد أن حقق ارادتك وضمن لك القيادة الرشيدة وابعد عنك المستغلين والمنحرفين والمتآمرين.

أيها الشعب النبيل. ان ارادتك هي العليا لأنها من ارادة الله. والجيش سيظل دائماً عينك الساهرة وحارسك الأمين فهو درعك الحصين وأنت قلبه وإيمانه وصموده.

عاشت وحدة الشعب والجيش. وعاش القائد الأعلى للجيش، وحقق الله لوطننا الصغير آماله الكبيرة والله أكبر والمجد للعروبة.

الوثيقة رقم - ٦ -

الجمهورية العربية السورية
المديرية العامة للأنباء

شعبة النشرة رقم /٩١/
مساء يوم السبت ١٤/ ٤/ ١٩٦٢

بيـان
السيد رئيس الجمهورية
الدكتور ناظم القدسي

أيها الشعب الكريم
مواطني الأعزاء

في هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها بلادنا. في هذه المرحلة التي نمر بها في سبيلنا الى أعز مانتشد لبلدنا وللوطن العربي من عزة ووحدة، واستقرار. في هذه الفترة من تاريخ كفاحنا المستمر من أجل الحرية حرية الشعب وسلامة الكيان الوطني ضد كل مايحيط بنا من مخاطر ومكائد يدبرها الاستعمار والصهيونية، وتنصبها لنا الحرب الباردة والمصالح البترولية. في هذه الأيام حيث يتطلع المواطنون جميعهم، اينما كانوا، في الجيش والمعمل، والحقل والمصنع والمكتب والمدرسة الى وحدة وطنية راسخة تصدر عنها كل ارادة الشعب وقوته،

وتنطلق منها الى تحقيق المبادىء الرفيعة والأماني العربية الكبرى، ونبلغ بها جميعنا مانطمح إليه من حياة عزيزة كريمة ـ اعود الى مخاطبتكم كمواطن قدر له أن يكون بينكم في موقف المسؤوليات الجسام ولاسبيل له إلا أن يلبي نداء الواجب ويستجيب إلى صوت الضمير. وببساطة أقول لكم أني أخاطبكم اليوم كأب وأخ ومواطن يشعر بشعور كل فرد منكم أباً وابناً وأخاً ومواطناً لكم جميعاً، بدون تمييز ولا استثناء وينحني بمثل هذا الشعور الانساني والقومي أمام مايفرضه عليه الواجب الأسمى.

أيها الأخوة الأعزاء

في هذا الخطاب الذي أتوجه به إليكم، لامجال لأن اتبسط معكم في الأحداث التي مرّت بها البلاد خلال الفترة الأخيرة، وفي اعتقادي أن هذه الاحداث بجوهرها وبما ترمز إليه، ليس الدافع إليها سوى اختلاف في الاجتهاد حول الطرق الموصلة الى أماني كل عربي سوري في الوحدة والحياة الديمقراطية والاشتراكية البناءة. ومهما اختلفت وجهات النظر، ومهما قيل في تفسير الأحداث وتأويل الحقائق، فإننا نحمد الله على أن الاختلاف كان من أجل الوصول الى مثل عليا رفعنا بها الرأس عالياً في الحاضر وسنرفعه عالياً في المستقبل لأن أقدار التاريخ وضعت على كاهل العربي في سورية، أن يحمل المثل العليا لثمانين مليون عربي غير هياب ولا آبه بما تحمل هذه المثل من تبعات وصعاب وعقبات ومهالك وسنبقى فخورين معتزين بالتضحيات التي بذلناها والتي سنبذلها من أجل تحقيق هذه المثل لأنفسنا وللعرب قاطبة. لأن وجودنا مرتبط بهذه المثل، ومنها غذاء كياننا، واستمرار تطورنا وتقدمنا.

على هذه المبادىء والمفاهيم التي غدت واضحة في الاذهان والضمائر، لأنها تنبع بالواقع من شعور الشعب وارادته، ترجمت قيادة الجيش السوري العربي في بيانها الذي أعلنته يوم أمس شعور الشعب بهذه المبادىء، ورغبته الملحة في رسم الخطط الواضحة والطرق الناجعة لتنفيذها ووضعها قيد الحياة والنمو والتطور السريع. وارادت القيادة العامة للجيش بالبيان الذي استقر عليه

الرأي، وانعقدت حوله السواعد أن تضع على عاتقي مسؤولية كبرى في تنظيم الكيان الوطني، وتوطيد أسباب الاستقرار المنشود.

كذلك وفي الوقت نفسه تقدم إليّ أكثرية السادة النواب باستقالاتهم من المجلس التأسيسي والنيابي وفوضوني باختيار حكومة انتقالية تتمتع معي بحق التنظيم والتشريع وارساء الأسس الديمقراطية لحياتنا المقبلة.

وعلى ذلك فإنني ارجو بالعمل الصادق المنزه، أن أؤدي الامانة المنوطة بعنقي ممكناً بذلك جيشنا الباسل من تنفيذ اجماع وحداته وعناصره بالابتعاد عن الحكم والسياسة ليدافع عن الحمى، ويذود عن الحدود، ويضمن سلامة الوطن بأرضه واهدافه، شاكراً لجيشنا الباسل ولقيادته الساهرة، اجماع وحداته على هذه السياسة الحكيمة وترجمته ارادة الشعب وأهدافه القومية والاجتماعية والسياسية بوضوح واخلاص. كما أشكر السادة النواب الذين قدروا الواقع بحقيقته، فدفعهم اخلاصهم لسلامة هذه الأرض العربية ووحدة شعبها الى أن يقفوا الموقف الذي يصون مصلحة البلاد العليا.

مواطني الأعزاء

في هذه المرحلة الجديدة التي نبدأها اليوم متعاونين متكاتفين، أمام أهداف واضحة، فإن كل الذي استطيع أن أؤكده لكم أنني والحكومة التي تتألف للفترة الانتقالية، سنبذل كل ما في وسعنا من مجهود ممكن لارساء حياة دستورية ديمقراطية سليمة. ومباشرة العمل من أجل الوحدة مع البلاد العربية مبتدئين بمصر العزيزة على أسس واضحة مستمدة من التجارب وتكفل لسورية كيانها وكرامتها وتكفل لها الحياة والنمو استقطاب البلاد العربية الأخرى، كل ذلك ببيان واضح واستقامة، وأسس تطرح للتصويت في استفتاء شعبي حر نزيه، ولن نسلك في هذه السبيل، الأساليب الغامضة أو الملتوية، وسيكون رائدنا الايمان والصدق والصراحة.

ولا يخامرني أي شك في أن مبادىء العدالة الاجتماعية والاشتراكية البناءة التي تتناسب مع أوضاعنا الاقتصادية في المدينة والريف على السواء، هي المبادىء التي يجب أن تسود في سبيل الالتقاء بحكم عادل رشيد، تتحقق به

مصالح المواطنين بأكثريتهم العظمى بعيداً عن التنازع الطبقي وعن الاستغلال وتحكم الاحتكار والمصالح الخاصة. وانه لجدير بي أن أكرر ما سبق ان قلته غداة انتخابي لرئاسة الجمهورية من أن كل سياسة اجتماعية واقتصادية لاتستهدف في المقام الأول معالجة مشكلة المواطن الفرد من أبناء هذا الشعب العربي في غذائه وكسائه ومسكنه وصحته وتعليمه وتعليم أولاده وطرح شبح البطالة عنه وتأمين مستقبله لا يمكن أن تكون سياسة مثمرة مهما تكن واجهتها الظاهرة، ولا يمكن أن توطد في نفوس أبناء الشعب ثقتهم بولاة أمورهم.

ومن أجل ذلك وبعض ذلك، ستقوم الحكومة الانتقالية بمعرفة الخبراء، وفي أقرب وقت ممكن بالنظر في قوانين التأميم والاصلاح الزراعي، وفي مدة لاتفسح المجال لبلبلة الوضع الاقتصادي. كذلك ستمضي الحكومة الانتقالية بما أمكن من سرعة باتخاذ التشريعات اللازمة لتأمين الحريات العامة وتنظيمها وتمكين الأفراد من ممارسة هذه الحريات في حدود المصلحة القومية، وستهيء الحكومة مايلزم لوضع دستور يأتلف مع أوضاعنا وأمانينا ويعرض على الرأي العام ليناقشه بكل حرية وطمأنينة ثم يطرح للاستفتاء ليرى الشعب رأيه فيه كما أنه ستجرى انتخابات حرة نزيهة توصل الى مقاعد النيابة من يثق الشعب بأخلاقهم وكفاءتهم وإخلاصهم لتحقيق أهدافها وآمالها، وفي خلال هذه الفترة ستسهر الحكومة على ضمان حرية الفرد وطمأنينته فلا يفلت مذنب من عقاب، ولا يضار بريء بحريته وأمنه، وسيكون توضيح الخطط العملية السريعة الموصلة الى هذه الأهداف، من أول مهام الحكومة الانتقالية في بيانها الى الشعب وهو البيان الذي تضع فيه خطط سيرها ومنهاج عملها.

وانني لآمل أن أوفق لتأليف حكومة انتقالية قوية نزيهة حازمة في تطبيق القانون، واجتثاث الفساد أياً كان مصدره وفاعله، ساهرة على حفظ النظام وسيادة العدل، واضعة نفسها في خدمة المصلحة العليا قبل كل شيء وفوق كل هدف.

ولست آتياً بجديد اذا أكدت أن تجارب الماضي دفعت جميع الاتجاهات في بلادنا الى تقرير سياسة عدم الانحياز في المعترك الدولي المتلاطم من أجل

تجنيب بلادنا ويلات الصراع بين الدول ولقناعتنا بأن هذه السياسة هي دعم للسلام العالمي ولأمنه، كما هي سبيلنا أيضاً الى تحقيق أعز الأهداف واجتياز المراحل السريعة نحو الكيان العربي الموحد.

وغني عن البيان أن سياستنا الخارجية بوجه عام انها تستمد مبادئها من ميثاق الأمم المتحدة الذي وجد لتنظيم العلاقات بين جميع الدول الأعضاء في المنظمة الواحدة دون تفريق أو تمييز مستهدفين أبداً مصلحتنا القومية واقتصادياتنا السليمة.

ان جميع هذه المثل العليا، والأهداف القومية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية أيها المواطنون الأعزاء - لايمكن السير في سبيل تحقيقها بدون استقرار مرتكز على وحدة الكلمة وتجاوب مختلف السلطات مع الشعب، ونبذ الشكوك والاوهام. لانكم تعلمون أن أساس المخطط الصهيوني في البلاد العربية هو اثارة الشكوك والريب بين الاشخاص والهيئات حتى تضيع أوقاتها في الدفاع عن نفسها، ورد التهم الموجهة إليها، فتنصرف عن الانتاج المثمر والتطور المستمر في ميادين الاقتصاد والعمران والثقافة والدفاع والانتاج وتقف من قضاياها الحيوية مجمدة النشاط مغلولة الأيدي.

وأخيراً، مواطني الأعزاء، فمثلما دعوت نفسي الى تلبية نداء الواجب والضمير، وأنا واحد منكم، ومواطن مثلكم، ادعو كل فرد منكم في هذا الوطن الى تلبية هذا النداء، والى الصدق في أداء فروضه وملزماته، كل ضمن حدود عمله ونشاطه. والله العلي القدير نسأل أن يرعانا بعنايته ويسدد خطانا في سبيل مرضاته، ويلهمنا طريق الحق والرشاد إنه سميع مجيب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الوثيقة رقم ـ ٧ ـ

نـص البيـــان

النص الكامل للكلمة التي ألقاها اللواء عبد الكريم زهر الدين ـ القائد العـام للجيش والقوات المسلحة في المؤتمر الصحفي الذي عقد في نادي ضبّاط حامية دمشق بتاريخ ٣٠/ ٣/ ١٩٦٢.

باسم الجيش والشعب أرحب بكم جميعاً، وأشكر السـادة الصحفيـين والمنـدوبـين والمراسلين الـذين وفدوا الى سورية لحضور المؤتمر، وأمل أن يحقق أجتماعنـا الغـاية المرجوه منه. كما يسعدني أن يقدم الجميع لمواطنيهم عن طريق صحفهم ومجـلاتهم ونشـراتهم، صوراً صادقـة عن الأوضـاع التي هنّي عليهـا جمهـوريتـا، وان يطلعـوهم على الحقيقة والواقع اللذين نعيشهما في هذه الأيام وان ينقلوا لهم ترجمة أمينـة عن مدى تجاوب الشـعب مع الجيش وتفهمه الـرائع لثورة الثامن والعشرين من ايلول عام ١٩٦١ ووعيه العميق للدوافع التي حملت الجيش على الاستمرار بالثورة في صبيحة الثامن والعشرين من آذار، ١٩٦٢، وتأييد الشعب له تأييداً يدل على ادراك وطني يدعو الى الاعجاب والتقدير.

أيها الســادة:

اعتقـد أن في مخيلة كل منكم صورة عن بلدنـا وثورتنا، وأن في جعبة كـل منكم أكثر من سـؤ ال عن الأوضـاع الداخلية والاقتصادية وسواها. كما أن عدداً

كبيراً منكم «على مااعتقد» يتلهف الى الوقوف على مدى تأثر علاقات شقيقات الجمهورية العربية السورية بالثورة، وكذلك عما اذا كان هناك تغيير في الخطوط الرئيسية للسياسة الخارجية أم لا .

ولذا فإنني سأحاول أن أبسط لكم كل شيء تقريباً. معلناً استعدادي للاجابة في النهاية على كل سؤال ولمناقشة من يرغب منكم ذلك فيما يتعلق بثورتنا واوضاعنا واتجاهاتنا . . .

أحب أن أعلن أن القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة أعلنت منذ أيام وعلى وجه التحديد والضبط في صبيحة الثامن والعشرين من آذار بياناً وافياً تولى شرح الأسباب التي حملت الجيش على الاستمرار في ثورة الثامن والعشرين من ايلول، وأوضح بالوقت نفسه حقيقة وأهداف هذه الثورة، بعد أن استعرض المراحل التي مرت بها سورية أيام الوحدة مع مصر، ووصف الأوضاع والأحوال وأسلوب الحكم خلالها، وبعد أن تعرض لموقف الجيش العربي السوري ونبل هذا الموقف حين الح على المسؤولين آنذاك لحل الموضوع بما يتفق ومصلحة البلاد من جهة، وبما يحافظ على آمال الأمة العربية متعشة حية، إلا أن هذا الالحاح لم يلق تجاوباً من قبل المسؤولين وانتهى الأمر الى قيام الجمهورية العربية السورية التي اخذت على عاتقها العمل على تحقيق وحدة عربية صحيحة شاملة جميع الاقطار المتحررة، وعلى تجنب الانحراف بها عن الطريق السوي والعمل على تصحيح الأخطاء في الحكم والقضاء على قصة الارتجال في القوانين ولوقف سياسة البذخ والاسراف وتبديد أموال الشعب التي جمعت وحصلت من عرقه وجهوده ودموعه . .

ومنذ أن تسلم الجيش زمام الأمور آنذاك أعلن أنه لايرغب في الحكم وأنه ترك الأمر الى حكومة انتقالية باشرت بمهام السلطتين التشريعية والتنفيذية واخذت على عاتقها اجراء انتخابات في البلاد لمجلس تأسيسي ونيابي . وتم ذلك وتسلمت السلطة التنفيذية الى جانب المجلس حكومة لم تكن على مستوى الأحداث ولم تحقق الآمال المعقودة ولم تكن صادقة في العمل لصالح البلاد فنجم عن ذلك فساد اداة الحكم والهاء المجلس التأسيس عن

واجبه الأساسي فغدا شبه معطل لانفع فيه ولا خير يرجى منه، مما أدى الى تدهور الأمور في البلاد فأخذ الشعب يبحث عن المنقذ وعن الحامي عن الجيش الذي لبى النداء في الوقت المناسب، وانتهى الأمر عندما استقال رئيس الجمهورية ورئيس وأعضاء الوزراء بعد حل المجلس، وترتب على ذلك أن تسلم الجيش مهام السلطتين التشريعية والتنفيذية ريثما يتم تشكيل حكومة انتقالية جديدة تتولى هذه المهمة.

ومع أن البيان الذي أصدرته القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة، والذي حاولت الآن أن أبسط لكم ملخصاً عما جاء فيه . . مع أن البيان هذا جاء واضحاً محدداً لا غموض فيه، رأيت أن من واجبي دعوتكم الى هذا المؤتمر لاتولى فيه شرح بعض الأمور وبيان عدد من المواضيع، وسأحاول أن أطلعكم بصراحة على مايهمكم ويهم العرب وجيرانهم ومواطنيكم معرفته والوقوف عليه . . .

أولاً ـ فيما يتعلق بالحقل الداخلي والاقتصادي:

لقد أعلن البيان أن الجيش عازم على ترك السلطة للحكومة الانتقالية التي ستتولاها والتي ستعمل على تحقيق أهداف ثورة الثامن والعشرين من ايلول، وأهمها الحريات وصيانتها وتمكين جميع المواطنين من ممارستها . . إذ أن الحرية ضرورية للمواطن كالماء والهواء لايمكن له أن. يعيش بدونها وتمكينه من ممارستها انما هو واجب يفرض عل كل من يتولى أمر الحكم، وقد سبق للجيش أن ثار في الثامن والعشرين من ايلول طلباً للحرية ووجوب توفيرها للمواطنين ومضت ستة أشهر على ثورة الجيش وتلت حكومة الكزبري حكومة الدواليبي التي عملت على خنق الحريات وسلبها للمواطنين وذلك عن طريق اساءة تطبيق القوانين ولاسيما القوانين الخاصة بالفلاحين حيث تم تهجير قسم كبير منهم من قراهم التي هدمت بيوتها على رؤوس أصحابها وانتزعت الأراضي منهم وقضت بواسطة محاسبيها وأعوانها على المزروعات التي زرعها الفلاحون بعرقهم ودموعهم وأموالهم . .

كما أن حكـومـة الـدواليبي لم تكتف بذلـك بل أنها عمـدت الى ملء الوظائف بالأنصار والازلام حتى أنها غالت في ذلك وتمادت لدرجة أصبح معها في كل وزارة مئات من الأشخاص الذين تم تعيينهم لاعمل لهم ولا مخصصات ولا رواتب، بل أن أكثر الـوزراء عمـد في سبيـل تبـديـد أموال الـدولة وتنفيع المحاسيب الى تعيين المستشـارين ومدراء المكاتب والسكرتير ين المتعددين . . حتى أن أحـد المـدراء في احـدى الوزارات عين خمسة سكرتير ين له، ولم يكتف بذلك بل منح كلا منهم سيارة خاصة به، وضعها تحت تصرفه وكانت جيوب هذا الشعب الـوفي الصـابـر هي التي تدفـع أجـر هذه السيـارات، من عرق الشعب ودموع الشعب وجهود الشعب. . .

لقـد تعطـل مبـدأ تكـافؤ الفرص بين المـواطـنين نتيجـة هذا الاستهتار بالحقـوق، وانعـدمت المسـاواة بين الجميع واختل ميزان الأوضاع التي اصبحت مقلوبة وغير مقبولة . .

وتـسللت بعض العنـاصـر العميلة المتـآمـرة الى الحكم كما استطاعت أن تـسلل الى المجلس التأسيـسي فتنبـه الجيش السـاهـر الـواعي الى هذه الحقائق المؤلمة وهـالـه أن يوجد عدد من المتآمرين العملاء بين الوزراء وأعضاء المجلس التأسيـسي الذي مدوا أيديهم الى الغير فباعوا الضمير والوجدان قبل أن يبيعوا بلادهم ولم يجد الجيش مفراً · وجوب احالتهم الى القضاء ليقول كلمته فيهم، ولكن المسؤولـين لم يرغبـوا في ـرراتـه باتجـاهـه هذا فراحـوا يراوغـون ويـسوفون ويماطلون في اجـابـة طلبـات الجيش التي كانت تـنـادي بإلحـاح وجـوب إحـالة المتـآمـرين الى القضـاء بعد رفع الحصانة عنهم ونسي المسؤولونانهم بذلك إنما يـسيئون الى أنفسهم والى سمعتهم والى بلدهم وينتهون بالنتيجة الى وصمهم بأنهم شركاء للمتآمرين والعملاء .

واليوم وقد تـسلم الجيش مهام السلطتين التشريعية والتنفيذية يـسعدني أن أعلن أمـامكم وللمـواطنين جميعاً أنه تقرر احالة جميع المتآمرين والعملاء والذين ارتكبـوا جرائم تمس أمن الـدولـة الـداخـلي والخارجي الى محكمة الشعب التي سيصـدر مرسـوم تشكيلهـا وتـسميـة أعضـائهـا من المدنيين والعسكريين خلال

اليومين القادمين والتي ستباشر مهمتها فور تشكيلها وتعقد جلساتها بصورة علنية ليطلع الجميع على مجريات المحاكمة وليتم انزال العقاب بحق من تثبت ادانته . . . .

أما فيما يتعلق بالحقل الاقتصادي . . . فإن الأمور التي مرت بها بلادنا في فترة الستة أشهر الماضية أنها كانت تشكل سلسلة من المآسي بسبب التردد في تحديد الاتجاه وبسبب عدم الاعتبار من أخطاء الماضي وعدم الالتفات الى الشعارات التي نادت بها ثورة الثامن والعشرين من ايلول . . .

وقد نجم عن ذلك أن سارت البلاد في المجال الاقتصادي بدون أن تكون لها سياسة مرسومة أو تخطيط منظم ، فلم يلتفت المسؤولون الى شؤون التنمية الاقتصادية ومدى تأثرها بنشاط الفرد وجهوده ولم يعملوا على تنسيق عمل الدولة مع هذا الجهد ولم يجروا الدراسات الضرورية ولم يقوموا بالاحصاءات المقتضية بالنسبة للفعاليات الاقتصادية في بلدنا ولم يقفوا على احتياجات اسواقنا وأسواق الغير من الجوار وغير الجوار، فتجمدت الحركة وبدأ الوضع الاقتصادي يتدهور لولا عناية الله التي الهمت الجيش أن يعاود السير بثورته من جديد .

وليت الأمر وقف بالمسؤولين عند هذا الحد في هذا المجال بل انهم كانوا أسوأ منهم في المجالات الأخرى ولاسيما في معالجتهم أوضاع المصارف وفي تحديد موقفهم من الرساميل العربية والأجنبية مما زاد الحالة سوءاً على سوء . . .

وإنني لأجد نفسي أيها السادة . . في هذه الحالة راغباً رغبة قوية في أن أعلن لكم أن ثورة الثامن والعشرين من ايلول حددت موقفها من هذه المواضيع بخطوط عريضة واضحة وأعود لأعلن ذلك مجدداً فأبين أن الثورة تؤمن بالاشتراكية العربية البناءة لاشادة المجتمع السليم الذي يحرر الفرد من جميع أشكال العبودية مهما كان نوع هذه العبودية ، تلك الاشتراكية التي تنبع من صميم حاجات مجتمعنا وتعبر بصدق ووضوح عن مرحلة التطور الاقتصادي والاجتماعي التي نجتازها ، وأن الهدف الأول للسياسة الاشتراكية هذه هو تحقيق أوسع خطوات التنمية . . تنمية الانتاج الوطني وتطويره .

وان الثورة تعلن أنها تحترم الفردية وتشجع المبادهة الذاتية وتحميها وتمكن الأفراد من ممارسة نشاطهم الاقتصادي وتتابع تقدمهم المادي في اطار من الحرية والكرامة والاستقرار إلا أن الثورة في الوقت نفسه تحارب جميع أنواع الاحتكار والاستغلال وكل ما من شأنه أن يعبث بحقوق الشعب وبالصالح العام . .

وان الثورة التي تتبنى النظام الاقتصادي الموجه والمراقب تهدف من ذلك توجيه الاقتصاد القومي وجهة الصالح العام والتدخل عند الاقتضاء لمنع تعثر النشاط الاقتصادي أو وقوعه في الزلل أو الشطط . .

كما أن الثورة تؤمن بأن يجب أن تبني السياسة الاقتصادية على أساس الكيان العربي المتكامل لتكون عاملاً حقيقياً في تمكين أواصر الأخوة بين الأقطار العربية وتبادل المنافع بينها واقامة الأسواق العربية المشتركة بغية الوصول الى تحقيق الوحدة الاقتصادية التي تجمع بين الأقطار العربية . . .

أما موقف الثورة من الاتفاقات الثنائية المعقودة، فإنه يتلخص بالنية الصادقة للاسراع في تنفيذ هذه الاتفاقات ومتابعة عقد مثيلات لها مع الدول العربية الشقيقة الأخرى . .

ولابد لي في هذا المجال من أن أعلن أن الثورة حريصة على عودة رؤوس الأموال الوطنية الى البلاد وتشجيع توظيفها وتأكيد حمايتها . . . كما أن الثورة ترحب بدخول أموال المهاجرين السوريين .

أما أموال الشعوب العربية الشقيقة فإن الثورة تؤمن بوجوب تسهيل دخولها الى البلاد ومعاملتها المعاملة المطبقة على الأموال العربية السورية . .

تؤمن الثورة أيضاً أنه بالنسبة للأموال الأجنبية ليس هناك من مانع يمنع دخولها شريطة مراقبتها مراقبة تقضي على الاستغلال والتحكم والسيطرة وتبقيها ضمن حدود معقولة . . وستستمر الثورة في سبيل مصلحة الشعب على تنفيذ المشاريع العمرانية والاقتصادية الكبرى التي يعجز الأفراد عن تحقيقها «كسد الفرات، وسد السكك الحديدية، وتنمية استثمار البترول . . » .

أما حقوق ومكاسب العمال والفلاحين فإن السياسة الاقتصادية للثورة إنما تهدف أولاً وأخيراً لحماية وصيانة هذه الحقوق والمكاسب في ظل تطبيق أوسع

مبادىء العدالة الاجتماعية من جهة حماية الملكية الفردية لتحقيق سعادة مختلف فئات الشعب وهنائها وعزتها ومجدها . .

وفي سبيل معالجة الاخطاء المرتكبة والمخالفات المتعددة التي تكاد لاتدخل تحت عد ولا حصر فقد عمدت الثورة الى تشكيل اللجان من أصحاب الاختصاص والعلاقة لاعادة النظر بكافة الدراسات والقوانين والتشريعات المتعلقة بالمؤسسات الصناعية والمصارف وشركات التأمين وقانون الاصلاح الزراعي فضلاً عن أن الثورة عمدت أيضاً الى تشكيل لجنة في كل وزارة مهمتها اعادة النظر بجميع التعيينات والتنقلات والترفيعات والتسريحات الجارية بصورة مخالفة للقوانين والانظمة خلال الفترة السابقة . . .

ولم تنس الثورة وجوب القضاء على سياسة البذخ والاسراف في الانفاق، ولذا فقد رأت القيادة العامة بحث تعديل أسلوب الانفاق وضغط المصروفات . . .

ثانياً ـ فيما يتعلق بالحقل العربي :

ان البيان الذي أصدرته القيادة العامة في الثامن والعشرين من آذار والذي كان تأكيداً لما سبق للقيادة أن أصدرته منذ الثامن والعشرين من ايلول ومالاه، يغني عن الشرح والايضاح وليس لي في هذا الخصوص إلا أن أؤكد عزم القيادة على التعاون المطلق بين الجمهورية السورية وبين شقيقاتها العربيات في شتى الميادين والمجالات ولاسيما فيما يتعلق بالوحدة العربية الحقيقية الشاملة المبنية على أسس واضحة وصحيحة . .

وإنها لمناسبة لأعلن أن القيادة لاحظت محاولة بعض العناصر المستغلة تشويه الحقائق واتهامنا بأننا ارتمينا في أحضان الغير واننا نتقرب من دولة عربية معينة . . وذلك فقد عمدت القيادة الى اصدار بيان حول هذه الناحية اعلنت فيه أن ثورتنا عربية خالصة وانها ثورة مبادىء وليست ثورة أشخاص وأنها تسعى الى تحقيق وحدة جميع الأقطار العربية المتحررة دون استثناء ودون تمييز . . .

أمـا الـذين يحاولـون الصيـد في المـاء العكـر والاسـاءة الى الثـورة والى الشقيقـات العـربيـات عن طريق الـدس الـرخيص والتآمر المكشـوف، فإننا لن نسكت عن أفعـالهم وإننـا لهم بالمرصـاد وانني أعلن أنـه مهـا حاول المغرضـون والـدسـاسـون والمتآمرون هـم وأسـيادهـم المـستعمرون ان يدسـوا ويتآمروا فإنهم لن يفلحوا وسـيتحد العرب رغـم أنوف الدسـاسين والمتآمرين . .

ثالثاً ـ فيما يتعلق بالحقل الدولي :

اعتقـد أن البيـان الـذي أصدرته القيادة كان واضحاً ولايخرج ما جاء فيه عن كون السيـاسـة الخـارجيـة للجمهـوريـة العـربية السـورية إنما هي استمرار للسياسة السـابقة من اتباع الحياد الايجابي وعدم الانحياز والمحافظة على المواثيق الدولية واحترام المعاهدات والاتفاقات والتمسك بمبادىء هيئة الأمم المتحدة .

ولابد لي في ختام بياني من أن أشير الى الاعتداء الاسـرائيلي الأخير الذي كان حلقة من حلقات التآمر من قبل المـستعمرين على بلادنا والذي قام الجيش بتلقين اسرائيل درساً قاسياً ليس من السـهل ان تنسـاه، وليس من السـهل عليها بعـد الأن أن تعـاود الاعتداء . . واذا ماركبت رأسـها وشـاءت لها الاقدار أن تنال ماتستحق من تأديب، فإن الجيش العربي السـوري على أتم الاستعداد للقيام بهذه المهمة، وقد أثبت أهليته لتأديب اسرائيل ولرد اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل . . .

الوثيقة رقم - ٨ -

بسم الله الرحمن الرحيم

ميثاق ضمانة حرية الانتخابات

نحن الموقعين على هذا الميثاق.

بعد الدعوة الكريمة التي وجهتها قيادة الجيش العربي السوري لدعم الوحدة الوطنية بين العاملين في الحقل القومي والوطني على اختلاف اتجاهاتهم وميولهم، وبعد توقيع الميثاق الوطني المنبثق عن اجتماعنا الكبير في نادي الضباط بدمشق . .

واستناداً الى مبادىء الميثاق التي اجمعنا عليها والتي تنبع من أعماق ارادة الشعب العربي في الجمهورية العربية السورية، في مجال الوحدة والاشتراكية والحكم الديمقراطي . . وسياسة عدم الانحياز، وفي سبيل اقامة حياة ديمقراطية نيابية تضمن لوطننا الطمأنينة والاستقرار ولشعبنا التقدم والازدهار . .

رأينا بالاتفاق مع أعضاء الحكومة الانتقالية للجمهورية العربية السورية أن نتعهد بالتزام المبادىء التالية ضمن ميثاق يؤمن حرية الانتخابات القادمة ويوفر جواً من الهدوء والتفاهم والتآخي ليختار الشعب ممثليه دون عنت أو إكراه أو تطاحن.

١ - منع المهاترات حفظاً لوحدة الصف وتماسك الشعب، لكي يخوض المرشحون المعركة الانتخابية بروح رياضية اخلاقية متسامحة.

٢ - عدم التعرض لسلامة الجيش وأمن البلاد كي لايؤدي ذلك الى بث الفوضى والاخلال بالأمن، مما يؤذي الوطن ويتيح للعدو المتربص بنا ثغرة يفيد منها.

٣ - عدم اقحام الجيش في شؤون المعركة الانتخابية أو في أي عمل أو نشاط سياسي فردي أو اجماعي، ليظل الجيش منصرفاً الى مهمته الاساسية، بعيداً عن السياسة، محتفظاً بوحدة صفه، ملتزماً حدود واجباته الكبرى.

٤ - منع الدعاية للاتجاهات التي تتعارض مع مبادىء القومية العربية الصافية التي تنبع من وجدان الشعب العربي في سورية، والتي تحترم تراثنا وتاريخنا وتؤمن بقيمنا الروحية ورسالتنا الحضارية، ذلك أن شعبنا العربي السوري يرفض استيراد المبادىء والعقائد الدخيلة على مقومات حضارتنا وتقاليدنا وينفر منها.

٥ - السماح بالنقد النزيه البناء الذي يكشف للمواطنين وجه الحق، ويجنب المسؤولين الانحراف والخطأ، في جو من التآلف والتعاون والعمل لخير الشعب والصالح العام.

٦ - منع الدعاية للأفراد والعقائد السياسية في الاذاعة والتلفزيون، كيلا تسخر أجهزة الدعاية الرسمية للمصالح الخاصة.

٧ - تأليف لجنة ثلاثية في كل محافظة، لجنة حيادية برئاسة المحافظ وعضوية أحد ضباط القوات المسلحة وشخصية محايدة أخرى، تستعين بمن تراه ضرورياً من الشخصيات الحيادية لمعاونتها في عملها، وذلك للاشراف على تنفيذ المبادىء التي ينص عليها هذا الاتفاق، ولوضع أسس عامة تكفل نشر الدعاية الانتخابية للمرشحين في المحافظة على قدر المساواة، في الصحف والمجلات، على ألا يكون النشر في الصفحة الأولى أو الأخيرة، وعلى تخصيص مساحات متساوية في الصحف لكل مرشح على ضوء عددها في كل محافظة ومدى انتشارها.

هذه هي المبادىء التي اتفقنا عليها في هذا الميثاق والتي نشهد الله على أن نلتزمها ولانخل بجانب من جوانبها ، آملين أن تسفر معركتنا الانتخابية عن مجلس نيابي عتيد يمثل وجه الشعب الكريم تمثيلاً صادقاً لينهض بالعبء الكبير الذي ينتظره ، وليقود جمهوريتنا العربية السورية الى مافيه رفعة الوطن ومجده وتحقيق آماله الكبرى والله أكبر والمجد للعروبة .

احمد عبد الكريم	احمد قنبر	أديب باغ
ادمون حمصي	أسعد كوراني	أسعد هارون
أكرم الحوراني	أمين نفوري	أنيس شعراني
بدر الدين علوش	بشير العظمة	توفيق نظام الدين
جلال السيد	حامد الخوجة	حسن الحكيم
حمادي الأسعد	خالد العظم	خلوصي الكزبري
دهام الهادي	رشاد برمدا	رشاد جبري
رشيد الدقر	رياض المالكي	رياض ميداني
زهير شطي	سلامة عبيد	سلطان الأطرش
سعيد الغزي	سهيل الخوري	صبري العسلي
صلاح الدين البيطار	طلعت التغلبي	ظافر القاسمي
عبد العزيز صلاح	عبد الرحمن العظم	عوض العامري
عبد الله عبد الدائم	عبد السلام العجيلي	عبد الكريم فياض
عبد الفتاح الزلط	عبد الرحمن كيالي	عزيز عبد الكريم
عرفان الجلاد	علاء الدين الجابري	فتح الله الصقال
فؤاد دهمان	فريد أرسلانيان	فهمي الحكيم
فيليب كبا	لطفي الحفار	ماجد صفية
مكرم الأتاسي	محمد سعيد الزعيم	محمد طلس
محمد مبارك	محمد نعمة	منير شوري
نديم شومان	نصوح بابيل	يوسف أبو حمود
هاني السباعي	زهير الحسيني	

الوثيقة رقم - ٩ -

تحليل لنظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة أثناء الوحدة

أسباب الخلاف العقائدي بين حزب البعث وهذا النظام

هذه النشرة صدرت عن القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي في آذار عام ١٩٦٠ بمناسبة استقالة الوزراء البعثيين ولتوضيح أسباب الخلاف الذي قام بين الحزب وبين حكم عبد الناصر. وننشر في ما يلي القسم الأول من هذه النشرة:

- واقع الحكم القائم

أ - قومية الحكم القائم:

لقد تجاهل الحكم القائم المنطق القومي في الوحدة الذي يعني تفاعل تجربتي قطري سورية ومصر في النضال والتنظيم والحكم ومايتتج عن هذا التفاعل من استخلاص لحسنات كل تجربة وتعميمها على مستوى القطرين معاً (مستوى الجمهورية كله)، ومن خلق لوسائل ونظريات جديدة في التنظيم والحكم والنضال القومي.

لقـد عمـد الحكم القـائم الى تمديـد منطق ونظـام الحكم اللذين كانـا يسـيران القطـر المصـري قبـل الـوحـدة على الأقليم الـسـوري بكثير من القـسر والجهـل، وبـإصـرار متـزايـد، جمد وهـدد بالتقلص والضيـاع منجـزات شعبية وأساليب في التنظيم والحكم والنضال حققها نضال القطر السوري قبل الوحدة ورفع بها مستوى النضال العربي كله.

لقـد مدد في الاقليم الـسـوري نظـام الحكم الفـردي الـذي يعتمد على أجهزة الاستخبارات والدعاية والضغط وجمدت حركة التنظيم النقابي والشعبي بل قامت ومـاتـزال محاولـة خطـيرة لتفكيـك هذه الحـركـة وضربها. . لتـساير في الضغـط والشـلل التنظيم النقـابي والشعبي الموجود في الاقليم الجنوبي وجمدت الانتصـارات التقـدميـة التي كانت منطلقة في الاقليم الـسـوري وقننت في مجاري قوانـين اصـلاحيـة نسـبيـاً اذا قيست بما سـبقهـا من قوانين رجعية وضرب الاتجاه العقـائـدي التقـدمي الذي كان يـسير في طريق تخطيط اشتراكي ثوري تعتمده بثقة انطلاقة البلاد على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والتربوي ويـساعد في تركيـز أسس سيـاسـيـة قوميـة ودولية مناسبة، من أجل الحفاظ على «التخطيط» الارتجالي المتردد الـذي يـستعير شعـارات تقـدمية ويعطيها مضموناً اصلاحياً رجـراجـاً، والـذي يعتمـد على سياسة داخلية وقومية ودولية رجراجة غامضة، تضطـر للمغـامـرة وتقـع في أزمات وانتكاسات تزيد من غموضـها واساءاتها، وخطر انحرافها.

لقد حصـر تأثير تجربة القطر الـسوري على الجمهورية بمستوى اقليـميها في أضيق الحدود الممكنة في الشعارات التي أصبحت تستخدمها دعاية الدولة، وفي صيـاغـة القـوانـين الثانوية وركزت الاسـاليب الـسيئة المشتركة بين القطرين والتي عرفها القطر الـسوري لفترة وخلال حكم الدكتاتوريات العـسكرية (تسلط أجهـزة استخبـارات الجيش واستخـدام عمـلاء لهذه الأجهـزة في بقيـة الأقطـار لاستخدامهم في الـسياسة العربية والدولية للدولة). وقد ظهر في أكثر من مناسبة خطـر ترسبـات في فهم الوحدة العربية والمسؤولية القومية للجمهورية، كمجال حيوي واستراتيجية سياسية بالنسبة لقطر مصر ولزعامة معينة.

ب ـ شعبية الحكم القائم :

إن الحكم في الجمهورية العربية المتحدة فردي يعتمد على شخص الرئيس وأجهزة المساعدين الفنين وأجهزة الاستخبارات والدعاية والضغط.

ان الوزارة المركزية هيئة ليس لديها أية مسؤوليات حقيقية أو أية صلاحيات، ويمكن أن توحي بانها من مظاهر قومية الحكم (بحكم اختيار أعضائها من الاقليمين وصلاحياتها النظرية في حكم الاقليمين) أو يمكن أن توحي بأنها من دلائل القيادة الجماعية.

والحكم الفردي يعتمد على بعض الفنيين كمستشارين في الشؤون الاقتصادية وفي الاستخبارات والدعاية ومختلف شؤون الدولة دون أن يكون هنالك أساس عقائدي ومنطق سياسي لتوجيه دراسات الفنيين أو تقييم اجتهاداتهم. كما يعتمد أيضاً على الوزراء المركزيين والتنفيذيين في التنفيذ.

ـ الاستخبارات :

تلعب أجهزة الاستخبارات دوراً أساسياً في تأمين تبعية سائر وزراء الدولة والمسؤولين في أجهزتها والأجهزة الشعبية والنقابية، للحكم وانقيادها لأسلوبه وسياسته. ويتم ذلك عن طريق :

آ ـ ايجاد انقسامات بين المسؤولين في كل مؤسسة وبين المؤسسات المختلفة.

ب ـ تسجيل اخطاء أو اتهامات على كل فئة وتهديدها بها أو بالضغط لتأمين تبعيتها أو التخلص منها في الوقت المناسب.

ج ـ محاولة المحافظة على توازن بين مختلف الفئات التي كونت بهذا الاسلوب يبقى على حاجة كل منها لدعم السلطات العليا، وذلك بتشجيع كل فئة على الأخرى دورياً.

لقد أصبح لموظفي الاستخبارات في مختلف دوائر الدولة والمؤسسات الأخرى، نفوذ تخريبي يظهر بتشجيع كل فئة من المسؤولين على مراقبة الفئة الثانية والطعن بكفاءاتها وانضباطها واخلاصها للسلطات العليا والتناقض في

التملق للسلطة والامتناع عن لفت النظر للاخطاء أوتقديم اقتراحات ايجابية يمكن أن تفهم كانتقاد للوضع القائم، والامتناع عن الدفاع عن حقوق المواطنين ومصلحة الدولة، فضعف الانتاج والتقدم في المؤسسات.

وقد أدى هذا الأسلوب الى ابعاد العناصر الكفوءة التي رفضت السير في هذا الاسلوب أو انتقدته، عن أجهزة الدولة، كما أبعد جميع الذين لاترغب السلطات بوجودهم لأي سبب من الأسباب، استناداً الى تقارير توضع خصيصاً بتهم حزبية أو أي تهمة أخرى. وقد نقل بعض كبار الموظفين من الاقليم الجنوبي لتأمين انتظام اجهزة الحكم في الاقليم الشمالي وفق التوجه الجديد.

وبما أن خبراء سياسة الاستخبارات هذه والذين اثبتوا كفاءتهم فيها اخلاصهم للرئيس في ممارستها هم من المجرمين في القطر المصري، فقد شاهد مواطنو الاقليم السوري ضباط وموظفي اجهزة الاستخبارات المصرية يبرزون في كل دائرة ويدربون ويختارون الموظفين الجدد من اجهزة المكتب الثاني السوري ومن الموظفين الضعفاء والعناصر الانتهازية في كل عهد.

وهذا ماأفسح المجال لعناصر كثيرة بالتحدث عن «الحكم المصري» و«الاستعمار المصري»، كما أدت هذه السياسة في الحكم الى شلل أو إبعاد العناصر الكفؤة والثورية والمضمونة الاخلاص للوحدة واتجاهها الثوري لأنها تؤمن بالوحدة واتجاهها الثوري وقد ضحت وماتزال على استعداد للتضحية من أجلها. لقد ابعدت الكفاءات التي رفضت أن تسير في هذا الاسلوب أو التي رأت أن واجبها يقتضي التنبيه الى اخطار هذا الاسلوب، عن المراكز الاساسية في الدولة سواء في الادارة والتخطيط الاقتصادي أو التوجيه الثقافي أو الصحفي أو مراكز الجيش، والمؤسسات الشعبية. وتجري الآن محاولات إبعاد بقايا هذه العناصر في النقابات أو الدوائر التي حال وجود وزراء «بعثين» دون ابعادها حتى الآن.

- الدعاية

ولقد رافق هذه السياسة في الادارة، التي تعتمد على أجهزة

الاستخبارات وعلى العناصر الضعيفة التي تشعر بأن ولاءها السلبي هو كل كفاءتها لاحتلال مركزها، رافق هذه السياسة الاعتماد على الدعاية لتغطية فشلها وصرف أنظار الرأي العام عن نواقصها، وتعزيز ارتباط المواطن العاطفي بالدولة، عن طريق معلومات مبالغ فيها كثيراً عن مشاريع التصنيع تتجاهل أخطاء التطبيق، وعن طريق الدعاية في الصحف والاذاعة وأقواس النصر والرموز في كل مناسبة لمختلف الوزارات ومختلف الاعمال العادية، وعن طريق المبالغة الهائلة في الدعاية للانتصارات الحقيقية. وتبرر أخطاء هذه الأعمال في أن اشراف الدولة الكامل على وكالات الانباء والصحف والاذاعة والجمعيات الثقافية، يوجه للسكوت عن النواقص والأخطاء والأزمات التي يساعد كشفها وانتقادها في تصحيحها والتغلب عليها.

ـ الضغط:

وقد رافق هذه السياسة تعطيل جو الحريات العامة والخاصة في أقليمي الجمهورية، وتعدت صلاحيات المباحث حفظ سلامة الدولة، الى الدفاع عن سياسة الحكومة، بل وتنفيذ رغبات أفراد الحكومة أحياناً، بأسلوب جاهل يتخطى السلطات القضائية في الدستور وفي شرعة حقوق الانسان والحقوق المضمونة لكل شخص في الدستور. فالاعتداء على الافراد وعلى البيوت والمؤسسات وحجز حرية الأشخاص وتعذيبهم حتى الموت يتم احياناً دون تحقيق قانوني ودون تقديم للمحاكمة ودون ضمانات الدفاع عن النفس وابداء الرأي بما لايمس الأمن أو المصلحة العامة. ان هذه الأساليب التي هي من خصائص الدكتاتوريات اليمينية والشيوعية لايمكن اقرارها في ظل نظام يفترض لنفسه التقدمية والانسانية ولن يمكن أن تنجح في درء أخطار الفئات المتآمرة على مصلحة البلاد، أو العاملة لمصلحة دولة أجنبية، كما ينجح أسلوب التوجيه العقائدي الوطني والمحاكمات القضائية السليمة.

التنظيم الشعبي

ويحاول المسؤولون أن يطبقوا في أقليمي الجمهورية ليس فقط نظام الحكم

المصـري السـابق بمعنـاه الاداري بل بمضمـونـه العـام في الميـدان الشـعبي ، متجـاهلين تجربـة القطـر السـوري والانتصـارات القومية الكبرى التي حققها في ميدان العمل الشـعبي .

فالنقـابـات العـمالية والجمعيات المهنية المختلفة في الاقليم السـوري التي حققت انتصـارات كبرى ليس فقـط لجماهـير الطبقة الكادحة وإنما للبلاد كلها بربـط نضـالهـا من أجـل مطـالبها المهنية بمطالب الشـعب القومية العامة . هذه النقـابـات يحاول المسـؤولون خنقها وتحويلها الى هيئات شكلية تابعة لمؤسسـات الاستخبارات والدعاية كما هو وضعها الحاضر في الاقليم الجنوبي .

لقد صدرت تنظيمات تلغي حق الاضراب على جميع العمال والمهنيين ، وتشـل بالتـالي سلاح العـمال في حمايـة حقـوقهم ضمن التنظيم الـرأسمالي الذي مايـزال يطبـع النظـام الاقتصـادي في الجمهـورية العربية . وقد عقدت نقابات العـمال مؤتمـرات فرعيـة ومؤتمـراً عامـاً في الاقليـم السـوري أعلنت فيها تمسـكها بحق الاضـراب وقـدمت قراراتها مع طلبات برفع الحد الأدنى للأجور في بعض محافظات الاقليـم في مذكرات للمسـؤولين وللرئيـس .

كما أعلن عن تحضير تنظيمات نقابية جديدة بمناسـبة عيد الوحدة تتضمن تفتيت النقابات الى نقابات صغيرة متفرقة ووضعها تحت اشراف الاتحاد القومي .

وقد قدم العمال عرائض تبين وجهة نظرهم في ضرورة مشاركة العمال مع الحكـومـة بوضـع تعديلات قانون العمال وبحرصـهم على وحدة الحركة النقابية وتماسكها واستقلالها من أجل تدعيم أهداف الجمهورية والانسـجام مع روح الثورة .

وتعرضـت نقابات العمال في الاقليـم السـوري لعمليات استفزاز خطيرة ، من محاولـة فصـل مسـتخـدمي الادارات والمؤسسـات التابعة للدولة عن التنظيم النقابي الى محاولة التدخل الرسـمي في انتخابات النقابات وفرض عملاء أجهزة الاسـتخبـارات على النقـابـات ، الى اعتقـال رئيـس اتحاد نقابات عمال الاقليم السـوري بسـبب تدخله لمنع التزوير الرسمي للانتخابات النقابية . وقد استطاع

العمال التغلب على جميع هذه الاستفزازات بسبب حكمتهم ووقوف وزير الشؤون الاجتماعية والعمل السابق «البعثي» الى جانبهم ورده للتدخل في شؤون النقابات الذي كان يأتي من دوائر أخرى متجاوزاً صلاحياته . وتمر أزمة العمال الآن في مرحلة حاسمة .

الاتحاد القومي

لقد كان الحزبيون السابقون في الجمهورية العربية يعتقدون عند قيام الوحدة والغاء الاحزاب أن الاتحاد القومي سيكون مؤسسة شعبية ثورية ، تقوم مع المؤسسات الشعبية النقابية كنقابات العمال وجمعيات الفلاحين والمنظمات المهنية والطلابية الخ . . . بدعم الاتجاه الشعبي والاشتراكي والديمقراطي للدولة الجديدة ، عن طريق رقابتها على الحكم وتوجيهها له ومشاركتها في بناء المجتمع الاشتراكي الجديد وحمايته من الردة الرجعية وتنظيم الشعب لحماية اتجاه الدولة التقدمي وحماية الوحدة تجاه هجوم الرجعية العميلة في الأقطار العربية ، وهجوم الاستعمار ومن أجل توسيع انتصارات الوحدة .

وكان يعتقد ذلك مع الحزبيين السابقين داخل الجمهورية ، الرأي العام العربي التقدمي خارجها ، والرأي العام العالمي ، الذي اعتبر الوحدة خطوة اشتراكية جماهيرية وسجلها انتصاراً لحركة البعث وللاتجاه الشعبي العربي .

وقد ارتضى الحزبيون السابقون حل الحزب على أساس ان الاتحاد القومي سيكون المنظمة الشعبية التي تتسلم تحقيق أهداف الشعب كما عبر عنها الحزب ، في مرحلة سياسية جديدة تتطلب تنظيماً سياسياً جديداً . وقد اخلصوا لهذا الموقف وتوقفوا عن كل نشاط حزبي وانتظروا تكوين الاتحاد القومي على أسس شعبية ملائمة خصوصاً بعد أن أكد المسؤولون المصريون قبل الوحدة فشل الأسس التي اعتمدوها في تنظيم الاتحاد القومي في مصر ، ولأن النضج الشعبي في القطر السوري يساعد في تنظيم تجربة ناجحة .

ولكن الاتحاد القومي ، كما صمم وكما حضر لان يكون في الانتخابات المعروفة ، كان بعيداً عن تحقيق ماهو منتظر منه .

لقد وضعت للاتحاد أهداف وصلاحيات محدودة حصرت مهمته في الدعاية لسياسة الدولة وتنفيذ خططها.

وأدت حملة الدعاية الرسمية ضد المرشحين من البعثيين السابقين، وتشجيع العصبيات العائلية والعشائرية والرجعية والاقليمية المعادية لهم بسبب مساهمتهم في تحقيق الوحدة والانتصارات التقدمية السابقة، وحملة تحذير جماهير الفلاحين والعمال المثقفين من تأييدهم (لأنهم محاربون من العهد) الى انسحاب عدد كبير من المرشحين «البعثيين» واستقالة بعض الذين نجحوا منهم بالتزكية، احتجاجاً على حملة الدولة المعادية لهم وزورت النتائج من أجل انجاح بعض العناصر التي ترغب الدولة في نجاحها ومن أجل نجاح جميع الوزراء بعدد من الأصوات مدروس لكل منهم، بعد أن حجز الوزراء المركزيون في القاهرة بحجة اجتماعات روتينية للوزارة لمنع القادة الشعبيين بينهم من العمل في مناطقهم، ثم امرهم بالتوجه الى مناطقهم قبل الـ ٤٨ ساعة من الانتخاب التي يمنع فيها النشاط الانتخابي.

وهكذا تكون الاتحاد القومي من أغلبية ساحقة من الموظفين والاشخاص الذين لا لون لهم ومن موظفي أجهزة الاستخبارات والدعاية.

وهذه الخطة التي اتبعت في تنظيم الاتحاد القومي مع سياسة الحكم هذه توضح منذ الآن نوعية مجلس الامة الذي سيعين أعضاؤه في المستقبل القريب.. وتؤكد أن ليس في الوضع الحاضر بذور التطور نحو الديمقراطية وافساح جو الحريات العامة والخاصة الضروري لنمو ثقة المواطنين بأنفسهم وبمستقبلهم ونمو وعيهم وكفاءاتهم للحفاظ على مكاسب الوحدة وتوسيعها.

الوثيقة رقم - ١٠ -

الوزارات التي شكلت في سورية
منذ الاستقلال وحتى الوحدة مع مصر

- بموجب المراسيم رقم ١ الى ٨ تاريخ ٩/آب ١٩٤٣ تشكلت الوزارة برئاسة السيد سعد الله الجابري.
- قبلت استقالة الوزارة بموجب المرسوم ١١١٩ تاريخ ١٤ تشرين الأول ١٩٤٤.
- شكلت الوزارة بموجب المراسيم ١١٢٠ الى ١١٢٤ تاريخ ١٤ تشرين الأول ١٩٤٤ برئاسة السيد فارس الخوري.
- قبلت استقالتها بموجب المرسوم ٤٤٣ تاريخ ١٩٤٥/٤/٥.
- شكلت الوزارة بموجب المراسيم ٤٤٤ إلى ٤٥٠ في ١٩٤٥/٤/٧ برئاسة فارس الخوري.
- قبلت استقالتها بالمرسوم ١٠٤٥ تاريخ ٢٦ آب ١٩٤٥.
- شكلت الوزارة بموجب المراسيم ١٠٤٦ الى ١٠٥٤ تاريخ ١٩٤٥/٨/٢٦ برئاسة فارس خوري.
- قبلت استقالتها بالمرسوم ١١٠٤ تاريخ ٣٠ أيلول ١٩٤٥ برئاسة السيد سعد الله الجابري.

- قبلت استقالتها بالمرسوم ٤٦٦ تاريخ ١٩٤٦/٤/٢٥ .
- شكلت بالمرسوم ٤٦٧ في ١٩٤٦/٤/٢٦ برئاسة السيد سعد الله الجابري .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ١٢٠٤ تاريخ ١٩٤٦/١٢/٢٧ .
- شكلت بالمرسوم ١٤٠٥ تاريخ ١٩٤٦/١٢/٢٧ برئاسة السيد جميل مردم .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ١٠٦١ في ١٩٤٧/١٠/٢ .
- شكلت بالمرسوم ١٠٦٣ في ١٩٤٧/١٠/٦ برئاسة جميل مردم .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ١٩١٧ في ١٩٤٨/٨/١٩ .
- شكلت بالمرسوم ١٩١٨ في ١٩٤٨/٨/٢٢ برئاسة جميل مردم .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ٢٥٨٥ في ١٩٤٨/١٢/١٢ .
- تشكلت بالمرسوم ٢٥٨٦ في ١٩٤٨/١٢/١٦ برئاسة خالد العظم .

انقلاب حسني الزعيم في ٣١ أيار ١٩٤٩

- في ١٩٤٩/٤/٢ تسلم الحكم حسني الزعيم والأمناء العامون .
- في ١٩٤٩/٤/١٦ وبموجب المرسوم ٢٠٨ استلم حسني الزعيم رئاسة الوزارة والداخلية والدفاع .
- بموجب المرسوم ٣ في ١٩٤٩/٦/٢٦ شكل محسن البرازي الوزارة .
- بموجب المرسوم التشريعي رقم ١ تاريخ ١٩٤٩/٦/١٤ سمي السيد هاشم الأتاسي رئيساً للوزراء .

بعد الانقلاب على حسني الزعيم

- شكلت الوزارة بموجب المرسوم رقم ١ تاريخ ١٩٤٩/١٢/٢٤ برئاسة ناظم القدسي .
- قبلت استقالتها بموجب المرسوم رقم ٣ تاريخ ١٩٤٩/١٢/٢٧ .
- شكلت بالمرسوم رقم ٥ تاريخ ١٩٤٩/١٢/٢٧ برئاسة خالد العظم .

- قبلت استقالتها بالمرسوم ٥١٦ تاريخ ١٩٥٠/٣/٢٣ .
- شكلت بالمرسوم ٩٠٩ في ١٩٥٠/٦/٤ برئاسة ناظم القدسي .
- قبلت استقالتها بالمرسوم رقم ١ تاريخ ٨ أيلول ١٩٥٠ .
- شكلت بالمرسوم ٣ تاريخ ٨ أيلول ١٩٥٠ برئاسة ناظم القدسي .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ٥٣٣ تاريخ ١٩٥١/٣/٢٧ .
- شكلت بالمرسوم ٥٢٤ تاريخ ١٩٥١/٣/٢٧ برئاسة خالد العظم .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ١١٩٠ في ٩ آب ١٩٥١ برئاسة حسن الحكيم .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ١٩٦٩ في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٥١ .
- أمناء عامون .
- شكلت الوزارة بموجب المرسوم رقم ١ تاريخ ١٩٥٢/٦/٨ برئاسة فوزي سلو .
- شكلت الوزارة الرئاسية بموجب المراسيم في ٤ ـ ٢٢ في ١٩٥٣/٧/١٥ برئاسة الشيشكلي .
- شكلت الوزارة بالمرسوم ١٩٧٠ في ١٩٥١/١١/٢٨ برئاسة معروف الدواليبي .
- لم تمارس أي عمل وقبلت استقالتها بالمرسوم رقم ١ تاريخ ١٩٥٤/٣/١ .
- شكلت الوزارة بالمرسوم رقم ٢ تاريخ ١٩٥٤/٣/١ برئاسة صبري العسلي .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ١٠٥١ تاريخ ١٩٥٤/٦/١٩ .
- شكلت الوزارة بالمرسوم ١٠٥٣ تاريخ ١٩٥٤/٦/١٩ برئاسة سعيد الغزي .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ٢٣٠٥ تاريخ ١٩٥٤/١٠/٢٩ .
- شكلت بالمرسوم ٣٣٠٦ تاريخ ١٩٥٤/١٠/٢٩ برئاسة فارس الخوري .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ٥٧٢ تاريخ ١٩٥٥/٢/١٣ .
- شكلت بالمرسوم ٥٧٨ تاريخ ١٩٥٥/٢/١٣ برئاسة صبري العسلي .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ٢٧٠٩ تاريخ ١٩٥٥/٩/٦ .
- شكلت بالمرسوم ٢٧١٠ تاريخ ١٩٥٥/٩/١٣ برئاسة سعيد الغزي .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ٢١١٩ تاريخ ١٩٥٦/٦/١٤ .

- شكلت بالمرسوم ٢١٢١ في ١٩٥٦/٦/١٤ برئاسة صبري العسلي .
- قبلت استقالتها بالمرسوم ٤٠٤٢ في ١٩٥٦/١٢/٢٢ .
- شكلت بالمرسوم ٤٠٤٣ تاريخ ١٩٥٦/١٢/٣١ برئاسة صبري العسلي .

بقيت هذه الوزارة في الحكم الى ان تمت الوحدة بين سورية ومصر .

الوثيقة رقم - ١١ -

وثيقة «محكمة الشعب القضية الثانية عشرة»

شهادة الرئيس الأول الركن صالح مهدي عماش (١٤٨٢)

س: ثبت من افادات الشهود انك أرسلت الى ايطاليا بواجب شراء أسلحة لارسالها الى سورية. نور المحكمة عن هذه الأسلحة وعلاقة المهمة بها؟

الشاهد: في سنة ١٩٥٦ أمرني الزعيم الركن آنئذ أحمد مرعي بأن أذهب الى ايطاليا لارسال أسلحة لارسالها الى الجزائر وقال ان الأسلحة يجب ان تكون سرية. وعلى هذا الأساس يجب ان أذهب الى ايطاليا بجواز سفر مزور وانتحل صفة غير صفتي وهذا جرى فعلاً وذهبت الى ايطاليا أحمل رسالة الى الوزير المفوض في روما..

... وكان على الأسلحة ان تكون من نوع بيريتا، من نوع الأسلحة التي تستعملها الشرطة العراقية... وفعلاً اشتريت الأسلحة... وبعدئذ جاءت طائرة وحملت الأسلحة من مطار روما الغربي... وكان عددها ٢٠٠ رشاش لكل منها ٣٠٠ رصاصة...

... وبعد ذلك رجعت الى بغداد ولكن وقبل ان أسافر الى ايطاليا وباعتباري أحد الضباط الذين كانوا يحاربون العهد البائد وكنت منتمياً الى

خلية سرية فقد أخبرت بها يجري لاننا تصورنا انه ربها ترسل هذه الأسلحة الى سورية . . .

كما ورد في المحاضر الرسمية لجلسات المحكمة العسكرية العليا الخاصة في العراق الجزء الرابع الصفحة ١٣٩٩ الوثيقة التالية :

«سري للغاية»

«محاضر اجتماعات رؤساء وزراء العراق وباكستان وتركيا ووزير خارجية ايران الدول الاسلامية الأربع في بغداد» :

الاجتماع الأول في قصر الزهور ١٨ تشرين الثاني ١٩٥٦ ماقاله فخامة رئيس وزراء باكستان اني أعلم بكل هذه الصعوبات ومابينته في نقاطي الأربع اعلاه هو ما نصبو إليه وما نتوخاه وما نرجو تحقيقه. اني أقدر ان سورية تتمشى مع السياسة ضد العراق، فمثلاً قطعها أنابيب النفط هو أمر خطير وفي بعض الحالات قد يسبب حرباً بين أي بلدين وان من رأيي ان سورية والأردن لايمكن جلبهما الى صفوفنا إلا بالقوة . . «الوثيقة»

الوثيقة رقم - ١٢ -

يقول باتريك سيل في كتابه «الصراع على سورية» تحت عنوان «الهجوم الغربي العراقي المضاد».

«كلما أحكمت هذه الزمر (ويعني الزمر المشايعة لمصر في سورية) قبضتها على جهاز الحكومة وعلى مرتكزات السلطة في أنحاء البلاد كلما دفع أعداؤ ها الى التفكير بأن الثورة المسلحة فقط هي التي تستطيع إزاحتها ووضع سورية في طريق مختلف. فبينما كان التقدم السوفيتي المصري الموضوع السائد في تاريخ سورية في عام ١٩٥٦ كانت الاستعدادات التي تقوم بها فئات المعارضة في سورية والمنفيين خارج البلاد باتفاق مع العراق والولايات المتحدة قائمة على قدم وساق».

«ولم تكن هذه المؤامرة على سورية، رغم انها اقترنت بمأساة السويس لتؤدي الى تحسين العلاقات بين بلدان الشرق الأدنى والدول الغربية الكبرى، بل قادت بالتوترات المتراكمة لعدة سنوات مضت الى أوجها»..

ويقول أيضاً: «وعلى أحد المستويات يمكن النظر الى التآمر على سورية على انه رد فعل دفاعي لانهيار حكم نوري - ايدن في رؤ ية عالم عربي تحت زعامة عراقية مرتبط ببر يطانيا من خلال حلف بغداد...».

«... لم توضع خطة الحملة على سورية عام ١٩٥٦ على شكل انقلاب ليلي تعده حفنة من ضباط يرقدون في الثكنات، ليعلن عند الفجر على جمهور من العوام لايدركون حقيقة الأمر... لقد كان بدلاً من ذلك دسيسة مشوشة ممرغة سيئة التدبير، اتخذت شكلها الأخير فيما بين آذار وتشرين الأول من عام ١٩٥٦ وحملت شركاءها ودعاتها لتنتهي بشكل مهين في احدى قاعات المحكمة في دمشق....».

«... ولابد ان مؤامرة ١٩٥٦ قد بدت لعدد منهم (المنفيين السوريين في لبنان..) انها فرصة لتسوية الحزازات القديمة والعودة متنصرين الى الوطن.. وهكذا تجمعت لهدف واحد عدة فئات تضم تيارات مختلفة متنافرة لتقيم تحالفاً بين رجال غالباً ماكانوا يتنافسون على السلطة....».

«ومن كل هؤلاء المنفيين غير المنسجمين يشكل الحزب القومي السوري أشد المجموعات العسكرية تلاحماً وكان عدد من زعمائه أمثال العقيد غسان جديد قد هربوا الى بيروت وبعد مقتل المالكي... وهناك منفي آخر هو النقيب صلاح الشيشكلي..

«وهناك منفي هام هو العقيد محمد صفا الذي كان قد شكل «حكومة سورية الحرة» في العراق بين عامي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ لمعارضة حكم الشيشكلي ولم ينله شيء من الغنيمة بعد سقوط الدكتاتور... وهناك أيضاً المقدم محمد معروف الذي كان يعمل كرئيس للشرطة العسكرية خلال حكم الحناوي عام ١٩٤٩....».

«... وقد دعا نص البيان الذي اتفقوا عليه في النهاية الى ثورة شعبية تطيح بالدستور السوري وتحل البرلمان وتقيم حكماً جمهورياً رئاسياً، ثم تشكل حكومة جديدة من موقعي البيان، وتلغى الأحكام التي صدرت في قضية المالكي، وتتخذ الخطوات لاقامة وحدةالهلال الخصيب.....».

«وفي منتصف صيف ١٩٥٦ ألفت لجنة انجليزية - أمريكية - عراقية، في بيروت لتبادل المعلومات ومناقشة الوجوه الدولية للمؤامرة... وتفحص الخطط والمقترحات التي وضعها لها السوريون المتعاونون....».

«وقد سبب جموح الشيشكلي وهربه فزعاً مؤقتاً للمتآمرين اذ عزموا على الاستمرار بدونه . . . وكلف العقيد صفا بوضع ميثاق للمتآمرين» .

« . . . أما بالنسبة للسلاح والمال فقد خفضت طلبات المنفيين الى / ٢٠٠٠ / قطعة سلاح فقط و١٠٠,٠٠٠ دينار. وكشف الداغستاني ان الولايات المتحدة قدمت قسماً من الأسلحة بينما تم شراء القسم الآخر من ايطاليا باعتمادات من ميزانية وزارة الخارجية العراقية .

واتفق المتآمرون على ان يؤمن الحزب القومي السوري فرق الهجوم وكان على تنظيمات الشباب شبه العسكرية ان تتسلل الى سورية عبر الحدود لتسيطر على المراكز الهامة في دمشق بعد ان يتنكر أفرادها على هيئة شرطة عسكرية وينفذوا الاغتيالات كما تم تخطيطها . الوقت نفسه كان على غسان جديد ان يحتل حمص على رأس قوة أخرى . . . بينما يتولى صلاح الشيشكلي على حماة . . . بمساعدة رجاله هناك وتقوم بعض الفتن في جبل العرب وجبل العلويين في الشمال . .

. . . وفي تشرين الأول من عام ١٩٥٦ حشد العراق جنوده على الحدود الأردنية السورية كدعم للانقلاب السوري المخطط . . .

وفي تلك الفترة ، أي في الأيام الأخيرة من تشرين الأول عام ١٩٥٦ علمت السلطات السورية ان عدة مئات من البنادق قد هربت من العراق الى سورية . . » . .

ويلاحظ ان كلام السيد باتريك سيل عن المؤامرة على سورية ان توقيت هذه المؤامرة يتفق مع فترة الاعداد للعدوان الثلاثي على مصر ، كما ينطبق موعد بدء العدوان ودخول القوات العراقية الى الأردن وتهريب الأسلحة الى سورية . . .

الوثيقة رقم - ١٣ -

مناقشة المتهم

(قرأ المستمسك الرئيس الأول كامل الشمّاع)

الموضوع - مذكرة سورية
الى رئاسة الديوان الملكي
رئاسة ديوان مجلس الوزراء

(سري) التاريخ ٢٢/ ٩/ ١٩٥٧

نرسل إليكم طياً صورة من مذكرة وزارة الخارجية السورية المرقمة والمؤرخة ١٤/ ٩/ ١٩٥٧ المسلمة من قبل وزير الخارجية السورية لوزير العراق المفوض في دمشق وجواب الحكومة العراقية عليها الذي أبلغ الى كل من وزير سورية المفوض في بغداد ووزير الخارجية السورية بواسطة المفوضية العراقية في دمشق كما نرفق ترجمة البيان الامريكي موضوع البحث.

ترجمة البيان الامريكي

بيان المستر دالس وزير الخارجية الامريكية حول موضوع هندرسون الصادر بتاريخ ٧ ايلول ١٩٥٧ في اجتماع جرى بين المستر لوي هندرسون والمستر وليم رونتري وبيني مع الرئيس ايزنهاور. عرض المستر هندرسون عرضاً

وافياً تبادل وجهات النظر التي أجراها في الشرق الأوسط مع موظفين كبار من تركيا والعراق والاردن ولبنان . وقد بين المستر هندرسون بأنه وجد في الشرق الأوسط اهتماماً بالغاً لازدياد التسلط السوفياتي الواضح على سورية وتكدس أسلحة دول الكتلة الشيوعية فيها . وذلك التكدس الذي لاتبرره أي فرضيات دفاعية صرفة وهنالك وضع خاص بسبب حوادث الحدود وبسبب الدعاية الواسعة وفعاليات النشاط الهدام التي ترمي الى قلب الحكومات التي قامت حديثاً في الدول العربية المجاورة لسورية .

لقد أولى الرئيس تقرير المستر هندرسون وكذلك التقارير لوزارة الخارجية الامريكية من سفراء الولايات المتحدة في المنطقة تمعنا دقيقاً وقد قدر الرئيس الوضع على ضوء ميثاق الأمم المتحدة الذي ينكر على سورية حق استخدام القوة إلا لغرض الدفاع عن النفس وقد استعاد الرئيس رسالته الموجهة لمجلس الكونغرس بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٩٥٧ التي طلب فيها تخويله الصلاحية لمساعدة شعوب المنطقة للذود عن استقلالها .

وبعد أن شرح اطماع روسيا الطويلة الأمد للاستيلاء على الشرق الأوسط وماتقوم به الشيوعية الدولية حالياً من فعاليات هناك .

وقد أكد الرئيس عزمه على تنفيذ السياسة الوطنية التي تضمنها القرار الذي اتخذه الكونغرس عن الشرق الأوسط كما أكد الرئيس عزمه على استخدام الصلاحية المناطة به متى مااقتضت الحاجة لذلك ، وبهذا الصدد فقد أصدر الرئيس تخويلاً للاسراع بتسليم دول المنطقة المواد الاقتصادية والمواد الدفاعية الأخرى التي خصصت لاستعمال تلك الدول . .

المتهم - كان هذا كلامي في الاجتماع . وهذا الذي قلته ومن قبل أن أخوض في أي موضوع مع هندرسن . وبعد عودتي الى بغداد هذا عرضته على رئيس الوزراء مايشاع في سورية وبدأت تعليقات على زيارة هندرسن ونحن أصدرنا بياناً كنت وكيل رئيس وزراء ووكيل وزير خارجية أصدرت بياناً رسمياً من وزارة

الخارجية، أولا جميل المدفعي ارسل الى الشام من قبل علي جودت مع كتاب خاص الى شكري القوتلي.

الرئيس - ما علينا من الشام، اسألك عن مؤتمر هندرسن في تركيا، لأن هندرسن ومن وراءه ايزنهاور ودالس كان يرسلونه لمصلحة البلاد العربية أم لمصلحة امريكا في الشرق الأوسط؟

المتهم - ما صار بحث بهذا الشكل في الاجتماع تخوف تركيا من تسرب نفوذ روسي في سورية.

الرئيس - لماذا حضر هندرسن هذا المؤتمر؟ هل العراق متخوف أيضاً؟

المتهم - نحن غير خائفين.

الرئيس - هل يعمل هندرسن ودالس وايزنهاور لمصلحة العراق أم لمصلحة امريكا؟

المتهم - انا أقل لك أنهم يعملون لمصالحهم الخاصة وخاصة دول الغرب.

الرئيس - يقرأ المستمسك رقم (٢٢).

(قرأ المستمسك الرئيس الأول كامل الشماع والمدون بخط رفيق عارف الذي حضر الاجتماع).

قال هندرسون في الاجتماع

بعد قبول الطلب المشترك من تركيا والعراق ولبنان والاردن تكلم هندرسون وقال:

امريكا راغبة بقوة لاعطاء الفرصة لعمل يقوم به العراق والاردن مسنداً من قبل تركيا مع تحمل أي ملابسات واتخاذ كل الوسائل لمنع مداخلة مصر وروسيا واسرائيل.

وثم قال هندرسون. وتكلمت مع دالس وايزنهاور ويعتبر ون الموقف خطراً وهم حاضرون لاسناد أي مداخلة من العراق والاردن ويتخذون كل الوسائل لمنع مداخلة روسيا ومصر واسرائيل. يرغبون لاعادة حرمتهم بالمنطقة ويسندون الموقف في الأمم المتحدة.

ثم قال هندرسن . نحن نؤيد اسناد وننظر لمعاونة العرب هم يحبون للتدخل اذا لم تسر الأمور كما يجب . هذه مقتطفات من المؤتمر .

وفي وقت مبكر من هذا الاسبوع جاءت برقيات الى الخارجية والبيت الأبيض توضح الاهتمام في التطورات بسورية . سفراؤنا في لبنان والعراق ارسلوا برقيات بأن حكوماتهم اثاروا قلقهم عن الوضع في سورية وعبروا عن رأينا ومانفعله وجاءت برقية مشتركة بواسطة سفيرنا وردت الى العراق وتركيا من اسطنبول عن رأي امريكا وامكان اسناد امريكا في الحل الممكن .

ثم قال هندرسن .

نحن حللنا الموقف وفي رأينا .

إن الموقف الحالي في سورية يقصد اعطاء سورية الى روسيا تدريجياً (وصلة وصلة) .

اثارة الوطنية العربية والتقدم في الاقطار العربية .

الحياد ونحن نعتقد بان في خلال شهور قلائل وراء هذا الحياد المفروض سيأتي سلاح كثير من روسيا واخصائيون وتدريجياً تصبح سورية معسكراً روسياً وبعد ذلك يعقبه معاهدات متصلة بين سورية وروسيا وتجعل بأن التدخل في سورية يورط روسيا بحرب .

نحن نشعر بأن سورية ستكون جهاز رادار في الشرق الأوسط والتأثير السياسي وان ذلك الخطر نلاحظه باهتمام وأحسن طريقة للاجابة على هذه الأسئلة هو مجيئي الى هنا لاتذاكر معكم رأساً حول الموضوع .

ثم قال: لم آت الى هنا لالح على تركيا أو على أي قطر لاتخاذ أي عمل أو أي خطة ولكن نعطيكم أفكارنا ونعاونكم للعمل . القرار يعود لكم إذا أردتم العمل قولوا لنا نحن نستطيع أن نمنع اسرائيل من التدخل لأنه إذا مدت اصبعاً واحداً يكون فناؤها وهي تفهم ذلك.

هذه النقطة الأولى أما النقطة الثانية فسورية طفل مدلل لروسيا بان القضية تحل قبل أن تصبح لروسيا حرية كبيرة في الشرق الأوسط كي يتدخلوا أو يؤيدوا . وحكومتي تعتقد بأن الأمن في المنطقة يقضي أن نعمل كما تعمل

روسيا، فإذا هددت روسيا فنقوم بالشيء نفسه ونعمل على ايقاف تدخلها. اذا جرى عمل مسلح فيجب أن يجري قبله ترتيب أسباب تجعل من الممكن الدفاع عن ذلك في هيئة الأمم المتحدة على اساس دفاع مسلح والتخلص من هذا الوضع، ويجب ايضاح ذلك بشكل يطمئن باقي الدول العربية بأن العمل ضد الوضع القائم في سوريا وان الشيوعية هي ضد الاسلام كما أنها ضد العرب.

وحكومتي تعتقد بأن هناك ضرورة لوجود هدف واحد لأي حرب ويجب أن لاتكون هنالك اغراض غامضة لأن السعودية تشك بنوايا العراق.

الفهرس